د. حسن أمين البعيني

بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي

في العصور القديمة والوسطى

تاريخ مدينتي بيروت وصيدا ومناطق كسروان والمتن والجرد والغرب والشوف وإقليم الخرّوب وجزين وإقليم التفاح



• اسم الكتاب: بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي في العصور القديمة والوسطى.
• تأليف : د. حسن أمين البعيني

• الناشر: الدار التقدمية – المختارة – الشوف – لبنان.
هاتف : ٩٦١ ٠٥/٣١٠٥٥٥ – ٩٦١ ٠٥/٣١١٥٥٥
E-mail:Moukhtarainf@terra.net.lb
http://www.daraltakadoumya.com
الطبعة الأولى ، تشرين الأول ٢٠١١

د. حسن أمين البعيني

بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي في العصور القديمة والوسطى

الدار التقدمية

المقدّمة

كثيرة هي الأبحاث عن مدن الساحل اللبناني في جميع العصور، وعن جبل لبنان في العصور الحديثة. وهذا عائد إلى توفر المصادر للباحثين، فيما الأبحاث عن جبل لبنان، في العصور القديمة والوسطى، قليلة للغاية بسبب قلة مصادر المعلومات. فلبنان الجبل الذي حضر في الجغرافيا كاسم منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة، ونشأ في الجيولوجيا مع لبنان الساحل، لم ينشأ في التاريخ مثله في العصور القديمة، وغاب الكثير من مواضيعه وأحداثه في العصور الوسطى، لأن الساحل كان أسبق منه في السكن والازدهار والعمران والاتصال بالعالم الخارجي، ولأن الشعوب التي احتلته تركت النقوش في بعض أماكنه، والنصوص التي تتحدث عنه، ولأن المؤرّخين اليونان والرومان ركّزوا عليه، وأهملوا الحديث عما وراءه من جبال، ولأن المؤرخين العرب والمسلمين حذوا حذوهم، واهتموا، على العموم، بعواصم الدول، والمدن، واخبار الخلفاء والوزراء والملوك والقادة والأئمة والعلماء. وما جاء عن جبل لبنان في بعض المصادر المحلية كان تعريفاً ببعض الأسر والفئات. ومن هنا موجبات البحث في تاريخه في العصور القديمة والوسطى، بالرغم من الصعوبات المتأتية من قلة المصادر، وحتى ندرتها وانعدامها أحياناً فيما يتعلق ببعض المناطق، وبعض المحطات التاريخية.

الإطار الجغرافي لهذا البحث هو بيروت وصيدا و جبل لبنان الجنوبي. ومن المعلوم أن اسم "لبنان" أطلق، منذ الألف الثاني ق.م.، على الجبال الغربية المواجهة للساحل الممتدّة من النهر الكبير شمالاً إلى نهر الليطاني جنوباً، ويقابلها في الشرق الجبال المسماة انتيليبانوس (Antilibanos). ومن أخطاء بعض المؤرّخين قولهم إن تسمية "جبل لبنان"، أطلقت فقط قبل القرن السابع عشر على المناطق التي يسكنها الموارنة في شماله، وهي جبّة بشري والبترون وجبيل، ثم إنها شملت بعد ذلك المناطق

الواقعة إلى الجنوب من كسروان، والتي كانت تُسمّى "جبل الــدروز" عنــد نزوح الموارنة إليها. ففي الحقيقة إن تسمية "جبل لبنان" كانت تطلــق علــى المناطق الجبلية الموازية للساحل. وقد تبع شمالها، أي المناطق الواقعة إلــى الشمال من صنين، للكيانات السياسية والإدارية التي كان مركزهــا مــدينتي جبيل وطرابلس، وتبع جنوبها للكيانات السياسية والإدارية التي كان مركزها مدينتي بيروت وصيدا. وتبعاً لذلك فإن الإطار الجغرافي للبحث يشمل مــن جبل لبنان حالياً الأقضية التالية: كسروان، والمتن الشمالي، والمتن الجنوبي (قضاء بعبدا)، عاليه، والشوف من محافظة جبل لبنان، وقضاء جزّين مــن محافظة لبنان الجنوبي.

والإطار الزمني للبحث هو العصور القديمة والوسطى. وقد فضّــلنا انهاءه بنهاية العصور الوسطى والعهد المملوكي، لأن الحقب الزمنية التــي تلتهما عولجت من قبل مؤرّخين كثيرين بعشرات المؤلفات، ولأنه لا يمكــن اعطاء شيء جوهري الا في ضوء وثائق جديدة من الأرشــيف العثمــاني، وأرشيف مكتبات المدن الأوروبية، وما لم يُكتشف بعد من الوثائق المحلية.

البحث هو معالجة لتاريخ منطقة من لبنان، ضمن التــاريخ العــام، وعلى الأخص ضمن التاريخ العربي والإسلامي. فهما مدخل لتــاريخ هــذه المنطقة، وإطاره الضروري الذي لا بد أن يُدرج فيه، وقد جرى التوسع فيهما أحياناً كي يتضح تاريخ المنطقة. أما الربط بين تاريخ جبل لبنــان الجنــوبي وتاريخ مدينتي بيروت وصيدا، فعائد إلى أن المدينتين نشأتا قبــل الأمــاكن السكينة في جبل لبنان الجنوبي، وتحولتا إلى مملكتين كنعــانيتين فينيقيتــين شملتاه، ثم تبع لهما كله، وأحياناً قليلة جداً بعضه، حين غدتا مركزين إداريين في عهود الفرس، والبطالسة، والسلوقيين، والرومان، والدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم بلاد الشام، والفرنج. فصار هناك وحدة في التــاريخ إلــى جانب الوحدة في الجغرافيا، والتشابك في العلاقات، والتكامل في الاقتصــاد، كما ان جبل لبنان الجنوبي حمل اسمي "جبل بيروت" و"جبل صيدا".

وبما ان تاريخ مدينتي بيــروت وصــيدا، فـــي العصـــور القديمـــة والوسطى، معالج بالكثير من الكتب والمقالات، أوجزنا الحديث عنه، وتوسّعنا في الحديث عن تاريخ جبل لبنان الجنوبي للإضاءة على المجهول منه، وملء بعض الفراغ فيه. وقد عمدنا إلى التعريف بمناطقــه الجغرافيــة وتقســيماته الإدارية من أجل تحديد تفاصيل جغرافيته، وتسهيل معرفة أماكن الأحــداث ومجريات الأمور. وعالجنا مجموعة من الإشكالات التاريخية، مثل إشــكالية المردة والجراجمة والموارنة، وخطأ مقولة بقاء المردة في جبل لبنـــان بعــد القرن السابع الميلادي كجماعة كبيرة تُنسب الحوادث إليهم لا إلى الموارنة. كما أثبتنا، بالاعتماد على الآثار وعلى الطرقات القديمة، ان السكن في جبــل لبنان الجنوبي قديم جداً، وانه توسع في العهد الروماني، وانه لم يكــن قفــراً خالياً من السكان عندما قدم اللخميون والمعنيون إليه، كما جاء فـــي بعــض المراجع. وعوّضنا عن قلة المصادر والمراجع بما يلي:

- الربط بين المعلومات الململمة من بطون المصادر والمراجع.
- الافتراضات العقلية والاستنتاجات المنطقية.
- تفسير اسماء الأماكن لمعرفة تاريخ توطّن الإنسان فيها.
- الاعتماد على الروايات المتناقلة في الحالات التي تتوافق مع مســـار التاريخ العام، ومجرى الأحداث.
- الجولات الميدانية على أماكن الآثار، واستنطاق تلك التي لــم تجــرِ دراستها بعد من قبل المختصين، مع الاشارة هنــا إلـــى الأمــرين التاليين، أولهما ان بعضها لم يُصنّف من قبل المديرية العامة للآثـــار بالرغم من أهميته، وثانيهما ان العديد من الأبنية القديمة والكثير من المغاور المدفنية والنواويس، التي من المفترض أن تكون شواهد حيّة على الماضي، عبثت بها عوامل الزمن وعوادي الطبيعـــة وأيـــادي اللصوص، ولم يبقَ منها ما يدل على هويتها. وهــذا مـــا يوجــب

تصنيف جميع الآثار المهمة، ودراستها، مــن أجــل الإســهام فــي الإضاءة على تاريخ قديم شبه غامض.

أشكر كل من ساعدوني على التعرف إلى أماكن الآثار، وزوّدونــي بالمعلومات عنها، وأخصّ بالشكر الدكتور في الاركيولوجيا، وســام خليــل، على ما قدّم لي من معلومــات عــن بعــض آثــار الشــوف الشــويزاني (السويجاني). كما أشكر الدكتور اسكندر حوراني على ما وفّــر لــي مــن مصادر غير موجودة في مكتبتي.

وإنني إذ أقدّم للقرّاء كتاباً، تطلّب تأليفه جهوداً كبيــرة فــي البحــث والتنقيب والجولات الميدانية. أتمنى أن ينال استحسانهم، وان يحقق ما أردت من تأليفه، وهو الإضاءة على جانب من تاريخ المناطق الجبلية، الذي يتطلب المزيد من الأبحاث، والله من وراء القصد.

في أول أيار ٢٠١١ حسن أمين البعيني

الفصل الأول

الإطار الجغرافي والمناطق

الإطار الجغرافي للدراسة

موضوع الدراسة هو "بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي في العصور القديمة والوسطى". وبيروت اليوم عاصمة الجمهورية اللبنانية، منذ إنشاء دولة لبنان الكبير في ٣١ آب ١٩٢٠. وهي فاقت، بأضعاف، مساحتها في أي عصر، إذ ملأت السهل المحيط بها، واختلطت مع ضواحيها، وازدادت اتساعاً بما رُدم من البحر مؤخّراً. كانت عند نشأتها صغيرة، وصارت مدينة فمملكة تشمل ما وراءها من أراضٍ. ثم تحوّلت إلى مركز إداري لمحيطها. وهذا المحيط موجود كله في جبل لبنان الجنوبي.

وصيدا اليوم عاصمة لبنان الجنوبي، ومركز محافظةٍ باسمه كانت تضمه كله قبل تفريع محافظة ثانية منه، هي محافظة النبطية. وهي مدينة كبيرة ملأت كل السهل المحيط بها، واختلطت مع ضواحيها. وكانت في العصور القديمة مدينة صغيرة، ثم غدت مملكة تشمل كبيروت ما وراءها من أراضي. ثم تحوّلت إلى مركز إداري لها. ومعظم هذه الأراضي موجود في جبل لبنان الجنوبي.

وجبل لبنان، كمصطلح جغرافي، له مدلولاته وحدوده. وجبل لبنان، كمنطقة إدارية، هو متصرفية نشأت في العهد العثماني بموجب بروتوكول سنة ١٨٦١، تمتد من الحد الشمالي لزغرتا – الزاوية إلى الحد الجنوبي لقضاء جزّين. وهو اليوم محافظة أقل مساحةً وامتداداً من المتصرفية، تشتمل على ستة أقضية، هي قضاء جبيل، قضاء كسروان، قضاء المتن الشمالي،

قضاء المتن الجنوبي (قضاء بعبدا) قضاء عاليه، قضاء الشوف. وبناءً على ذلك ان جبل لبنان الجنوبي في العصور القديمة والوسطى يختلف عنه اليوم. لذا لا بد من تحديد إطاره الجغرافي في فترة الدراسة. وإطاره هذا رسمته في الزمن الذي تبدأ به الدراسة، أي العصور القديمة، حدود جبل لبنان الطبيعية، وحدود مملكة بيروت ومملكة صيدون (صيدا)، اللتين امتدتا من كسروان شمالاً إلى جزّين جنوباً. كما رسمته نهاية العصور الوسطى التنظيمات الادارية المملوكية. وهذه التنظيمات وضعت للواءي بيروت وصيدا حدوداً لا تختلف الا قليلاً عن حدود مملكتي بيروت وصيدون.

توسعت بيروت في ما وراءها من مرتفعات. وسُميّ المواجه لها جبل بيروت، وهو جزء مما سُميّ جبل لبنان. وبعد أن كانت مملكة مستقلة حتى القرن السادس ق.م.، غدت تابعة بالتوالي للفرس واليونان والبطالسة والسلوقيين، ثم أصبحت "مستعمرة" في العهد الروماني، فعملاً في العهد العربي، وسنيورية في عهد الافرنج (الصليبيين)، وعملاً أو لواءً في العهد المملوكي، وولاية في العهد العثماني، وعاصمة لدولة "لبنان الكبير" ابتداءً من سنة ١٩٢٠. وفي جميع هذه الكيانات، ابتداءً من الكيان السياسي في عهد المملكة المستقلة إلى الكيان الإداري بعد ذلك، كان جزء من جبل لبنان، يكبر أو يصغر بحسب التقسيمات الإدارية والأوضاع السياسية، تابعاً لبيروت، فيما كان هذا الجبل محيطاً بها جغرافياً.

ومع وجود هذا التكامل والتاريخ الواحد، والارتباط السياسي والإداري عبر العصور، لا يمكن إدخال بيروت جغرافياً في جبل لبنان، لأنها أسبق في التسمية منه، والأعرق والأهم، ولأنها جزء من الساحل فيما جبل لبنان، كما سنرى، له مفهوم جغرافي مختلف، بالرغم من إحاطته ببيروت من الشمال الشرقي والشرق والجنوب الشرقي، وبالرغم من شموله اليوم ضواحي بيروت التابعة إدارياً له. ويمكن القول إن جبل لبنان، أو بالأحرى جزءاً منه، دخل سياسياً وإدارياً في بيروت المملكة، وبيروت الكيان الإداري، ولم تدخل بيروت المدينة جغرافياً في جبل لبنان.

ما ورد ذكره عن بيروت، وتطورّها، وتحوّلها إلى مملكة ثم إلى منطقة إدارية، يصح قوله في صيدون. إذ إنها أيضاً نمت وتوسّعت في ما وراءها من مرتفعات سُميّ القسم الشمالي الشرقي منها باسم (جبل صيدا). وكانت مملكتها أكبر من مملكة بيروت، ولها شأن أكبر. ثم غدت في العهد الروماني "مستعمرة"، لها امتيازاتها، وفي العهد العربي عملاً، وفي العهد الافرنجي سنيورية أكبر من سنيورية بيروت، وفي العهد المملوكي عملاً أو لواءً، وفي العهد العثماني ولاية. وفي جميع هذه الكيانات كان ما يقع وراءها من مرتفعات تابعاً لها مما أوجد ترابطاً سياسياً وتاريخياً بينها وبينه. ومع هذا لا يصح إدخالها جغرافياً في ما وراءها من مرتفعات، لأنها الأقدم والأعرق والأهم، والمركز لمحيطها، ولأنها جغرافياً جزء من الساحل فيما محيطها كان جزءاً من جبل لبنان، وغدا جنوبه جزءاً من جبل عامل.

وفي الوقت الذي لم يدخل أحد – على حد علمنا – بيروت بجبل لبنان هناك من شكّك بدخول صيدا في جبل عامل، وهناك من أدخلها فيه. وفي الواقع ان صيدا لا تدخل على الإطلاق جغرافياً في جبل عامل. لقد عُرِف بعض الأراضي مما شكل سابقاً محافظة لبنان الجنوبي، ويشكل اليوم محافظة لبنان الجنوبي، ومحافظة النبطية، باسم "جبل عامل" نسبة إلى قبيلة عاملة التي نزلت فيه بعد الفتح العربي، وكانت قد نزحت من اليمن إلى الشام عند حصول سيل العرم[1]. الا أن آراء المؤلفين من أبناء جبل عامل تراوحت بين عدم دخول صيدا في جبل عامل ودخولها فيه.

ذكر السيد محسن الأمين "ان دخول مدينة صيدا في جبل عامل مشكوك فيه"، وتبنّى رأي الشيخ علي السبيتي المعترض على فانديك الذي لم يدخل صور في بلاد بشاره[2]. لكن الشيخ علي الزين أدخل صيدا في جبل عامل حديثاً، وأخرجها قديماً إذ قال: "إن مدينة صيدا واقعة ضمن حدود جبل

---

[1] - أنظر عن نزوح قبيلة عاملة: تاريخ أبي الفداء، الجزء الأول، ص ١٦١.

[2] - محسن الأمين: خطط جبل عامل، ص ٦١ – ٦٧.

عامل جغرافياً، وإن جبال عاملة كانت قديماً تُنسب إلى صيدا"[1].فهو إذاً يميز بين مرحلتين: أولاهما سبقت تسمية الجبل بجبل عاملة، فكان يُسمى جبل صيدا قبل أن يسمى، بحسب ما يرى، بجبل عامل في المرحلة الثانية وتدخل صيدا فيه جغرافياً. إلا ان المرحلة الثانية ليس لها تاريخ معين تبدأ به، كما ليس لجبل عامل حدود واضحة ونهائية، ولم يشمل الا جزءاً من جبل صيدا في أقصى حدوده التي رسمها له المؤلفون العامليون.

أقدم من ذكر جبل عامل اليعقوبي الذي سمّاه "جبل الجليل" فالهمداني الذي سمّاه "جبل عاملة"[2] فإبن الأثير الذي سماه "جبل الخليل"[3] ربما "جبل الجليل". ثم ذكره المؤرخ الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، من بين عدة مناطق، هي "إقليم لبنان، وادي التيم، بقاع العزيز، بقاع بعلبك، شوف الميادنة، شوف العدس، شوف الحيطي، شوف الخرّوب، شوف الشومر، اقليم التفاح، اقليم العيشيّة، جبل الظنيّة، جبل عاملة"[4] . والشيخ أحمد بن تيمية، المتوفي في سنة ١٢٣٨، ذكر في حديثه عن "أهل البدع المارقين" أهل كسروان وأهل جزّين وما حواليها، وجبل عامل ونواحيه[5].

إن ورود اسم جبل عامل عند المؤرخين باسم جبل الخليل وجبل الجليل وبلاد بشاره، ووروده مع المناطق المذكورة أعلاه – وبعضها معتبر جزءاً منه مثل بعض وادي التيم، شوف الميادنة (جزّين) شوف الشومر، إقليم التفاح، إقليم العيشية – يعني أنه لم يكن منطقة ذات حدود معيّنة يذكرها المؤرخون. كما لم يكن في الماضي وجودٌ لمنطقةٍ إدارية باسمه، بل ان ما اعتبر مناطق عاملية كان موزّعاً بين مملكتي صيدون وصور، ثم بين سنيوريتي صيدا وصور، ثم بين ولايات صور وتبنين والشقيف وصيدا، حتى

---

[1]– علي الزين: للبحث عن تاريخنا، ص ٧٧.

[2]– اليعقوبي: كتاب البلدان ، ص ٣٢٠. والهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٥.

[3]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١٢، ص ١٢٩.

[4]– شيخ للربوة: نخبة للدهر... ص ١٩٨ – ٢٠٠.

[5]– مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد ٢٨.

ان ياقوت الحموي المتوفى في سنة ١٢٢٦، ذكر وادي الجرمق الواقع في السفح الجنوبي لجبل الريحان أنه من "أعمال صيدا"[١]. لذا يصح القول إن جبل عامل دخل سياسياً وإدارياً في صيدا المملكة وصيدا الكيان الإداري، ولم تدخل صيدا المدينة جغرافياً في جبل عامل، ولا في جبل لبنان الذي شكل جزءٌ من جنوبه "مملكة صيدون".

جبل لبنان

لا بدَّ لأيِ مكان ما من اسم يُعرف به ويميّزه عن غيره، يعطيه إياه الشعب الذي توطّنه، أو أي شعب آخر على صلةٍ بساكنيه، وعلى تعاطٍ عسكريٍّ أو سياسيٍّ أو تجاريٍّ معهم. وأكثر المناطق والمدن والقرى اللبنانية اخذت اسماءها ممن سكنوها، وبعضها أخذ اسماءه من الشعوب المجاورة.

اسم "لبنان" مشتق من الجذر السامي "لبن" ومعناه البياض، إما لبياض ثلوج جباله، وإما لبياض صخوره الكلسية. ومنذ الألف الثاني ق.م. أُطلق هذا الاسم على الجبال الغربية المواجهة للساحل وللمدن الكنعانية التي قامت فيه، والتي تمتد من النهر الكبير شمالاً إلى نهر الليطاني جنوباً. وتسمية لبنان موجودة في نص قديم يعود إلى سنة ١٩٠٠ ق.م." [٢]. واطلق اليونان والرومان، بناءً للمؤرخ استرابون، اسم انتيليبانوس Antilibanos ، أي لبنان المقابل، على سلسلة الجبال الشرقية، وهو جبل سنِير الذي أدخله البعض أحياناً في لبنان لا في انتي ليبان.

لم تُستعمل لفظة "لبنان" رسمياً الا عند انشاء نظام القائمقاميتين، وعند إنشاء متصرفية جبل لبنان في العهد العثماني بموجب بروتوكول سنة ١٨٦١، ثم عند انشاء دولة "لبنان الكبير" في ٣١ آب ١٩٢٠. واسم جبل لبنان كان في نظر البعض " يُطلق على المناطق التي يسكنها الموارنة في أقصى الشمال، وهي جبّة بشرى وبلاد البترون وجبيل. وكانت منطقة جبل

١- ياقوت الحوي: معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ١٢٩.

٢- جواد بولس: لبنان والبلدان المجاورة، ص ٥٦.

كسروان، التي يسكنها الموارنة أيضاً، تُعتبر جزءاً من جبل لبنان حيناً ومنفصلة عنه حيناً آخر. وكانت عبارة "جبل لبنان" يقابلها ما سُمّي "جبل الدروز" أو "جبل الشوف"، وهي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من كسروان. ولم يكن لهذه المنطقة الدرزية، في بادئ الأمر، أية علاقة بمناطق الموارنة في الشمال، ولم تشملها عبارة "جبل لبنان"، على الأقل في الاستعمال الشائع، قبل القرن السابع عشر. وما جاءت أواخر القرن الثامن عشر حتى أصبح استعمال هذه العبارة يشمل الإمارة [إمارة الدروز] بكاملها، وذلك بعد ان استقر عدد كبير من الموارنة في المناطق الدرزية في الجنوب. فلعل الموارنة الذين نزحوا إلى هذه المناطق، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، اصطحبوا اسم موطنهم الأصلي فشمل الشمال والجنوب معاً"[1].

اسم "جبل لبنان" لم يحمله الموارنة معهم من شماله إلى جنوبه في القرن السابع عشر، بل كان يطلق على جنوبه قبل ذلك كما يطلق على شماله. ومن الأدلة على ذلك ما ورد عن اسم "لبنان"، ومنها أيضاً تسمية السجل الارسلاني في سنة ٤٥٣هـ /١٠٦١م للمرتفعات الواقعة إلى الشرق من بيروت باسم "جبل لبنان"[2]. ومنها ما جاء في تاريخ الملك الظاهر لابن شدّاد المتوفى سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، وهو أن قرية حراجل "من جبل لبنان من أعمال بعلبك"[3]. وما جاء في "الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة" لابن شدّاد أيضاً، وهو أن لصيدا " أربعة أقاليم متصلة بجبل لبنان تشتمل على نيّف وستماية ضيعة"[4]. وما جاء عند المؤرخ ابن سباط في حديثه عن سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م، وهو اشارته إلى مكان اسمه "الصفصاف"، واقع بسفح "جبل لبنان"، وهذا المكان هو في سفح جبل نيحا في الشوف.

---

[1]- كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص ١٢ – ١٣.

[2]- السجل الأرسلاني: الاثبات السابع، ص ٨٣.

[3]- ابن شدّاد: تاريخ الملك الظاهر، ص ١٣٩.

[4]- ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة .. الجزء الثاني، ص ٩٨.

إن تسمية "جبل لبنان" تعني شماله وجنوبه منذ أقدم الأزمنة. الا ان تحديد هذين القسمين هو عند البعض على أسس تاريخية وسكانية وإدارية، وعند البعض الآخر على أسس طبيعية وجغرافية بحيث قسّموا سلسلة جبال لبنان الغربية إلى ثلاثة أقسام، ومنهم من قسّمها إلى اثنين يبدأن بجبال القمّوعة في عكار، وينتهيان بجنوب جبل نيحا، والحد الفاصل بينهما ممرُ ضهر البيدر[1]. الا اننا اعتمدنا التقسيم على الأسس التاريخية والسكانية والإدارية، أي بشمالٍ لجبل لبنان ينتهي بالسفوح الشمالية لجبل صنين، وبجنوب لجبل لبنان يبدأ بالسفوح الجنوبية لجبل صنين وينتهي بجبل الريحان وجهات جزّين.

إذاً يشكل جبل صنين الحد الفاصل بين شمال جبل لبنان وجنوبه، فسفوحه الشمالية ومنحدراتها نحو البحر تابعة لشمال جبل لبنان، والجنوبية تابعة لجبل لبنان الجنوبي. وقد تبع الشمال قديماً لمملكة جبيل، ثم للكيانات السياسية والإدارية التي كان مركزها طرابلس وجبيل، فيما تبع جنوب لبنان للكيانات السياسية والإدارية التي كان مركزها مدينتي بيروت وصيدا. ومن هنا العلاقة التاريخية الوطيدة كما الجغرافية بين هاتين المدينتين وبين ما وراءهما من مرتفعات شكلت النصف الجنوبي من جبل لبنان ، ثم شكلت النصف الجنوبي من متصرفية جبل لبنان التي شملت جزّين الواقعة إلى الشرق من صيدا.

عُرف النصف الجنوبي من جبل لبنان بجبل الدروز، وبإمارة الدروز، وبالامارة الدرزية، وببلاد الدروز، لأن أكثرية سكانه كانوا من الدروز، ولأن امراءه كانوا دروزاً ومنهم التنوخيون والمعنيون، كما كانوا شهابيين سنة وموارنة وانما حكموا باسم الدروز وعرفوا بأمراء الدروز. الا ان مصطلح "بلاد الدروز" له مدلول اوسع، أحياناً، إذ يعني بالإضافة إلى

---

[1]- اعتمد الدكتور وسام خليل التقسيم الثنائي في أطروحته الجامعية المقدّمة إلى جامعة باريس (السوربون) في سنة ٢٠٠٩ أنظر Wissam Khalil: Prospection dans le Liban meridional, volume I, P. 15.

جبل لبنان الجنوبي مناطق أخرى مسكونة بالدروز، مثل وادي التيم الذي جاء عنه سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م "أنه من بلاد الدروز"[١].

سنتكلم في ما يلي عن مناطق جبل لبنان الجنوبي واسمائها وحدودها، وما طرأ عليها من تعديلات إدارية، وذلك من قبيل القاء المزيد من الأضواء على الدراسة.

مناطق جبل لبنان الجنوبي

لم نتعرّف إلى اسماء مناطق جبل لبنان الجنوبي الا بعد توطّن العشائر العربية فيه ابتداءً من سنة ٧٥٩. وقد عُرفت هذه المناطق باسم "بلاد". ومنها، مثلاً، بلاد كسروان، بلاد الجرد، بلاد الغرب، بلاد الشوف، بلد صيدا. كما كانت تعرف بالامارة التي تحكمها مثل امارة الغرب وامارة الشوف وامارة كسروان التركمانية. وكانت هذه المناطق مفصولة عن بعضها البعض بالانهار التالية وروافدها: نهر الكلب، نهر الجعماني، نهر الدامور، نهر الأولي، وجميعها مفصولة عن البقاع بجبال صنين والكنيسة والباروك ونيحا.

في أوائل العهد العثماني أعطيت المناطق اسم "الناحية"، وكانت مناطق جبل لبنان الجنوبي كلها تابعة للواءي بيروت وصيدا. وبما ان التنظيم الإداري العثماني في القرن السادس عشر بين سنتي ١٥١٩ و١٥٦٩ مأخوذ عن التنظيم الإداري المملوكي، فإننا نرجّح ان النواحي التي سمّاها هي نفسها النواحي الموجودة في التنظيم الإداري المملوكي في نهاية عهد المماليك. وهذه النواحي هي كسروان، المتن، الجرد، الغرب، الشوف الشويزاني والشوف الحيطي اللذان عرفا باسم "ناحية ابن معن"، إقليم الخرنوب (الخرّوب)، جزّين، شومر. وكانت كلٌ منها ملزّمة لأسرة اقطاعية.

حلّ اسم "المقاطعة" محل اسم "الناحية". ودخلت جميع مقاطعات جبل لبنان الجنوبي في التزام الأمير فخر الدين المعني الثاني، الذي امتد نفوذه إلى

---

[١]- ابن الحمصي: حوادث الزمان... ص ٥٧٥.

أبعد من حدود لبنان حالياً. ثم دخلت معظمها في التزام من جاؤوا بعده. وأطلقت الدولة العثمانية على متسلمها، ابتداءً من سنة ١٦٤١ لقب "ضابط" فلقّب كل من الأمير ملحم ابن معن، والأمير أحمد ابن معن، والأمير قرقماس ابن معن، والأميرين محمد ومنصور ابن علم الدين، والشيخ أبو علوان، بضابط مقاطعة الشوف والجرد والمتن والغرب والشحار، وأضيف إليها، مع الأمير أحمد ابن معن والأمير موسى ابن علم الدين، كسروان. ثم أصبحت تعرف في العهد الشهابي، منذ أيام الأمير حيدر الشهابي، بجبل الشوف، ويُعرف متسلمه بضابط جبل الشوف.

لم تبقَ حدود ومساحات المقاطعات المذكورة اعلاه ثابتة، بل انها تغيرت تبعاً للتقسيمات الإدارية، إذ توسّع بعضها، واقتطع من بعضها الآخر أراضٍ أعطيت لرجال الاقطاع ارضاءً لهم، وتسهيلاً للأعمال الإدارية والجبائية. وابتداءً من سنة ١٨٦١ شكّلت هذه المقاطعات أربعة أقضية في متصرفية جبل لبنان، هي قضاء كسروان، وقضاء المتن، وقضاء الشوف، وقضاء جزّين. وانقسم قضاء كسروان إلى ٩ مديريات، وقضاء المتن إلى ٥ مديريات، وقضاء الشوف، وهو أكبر أقضية المتصرفية، إلى ١٢ مديرية يضاف إليها مديرية دير القمر الممتازة الملحقة رأساً بالمتصرف، وقضاء جزّين إلى مديريتين[1]. ثم جرى تعديل كبير بعد انشاء دولة "لبنان الكبير في سنة ١٩٢٠، صارت بموجبه الأقضية الأربعة ستة، إذ صار المتن قضاءين، هما المتن الشمالي والمتن الجنوبي (قضاء بعبدا). وصار الشوف قضاءين، هما قضاء عاليه وقضاء الشوف. وألغيت المديريات التي هي القسم الأصغر في التقسيمات الإدارية.

تجدر الإشارة إلى منطقتين تضم كلٌ منهما عدة قرى، هما شحّار المتن، والحرف، لم تتحولا إلى "مقاطعتين" ولا إلى ناحيتين كما تحوّلت

---

[1] – أنظر: لبنان: مباحث علمية واجتماعية، الجزء الأول، ص ٥٠ – ٥١، بحث الأب انطون صالحاني اليسوعي.

مناطق شحّار الغرب، والمناصف، والعرقوب إلى مقاطعات ونواحٍ. كما أنهما لم تتحولا إلى مديريتين.

الشحّار، في مصطلحات الزراعة والتعابير الشعبية، هو الأرض الرملية التي تجف مياهها بسرعة بسبب الحرارة. وهذا ما ينطبق على "شحّار الغرب" الذي هو القسم الجنوبي من ناحية الغرب سابقاً، والقسم الجنوبي من قضاء عاليه حالياً، وشحّار المتن الذي هو في أعالي قضاء بعبدا حالياً. تحوّل شحّار الغرب منذ أواخر القرن السابع عشر إلى منطقة إدارية بحسب ما يظهر من الوثائق العثمانية، ومنها وثيقة تاريخها في أواسط شوال ١١٠٥هـ/حزيران ١٦٩٤م، ووثيقة تاريخها في أوائل شوال ١١٠٦هـ/أيار ١٦٩٥م[١]. أما شحّار المتن فظل مصطلحاً جغرافياً متداولاً يدل على منطقة في المتن الأعلى مشهورة بالصنوبر، من قراها كفرسلوان التي ورد اسمها في عدة صكوك بيع تعود إلى القرن التاسع عشر بأنها من قرى شحّار المتن[٢].

ومنطقة "الحرف" واقعة شمال قضاء الشوف حالياً، وهي مرتفعات، حدها الجنوبي وادي نهر الصفا، وحدها الشمالي وادي الرملية ومعسريتي[٣]. كانت جزءاً من منطقة "الجرد" ثم تبعت لمقاطعة العرقوب في العهد العثماني. وللفظة "الحرف" معنيان، أولهما الانحراف والميل والطرف والحافة، وثانيهما الصنوبر. والمعنى الثاني محلي لبناني، يطلق على شجر الصنوبر لأن سنابله حادة، لذا يسمي اللبنانيون المناطق التي توجد فيها أشجار الصنوبر "الحرف"، ومن ذلك قرية "الحرف" في منطقة جزين، وحرف ارده وحرف مزياره في منطقة زغرتا. أما منطقة "الحرف" في الشوف، فهي لم تكتسب اسمها من شجر الصنوبر، بل من صفة الانحراف والميل الشديد التي تمتاز بها هضبتها، وخصوصاً في انحدارها نحو الجنوب. وأهم العامر منها قرى

١- انظر: عبد الرحيم أبو حسين: لبنان والإمارة الدرزية، ص ٧١، ٩٠.

٢- أنظر سليمان أبو عز الدين: مصادر التاريخ اللبناني (الاقتصاد) ص ٣٥١، ٤٧٥، ٥٥٧.

٣- أصل معسريتي، على الأرجح، معصرانا، لكنها صُحِّفت.

مجدل معوش، كفرنيس، البيره، الجعايل، المريجات. وكان فيها قرية هي دارسة اليوم، موقعها إلى الشمال من منطقة "الحرف"، اسمها حرف لوزا، وهو من المستبعد أن يكون منسوباً إلى معنى الصنوبر.

كسروان

سمي كسروان بهذا الاسم إمّا نسبة إلى واليه الفارسي كسرى، أو نسبةً إلى أحد أمراء المردة، كسروان. وهذا الإسم هو مع اسم "خوند" من الأسماء الفارسية القليلة جداً والباقية في لبنان، وقد سمي قديماً بالعاصية لصعوبة مسالكه وعظم جباله وقوة رجاله. "وسمي بلاد المردة، ثم صار يسمى كسروان". لذلك يبقى اسمه من الأسماء المبهمة.

كسروان قسمان: داخلة وخارجة. فالداخلة سميت بذلك لدخول البحر فيها عند جون جونيه، وحدها القديم من نهر الكلب إلى نهر ابراهيم، والحديث من نهر الكلب إلى المعاملتين، "وكانت تضم مدينة طبرجا، واسمها بيبلوس أي جبيل القديمة، وهي عاصمة لمملكة امتدت من نهر ابراهيم إلى نهر المعاملتين"[1]. واسمها حالياً "فتوح كسروان" لأن القوات المملوكية دخلت منها في سنة ١٣٠٥ لفتح كسروان. أما الخارجة فحدها القديم من نهر الكلب إلى نهر الجعماني"[2]. وأعالي كسروان تسمى "الجرد" أو "الجردين" والمقصود بهما جرد الداخلة وجرد الخارجة. وتبعاً لذلك كان كسروان مقاطعة كبيرة "طولها من الغرب إلى الشرق، أي من البحر إلى الجبل، ١٨ ميلاً، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٣ ميلاً"[3].

الحد الشمالي الحديث لكسروان، كما وردت الإشارة إلى ذلك، هو جسر المعاملتين عند وادي غزير. وهذا الحد اعتبره التنظيم الإداري

---

[1]- الحتوني: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، ص ٨.

[2]- سمي نهر الجعماني بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة جعمان، أنظر عجاج نـويهض: رأس المـتن، تاريخ وذكريات. ص ٤٢.

[3]- الحتوني: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، ص ٤.

المملوكي، ثم التنظيم الإداري العثماني، حداً لناحية أو مقاطعة كسروان. وهذه المقاطعة صغرت عندما اقتطع منها الأمير حيدر الشهابي المنطقة الواقعة بين نهر انطلياس ونهر الكلب والمسماة "القاطع"[1]، وأعطاها للأمير منصور أبي اللمع، وهي حالياً في قضاء المتن الشمالي.

المتن

المتن من كل شيء هو، في لغة العرب، ما صلب ظهره، والجمع متون ومتان. لذا يقال: متون الصافنات، أي ظهور الخيل. والمتن من الأرض ما ارتفع واستوى، والمتون: جوانب الأرض في اشراف[2]. ومنطقة المتن هي المرتفع والمستوي من السفوح الغربية والشمالية لجبل الكنيسة. وهذه التسمية وصف جغرافي اعطتها العشائر العربية التي توطنته، لأن الناظر إليه يراه مرتفعاً في استواء. والتصغير "المتين"، وهو اسم بلدة تقع حالياً في قضاء المتن الشمالي. وأول ذكر لاسم "المتن" نجده في كتاب "قواعد الآداب حفظ الأنساب" المخطوط في أواخر القرن الرابع عشر. كما نجده بعد ذلك في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى وتاريخ ابن سباط.

المتن في التنظيمات الإدارية العثمانية ناحية، وحده الشمالي نهر الجعماني نزولاً إلى ملتقاه في أسفل الوادي مع نهر حمانا. وحده الجنوبي ناحية "الغرب"، وناحية جرد جبل بيروت، وهو يبدأ من ممر ضهر البيدر، وينتهي بملتقى نهر الجعماني مع نهر حمانا. وحده الشرقي من ترشيش إلى ممر ضهر البيدر، هذا هو المتن قديماً، إلا أنه توسع في العهد الشهابي في جهة الساحل والمرتفعات المشرفة عليه فأصبح يمتد من نهر الجعماني إلى نهر انطلياس. ثم أصبح قضاءً واسعاً في عهد المتصرفية يمتد من نهر الكلب شمالاً إلى خط بيروت – دمشق جنوباً، أي أنه توسع شمالاً فشمل منطقة

---

[1]- سمي "القاطع" بهذا الاسم، بحسب ما يرى البعض، لأنه اقتطع من كسروان. إلا ان "القاطع" في التعابير الشعبية يعني مكانين متقابلين بينهما وادٍ، وفي هذه الحال يصبح كل منهما قاطعاً للآخر، أي الجهة المقابلة له التي يتطلب الوصول إليها اجتياز الوادي.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، المجلد ١٣، ص ٣٩٨.

"القاطع" الواقعة بين نهر انطلياس ونهر الكلب، وتوسع جنوباً فشمل المنطقة الواقعة بين نهر حمانا وخط بيروت – دمشق. وهو اليوم قضاءان: المتن الشمالي والمتن الجنوبي، والحد الفاصل بينهما نهر بيروت في الغرب، ورافده نهر الجعماني في الشرق.

الجرد

الجرَد من الأرض (بفتح حرفي الجيم والراء) هو، في لغة العرب، ما لا ينبت، والجمع أجارد. وقد حُرّفت اللفظة بالتداول فأصبحت "الجرد" (بكسر حرف الجيم وتسكين حرف الراء) وجمعها جرود. أطلقت في لبنان على أعالي بعض المناطق الخالية أو شبه الخالية من الشجر، كجرد الهرمل، وجرد بعلبك، وجرد جبيل، وجرد كسروان، وجرد المتن، وجرد جبل بيروت. اقترن اسم "الجرد" في لبنان بصفة الارتفاع اضافة إلى صفة انجراد الأرض من النبات أو شبه انجرادها. فكل الجرود اللبنانية هي مناطق جبلية حتى أنها باتت تعني، عند لفظها، الجبال.

لفظة "الجرد" إذاً هي عربية اطلقتها العشائر العربية على المناطق التي تتميز بصفتي الارتفاع والانجراد. وفيما يتعلق بجرد جبل بيروت الواقع إلى الشرق من مقاطعة "الغرب" سابقاً، والمكون لشرق قضاء عاليه حالياً، فإن العشائر العربية نزلت أولاً فيه عند قدومها إلى جبل لبنان ابتداءً من سنة ٧٥٩، إذ وصلت أولاً إلى تيروش وعين داره ومروج المغيثة. وهناك مكثت لبعض الوقت ترعى مواشيها قبل أن تتوزّع في سائر مناطق جبل لبنان الجنوبي، وقد سمّت أماكن نزولها الأولى والمرتفعات المشابهة لها الجرد لأنها خالية أو شبه خالية من النبات.

انجراد جرد جبل بيروت، يعود، في رأي أحد المؤرّخين، "إلى وقوع بعض انحائه في ظل المطر، أو لعوامل التعرية الطبيعية"[1]، ويعود، في رأينا، إلى ارتفاعه ومناخه البارد بحيث لا يصلح معهما لنمو العديد من

[1] – عبد المجيد عبد الملك: تاريخ الاقطاع في لبنان، ص ٦٢.

الأشجار. كما أن الأقدمين قطعوا غاباته البكر، ونقلوا اشجارها وأخشابها إلى بيروت وصيدا لصنع الأساطيل وغيرها نظراً لوقوع الجرد على طريقين رئيسين يفضي أحدهما إلى بيروت والآخر إلى صيدا، فتحوّل إلى مراعٍ. ثم أن الذين سكنوه بعد ذلك اعتمدوا بشكل رئيس على زرع الحبوب وتربية المواشي وخصوصاً قطعان الماعز. وهو ليس أقل أمطاراً من محيطه، بل ان معدل الأمطار فيه مرتفع، لكن الإنسان القديم قطع الشجر، ومن جاء بعده لم يزرع، ولم تسمح قطعان مواشيه للنباتات البرية أن تنمو.

كان جرد جبل بيروت قديماً أو جرد قضاء عاليه حالياً، ناحية تشتمل على منطقة "الحرف" في الشوف التي جرى الحديث عنها، ثم تحول في عهد المتصرفية إلى مديريتين لا تشتملان على المنطقة المذكورة، مداهما الجغرافي خمس هضاب تمتد من المديرج وبحمدون شمالاً إلى وادي الرملية ومعسريتي جنوباً.

الغرب

الغرب، في اللغة، مكان غروب الشمس والجهة المعاكسة للجهة التي تشرق منها (الشرق). به سُمّيت المنطقة المطلة على ثغر بيروت وساحلها، التي أسست فيها إمارة دعيت إمارة الغرب، وورد اسم أميرها في سنة ٨٦٦ انه "أمير الغرب". وعليه تكون هذه التسمية حصلت في العقود الأولى من توطن العشائر العربية في جبل لبنان.

لاسم "الغرب"، في رأي من تناولوا معناه، تفسيران، هما أنه مكانٌ غرب دمشق، أو غرب المكان الذي أقامت فيه العشائر العربية في البقاع ووادي التيم[1]. وكلا التفسيرين، في رأينا، غير صحيح، لأن اولهما يضيّق غرب الشام فيجعله مقتصراً فقط على منطقة "الغرب" المطلة على بيروت، ذات المساحة الضيقة، والساحل القصير نسبياً، ولأنه والتفسير الثاني يدخلان منطقتي "الجرد" و "المتن" في منطقة "الغرب". ان التفسير الصحيح لتسمية

---

[1]- نديم حمزة: التنوخيون، ص ٥٥. أنيس يحيى: التنوخيون، ص ١٦١.

"الغرب" هو أنها جاءت من العشائر التي توطنت جبل بيروت لا من غيرها، إذ انها سمت المنطقة بذلك لأنها اتجهت إليها غرباً، ولأنها واقعة إلى الغرب من المنطقتين الأخريين اللتين نزلت فيهما، وهما الجرد والمتن.

يمتد "الغرب" من نهر حمانا ونهر بيروت شمالاً إلى نهر الدامور ورافده نهر الغابون جنوباً، ومن منطقة "الجرد" شرقاً إلى الساحل غرباً. كان ناحية في أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني تشمل من الساحل القرى والمزارع التالية: سن الفيل، البوشرية، الشويفات، مرتغون، خلده، الدامور. وفي سنة ١٧١٢ قسّم الأمير حيدر الشهابي "الغرب" إلى مقاطعتين، هما الغرب الأعلى والغرب الأدنى، وذلك حين انتزع الغرب الأعلى من الأمراء الارسلانيين واقطعه إلى آل عبد الملك. ثم انتُزعت من "الغرب" مقاطعة "الشحّار". وبعد ذلك صار في عهد المتصرفية ثلاث مديريات، هي الغرب الأعلى، والغرب الأدنى، والغرب الشمالي، وجميعها مع الشحّار تتبع اليوم لقضاء عاليه، باستثناء بلدات الناعمة وحارة الناعمة والدامور، والبون (المشرف)، الملحقة بقضاء الشوف.

تسمية الشوف

أقدم المصادر التي ذكرت اسم الشوف متزامنة مع بعضها، وتعود إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد، وهي منشور الملك معز الدين ايبك، الذي يحدّد اقطاع الأمير البحتري سعد الدين خضر، ووثائق الافرنج (الصليبيين) التي تحدد اقطاع الفرسان التوتونيين في الشوف، والمؤرخ الدمشقي المعروف بشيخ الربوة الذي يذكر عدة مناطق باسم "الشوف". وقد أعطي للشوف تفسيرات عديدة سنستعرضها، وسنذكر أسباب استبعاد غير الصحيح منها.

اعتمد الدكتور حارث البستاني على ملحمة بعل وعناة، التي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م.، وهي من النصوص المكتشفة في أوغاريت (رأس الشمرا)، فاعتقد أن جبل الشوف هو نفسه جبل الشوفون، بناءً على ورود

لفظتي جبل الصوفون في هذه الملحمة، فقال: "من أهم المواقع الجبلية الفريدة من نوعها في الشرق الأدنى كان جبل حرمون المقدّس . أما الجبال والتلال إلى الشمال من حرمون، كانت تحاط بها هالة من الخشوع والاعجاب والقداسة والخصب والجمال. ووردت هذه الأوصاف في معظم النصوص القديمة بدءاً بالنصوص السومرية واسطورة غلغامش إلى النصوص الكنعانية إلى نشيد الأناشيد إلى المزامير... ومن هذه الجبال جبل الشوفون شمال حرمون وعليه الآله بعل يسيّر اموره وأمور سكانه. أما فيما يخص اللفظ، فنحن نعلم ان السكان في شمال البلاد يضعون حركة الضم بينما الجنوبيون يستعملون الفتح. فمن المرجح اذاً أنه بعد اضمحلال الحضارة الكنعانية وظهور الحضارة الآرامية من بعدها، ومن ثم العربية أصبح اسم هذا الجبل الشوفان مما أدى إلى الاعتقاد لدى البعض أن هناك شوفين اثنين"[١].

لو ان هذا التفسير صحيح لكان ما ورد في ملحمة بعل وعناة أقدم نص لا يذكر اسم الشوف فقط، بل يذكر أن فيه سكاناً في القرن الخامس عشر ق.م. إلا أنه غير صحيح، لأن الجبل الوارد في ملحمة بعل وعناة هو صافون وليس شوفون. وقد ورد الاسم "صوفون" اثنتي عشرة مرة في الملحمة، وهو يعني الجبل الأقرع في شمال سورية[٢]، ولا يعني جبل الشوف. كما أنه يقع إلى الشمال من جبل حرمون بينما جبل الشوف يقع إلى الشمال الغربي منه بانحراف نحو الغرب. فالصوفون إذاً في الملحمة هو غير الشوف. أما الشوفان فهما الشوف الشويزاني (الشوف السويجاني) والشوف الحيطي، اللذان هما منطقتان من مناطق جبل الشوف كما سنرى.

من تفسيرات اسم الشوف المستبعدة ما يلي:

---

[١]-جاء ذلك في الصفحة الثانية من البحث الذي قدّمه الدكتور حارث البستاني إلى مؤتمر الشوف السويجاني الأول المنعقد في المكتبة الوطنية في بعقلين يومي السبت والأحد في ١٠ و ١١ نيسان ٢٠١٠.

[٢]- أنظر أنيس فريحه: ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرا)، ص ١٣٤، ١٣٩، ١٤٦، ١٥٧، ١٧١، ١٧٤، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠.

- اشتقاق لفظة "الشوف" من الكلمة السريانية Shufa ، أو من الكلمة Cheufh . وفي رأينا أن ذلك مستبعد، لأن معاني لفظة "شوف" السريانية لا تنطبق على الشوف، وهي حف، دهن أو مسح، لان وتراجع، هب وعصف، اشعل أو أثار وهيّج"[١]. ولأن جميع المناطق التي نزلت فيها العشائر العربية في جبل لبنان الجنوبي اخذت اسماء عربية، ومنها الشوف الذي أعطي اسمه لمناطق عدة، ومنها مناطق خارج جبل لبنان.

- اشتقاق لفظة "الشوف" من كلمة "شوفان"، وهو نبات بري يشبه نبات الشعير، يكثر وجوده في جبل الشوف[٢]. وهذا التفسير مستبعد لأن نسبة الشوف إلى الشوفان لا تصح من الناحية اللغوية، ولأن الشوف لا يمتاز عن غيره من المناطق بنبات الشوفان.

- لفظة "الشوف" هي تحريف لكلمة "الجوف" بلفظها العربي البحت، أي بالجيم المصرية مع الاشمام "لأن البقعة التي استعمرها المعنيون هي في جوف لبنان، أو هي تحريف لكلمة "الشعوف" التي تعني، في لغة العرب، رؤوس الجبال، أو هي كلمة وردت في رواية تناقلها قدماء اللبنانيين، وهي أن الأمير بحتر التنوخي، أمير منطقة "الغرب" استشرف مع الأمير معن في سنة ١١٢٠، من على ربوة عبيه، المعروفة بمطيّر عبيه، البلاد الواقعة بين نهري الصفا والباروك، ودلّه عليها بأصبعه قائلاً له بلغة العامة "شوف" ، وهي فعل أمر بمعنى "اشفْ" أي تطلعْ، فسميت هذه البلاد "الشوف"[٣].

ان تصحيف كلمتي "الجوف" و"الشعوف"، ولفظهما "الشوف" افتراضان مستبعدان لعدم ورود الكلمتين في أي نص تكلم عن الشوف،

---

[1]- عبدالله الحلو: تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٣٤٢.

[٢]- القائل بهذا التفسير ملحم تقي الدين (١٨٤٨ – ١٩٢٤). أنظر لمحة تاريخية لبنانية بقلمه في كتاب سليمان تقي الدين وآخرين: دراسات في تاريخ الشوف، ص ١٠٤.

[٣]- هذه التفسيرات أوردها عيسى اسكندر المعلوف في "تاريخ الأمير فخر الدين"، ص٣٧.

ولتعدد المناطق التي تحمل اسمه، ولاستبعاد اعتبار الشوف جوف لبنان، أي بطن لبنان أو قلبه، لوقوعه إلى الجنوب من وسط لبنان. ومن المستبعد أيضاً صحة القول إن الشوف أخذ اسمه من كلمة قالها الأمير بحتر التنوخي للأمير معن في سنة ١١٢٠ نظراً للشكوك المثارة حول رواية قدوم المعنيين في هذا التاريخ إلى الشوف، ولأن من المناطق التي تحمل اسم "الشوف" ما لم يستكشفه الأميران بحتر ومعن من هضبة عبيه كشوف البيّاض وشوف الحرّادين وشوف العدس في البقاع، وشوف الميادنة في منطقة جزّين، وشوف الشومر في جبل عامل.

بعد استبعاد التفسيرات المذكورة نرى أن التفسير الحقيقي للشوف هو انه لفظة عربية مشتقة من فعل "شوَفَ" . ففي معجم "لسان العرب" ان معنى لفظة "شاف": جلا، وشاف الشيء: جلاه، والشوف: الجلو، وتشوّف واشاف: ارتفع، واشتاف: تطاول ونظر، وأشاف على الشيء: أشرف عليه[1]. وفي تاريخ اليعقوبي ان كور بلاد اليمن تُسمّى "مخاليف" ، هي مخاليف السواحل والجبال، وعددها أربعة وثمانون مخلافاً، ومن مخاليف الجبال الشوافي[2]. ومما يعزّز القول إن اسم "الشوف" عربي هو تعدد المناطق التي تحمل اسمه، وتميزها بصفات الارتفاع والجلو والاشراف، واسم بلدة الشويفات الذي هو جمع "الشويفة" مؤنث "الشويف" تصغير "الشوف"، وقد سمّيت بذلك لأنها واقعة على عدة ربوات مشرفة، وقد ورد اسمها في السجل الارسلاني في الاثبات الثاني لسنة ٨٠٠.

وفي رأينا ان اسم "الشوف" اطلق من القبائل العربية، التي توطنت لبنان منذ سنة ٧٥٩، على عدة مناطق تمتاز بهضابها المرتفعة والمشرفة، لكنه اطلق على كلٍّ منها مقروناً بما يميّزها عن غيرها، كسكن احدى العشائر، أو تكاثر نبات، أو تميّز بالشكل. وقد ظل اسم "الشوف" ملازماً

١- ابن منظور: لسان العرب، المجلد التاسع، ص ١٨٥.

٢- تاريخ اليعقوبي: المجلد الأول ، ص ٢٠١.

لاثنتين منها، هما الشوف الشويزاني، والشوف الحيطي، فعُرفا بـــ "الشوفين" واختصاراً بـــ "الشوف".

الأشواف

أطلق على بعض المناطق تسمية "الشوف" مقرونة بما يميز المنطقة عن غيرها، مثل شوف بني هلال، في قضاء عاليه حالياً ، نسبة إلى عشيرة بني هلال. والشوف الشويزاني نسبة إلى عشيرة بني الشويزاني، والشوف الحيطي لوقوفه كالحائط (الجدار). وشوف الخرنوب، أو اقليم الخروب، لكثرة نباتِ الخرنوب فيه. والأشواف الثلاثة الأخيرة موجودة في قضاء الشوف حالياً. وشوف الميادنة في قضاء جزّين نسبة إلى الميادنة. وشوف الشومر، أو اقليم الشومر، إلى الغرب من النبطية، نسبة إلى نبات الشومر. وشوف العدس نسبة إلى نبات العدس. وشوف البيّاض نسبة إلى بياض صخوره. وشوف الحرّادين من فعل حرّد، ومعناه أوى إلى كوخ، وهذا هو الأرجح والأصح من تسمية شوف الحرادين نسبة إلى الحرذون وهو حيوان الضب الذي لا يكثر في هذه المنطقة فقط لتتميز به ، وإنما يكثر في جميع المناطق. والاشواف الثلاثة الأخيرة موجودة في البقاع الغربي.

انفرد ابن العماد الحنبلي، المتوفى في سنة ١٠٨٩هــ / ١٦٧٨م، عن الذين ترجموا للشيخ عدي بن مسافر بن اسماعيل الشامي الهكّاري، فقال في ترجمته له: "إن أصله من قرية بشوف الاكراد تسمى بيت فار"[١]. وبيت فار هي من أعمال بعلبك، وقد ولد فيها الشيخ عدي، ثم انقطع إلى جبل الهكّارية من أعمال الموصل، وبنى له هناك زاوية تُعرف بالهكاري[٢]. ولا وجود لمنطقة تحمل اسم "شوف الأكراد" في جهات بعلبك أو البقاع، بل هناك شوف البيّاض الذي سُمّي احياناً شوف بعلبك. وإذا كان هناك من شوف خارج لبنان

١- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، الجزء الرابع، ص ٣٥٧.

٢- ابن خلّكان: وفيات الأعيان، المجلد الثالث، ص ٢٥٤.

اسمه "شوف الأكراد" فإن ذلك يعزّز أكثر صحة القول إن لفظة "الشوف" لفظة عربية تعني المكان المرتفع والمشرف.

استعملت لفظة "الأشواف" للدلالة على جميع المناطق التي تحمل اسم "الشوف"، لكنها كانت تعني، عند اطلاقها، الأشواف الأكثر شهرة، وهي الشوف الشويزاني (الشوف السويجاني) والشوف الحيطي وشوف بني هلال، وربما أيضاً شوف الخروب[1]. وقد شكل الشوف الحيطي مع ما تبقى من الشوف السويجاني بعد سلخ مقاطعتي العرقوب والمناصف منه، مقاطعة اسمها "الشوف"، تحولت إلى مديرية في قضاء الشوف في عهد المتصرفية اسمها "مديرية الشوفين"، أي الشوف السويجاني والشوف الحيطي. وابتداءً من القرن الثامن عشر صار هناك تسمية جديدة هي جبل الشوف، او جبل الدروز، وهو الشوف الكبير الذي يشمل مقاطعات الشوف السويجاني والشوف الحيطي وإقليم الخروب والجرد والغرب والمتن، ويذكر أحياناً مع جبل كسروان، وأحياناً بدونه. اما ما سُمّي قضاء الشوف، فهو في عهد المتصرفية أوسع من قضاء الشوف الحالي.

الشوف الشويزاني (السويجاني)

للفظة الثانية من الشوف الشويزاني تفسيران عند المؤلفين. فمنهم من أعادها إلى العشيرة (بني الشويزاني)، وهي إحدى العشائر العربية التي جاءت من الجبل الأعلى في سورية إلى جبل لبنان. ولعل الاسم شويزاني تصغير للفظة شوزاني التي هي من لفظة شوّزن، "وشوزن من مياه بني عقيل"[2]. ومن المؤلفين من أعاد لفظة "الشويزاني" إلى المكان "سويج" تصغير السياج. ومن المعتقدين بنسبة الشوف الشويزاني إلى بني الشويزاني الأمير شكيب ارسلان. ومن المعتقدين بنسبته إلى سويج المؤرخ عيسى

---

[1]- كانت بعض قرى إقليم الخروب تدخل في اقطاع الأمراء البحتريين . ومن هؤلاء من سُمي "أمير الأشواف".

[2]- ياقوت الحموي: معجم البلدان ، المجلد الثالث، ص ٣٧١.

اسكندر المعلوف، في حديثه عن إحاطة المعنيين خيامهم ومواشيهم به قبل أن يبنوا البيوت في بداية استقرارهم في بعقلين ومحيطها، إذ قال: "وربما كان من هذا اسم الشوف السويجاني تصغير السياج لأنهم اتخذوه حظائر لمواشيهم وخيامهم مدة"[1]. وتبعاً لذلك يصبح الاسم أصلاً الشوف السويجاني وتصبح الشويزاني إما تصحيفاً للسويجاني، وإما تسمية أخرى مختلفة المدلول، والأمران غير صحيحين للاعتبارات التالية:

١- الشوف الشويزاني هو ذاته الشوف السويجاني، والتصحيف هو للشويزاني وليس للسويجاني.

٢- لفظة "الشويزاني" أسبق في التداول، وفي ذكر المصادر القديمة لها، من لفظة السويجاني، فهي متداولة منذ قدوم بني الشويزاني مع العشائر العربية الأخرى إلى جبل لبنان في سنة ٨٢٠.

٣- إن جميع من يعتمدون على الرعي والتنقل، سواء سكنوا البيوت أو المضارب، يتخذون السياج حظائر لمواشيهم. وهذه الطريقة لا تزال معتمدة إلى اليوم من قبل رعيان الماعز عندما يصيفون في البراري والجبال. ففي هذه الحال لا يكون اعتماد السويج تصغير السياج صفة اختص بها المعنيون.

بناءً على ما ورد بات من المؤكد أن الشوف الشويزاني لم ينسب إلى المكان "سويج"، بل نُسب إلى العشيرة بني الشويزاني، شانه في ذلك شأن مناطق كثيرة، مثل شوف بني هلال نسبة إلى عشيرة بني هلال، وشوف الميادنة نسبة إلى عشيرة الميادنة، ووادي التيم نسبة إلى تيم الله بن ثعلبة، وجبل عامل نسبة إلى قبيلة عاملة، وبلاد بشاره نسبة إلى آل بشارة. وكما سُمي الشوف الشويزاني باسم بني الشويزاني لأنهم كانوا أكثرية ساكنيه وأقوى عشائره ابتداءً من القرن التاسع للميلاد، سمي في القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، مع الشوف الحيطي باسم "شوف ابن معن" أو

---

[1]- عيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٣٨.

"الشوف المعني" بسبب تقدم الأمراء المعنيين على سائر اسره وتوليهم شؤونه.

صُحّفت الشويزاني بالتداول لتسهيل اللفظ فأصبحت السويجاني، كما صحفت أسماء مكان كثيرة. وجاء التصحيف على مرحلتين، اولاهما لفظ حرف "السين" بدلاً من حرف "الشين" فصارت سويزاني، إذ ليس من قبيل الخطأ، على الأرجح، ورود سويزاني في المرتين اللتين ذكرها فيهما المؤرخ صالح بن يحيى[1]. وثانيهما لفظ حرف "الجيم" بدلاً من حرف "الزاي"، فاكتمل التصحيف.

أول ذكر للشوف الشويزاني بلفظه هذا جاء في منشور الملك عز الدين ايبك بتاريخ نيسان ١٢٥٦ ، ثم جاء هكذا في وثائق الفرنج بتاريخ آذار ١٢٦١، وفي الوثائق العثمانية في القرن السادس عشر وبعده. الا انه ورد عند ابن سباط، الذي توقف عن الكتابة سنة ١٥٢٠، "الشوف السويجاني"، مما يعني أن الاسم كان يكتب أحياناً صحيحاً، وأحياناً أخرى مصحّفاً، في نفس الزمن، إلى أن ثبت اسمه المصحّف مؤخراً (الشوف السويجاني).

كان الشوف الشويزاني منطقة واسعة حدها من الشمال نهر الصفا حتى ملتقاه مع نهر الحمّام المسمّى "ملقى النهرين". وحده من الجنوب الغربي نهر الحمّام الذي يفصله عن إقليم الخروب، وحده من الجنوب خط يذهب من جنوب غريفه إلى جنوب بيقون حتى مرج بسرى. وحدّه من الشرق مجرى نهر الباروك. وقد ورد عند الدكتور عصام خليفه اسم "شوف شوران"، وورد عنده انه يشكل مع الشوف الشويزاني والشوف الحيطي" ناحية ابن معن" في دفاتر التحرير (الاحصاء) العثمانية في القرن السادس عشر[2]. إلا انه في الحقيقة ليس هناك منطقة اسمها "شوف شوران". وورود هذا الاسم هو، في رأينا، نتيجة خطأ في نقل "شويزاني" من دفتر مفصّل رقم ٤٣٠ إلى دفتر

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٩٥ (هامش)

[2]- عصام خليفه: الضرائب العثمانية في القرن السادس عشر، ص ١٥٩، ١٩٧ – ٢٠٤.

اجمال رقم ١٦٩ ، إذ إن دفتر المفصّل المذكور ليس فيه اسم "شوران"، مع الاشارة إلى ان الكتابة غير الدقيقة توجِد تشابهاً بين اللفظتين. فكان ان وضعت خطأً ٢٥ قرية من الشوف الشويزاني في خانة شوف شوران الذي لا وجود له. وبناءً على هذا يصبح عدد قرى الشوف الشويزاني ٦٦ قرية ومزرعة لا ٤١ قرية ومزرعة.

ظل الشوف الشويزاني بإطاره الجغرافي الواسع، وباسمه، إلى أوائل العهد الشهابي حين تحوّل اسمه في المؤلفات إلى الشوف السويجاني، وحين أُخذ من شماله الشرقي بعض القرى وضمت إلى قرى من "الجرد" وشكلت معها مقاطعة العرقوب[1]. كما أُخذ من شماله أيضاً المقاطعة المسماة "المناصف"[2]. واسم الشوف السويجاني معطى منذ سنة ١٩٧٩ لاتحاد بلديات للقرى التالية: بعقلين، الجديدة، السمقانية، عترين، عينبال، عين وزين[3]، غريفه، الكحلونية، مزرعة الشوف. وهذا الاتحاد لم يضم قرية بيقون بسبب عدم وجود مجلس بلدي فيها.

---

[1] – للعرقوب معان عديدة، فعرقوب الوادي ما انحنى منه والتوى. والعرقوب طريق في الجبل. والعرقوب والعراقيب خياشيم الجبال وأطرافها. والمعنى الأخير هو الأرجح لتفسير منطقة العرقوب في الشوف. وفي لبنان منطقتان أخريان بنفس الاسم، هما العرقوب الواقع عند السفح الغربي لجبل حرمون، والعرقوب من أعمال الريحان في لبنان الجنوبي. أنظر محسن الأمين: خطط جبل عامل، ص ٢٤٥، ٣٢٤. واسم العرقوب من الأسماء المنتشرة بكثرة في بلاد الشام.

[2] – سميت مقاطعة المناصف بهذا الاسم لأنها متوسطة بين المناطق التالية: الغرب، والعرقوب، والشوف الشويزاني، وإقليم الخروب، وهذا هو الأرجح. وهناك احتمال ضعيف في تسميتها، وهو توسط مناخها وتوسطها في الموقع بين الساحل والجبل.

[3] – عين وزين هي أصلاً من الشوف الشويزاني الكبير الذي شكل مع الشوف الحيطي "ناحية ابن معن" في اوائل العهد العثماني. لكنها بعد استحداث "مقاطعة العرقوب" صارت من قراها، ثم انضمت مؤخراً إلى اتحاد بلديات الشوف السويجاني.

الشوف الحيطي

الشوف الحيطي كان يُلفظ أحياناً شوف حيط، ويلفظ شوف حيتي، أي بحرف التاء لا بحرف الطاء. وكلمة "حيط" تعني الجدار. وقد اكتسب هذه التسمية من هيئته، كونه منتصباً كالحائط (الجدار) من مجرى نهر الباروك الذي يفصله عن الشوف السويجاني حتى قمم جبلي الباروك ونيحا. وهو يمتد من خراج بلدة الباروك، التي كانت تابعة لمديرية العرقوب، حتى منطقة جزّين. ويشكل وحده، أو مع الشوف السويجاني، مثلثاً قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب.

اقليم الخرّوب

اقليم الخرنوب من لفظتين، الثانية منهما هي الخرنوب ويتداولها الناس "الخرّوب"، وهو شجر يعطي ثماراً طويلة رقيقة، غير مستقيمة، يصنع منها دبس لونه أسود، كان العبرانيون يقدمونها علفاً للخنازير. وسمّي الإقليم على اسم هذا الشجر لكثرته فيه. واللفظة الأولى "إقليم" قد تكون يونانية Klaima بمعنى مقاطعة، وقد تكون عربية. جاء عنها في معجم "لسان العرب" ما يلي: "قال ابن دريد:"لا احسب الإقليم عربياً. قال الأزهري: واحسبه عربياً. وأهل الحساب يزعمون أن الدنيا سبعة أقاليم، كل إقليم معلوم، كأنه سمي إقليماً لأنه مقلوم من الإقليم الذي يتاخمه، أي مقطوع، وإقليم موضع بمصر"[1].

اعتبار لفظة "الإقليم" عربية يعني أنها من فعل "قلَم" أي قطع. وبهذا المعنى هي شبيهة بلفظة "القاطع" التي سميت بها منطقة من كسروان (القاطع)، وبلفظة "مقاطعة" التي تعني ناحية من الأرض، أو ناحية مقطعة لأمير أو مقدّم، بحسب النظام الاقطاعي الذي كان سائداً. وكلا القاطع والمقاطعة مشتق من فعل "قطع" بمعنى قلَم. فهل قلم إقليم الخروب من إقليم يجاوره؟ ما هو هذا الإقليم؟ أنه بناءً على التفسير اللغوي يجب أن يكون

[1]- ابن منظور: لسان العرب، المجلد ١٢، ص ٤٩١.

مقلوماً من صيدا ومن مملكتها وأراضيها، وليس مقلوماً بالطبع من الإقليم الذي يجاوره، الشوف السويجاني، كما جاء عند أحد مؤلفي إقليم الخروب "الإقليم هو مقاطعة من الشوف السويجاني"[١]. وإذا كانت لفظة "إقليم" تعني، في اللغة، منطقة مقلومة فإنها صارت تعني في المصطلحات التاريخية منطقة أو مقاطعة غير مقطوعة من مقاطعة أخرى، وقد كانت عدة مقاطعات تحمل اسم "إقليم" هي إقليم جزّين وإقليم التفاح وإقليم شومر في لبنان وإقليم البلاّن المجاور للبنان، والذي ضم في التنظيمات الإدارية العثمانية في القرن السادس عشر قرية من لبنان هي مزرعة دير أبو العشاير[٢].

أول من ذكر اسم "إقليم الخرّوب" هو المؤرخ الدمشقي شيخ الربوة المتوفى في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، وقد ذكره باسم "شوف الخرّوب". ثم ذُكر باسم "إقليم الخرّوب" في منشور الملك معز الدين ايبك المرسل إلى الأمير سعد الدين خضر البحتري في سنة ١٢٥٦. ان كتاب شيخ الربوة المتوفى في سنة صدور منشور الملك معز الدين ايبك ، هو بدون شك الأسبق. وبناءً على ذلك، وعلى ان لفظة "الشوف" بدأ تداولها منذ توطن العشائر العربية في جبل لبنان ابتداءً من سنة ٧٥٩، يمكن القول ان اسم "شوف الخروب" سبق اسم "إقليم الخرّوب".

اسم "الشوف" مطابق لواقع اقليم الخرّوب وجغرافيته. فهو بشكل مثلّث قاعدته في الساحل من مصب نهر الدامور إلى مصب نهر الأولي بالقرب من صيدا، ورأسه مجموعة من الهضاب التي يصل ارتفاعها إلى ٨٠٠ م، ولها صفة الارتفاع والاشراف، وهي تلال بكشتين وعين الحور وشحيم وداريا وعانوت وحصروت. فهو تبعاً لذلك قسمان: منطقة ساحلية، ومنطقة شبه جبلية. أما حدوده ، فهي من الغرب البحر، ومن الشمال والشمال الشرقي نهر الدامور ورافده نهر الحمّام، ومن الجنوب والشرق نهر الأولي.

١- محمد حسين الميسو الحجّار: تاريخ اقليم الخرّوب، ص ١٥.

٢- عصام خليفه: نواحي لبنان، ص ١٤٨ – ١٤٩.

كان إقليم الخرّوب في التنظيمات الإدارية العثمانية في القرن السادس عشر ناحية من لواء صيدا. ثم صار في القرن الثامن عشر مقاطعة من معاملة صيدا. وفي سنة ١٨٦١ غدا في متصرفية جبل لبنان مديرية من قضاء الشوف. انه من جبل صيدا أو من شوف صيدا أو جبل الشوف جغرافياً، ومرتبط به تاريخياً وسياسياً. وهو همزة الوصل بين صيدا والشوف السويجاني والشوف الحيطي اللذين يشكلان معه حالياً قضاء الشوف.

جـــزّيـــن

اسم جزّينِ سرياني كمعظمِ أسماء المدن والقرى اللبنانية التي تنتهي بياء ونون. من تفسيراته أنه من Gassin، أي خزائن ومخازن، أو أنه من مشتقات فعل "جزّ" أي قصّ وقطع. ومن تفسيراته أنه تصحيف لجزئين، أي قسمين، لأن النهر الذي ينبع من جزّين يشطرها إلى جزئين، او انه اسم سرياني هو كنزين، أي مغاور الكنوز النابعة منها المياه[1].

بدأت بلدة جزّين تأخذ شهرتها في حروب الفرنجة. وقد عرفت بضيعة الميادنة، كما عُرفت مع محيطها، آنذاك، بشوف الميادنة وشوف الميدان[2]. والميادنة هم عشيرة أو جماعة، ولفظتها تُكتب وتُلفظ بحرف "الدال" لا بحرف " الذال"، أي أنها ليست المياذنة، بحسب ما جاء في مراجع حديثة، وهو "أن جزّين بلاد المياذنة لكثرة ما فيها من المآذن"[3].

---

[1] - مقالة فؤاد عطيّه في مجلة "أوراق لبنانية" المجلد الثاني، الجزء السابع، السنة السابعة، ص٣٢٣.

[2] - وثائق الفرنجة التي تعود إلى سنة ١٢٦١. وشيخ الربوة: عجائب الدهر... ص ٢٠٠. وأبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٧. وتاريخ ابن سباط، الجزء الأول، ص ٤٨٤. وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، الجزء الثامن، ص ٥٨٥.

[3] - علي جابر: الحلقة المفقودة من تاريخ جبل عامل، ص ٤٢٧، وسعدون حماده: تاريخ الشيعة في لبنان، المجلد الأول، ص ٢١٣.

أعطت جزّين اسمها للمنطقة المحيطة بها فعُرفت بناحية جزّين في أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني. وكان حدّها من الشمال الشوف الحيطي والفاصل بينهما نهر جزّين المعروف أيضاً بنهر بحنّين ونهر عاري. وحدها من الجنوب والغرب ناحية إقليم التّفاح. ومن الشرق ناحيتا شوف الحرّادين وشوف البياض، أي ما يسمّى حالياً البقاع الغربي. وابتداءً من القرن الثامن عشر صارت مقاطعة باسم "إقليم جزّين". ثم صارت ابتداءً من سنة ١٨٦١ قضاءً في متصرفية جبل لبنان شمل قرى اقليم التفاح. وبعد ذلك دخلت في عهد الانتداب الفرنسي في محافظة لبنان الجنوبي.

منطقة جزّين، في الأصل، من جبل لبنان، ولا يُعرف بالضبط متى أصبحت تُعد من جبل عامل، الذي بدأ اسمه بالتداول في العصر العباسي منذ القرن الثالث الهجري. وهي تشكل الحد الشمالي لجبل عامل، لكنه حدٌّ غير واضح كليّاً إسوةً بحدّيه الشرقي والجنوبي، بحسب ما يرد عن المؤرخيين العامليين. والجبل "وان لم يذكر له تحديد على التحقيق في كتب التاريخ وتقويم البلدان، إلا انه يمكن تحديده على جهة التقريب القريب من التحقيق بحسب ما هو معروف اليوم بين أهله المأخوذ عن اسلافهم... وحده الشمالي انه نهر الأولي أو ما يقرب منه، وان امتداده بحسب التعابير الشعبية هو من البصّة إلى جباع الحلاوة"[1].

إن جباع الحلاوة، الواقعة في سفح جبل الريحان، ليست حداً طبيعياً لجبل عامل. وحده الطبيعي هو نهر الأولي ومرج بسرى التابع للشوف، وبه تبدو المنطقة الواقعة إلى الشمال من جباع الحلاوة، والشمال الغربي من بلدة جزين، بشكل أصبح داخل في الشوف. وقد أخطأ أحد المؤرخين حين أدخل قلعة شقيف تيرون في جبل عامل[2]. فهذه القلعة أقرب إلى بلدة نيحا الشوفية منها إلى جزّين. وهي في خراج نيحا، الذي يمتد بشكل أصبح بعدها نحو

[1]- محسن الأمين: خطط جبل عامل، ص ٦١ – ٦٣.

[2]- أدخل محسن الأمين هذه القلعة في جبل عامل: انظر محسن الأمين: خطط جبل عامـل، ص ١٦١.

الجنوب أكثر من عشرة كيلومترات حيث يشمل التومات المعروفة بـــ "تومات نيحا".

سميت تومات نيحا بهذا الاسم لأنها قمتان من جبل نيحا متقابلتان وكأنهما توأمان أو توأمات. وقد كانت مثار نزاع قضائي في القرن التاسع عشر بين أهالي نيحا وأهالي جزّين، إذ ادّعى أهل جزّين أنها مع سفوحها لهم، بحجة انها أقرب إلى جزّين منها إلى نيحا. لكن محكمة صيدا حكمت لأهل نيحا اعتماداً على شهادات البّحارة الذين أفادوا أنهم يستدلّون على موقع مدينة صيدا من اشراقة الشمس على ما سمّوه "تومات نيحا" ولم يسمّوه تومات جزّين[1]. وفي هذا ، وفي تسمية قلعة شقيف تيرون باسم "قلعة نيحا" دليل على قدم هذه البلدة، وأهميتها في الأزمنة القديمة.

إقليم التفّاح

عُرف اقليم التفاح باسمه هذا نسبة إلى نبات التفاح الذي يمتاز به أكثر من سائر المناطق. شكّل ناحية في أوائل العهد العثماني، حدها من الشمال نهر الأولي ابتداءً من انحرافه نحو الغرب عند قرية بسرى، ومن الجنوب نهر الزهراني الذي يفصله عن ناحيتي شقيف واقليم شومر، ومن الشرق ناحية جزّين، ومن الغرب مدينة صيدا وسهلها، والخط الساحلي الممتد من مصب نهر سينيق إلى مصب نهر الزهراني. ثم شكل إقليم التفاح "مقاطعة" من معاملة صيدا في العهد الشهابي، وضُم في عهد المتصرفية إلى قضاء جزّين. وقراه اليوم موزعة بين هذا القضاء وبين قضاء صيدا.

---

[1]- إفادات الكثيرين من المعمّرين الثقات من نيحا وجوارها.

الفصل الثاني

فـــي العصور القديـــمـــة

في عصور ما قبل التاريخ

عصور ما قبل التاريخ: اصطلح علماء الآثار على تسمية الزمن الذي سبق الكتابة بـــ "عصور ما قبل التاريخ" préhistoire. ومنذ أواخر القرن التاسع عشر صاروا يميّزون بين مرحلتين، أولاهما تبدأ بوجود الإنسان وتنتهي بتاريخ اكتشافه النار، وقد ظلوا يطلقون عليها اسم "عصور ما قبل التاريخ". وثانيتهما تبدأ باكتشافه النار وصنعه بواسطتها الفخار، وصنعه الأدوات والاسلحة والمواعين من المعادن، وتنتهي بطور اعتماده الكتابة بحدود العام ٣٠٠٠ ق.م، وقد سمّاها العلماء "عصور ما قبيل التاريخ" protohistoire بناء على الفرق بين مدلول كلمة "قبل" وكلمة "قبيل" . وسمّوا دخول الإنسان في عصر الكتابة "فجر التاريخ"، والعهود التي تلت ذلك "العصور التاريخية".

واصطلح علماء الآثار على تسمية العصور تبعاً للأدوات التي استعملها الإنسان عبر مراحل تطوّره، التي تلت حياته البدائية الهمجية، فسمّوا بدايات هذه العصور "العصور الباليوليتية"، يقابلها في العربية "عصور الظرّان"، أو العصور الحجرية، نسبة إلى الظران أو الحجر الذي استعمله الانسان لصنع أدواته، صقيلةً أو غير صقيلة، كالشفار والمناشير للقطع، والأسنّة والمخارز والمقاشط والمجارف، وغير ذلك، إضافة إلى عظام

الحيوانات. ولفظة "الظرّان هي، في لغة العرب، جمع ظر وظررة وظرر، بمعنى الحجر المدوّر أو قطعة حجر له حد السكين[١].

تنتهي عصور الظرّان بالعصر النيوليتي الذي هو عصر الحجر المصقول (٥٠٠٠ – ٣٨٠٠ق.م.) حيث توصل الإنسان إلى انتاج الظرّان الصقيلة. وبعد العصر النيوليتي يبدأ العصر الانيوليتي (٣٨٠٠ – ٣٢٠٠ ق.م.) وسمي بذلك لأن الإنسان جمع في صناعاته بين المعدن (اينيوس) والحجر (ليتوس). وبانتهائه، وببداية عصر البرونز، تبدأ أوائل التاريخ في لبنان.

التوطن البشري الأول في لبنان: يعود توطن الإنسان في لبنان إلى العصر الباليوليتي (الظرّان) الأدنى القديم، الذي يمتد حتى سنة ٥٠٠٠٠٠ ق.م. وقد دخل إليه من أفريقيا عبر فيلق وادي عربه – وادي الأردن. وقد لوحظ ظهوره أولاً في برج قنّاريت إلى الجنوب الشرقي من صيدا. ثم ظهر بقلة في رأس بيروت في العصر الباليوليتي (الظرّان) الوسيط الذي يمتد من سنة ٥٠٠٠٠٠ إلى سنة ٢٠٠٠٠٠ ق.م. وقد استنتج الدكتور لويس لورته، عميد معهد ليون الطبي في فرنسا، من مشاهداته في سورية ولبنان وفلسطين، في سنة ١٨٧٥ وسنة ١٨٨٠، أن آثار حناويه، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة صور، هي من صنع إنسان العصر الحجري وما بعده، ومن صنع ثلاثة أجناس من البشر تعاقبوا على سكن هذه المنطقة، هم الأناسي، والفينيقيون الأوائل، وفينيقيو ما بعد التاريخ[٢]. ولعل هذا الاناسي هو من سلالة الإنسان الأول الذي ظهر في برج قنّاريت.

ظلت الكثافة السكانية حول بيروت، وفي ساحل لبنان الشمالي، أكثر من الجبال طوال عصور ما قبل التاريخ، مع وجود زيادة للمراكز السكنية في العصور الظرانية بين سنتي ١٥٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ ق.م. ومن هذه

١– ابن منظور: لسان العرب، المجلد الرابع، ص ٥١٧.

٢– لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ١٦٤.

المراكز في شمال لبنان وادي قاديشا، ووادي نهر الجوز، ومنها رأس بيروت، ومصب نهر بيروت، ومنها حول بيروت ميروبا وفالوغا وبسكنتا.

وبناءً على ما ورد يمكن استنتاج ما يلي:

١- ان توطن الانسان في لبنان حصل أولاً في جهات صيدا، ثم في بيروت، قبل ان ينتقل إلى المناطق الجبلية. لذا ظلت الكثافة السكانية في الساحل أكثر منها في الجبال في عصور ما قبل التاريخ.

٢- ان ساحلي صيدا وبيروت كانا ممراً للإنسان إلى ما وراءهما من الجبال، وإلى شمال لبنان.

أماكن آثار الإنسان المشهورة في لبنان، في عصور الظرّان، عديدة. منها في عصور الظران القديمة مغاور عدلون على منتصف الطريق الساحلية بين صيدا وصور، ومغاور نهر ابراهيم والجوز، ومأوى أبو حلقة الذي هو شبه مغارة صغيرة جنوب مدينة طرابلس، والعقيبة. ومنها في عصور الظرّان الحديثة ضفاف نهر الزهراني، وحراجل والمعاملتين، وشكا وجبيل، ومغاور برجا. واشهر هذه الآثار هي: انسان انطلياس "الذي عاش منذ مئة ألف عام، ولقّبه باحثو الآثار بالخواجه اغبرت"[1].

أماكن آثار الإنسان في بيروت وجبل لبنان الجنوبي: أماكن آثار الإنسان في العصر الباليوليتي الأدنى، والعصر النيوليتي، هي التالية:

- في العصر الباليوليتي الأدنى (القديم): ديك المحدي – الضبيّه – رأس بيروت – جديدة المتن – الدكوانه – سن الفيل – فرن الشباك – صيدا – برج قنّاريت – مصب نهر الزهراني – جزّين – جباع.
- في العصر الباليوليتي الأدنى (الأوسط): ميروبا – ديك المحدي – الضبيّه – جديدة المتن – الدكوانه – كفرنبيان – بقعتوته – بسكنتا –

---

[1]- فؤاد افرام البستاني: لبنان ما قبل التاريخ ، ص ٦٥.

رأس الكلب – بكفيا – المروج – سن الفيل – كسار عقيل – المطيلب– عين الشيخ – رأس المتن – فالوغا – فرن الشبّاك – بيروت – رأس بيروت – الوروار – خلده – حبنجر – الناعمة – نبع الباروك – ضهور الرملة – جزين – كفرملكي.

- في العصر الباليوليتي الأدنى (الحديث): ميروبا – ضهور الشوير – بكفيا – جعيتا – كسار عقيل – انطلياس – برمانا– جديدة المتن – الدكوانه – الفنار – برج البراجنة – بمريم – الفيّاضية – خلده النصرانية – نبع الصفا – الجيّه – بكاسين.

- في العصر النيوليتي: حراجل – القليعات– المعاملتين – كفرذبيان – جعيتا – ديك المحدي – بكفيا – انطلياس– المطيلب – جديدة المتن – عينطورة المتن – فالوغا – بيت مرى – الدكوانه – الحازمية – الجمهور – الحدث– بيروت – رأس بيروت – سن الفيل – فرن الشبّاك – برج البراجنة – الوروار – خلده – حبنجر – بطمه – المختارة – كفرحتى– جباع الحلاوة – صيدا – مصب نهر الزهراني– وادي دلهون (دلهوم سابقاً) – وادي برجا – وداي عانوت[١].

الكنعانيون

بدأت أوائل التاريخ في لبنان مع الشعب الكنعاني، وذلك في عصر البرونز القديم (٣٢٠٠ – ٢٧٠٠ ق.م) الذي تلاه عصر البرونز الوسيط (٢٧٠٠ – ١٧٠٠ ق.م.) ثم عصر البرونز الحديث (١٧٠٠ – ١٢٠٠ ق.م). وبنهايته بدأ عصر الحديد.

١- اعتمدنا في ذكر اسماء مراكز الآثار على عدة مراجع، وخصوصاً على الدكتور في علم الآثار، وسام خليل، وعلى خرائط اطروحته بعنوان : prospection dans le Liban meridional, volume IV

هاجر شعب سامي، لغته سامية، من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب. ومن هناك اتجهت جماعات منه، عبر البقاع وشمال سورية، في الألف الثالث ق.م. إلى السواحل السورية واللبنانية والفلسطينية. وعرفت المنطقة التي توطنتها باسم "كنعان" ومعناها الأرض المنخفضة، فيما كان لبنان الذي عرف باسمه هذا، نسبة إلى بياض ثلوجه، يشير إلى الارتفاع. ولربما كان اسم الكنعانبين نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح بحسب ما جاء في سفر التكوين[1]: وكان للساحل اسم آخر في الكتابات المصرية ابتداءً من الألف الثالث ق. م. هو "فنهور" أو "فنخو".

ومنذ أواسط الألف الأول ق.م. نشأت تسمية أخرى لكنعانيي المدن الساحلية اللبنانية، أطلقها عليهم الأغريق، وهي الحمر phonix ، إما نسبة إلى الصباغ الأرجواني الأحمر الذي كانت تصبغ به الأقمشة الجيدة وتباع إلى الإغريق، أو نسبة إلى بشرة الكنعانيين الحمراء. وبناءً عليه ظلّ كنعانيو فلسطين يعرفون باسمهم فيما صار كنعانيو الشمال، أي كنعانيو لبنان، يعرفون بالكنعانيين الفينيقيين. الا أن هذا اللقب (الفينيقيين) لم يغلب في البداية على الاسم الأصلي (الكنعانيين)، بدليل ما ورد في انجيل متى عن خروج يسوع إلى نواحي صور وصيدون، ومخاطبته هناك من قبل امرأة كنعانية.

للشعب الكنعاني فضل انشاء أهم المدن التجارية على شاطئ البحر المتوسط، وهي أرواد وجبيل وصيدا وصور وبيروت، وفضل انشاء حضارة، أبرز معالمها الفكرية نشر الأبجدية. وله، بالإضافة إلى فضل إعمار الساحل اللبناني، فضل إعمار ما وراءه من مرتفعات. وأقدم المدن الكنعانية هي جبيل التي وردت في الكتابات المصرية باسم "كيبين" أو "كين"، وذكرتها كتابات بلاد ما بين النهرين باسم "جوبلة"، ودعاها "العهد القديم" جبيل، ودعيت بالآرامية "جبليت"، كما دعاها اليونان "بيبلوس" أي مدينة الكتاب.

---

[1]– سفر التكوين، ١٠: ٦، ١٥.

انطلق الكنعانيون من المدن إلى المرتفعات الشرقية عبر الممرات السهلة في أحواض الأنهار، وتوسّعوا في السكن تدريجاً. وتوطنوا وحدهم، أو مع السكان القدامى، الأماكن التي توفر لهم وسائل العيش. فسرّحوا قطعانهم في المراعي. وزرعوا المروج، والأراضي السهلية وشبه السهلية، بالحبوب والكرمة والتين والزيتون. واستفادوا من الغابات الكثيفة المكتظة بمختلف الأشجار، ولا سيما اشجار الأرز والسرو والسنديان، فقطعوها للحصول على الحطب، وعلى الخشب اللازم لمختلف الصناعات، وفي طليعتها صناعة البيوت والسفن.

وإذا كانت الحواجز الطبيعية (الأنهار والخلجان والرؤوس والممرات الساحلية الضيقة والصعبة)، والنزعة القبلية، والنزعة التجارية، حالت دون اتحاد المدن الكنعانية، فان كثرة الغابات والوحوش الضارية في ما وراءها من مناطق جبلية، وصعوبة مسالكها، حالت في البداية دون توسع ممتلكات هذه المدن نحو المرتفعات الشرقية، ثم حصل هذا التوسع تدريجاً، بحيث صار للمدن المهمة ممالك، توسع بعضها بحرياً إضافة إلى توسعه برياً، هي مملكة جبيل، مملكة أرواد، مملكة صيدون، مملكة صور، مملكة بيروت.

مملكة بيروت

المكان الذي قامت فيه بيروت كان في عصور ما قبل التاريخ جزيرة. فبيروت اليوم محاطة بمياه البحر من الشمال والجنوب والغرب، وكان إلى الشرق منها مضيق يصل بين مصب نهر بيروت في الشمال، ومصب نهر الغدير في الجنوب. وفي الطور الجيولوجي الرابع هبطت مياه البحر فانكشف المضيق، وانفسح المجال للرمال المحمولة بالرياح الجنوبية الغربية، وللأتربة المحمولة بالسيول والأمطار من منحدرات جبل لبنان، ان تغطّيه. فتحولت الجزيرة إلى شبه جزيرة، أو إلى رأس كبير هو أطول الرؤوس في لبنان، يمتد في البحر تسعة كيلومترات، واسمه رأس بيروت.

بعض خرافات الأقدمين تنسب بناء بيروت إلى الآلهة لا إلى الشعب الكنعاني. وبعض المؤرخين يعتبرها مدينة آرامية "وأول مستعمرة آرامية

تغلّب عليها الفينيقيون"[١]. وهي في نظر آخرين أولى مستعمرات مدينة جبيل، وقد جعلها الجبيليون مملكة مستقلة متاخمة لمملكتهم[٢]. اسمها سامي فينيقي، لكنه لم يُتفق على مدلوله، وان كان من المرجّح انه مشتق من البئر، وجمعه بئروت[٣]، وتصحيفه بيروت، لكثرة ما كان فيها من آبار. وكتابتها في اليونانية واللاتينية بريتون، بيرتون، بيريتوس، بيريثو. واسمها في الهيروغليفية بيروتا وبرت.

نشأت مدينة بيروت، حول ميناء طبيعي وُسّع مع الزمن. موقعها في الناحية الشمالية من رأسها. يحيط بها سهل متسع يتصل جنوباً بسهل آخر يُسمّى "صحراء الشويفات"، وينتهي شرقاً عند نهاية منحدرات جبل لبنان في جهات سن الفيل والدكوانه والحازمية والحدث. توسعت بيروت عبر العصور. وبالرغم من تهدّمها جزئيّاً مرات، وتهدّمها كلياً مرتين: مرة في العهد السلوقي، ومرة في العهد الروماني، أعيد بناؤها في نفس المكان. وكان من الطبيعي ان تُبنى الأسوار في نهاية أبنيتها وحول المرفأ للدفاع عنها.

ما جرى من حفريات، بسبب أعمال البناء، أظهر بعض آثار بيروت. وما جرى من تنقيب بمعونة دولية ابتداءً من سنة ١٩٩٤، في "الوسط التجاري"، بعد تهدّم أسواقها جراء الحرب اللبنانية، أظهر الطبقات الأثرية المختلفة، وأنواع الآثار العديدة، ولا سيما الكنعانية والرومانية. فقد تبين أن طول المدينة القديمة يقارب ٢٤٠م، وعرضها ١٢٠م، وهي على شكل قوس بمواجهة البحر، بني فيها ستة أسوار بين العصر البرونزي المتوسط والعصر الحديدي. كما ظهر في الحفريات للبنى التحتية آثار تعود إلى العصر الحجري وإلى العصر النيوليتي والبرونزي والحديدي، منها جرة مدفنية

---

[١]- يوسف الدبس: من تاريخ سورية، الجزء الأول، ص ٩.

[٢]- لويس شيخو: بيروت ... ص ٢٣.

[٣]- يوسف السودا: تاريخ لبنان الحضاري، ص ٥١.

لطفلة عمرها بين ٣ و ٤ سنوات من العصر البرونزي المتوسط، وأهراء، وفخاريات وبئر من العصر البرونزي المتأخر[١].

كان جزء من السهل الذي قامت فيه بيروت كافياً لمدينة صغيرة. إلا ان السهل كله لم يعد كافياً لمدينة تنمو وتكبر، وعندها معطيات الازدهار والتوسع، لذا توسعت ممتلكاتها فشملت الساحل الشمالي حتى نهر الكلب، وفيه سهل صغير واقع بينها وبين انطلياس، والساحل الجنوبي حتى نهر الدامور، وفيه منبسط صغير عند خلده ومنبسط أوسع عند الدامور. والساحلان بطول ٣٦ كيلومتراً. كما توسّعت نحو الشرق في المرتفعات بعرض لا يتجاوز عشرة كيلومترات[٢]، أي أنها لم تمتد أبعد من هضاب بيت مرى وعاليه وسوق الغرب وكيفون وعيناب وعين كسور وعبيه. وكان من الطبيعي أن تتقلّص ممتلكاتها في حالات الضعف فلا تتجاوز عندها حدودها البحرية نهر انطلياس في الشمال، وجهات خلدة في الجنوب.

كانت بيروت تجد في ما وراءها من مرتفعات معظم المواد الغذائية (النباتية والحيوانية) التي تحتاجها، والأخشاب الضرورية لمختلف الصناعات، كما كانت تستخرج الحديد الضروري للصناعات المختلفة من الجبل الواقع إلى الشرق منها والمسمى باسمها. واعتماداً على ان برت تعني بيروت في القرن السابع ق.م. "كانت العبارة با ان برت تستعمل في اللغة المصرية للدلالة على الحديد، ومعنى هذه الكلمة حرفياً "بضاعة بيروت"، فيستنتج إذن من استعمال هذه الكلمة ان شغل الحديد كان شائعاً في بيروت، وانه كان بجوار هذه المدينة معادن يستخرج منها الحديد بكثرة"[٣]. وإذا شئنا تفسير المقصود بعبارة "بجوار بيروت" فإن الفكر يذهب رأساً إلى الجبل الواقع إلى الشرق منها والمسمى باسمها، إذ منه كان يستخرج الحديد، وظل هذا الجبل مشهوراً به إذ ذكر في العهد المملوكي ان ببيروت "جبل فيه معدن

١- مجلة بعل (Baal) (نشرة الآثار والعمارة اللبنانية) العدد الثاني، ص ٤ -٩.

٢- لويس شيخو: بيروت.. ص ٢٣.

٣- لامنس: تسريح الأبصار... ، الجزء الثاني، ص ٢٢٢.

حديد"[1]. فأين تقع مناجم الحديد؟ يرجح أنها في الأرض الحمراء التي يطلق على بعضها اسم "الشحّار".

يرتبط تاريخ بيروت بنهر يحمل اسمها اليوم، ويصب في البحر إلى الشمال منها، ويسقي السهل المحيط بها. أما بيوتها، فكانت ترتوي من الآبار إلى أن وصلتها المياه أيام الرومان. الاسم القديم لنهر بيروت هو "ماغوراس"، ثم أخذ اسم نهر الجعماني. وهو ينبع من شمال جبل الكنيسة وينضم إليه نهر حمّانا الذي ينبع مما يسمى "شاغور حمانا" فيلتقيان تحت أسفل بلدة رأس المتن.

مملكة صيدون (صيدا)

يعود نشوء صيدون إلى سنة ٢٩٠٠ ق.م. وهي ام مدينة صور. وجاء في "العهد القديم" ان صور "بنت صيدون"[2]. اسمها هذا باليونانية واللاتينية. واسمها بالعبرانية "صيدو". وربما اشتق من لفظة "صيد" لشهرة أهلها بصيد السمك، أو انه على اسم أحد أبناء كنعان "صيدونيوس". وقد ظلت تعرف بصيدون حتى العهد الروماني.

كانت صيدون في الأصل قسمين، أولهما على الشاطئ، وثانيهما على تل يشرف على البحر، ولها ميناءان، داخلي وخارجي. نشأت صيدون على رأس أصغر من رأس بيروت، وفي سهل أقل اتساعاً من سهلها، يحيط بها من الشمال والجنوب والشرق، يرويه نهر الأولي في الشمال، ونهر الزهراني في الجنوب. وإلى الشمال منه ساحل ضيّق صخري حيث تصل المنحدرات الجبلية إلى البحر، ينفرج عن فسحتين سهليتين صغيرتين هما سهل الرميلة حيث قامت إلى الشمال منه مدينة بلاطُنس، وسهل الجيّة حيث قامت فيه مدينة بورفيريون. تمّرت صيدا مراراً وأعيد بناؤها في المكان الذي قامت فيه نظراً لحسن موقعه.

---

[1]- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص ٣٦٣.

[2]- سفر اشعيا، ٢٣ : ١٢.

الأراضي الساحلية المحيطة بصيدون غير كافية لتكوين مملكة مهما كان لها من مستعمرات. لذا وجدت مجالها الحيوي في المرتفعات الشرقية، والساحل الممتد إلى الشمال وإلى الجنوب منها، فبلغت حدودها الشمالية نهر الدامور، واسمه في الخرافات القديمة "بعل دمر"، وسماه المؤرخ بوليب "داموراس"، والمؤرخ استرابون "تاميراس" من بعل تمر أي إله النخل. أما دامور، فمعناها بالسريانية "العجب"، ومعناها بالعربية "المخرّب"[1]. وهذا المعنى ينطبق فعلاً عليه، لأنه كثيراً ما فاض وهدم الجسور والمطاحن القائمة عليه.

لم تقف الحدود الشمالية لمملكة صيدون، دائماً، عند نهر الدامور، بل كانت تتجاوزه إبّان ازدهارها، وإبّان توسّعها على حساب مملكة بيروت. ففي منتصف الألف الثاني ق.م. كان لها السيادة البحرية، وفي بعض الأزمنة كان لها الرئاسة على المدن الفينيقية. وفي عهد السلوقيين ظلت تحتفظ بجزء كبير من دورها فيما غدت بيروت مدينة ثانوية. وكثيراً ما ثار النزاع بينهما بسبب طمع صيدون بالسيطرة على بيروت ورغبتها في التوسع على حسابها. وهذا النزاع لم يؤد إلى سيطرة صيدون على كامل مملكة بيروت، وانما إلى سيطرتها على بعض ممتلكاتها. وهذا أحد وجوه انقسامات المدن الفينيقية، وعدم توحّدها، وصراعها مع بعضها البعض.

توسعت حدود مملكة صيدون في الجنوب حتى بلغت جبل الكرمل في شمال فلسطين حين اعطاها الملك نبوخذ نصّر الكلداني مقاطعة من مملكة يهوذا، هي سهل سارون في جوار يافا واللد[2]. وهي لم تفقد هذه المقاطعة الا بعد الثورة الفاشلة التي قامت بها على الفرس. وقد وقفت حدودها عند الصرفند إبان تنامي مملكة صور. أما حدودها الشرقية ، فبلغت قمم الجبال. وكان سكن الكنعانيين خارج صيدون أولاً في المغاور، ومنها مغاور برجا والمعنية ودلهون وجون، قبل سكنهم في البيوت. وقد وجدت أسلحة برونزية

---

[1] – ابراهيم الأسود: ذخائر لبنان، ص ٣٥.

[2] – جرجي يني: تاريخ سوريا، ص ٩٢.

وهياكل عظمية في جرار فخارية ومغاور مدفنية كنعانية فينيقية في العديد من قرى إقليم الخرّوب[1].

ارتبطت صيدون بنهر صيدون الذي يصب على بعد ٤ كلم إلى الشمال منها، اكثر مما ارتبطت بنهر الزهراني الذي يصب إلى الجنوب منها. ولنهر صيدون الأسماء التالية: الفراديس، وتلفظ "الفريديس"، وهي لفظة فارسية تعني الجنائن والبساتين نظراً للبساتين المحيطة بمبنعه، والتي أعطت اسمها للقرية القائمة هناك على ضفة منبعه اليمنى. والباروك نسبة إلى القرية القائمة على ضفة منبعه اليسرى. والأولي لأن النهر كان في العهد العثماني أول أراضي إيالة صيدا وأول أراضي الإمارة الشهابية. وبوسترإينوس Bostrenus من بوسترا Bostra الرومانية التي تقابل اسكليبوس Asclepioualos اليونانية، ومعناها إله الشفاء كما هو أشمون إله الشفاء عند الفينيقيين. وقد بنى الصيدونيون لهذا الإله هيكلاً في محلة اسمها اليوم "بستان الشيخ"، على الضفة اليسرى لنهر صيدون قريباً من علمان، وعلى بعد ٤ كلم ونيّف من المدينة. الهيكل أهم المجمّعات الدينية على الساحل الفينيقي، بني في العهد الفارسي في عهد سلالة الملك تيبنت عزر وابنه اشمون عزر، الذي اكتشف ناووسه في سنة ١٨٥٩ وعليه كتابة تفيد أنه ووالدته خادمة عشتروت بنيا الهيكل للإله اشمون والإلهة عشتروت. والناووس محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس.

أقدم محاولات استفادة الصيدونيين من نهر الأولي هي ما يشير إليه نقش ملك صيدون في أواخر القرن السادس ق.م.، بود عشترت Bod Ashtart، عن بنائه سدّاً على الضفة اليسرى لمجرى النهر، ربّما لايصال المياه إلى هيكل اشمون. ثم أُخذت من النهر قناة تروي البساتين، تنفذ المياه منها إلى قناة تحت الأرض تنتهي في المدينة بـــ ٩٢ ماسورة تسقي الناس ويستفيد منها ٨٠ بناءً عاماً من مساجد وكنائس وحمامات[2]. ونظراً لأن نهر

---

[1]- أحمد يونس: المعالم الأثرية والتاريخية، ص ١٣٦، ٢٣٢.

[2]- لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الثاني، ص ١٧١.

الأولي هو الشريان الحيوي لسكان صيدا وبساتينها ظل أهلها حتى أوائل القرن العشرين يراقبون على طول مجراه المطاحن وقنوات المياه المأخوذة منه والمسجلّة في قيود رسمية كي لا يُستهلك من مياهه أكثر من الكمية المعترف بها.

إلى الشرق من مجرى نهر الأولي في مرج بسرى تقوم مغارة وسط شاهق صخري زائد الارتفاع، اسمها الآرامي "شقيف تيرون"، يدل على قدمها. وإلى الجنوب منها مغارة جزّين الواقعة بالقرب من الشلاّل. وقد اعتبرهما بعض المؤرّخين من مغاور الصيدونيين، اعتماداً على سفر يشوع[1]. لكن سفر يشوع يورد لفظة "عاره" لا "غارة" التي فسّرت مغارة، وقاموس الكتاب المقدّس يفسّر "عارة" انها اسم سامي، معناه مدينة هي إحدى المدن الكبرى في مؤاب[2].

إن ورود لفظة "عارة" التي للصيدونيين في "العهد القديم" لا يعني إذاً المنطقة الواقعة إلى الشرق من صيدون، أي منطقة جزّين ونيحا، بل يعني منطقة من فلسطين. إنما هذا لا ينفي نهائياً أن تكون "عاره" التي للصيدونيين واقعة في مملكة صيدون، لأن هذه المملكة امتدت إلى جهات الكرمل في فلسطين في العهد الكلداني.

أظهرت المكتشفات الأثرية التسلسل التاريخي في مدينة صيدون، دون انقطاع، من العصر البرونزي القديم إلى العصر الحديدي. وقد توالت أعمال بعثات التنقيب فيها بعد اكتشاف هيكل اشمون، وبدايتها كانت بعثة ارنست رينان في أواسط القرن التاسع عشر، وآخرها في أوائل القرن الواحد

---

[1]- مرتين اليسوعي: تاريخ لبنان، ص ٢٩١، وعيسى اسكندر المعلوف، تاريخ زحلـة، ص ٣٩. وهو يقول ان المراد بمغاور الصيدونيين مغاور نيحا وعلون. وربما كان تفسيره هذا معتمداً على نسخة من العهد القديم يرد فيها لفظة "غارة" لا "عارة".

[2]- سفر يشوع، ١٣: ٢٤، أنظر الكتاب المقدّس، ص ٤٤٢، وأنظر قاموس الكتاب المقـدّس، ص ٥٨٨.

والعشرين حيث عُثر على ٦٠ مدفناً حتى سنة ٢٠٠٤[١]. والحفريات التي جرت في صيف سنة ٢٠١١ أظهرت آثاراً للكنعانيين من الألف الثاني ق.م.، هي الأغنى والأهم، ومنها ١١٤ مدفناً و ٨ هياكل عظمية لمحاربين وأطفال كنعانيين. وقد تركزت أعمال الحفر على الطبقة التاسعة. واكتشفت البعثة البريطانية، بالتعاون مع المديرية العامة للآثار، في حفرية "الفرير" خمسة هياكل عظيمة، وبئراً فريدة من نوعها، وآلة موسيقية وتمثالاً يعودان إلى الألف الأول ق.م.

مملكة أفيق لا وجود لها في جبل لبنان الجنوبي

إن حدود مملكة صيدون من جهة الشرق وقفت، بحسب ما جاء عند المؤرخ الأب مرتين اليسوعي، "عند القمم الأولى تاركة الوهاد الداخلية لكثير من الملوك الصغار الكنعانيين"[٢]. ولم يسمِ المؤرخ أحداً من هؤلاء الملوك. الا انه اعتماداً على سفر يشوع، سمّى مملكة واحدة واقعة إلى الشرق من صيدون، هي مملكة أفيق، وقال إن مدناً كثيراً سميت باسم "أفيق"، وكل واحدة منها تستطيع أن تدّعي أنها هي تلك المملكة القديمة. ولكنه جزم بأن مملكة أفيق القديمة تشتمل على جبال عالية محدودة بتخوم صيدون ونهر الليطاني ومملكتي حاصور ورحوب، وذكر معنى كلمة "أفيق"، وهو اندفاق الماء، وهذا الاندفاق من صفة نبع جزّين وشلاله، ومن صفة نبع الزهراني، وقال إن قاعدة هذه المملكة هي بين جزّين وكفرحونه، وعلى الأرجح في جزّين بسبب حسن موقعها وأخربتها المهمة، ولأن جزّين وواديها مكتنفان بجبال عالية هي لهما بمنزلة اسوار منيعة"[٣].

ان أفيق الواردة في سفر يشوع غير مقصود بها، في رأينا ، المنطقة الواقعة بين جزّين وكفرحونه، بل المقصود بها افيق الموجودة إلى الشرق من

---

[١]- مجلة "بعل" (Baal) نشرة الآثار والعمارة اللبنانية ، العدد السابع ، ص ٩. والعدد الثامن.

[٢]- مرتين اليسوعي: تاريخ لبنان، ص ٢٧٣.

[٣]- المرجع نفسه، ص ٢٩٠ – ٢٩٢.

بحيرة طبريا، أو افيق الموجودة إلى الشمال الشرقي من يافا، لأنها وردت، في إحدى المرات الثلاث من ورودها في سفر يشوع، بعد "عكّو"[1]. ولأن أفيق مع "أكو" (عكّو) واورشليم من المدن الناشئة ابتداءً من القرن التاسع عشر وحتى عام ١٧٥٠ ق.م. ويذكر مصدر قديم ان أفيق إحدى مدن الأردن[2]. وهذه المدينة واقعة بين دمشق وطبريا[3]، وأفيق قرية من قرى مصر[4]. وقد اعتبر البعض افقا في أعالي مدينة جبيل انها أفيق بسبب تشابه الاسمين، وتدفق المياه من مغارة افقا التي ينبع منها نهر ابراهيم. وبناءً على هذا لا وجود لمملكة افيق في جهات جزّين.

بعد أن أثبتنا أنه لا وجود لمملكة صغيرة اسمها "أفيق" في جهات جزّين، الواقعة في جبل لبنان الجنوبي، وأن هذه المملكة موجودة في جهات فلسطين، يصح التساؤل عما إذا كان في جهات جزّين شعب كنعاني، لا مملكة كنعانية، أو شعب آخر هو بقايا السكان الأصليين الذين جاؤوا عبر الساحل اللبناني. فحتى أواسط الألف الثاني ق.م. لم يكن الكنعانيون قد وصلوا إلى المرتفعات البعيدة عن الساحل، بحسب ما يرى العديد من المؤلفين. ومنهم من يرى "ان الفينيقيين توطنوا الساحل ومدنه، والمرتفعات القريبة منهما، واكتفوا باستثمار الأراضي الزراعية تاركين للسكان القدماء استثمار غابات الجبال"[5]. وقد يكون من هؤلاء السكان من نزل جهات جزّين وجوارها، أي نيحا، واستثمر الغابات والمراعي الكثيرة هناك.

ومما يوحي بوجود سكان قدماء في هذه الجهات وجود مزار للنبي أيوب وسط قمة متفرّعة من جبل نيحا، تقول الأدبيات الدرزية إن النبي أيوب شفي هناك، وانه كان في بلدة نيحا سكان آنذاك، أخذت منهم رحمة، زوجة

---

[1]- سفر يشوع، ١٣: ٤ و ١٩ :٣٠.

[2]- البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٣.

[3]- ياقوت الحموي: معجم البلدان ، المجلد الأول، ص ٢٣٣، والملجد الرابع، ص ٢٨٦.

[4]- القزويني: آثار البلاد واخبار العباد، ١٤٩.

[5]- Seyrig 1953 p 12 - 50

أيوب، خبزاً له. إلا ان المصادر التاريخية التي تذكر قصة أيوب، ابتداءً من أواخر الألف الثاني ق.م.، لا تشير إلى ولادة أو مرور أو وفاة النبي أيوب في نيحا، أو في أي مكان آخر من لبنان[1]. وهذا على الأقل يضعف الرواية الدرزية عن النبي ايوب ، لكنه لا ينفي احتمال وجود السكان في عهده في منطقة نيحا وجوارها.

ارتباط تاريخ جبل لبنان الجنوبي بتاريخ بيروت وصيدون (صيدا)

وردت الإشارة إلى أن الإنسان القديم توطن اولاً في برج قنّاريت، ومنه انتقل شمالاً إلى ما تبقى من الساحل اللبناني، ومما توطنه فيه بيروت وصيدون. وبعد ذلك انتقل إلى المرتفعات، ومنها المرتفعات الواقعة إلى الشرق من بيروت وصيدون، ثم تلاه الكنعانيون الذين جاؤوا إلى الساحل اللبناني حوالى الألف الثالث ق.م. وبعد ان انشأوا مدن ارواد وجبيل وبيروت وصيدون وصور انتقلوا إلى المرتفعات الشرقية واختلطوا مع السكان القدامى الذين سبقوهم إلى السكن فيها. وبناءً على ذلك يمكن القول إن الوجود البشري في المناطق الجبلية اللبنانية في عصور ما قبل التاريخ، مرتبط بالوجود البشري في الساحل ومدنه، وان تاريخ جبل لبنان الجنوبي تحديداً مرتبط بتاريخ بيروت وصيدون كما ان تاريخ افقا والعاقورة وسائر مرتفعات جبيل مرتبط بتاريخ مدينة جبيل.

حين ازدهرت بيروت وصيدون كان جبل لبنان الجنوبي المجال لتوسعهما البري اذ شكل الامتداد الأول لمملكتيهما، والممر الحيوي لهما نحو البقاع والداخل السوري. وبعد اعمار جبل لبنان الجنوبي وازدهاره كانت بيروت وصيدون الرئة التي يتنفس منها، والنافذة التي يطل منها على التجارة البحرية، والمقر الشتوي لأمرائه الذين تولى بعضهم شؤونهما، كما تولى

---

[1]– أنظر ابن اياس: بدائع الزهور... ص ١١٧ – ١٢١، وتاريخ أبي الفداء، الجزء الأول، ص ٣٢ –٣٣. وابن كثير: البداية والنهاية، الجزء الأول ، ص ٢٢٠ – ٢٢٥، ونعمة الله الموسوي الجزائري: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ص ٢١٢ – ٢٢٥.

قومه الدفاع عنهما. ان الدفاع عنهما ضد هجمات الروم البيزنطيين كان الدافع إلى استقدام الخليفة العباسي، أبي جعفر المنصور، العشيرة اللخمية للإقامة في جبل بيروت وقد سُمّي كتاب المؤرخ صالح بن يحيى عن قومه البحترين اللخميين "تاريخ بيروت".

إن سكان جبل لبنان الجنوبي ما كانوا تجمّعات منعزلة، تؤمن وسائل عيشها من مناطق سكنها فحسب، بل كانوا أيضاً تجمّعات على صلة بالحركة الاقتصادية والعمرانية والتجارية التي تجري في مدينتي بيروت وصيدون، حيث كان تجار هاتين المدينتين ينقلون بضائع الشرق إلى الغرب، وبضائع الغرب إلى الشرق، وحيث كانوا يؤمنون لصناعتهما المزدهرة المواد الأولية الموجودة في مرتفعات جبل لبنان الجنوبي. يُضاف إلى ذلك حاجة المدينتين إلى الانتاج الزراعي والحيواني. وكان سكان جبل لبنان الجنوبي يتأثرون بالحروب والغزوات التي تستهدف الساحل والداخل، عبر أراضيهم، وكانوا على صلة دائمة بالأوضاع السياسية والعسكرية والإدارية لهاتين المدينتين.

كانت مدينتا بيروت وصيدون المصب والخزان والمرفأ، والمحطة التجارية، والمركز الإداري لسكان جبل لبنان الجنوبي . كما كان هؤلاء أحد عوامل ازدهارهما وتوسعهما. وبسبب هذه الصلات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والإدارية نشأت صلة وثيقة بين بيروت وصيدون وجبل لبنان الجنوبي، وسمي ما وراء صيدون من مرتفعات "جبل صيدا"، وما وراء بيروت من مرتفعات "جبل بيروت". ووردت هاتان التسميتان في المصادر القديمة [1] كما وردت في الوثائق العثمانية الرسمية ومنها ما يعود تاريخه إلى سنة ١٦٩٤ [2]. وبسبب هذه الصلات المستمرة عبر العصور

---

[1]- ورد اسم "جبال بيروت" في السجل الإرسلاني: الاثبات الأول بتاريخ كانون أول ٧٥٨. وورد في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى الذي عاش في أواسط القرن الخامس عشر، وذلك ابتداءً من عهد السلاطين الأيوبيين .

[2]- أنظر وثائق دفتر المهمة العثماني ١٥٤٦ – ١٧١١، عند عبد الرحيم أبو حسين: لبنان والإمارة الدرزية ص ٦٣– ٦٤، ٧٢، ٧٤.

نشأ عند سكان جبل صيدا وجبل بيروت تقليد استمر حتى القرن التاسع عشر يقضي بإضافة عبارةٍ إلى اسم قريتهم في الصكوك والاتفاقيات هي أنها من أعمال أو من قرى "صيدا المعمورة" أو المحروسة، أو "بيروت المعمورة" أو المحروسة. ولا يزال موارنة جبل صيدا حتى اليوم يتبعون لابرشية صيدا – دير القمر، وموارنة جبل بيروت يتبعون لابرشية بيروت. والحد الفاصل بين الأبرشيتين هو نهر الصفا من منبعه إلى مصبه.

في عهود الدول القديمة حتى نهاية العهد الفارسي

موجز الأحداث التاريخية: تبدأ هذه المرحلة بتاريخ إقامة مصر علاقات تجارية مع مدينة جبيل في أوائل الألف الثالث ق.م. ولما كان المجال لا يتسع لذكر تفاصيلها، سنكتفي بذكر موجز للأحداث التي جرت للمدن الفينيقية، يساهم في رسم الإطار العام لتاريخ بيروت وصيدون وجبل لبنان الجنوبي، وفي الإضاءة عليه.

- الهكسوس المعروفون باسم "الملوك الرعاة"، وفي مصر باسم "أسياد أو حكام البلدان الأجنبية"، يجتاحون في أواخر القرن السابع عشر ق.م. القسم الأكبر من سورية، والساحل اللبناني، ثم يغزون مصر.
- المصريون، بقيادة الفرعون احمس الأول، يحرّرون بلادهم، ويطردون الهكسوس، ويتعقبونهم في سورية لحماية حدودهم الشمالية، ولتوسيعِ نفوذهم. ثم تتتابع حملاتهم، ومنها حملات تحوتمس الثالث، الذي انتصر في مجدّو (تل المتسلّم) في سنة ١٦٤٨ق.م. على الهكسوس وحلفائهم من الملوك السوريين والكنعانيين، فاظهرت الخضوع له "مئة وتسع عشرة مدينةً منها باروتا (بيروت)[1].
- انشغال المصريين بالانقلاب الديني الذي قام به الفرعون اخناتون، ودعا إلى عبادة الآله أتون الممثل بقرص الشمس بدلاً من أمون.

---

[1]– يوسف الدبس: من تاريخ سورية، الجزء الأول ، ص ١٧١.

واستغلال الملك الحتّي شوبي لوليوما (١٣٦٥ – ١٣٢٥ق.م.) فرصة ضعف المصريين، ونجاحه في توسيع رقعة دولته، وفي تحريض الزعماء المحليين على الثورة ضد المصريين. آنذاك تباينت مواقف المدن الفينيقية، إذ وقفت جبيل وبيروت وصور إلى جانب الفرعون، ووقفت صيدون وارواد ضدّه، واحتل ملك صيدون صور البرية.

- عودة كامل المدن الفينيقية إلى السيطرة المصرية بعد خوض رعمسيس الثاني معركة قادش في سنة ١٢٧١ ق.م. ضد الملك الحتّي سيلي بموجب الصلح الذي عُقد بين الفريقين وأبقى الساحل اللبناني تحت النفوذ المصري. وقد خلّد رعمسيس الثاني زحفه بنقش على صخور نهر الكلب.

- اجتياح شعوب البحر (الفلسطينيين) للمدن الفينيقية واحراقهم صيدون وتدمير اسطولها في سنة ١١٧٠ق.م. مما أدّى إلى ضعفها وخضوعها بعد ذلك لمدينة صور.

- استيلاء الآراميين على شمال سورية وشرقها، وتأسيسهم عدة دول، منها دولة آرام دمشق التي توسّعت جنوباً، وخاضت الحروب مع دولة اسرائيل، وتوسّعت غرباً فوصلت إلى البقاع. ومع أن الآراميين لم يتمكّنوا من الاستيلاء على مدن جبيل وصيدون وصور، لأنها "كانت محصّنة ومن القوة بمكان" [1]، فانهم غزوها وغزوا سائر المدن والمناطق اللبنانية ثقافياً بنشر اللغة الآرامية من خلال التجارة، لا من خلال التوسّع العسكري.

- الملك الاشوري ناصر بال الثاني (٨٨٣ – ٨٥٨ ق.م.) يصل في زحفه من بلاد ما بين النهرين إلى المدن الفينيقية ويأخذ الجزية منها. والملك تغلت بلاسَر الثاني (٧٤٥ – ٧٢٦ ق.م.) يفرض من جديد السيطرة الاشورية على هذه المدن، ويذكر انه أخذ الجزية من ملك

---

[1]- دوبونت سومر: الآراميون ، ص ٣٨.

جبيل وملك صور. وحين ثارت مدينة صيدون في سنة ٦٧٥ ق.م. على الاشوريين دمّرها الملك اسرحدون (٦٨١– ٦٦٨ق.م.)

- الملك نبوخذ نصّر الكلداني يخضع صيدون ، لكنها تبلغ في عهده أقصى اتساعها في الجنوب، لأنه منحها مقاطعة ساحلية في شمال فلسطين كانت تابعة لمملكة يهوذا. ثم يخضع صور في سنة ٥٧٢ ق.م. بعد حصار ١٣ سنة.

- الملك دارا الفارسي يخضع المدن الفينيقية ويجعل مدينة صيدون عاصمة للمزربانة (الايالة) الخامسة، التي تشمل سورية ولبنان وفلسطين وجزيرة قبرص، فتصبح مقراً للحاكم الفارسي، ويغدو ملكها أهم من ملوك صور وجبيل وأرواد، وله قيادة الأسطول الفارسي. وبعد أن ازدهرت في عهد الفرس، وساعدتهم في حروبهم ضد المدن اليونانية، ثارت عليهم مع مدن وولايات كثيرة على اثر فرضهم الضرائب الباهظة، فأخمد الملك ارتحشستا الثالث العديد من هذه الثورات. وحين وصل إلى صيدون رأى الصيدونيون أنهم عاجزون عن المقاومة فاحرقوا مدينتهم وأسطولهم وأنفسهم، وكان ذلك في سنة ٣٥٠ ق.م.

المدن الفينيقية في النصوص القديمة: المدوّنات القديمة، التي تتناول تاريخ المدن الفينيقية ابتداء من الألف الثالث ق.م، كثيرة. ومنها النصوص والنقوش التي تعود إلى الألف الثاني والألف الأول ق.م.، والتي تتكلم عن احتلال ملوك الدول المجاورة للمدن الفينيقية، والحوادث ذات الصلة مع هذه المدن، مثل الرسائل المكتشفة في تل العمارنة، والوثائق الملكية المصرية، واللوحات المنقوشة بالكتابات المصرية والمكتشفة في كامد اللوز وفي تل العمارنة، ووثائق أوغاريت (رأس الشمرا)، ونقوش الغزاة، الذين مرّوا في المدن الفينيقية، على صخور نهر الكلب، ونقوش ملوك بلاد ما بين النهرين.

جميع المدوّنات والنصوص والنقوش تذكر فقط أسماء المدن الفينيقية وملوكها، ولبنان وجبل لبنان والأرز، ولا تذكر أكثريتها الساحقة مدينة

بيروت مما يدل على أنها أقل شأناً بكثير من سائر المدن الفينيقية عموماً، ومن جارتيها جبيل وصيدون تحديداً. ومع عدم وجود أي ذكر لأية منطقة من جبل لبنان الجنوبي، من المرجح أن طرقاته بين الساحل والبقاع كانت ممراً للجيوش الغازية، وليس أدل على ذلك من النقوش على صخور نهر الكلب، والإشارة إلى جبل لبنان وإلى الأرز.

جاء في نص عن رحلة فرعون مصر، سنفرو حوالي ٢٦٥٠ ق. م، انه بنى مراكب من خشب الأرز. وادّعى الملك سرجون الأول الأكادي الذي حكم حوالي سنة ٢٢٥٠ق.م. أنه "ملك غابات الأرز وجبال الفضة". كما ادّعى الملك نارام سن الأكادي الذي حكم حوالي سنة ٢١٧٠ ق.م. انه ملك غابات الأرز. وقال الملك الأشوري ناصر بال الثاني (٨٨٣ – ٨٥٨ ق.م.) إنه أخذ الجزية من صور وصيدون وجبيل وأرواد، واحتل نواحي جبل لبنان، واصطاد في جبال لبنان الوعرة جواميس وخنازير برية. وجاء في نقش الملك اسرحدون الأشوري عن كيفية اخماده ثورة صيدون في سنة ٦٧٥ق.م. ما يلي:

"خرّبت مدينة صيدون التي على ساحل البحر، واهلكت سكانها على آخرهم، ودمّرت أسوارها ومنازلها، والقيت موادها في البحر، ونقضت الهياكل. وفرَّ ملكها عبد ملكوت في البحر كسمك ليختفي عن وجه عزتي فاجتذبته إلي من بين الأمواج، واستحوذت على خزائنه من ذهب وفضة وحجار كريمة وكهرباء وصندل وابنوس ومنسوجات من الصوف والكتان وكل ما حواه قصره. وجلوت إلى أشور جماً غفيراً من الرجال والنساء. وأخذت أيضاً بقراً وغنماً ودواب الركوب والحمل"[١].

من المستبعد إفناء اسرحدون لجميع أهالي صيدون. ومن المرجّح أن يكون منهم هاربون قبل حصاره صيدون وتنكيله بأهلها، وناجون من فظائعه

---

[١]– يوسف الدبس: من تاريخ سورية، الجزء الأول، ص ٣١٥.

بعد ذلك. وهؤلاء سيلجأون حتماً إلى جوار صيدون هرباً منه، وسيقيمون في المناطق الجبلية إلى الشرق منها.

بناء هيكل سليمان من خشب أرز جبل لبنان الجنوبي

يأتي خشب الأرز في طليعة السلع التي استفاد منها الكنعانيون الفينيقيون، والتي باعوها بأسعار عالية حقّقت لهم أرباحاً كثيرة. وقد قدّموه كجزية للمصريين. فهو يمتاز بجمال لونه، ورائحته الطيبة، وصلابته ومقاومته لعوامل الزمن والطبيعة، إذ إن ما يعود منه إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة لا زال يحتفظ بهذه الميزات. ومعناه في اللغة العبرية "المتين"[1]. وهو مما ينفرد به لبنان عن سائر دول العالم. وقد جعله شعاره، يتوسط العلم الذي وُضع له بعد نشوء دولة لبنان الكبير في سنة ١٩٢٠، ويشهد على خضرته الدائمة، وعلى خلوده وشموخه.

صنعت من خشب الأرز اساطيل الدول، والهياكل والقصور. ونظراً لأهميته نظّم الرومان قطعه وقطع اشجار السرو والصنوبر والعرعر، وخصّصوا هذه الأنواع الأربعة لأنفسهم من أجل بناء السفن والبيوت.

ولكثرة ما قُطع من أشجار الأرز عبر العصور لم يبقَ الا بضع غابات فقط، هي غابة بشرى في سفح قمة القضيب التي هي إحدى قمم جبل المكمل، وغابة تنورين في أعالي البترون، وغابات ثلاث في جبل الباروك هي غابة عين زحلتا - بمهريه، وغابة الباروك وهي الكبرى، وغابة المعاصر التي يقام فيها عيد سنوي للأرز المسمّى "الأبهل"، منذ أوائل عهد الانتداب الفرنسي. وإلى الجنوب من هذه الغابات الثلاث مجموعة في جبل الباروك عددها ٢٠ شجرة كبيرة، ومجموعة في جبل نيحا عددها ٢٥ شجرة كبيرة. وقد جُعل من غابات أرز جبلي الباروك ونيحا محمية باسم "أرز

---

[1]- ابراهيم الأسود: ذخائر لبنان، ص ١٩.

الباروك"، هي أكبر محميّة في لبنان، صارت تضم ثلاثة ملايين شجرة كبيرة وصغيرة، وتمتد من ممر ضهر البيدر إلى جبل نيحا[1].

كثيرة هي النصوص المصرية والأكادية والبابلية والحتية والتوراتية، التي تتكلم عن غابات لبنان وأشجاره وعن الأرز، وعن بناء السفن والهياكل وتزيين القصور بخشب الأرز. وبعضها يعرّف بأرز جبيل. إلا اننا لن نتكلم عن هذه النصوص، بل سنشير فقط إلى النصوص التي تحدّثت عن الأرز في مملكة صيدون، وعن بناء هيكل سليمان من خشبه.

نصٌ حتي له أهمية في هذا المجال إذ يتكلم عن أرز صيدون حيث هو الملك الواحد للأرز. والنصوص الأقدم والأهم هي ما جاء في التوراة عن أرز لبنان بشكل عام، وما جاء فيها على لسان الملك داود وابنه الملك سليمان بشكل خاص.

تغنّى الملك داود والملك سليمان بجمال الأرز. وورد ذكره في "العهد القديم" في بناء بيت لداود. "ارسل حيرام ملك صور رسلاً إلى داود أخشاب أرز وبنائين ونجارين ليبنوا له بيتاً"[2]. كما ورد ذكره في بناء سليمان هيكل الرب من أرز لبنان، إذ ارسل إلى ملك صور حيرام، يقول:

"ها انذا قد نويت أن ابني بيتاً لاسم الرب الهي... فمر بأن يقطع لي أرز من لبنان، وخدّامي يكونون مع خدّامك، وأجرة خدّامك أؤديها إليك بحسب كل ما ترسم لأنك تعلم أن ليس فينا من يعرف بقطع الشجر مثل الصيدونيين... وارسل حيرام إلى سليمان وقال: قد سمعت ما أرسلت به إلي، وأنا أحقق كل رغبتك في أمر خشب الأرز وخشب السرو، وخدامي ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر فاجعله أطوافاً في البحر إلى المكان الذي تسميه لي وافكه هناك فتأخذه ...وسخّر الملك سليمان من كل اسرائيل وكان المسخّرون

---

[1]- نشأت محمية أرز الباروك بمبادرة ورعاية من الزعيم وليد جنبلاط في إطار اهتمامه بالبيئة والشجرة.

[2]- سفر الأخبار الأول ، ١٤: ١.

ثلاثين ألف رجل. وكان يرسل منهم إلى لبنان عشرة آلاف في الشهر مناوبةً فيكونون في لبنان شهراً وفي بيوتهم شهرين"[1].

في ما ورد ذكره هناك نقاط ثلاث، هي:

١- قطع خشب الأرز والسرو من "لبنان".

٢- تسمية المكلّفين بقطع الخشب بالصيدونيين الخبيرين بذلك.

٣- انزال الخشب "من لبنان إلى البحر " وحمله بالسفن اطوافاً.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى، إن لفظة "لبنان" كانت تعني آنذاك سلسلة جبال لبنان الغربية، وقد بدأ اطلاقها في الألف الثاني ق.م. لذا يمكن تحديد المنطقة التي قطع منها شجر الأرز بانها المنطقة الجبلية الغربية الممتدة من جبال عكار حتى نهاية جبل الريحان، ومن علو ٢٠٠٠ م كحد أعلى إلى علو ٧٠٠م كحد أدنى، وهما العلوان اللذان يصلح بينهما نمو شجر الأرز. وهنا يتراءى أن المنطقة التي أخذ منها خشب الأزر هي، إما جبل المكمل أو جبل المنيطرة، أو جبلا الباروك ونيحا، نظراً لغابات الأرز التي لا زالت تكلل منحدرات وسفوح هذه الجبال. لكن الخشب المقطوع هو من جبلي الباروك ونيحا فقط. بناءً على أن المكلّفين بقطعه هم الصيدونيون، وجبلا الباروك ونيحا هما قديماً جبل صيدون.

ونظراً لشهرة الصيدونيين كان يُقصد بهم أحياناً الفينيقيين، الا ان المقصود بهم عند الملك سليمان هم الصيدونيون والصوريون فقط. فقد كانت صور في عهد الملك حيرام (٩٦٩ – ٩٢٦ق.م.) دولة قوية، وصيدون مدينة ثانوية جرّاء تدمير الفلسطينيين لها وحرقهم اسطولها حوالي سنة ١١٧٠ ق.م. وبينما عجزت صيدون عن النهوض بعد نكبتها، نهضت صور في عهد ملكها ابيبعل وابنه حيرام بعد تدمير الفلسطينين لها، ومارست سيادتها على صيدون. وإذا كان قاطعو الأخشاب هم الصيدونيين والصوريين، فان أشجار

---

[1]- سفر الملوك، ٥: ١٥ – ٢٨.

الأرز التي قطعوها موجودة في جبلي الباروك ونيحا، وربما في جبل الريحان، وجميع هذه الجبال تابعة لصيدون وواقعة في جبل لبنان الجنوبي. وفي ما يلي بعض الأدلة على وجود شجر الأرز في جبلي الباروك ونيحا واستمرار وجوده عبر الأزمنة.

بنى انطيغونس، خليفة الاسكندر المقدوني، اسطوله من الأخشاب التي جرى تجميعها في موانئ طرابلس وجبيل وصيدون. وهذا يعني أن هذا الأسطول بُني من أخشاب شجر الأرز الموجود في الجبال الواقعة وراء هذه المدن. وحين عاد الفرنج (الصليبيون) إلى صيدا في سنة ١١٩٧ "لم يبيّتوا خيولهم في المرابط، وإنما في الغرف الخالية من السكان، والمصفّحة جدرانها بخشب الأرز"[١]. ومن الطبيعي أن يؤتى بخشب الأرز إلى صيدون من جبالها. وان بعض شجرات الأرز الموجودة حالياً في غابة المعاصر يقدَّر عمرها بألفي سنة. وعثر أثناء شق طريق المعاصر الشوف – كفريا البقاع على جذع ارزة ضخم جرى فحصه في الولايات المتحدة الأميركية فتبين أنه يعود إلى القرن التاسع ق.م. ولا يزال يحتفظ برائحته.

يذكر المؤرخ الألماني كارلهاينز برنهردت أن الملك حيرام عمد إلى نقل الخشب عن طريق البحر لكي يختصر الطريق البري الوعر، ويضيف قائلاً: "يفترض هذا كله أن الملك حيرام كان يأخذ الخشب من غابات المنطقة المجاورة لصيدا، التي كانت تخضع، على كل حال، لسيادة صور عند منعطف الألف الثاني إلى الألف الأول ق.م."[٢]

وفيما يتعلق بنقل خشب الأرزمن جبل صيدون إلى البحر، فهو لم يتم بواسطة انهار جبل صيدون لشدة انحدار مجاريها، وضيقها واعتراض الصخور لها، وإنما تمّ عبر الطرق البرية، وبواسطة العمال الذين كانوا يجرون جذوع الأشجار، وبواسطة الحيوانات أحياناً لأن انطيغونس استعمل

---

[١]– لويس لورته: سوريا اليوم، ص ٩٣. وادوار روبنصون: يوميات، الجزء الأول، ص٦٣.

[٢]– كارلهاينز برنهردت: لبنان القديم، ص ٤٤.

سنة ٣١٤ ق.م. الحيوانات لجرّ الأخشاب. فكان يجري نقل الأخشاب إلى ميناء صيدون ومنه تُنقل "أطوافاً" في البحر إلى ميناء يافا حيث تُنقل من هناك إلى أورشليم.

عندما أُعيد بناء هيكل سليمان في عهد الملك الفارسي كورش، واتم بناؤه في عهد الملك دارا، كان الصيدونيون والصوريون هم الذين نقلوا خشب الأرز للمرة الثانية، إذ ان القائمين ببنائه "أعطوا فضة للنحاتين والنجارين، وطعاماً وشراباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين"[1].

في العصر الهلنستي

ميّز المؤرخون الغربيون بين التاريخ اليوناني الذي ينتهي ببدء فتوحات الاسكندر المقدوني، والتاريخ الذي يبدأ بها وينتهي باحتلال الرومان للشرق، فعرّفوا حضارة الأول باسم "هلينيك" نسبة إلى الجد الاسطوري لليونانيين (هلين). وعرّفوا حضارة الثاني باسم "هلنستيك"، وهم يعنون بها الحضارة التي نتجت من التفاعل بين الحضارات الشرقية والحضارة اليونانية، والتي كانت بدايتها مع الاسكندر المقدوني الذي كان له الفضل الأول في جمع الشعوب وتلاقي الحضارات، بعد قضائه على الامبراطورية الفارسية وفتوحاته في الشرق. الا ان المؤرّخين العرب سمّوا الحضارة الأولى بالإغريقية ، والثانية بالهلّينية:. وكلتاهما غزتا الرومان سلمياً قبل أن يغزو الرومان اليونان والشرق عسكرياً.

احتلال الاسكندر للمدن الفينيقية: بعد صدّ الإغريق لهجوم الفرس على بلادهم، والمعتبر هجوماً من الشرق على الغرب، تجدّد الصراع بين الفريقين بشكل غزوٍ من الإغريق للفرس، وهجوم للغرب على الشرق. فقد اجتاز الاسكندر المقدوني المضيق الفاصل بين قارتي أوروبا وآسيا، وتوغّل في آسيا الصغرى، وتغلّب على الفرس في سنة ٣٣٣ ق.م. في معركة أيسوس. وكان أمامه أحد الأمرين التاليين: إما التوجه إلى بلاد ما بين النهرين فبلاد

---

[1]- سفر عزرا، ٣ : ٧.

فارس، للقضاء على الفرس في عقر دارهم، وإما الزحف على الساحل وصولاً إلى مصر، لتأمين الطرق البرية والمواصلات البحرية مع بلاده، ففضّل الأمر الثاني، وزحف على الساحل الشرقي للمتوسط، فاستسلمت له أرواد وجبيل وصيدون.

لم يذكر المؤرّخون الإغريق شيئاً عن بيروت مع العلم أن الاسكندر مرّ عليها، وانها سالمت وفتحت له أبوابها. وفي هذا دلالة على أنها كانت مدينة ثانوية. أما صيدون، فقد كانت في وضع لا يمكّنها من ابداء أية مقاومة. فلا جيش يدافع عنها، ولا حصون تحميها بعد أن أتت نكبتها في أواخر العهد الفارسي على مقوّمات القتال والصمود. فرحّب ما تبقى من أهلها بالفاتح الجديد، واعتبروه مخلّصاً لهم من الفرس الذين نكبوهم، والذين عينوا ملكاً موالياً لهم، هو ستراتون الثاني[1]. وأحسن اثنان من النبلاء الصيدونيين ضيافة قائد الاسكندر، فقدّر الاسكندر لهما هذا العمل، وعرض عليهما أن يتسلّم أحدهما ملك المدينة بدلاً من الملك ستراتون، الا انهما رفضا ذلك على اعتبار أنه من حق أبناء العائلة المالكة فقط. احترم الاسكندر هذا التقليد، وقدّم التاج لواحد من سلالة العائلة المالكة، اسمه في الاغريقية عبد لاومينوس Abdalamonius ، وفي الفينيقية عبدا ليم، وربما عبد الالهة، دفعه الفقر إلى العمل مزارعاً عند أحد الملاّكين[2].

كانت صور قسمين : صور البرية وصور البحرية. وحين وصل الاسكندر إليها احتل الأولى بسهولة، وقاومته الثانية مستقوية بمناعة أسوارها وبقوة أسطولها البحري، ميقنة أنها ستصمد أمامه كما صمدت أمام الفاتحين الكبيرين شلمناصر ونبوخذ نصّر. وكان على الاسكندر، من أجل الوصول إلى أسوارها، بناء جسر بينها وبين البر، نقل أخشابه من الجبال الغربية. ثم استعان بثمانين مركباً حربياً من مدن أرواد وجبيل وصيدون، ومراكب

---

[1]-جرجي يني: تاريخ سوريا، ص ١٠٩.

[2]- أنظر عن كيفية تسلم عبد لاومينوس لملك صور: يوسف الدبس: من تاريخ سورية، الجزء الثالث، ص ٥٥. وفيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ١٩٧.

حربية من جزيرتي قبرص ورودس، واحتلها بعد حصار سبعة أشهر، فكسبت شرف الصمود أمام أعظم فاتح عرفه التاريخ القديم مقابل الخسائر الجسيمة. وبعد عودته من مصر التي استسلمت له دخل إلى صور، وسار منها إلى البقاع وحمص وتدمر، واتجه من هناك إلى الفرات حيث تابع معاركه المنتصرة ضد الفرس واحتل بلادهم وتوغل في الشرق.

إذاً سلك الاسكندر طريق الساحل ومرّ في ساحل بيروت وصيدون أثناء توجهه جنوباً نحو صور وفلسطين ومصر. ثم سلك طريق ساحل لبنان الجنوبي حتى شمال صور حيث مر في وادي الليطاني في طريقه إلى البقاع. وتبعاً لهذا لم تطأ إقدام الاسكندر من جبل لبنان الا ساحله. كما ان جنوبه كان خارج نطاق حملته العسكرية التي قام بها ضد العرب الفقراء الذين فتكوا بثلاثين جندياً من جنوده واسروا ثلاثين ابّان قطعهم الأشجار من الغابات لاستعمالها في حصار صور، فقد لاحقهم حتى البقاع وحرمون عبر توغله في جنوب جبل عامل.

بعد عشر سنوات من الفتوحات، والتوسع الذي بلغ شرقاً حدود الصين، توفي الاسكندر في بابل دون وريث لأن زوجته روكسانا، ابنة الملك الفارسي دارا الثالث، كانت حاملاً بابنه الذي ولد بعد وفاته. وقبل أن تحضره الوفاة نزع خاتمه من اصبعه واعطاه إلى أحد قادته برديكاس، وأجاب عن سؤال "من يريد أن يخلفه" بالقول: "الأكثر استحقاقاً". فاتفق قادته على تعيين برديكاس وكيلاً ريثما تلد روكسانا، ثم صار وصيّاً على ابن الاسكندر[1]. لكن النزاع دبَّ بين قادة الاسكندر، ودارت الحروب بينهم ثم بين قادتهم. كما دارت بين خلفاء هؤلاء. وأخيراً انقسمت الامبراطورية إلى أربعة أقسام، تنازعت وتقاتلت لتتوسع على حساب بعضها البعض، هي:

- مقدونيا وبلاد اليونان، وتولاّها انتيباتر.
- تراقيا وآسيا الصغرى، وتولاها انطيغونس.

---

[1]- جرجي ينّي: تاريخ سوريا ، ص ١١١.

- سورية وبلاد ما بين النهرين، وتولاّها سلوقس، وكانت أكبر الممالك.
- مصر وفلسطين، وتولاها بطليموس.

بيروت وصيدون وجبل لبنان الجنوبي في العصر الهلنستي: خضعت المدن الفينيقية أولاً للبطالسة، حكام مصر، ثم خضعت للسلوقيين، حكام سورية، الذين اتخذوا بابل عاصمة لهم ثم انطاكية. وكانت المدن الفينيقية. خطوط التماس بين الفريقين في حروبهما الطويلة. وقد انتقلت أكثر من مرة إلى حكم هؤلاء وحكم أولئك. والتقسيم النهائي للامبراطورية في سنة ٢٧٥ ق.م. لم ينهِ النزاعِ بينهم، إذ تجدّدت حروبهم من هذه السنة إلى سنة ١٩٨ ق.م.، تاريخ انضمام المدن الفينيقية نهائياً إلى السلوقيين. وبين هذين التاريخين كان للبطالسة السيطرة كلياً أو جزئياً على المدن الفينيقية.

كان لصيدون الدور الأكبر بين المدن الفينيقية في فترة سيطرة البطالسة عليها بين سنتي ٢٨٦ و ١٩٨ ق.م. وقد تمتعت آنذاك باستقلال داخلي استمر أيضاً في العهد السلوقي في إطار نظام الايالات الذي اقتبسه السلوقيون عن الفرس، ومن وجوهه تعيين من تشاء من ابنائها ملكاً عليها. وكان ملوك صيدون بعض رؤساء كهنة الاله اشمون والالاهة عشتروت. ومن وجوه الاستقلال الذاتي سك النقود، وهذا ما قامت به صيدون وبيروت كما قامت به مدن أرواد وطرابلس وجبيل وعكا. وكان على وجه العملة رمز فينيقي، وعلى الوجه الآخر رمز مقدوني للدلالة على الاعتراف بالحكم المقدوني السلوقي. وقد عثر على هذه العملات في أماكن متفرّقة من جبل لبنان الجنوبي، منها على سبيل المثال مرج بسرى، محلّة طبعيله في بعذران، محلّة القريّة في خراجي بعقلين وعينبال، محلّة تيروش في عين داره، تلة الزنبقية إلى الشرق من كفرنبرخ.

ساعد الاستقلال، ولو الصوري، مع النشاط التجاري على ازدهار صيدون، فأصبحت مدينة كبيرة فيما ظلت بيروت، بالرغم من استقلالها الداخلي، مدينة ثانوية. وقد شهدت هذه الفترة توسّعاً نسبياً في السكن هو في جبل صيدون أكثر منه في جبل بيروت بدليل بناء العديد من القلاع فيه،

ووفرة ما وجد من الحلى والفخاريات والعملات. وإذا كان تفسير اسم القرية الشوفية، بيقون، هو بيت أيقون Eikon، أي مركز صنع الايقونات، فان هذا هو أحد آثار الهلنسنية في الشوف على اعتبار ان لفظة ايقون يونانية، وليس من الضروري ان يكون هذا قد تم في العصر الهلنستي، لأن التكلم باليونانية استمر في العقود الأولى من الاحتلال الروماني لبلادنا. أما اسم برجا في إقليم الخرّوب، فهو سواء كان من لفظة "البرج"، أو تصحيفاً لطبرجا، فإنه لفظة يونانية، فبرجا أو برج تعني المكان العالي المشرف للمراقبة. وطبرجا تعني العاصمة والقصبة ومركز حاكم المقاطعة. وقد تكون برجا تبعاً لذلك مدينة هلنسنية، أو مركزاً لحاكم مقاطعة هلنستية، اسمها يوناني. كما ان اسم "البرجين" احدى قرى إقليم الخرّوب، قد يكون اسماً يونانياً لا عربياً.

في أواخر العهد السلوقي عاشت المدن الفينيقية في فوضى المنازعات والحروب بين الملوك السلوقيين كالفوضى التي عاشتها في الحروب بين البطالسة والسلوقيين. وما كان بإمكانها ان تقف على الحياد في حروبهم، بل انهم كانوا يزجّونها فيها فتتكبد الخسائر الجسيمة. ومن ذلك وقوف بيروت إلى جانب الملك الشرعي ديمتريوس الثاني نيقاتورضد مدّعٍ للملك اسمه اسكندر بالا. ومع أن الصراع انتهى لمصلحة ديمتريوس، إلا ان تريفون، وزير اسكندربالا، تحزّب بعد موت اسكندر لابنه انطيوخس السادس، وأوصله إلى كرسي الحكم، وانتقم من بيروت لوقوفها ضد اسكندربالا، فاخرب ابنيتها وأحرقها سنة ١٤٠ ق.م. وظلت مدمرة لسنوات عدة إلى أن أعيد بناؤها في نفس المكان وباسم لاوذيقية، أو لاوذيقية التي لكنعان[1]. ولم تتخلص المدن الفينيقية من الحروب الداخلية الا عندما تسلّم الملك تيغران الأرمني شؤون الحكم في سنة ٨٣ ق.م.، فنعمت بيروت وصيدون بسلام تام لمدة أربع عشرة سنة لم تعكّره سوى اعتداءات الايطوريين.

[1]– لويس شيخو: بيروت... ص ٣٢.

بلغت المملكة السلوقية ذروة مجدها في عهد انطيوخس الثالث الملقّب بانطيوخس الكبير. لكنها بدأت تضعف في عهد خليفته انطيوخس الرابع (ابيفانوس) المتوفى في سنة ١٦٤ ق.م.، وزادت ضعفاً في عهد خليفته انطيوخس اوباتور. وانقسمت في نهاية الأمر إلى قسمين: سورية العليا بيد انطيوخس الخامس، وسورية المجوّفة Goèle Syrien [١] بيد ابناء انطيغونس كريبوس . ثم انتهت في سنة ٦٤ ق.م. على يد الرومان بعد أن عمّرت ٢٤٧ سنة وحكمها ٢١ ملكاً[٢].

في عرضه لتاريخ لبنان في ظل سيطرة البطالسة والسلوقيين، وانتشار الحضارة الهلنستية، يذكر المؤرّخ جواد بولس ما يلي: "كانت البلاد الفينيقية مقسّمة بين المدن الدول التي لها حق سك العملة: أرواد، طرطوس، طرابلس، البترون، بيروت، صيدا وصور. أما جبل لبنان، فقد بقي شبه مستقل كما في عهد السيطرات السابقة"[٣]. ولم يشرح المؤرخ المقصود بعبارة "شبه مستقل". ويقول المؤرّخ فيليب حتّي: "أما القسم الجبلي من لبنان، فان السلوقيين لم يعنوا بأمره، بل تركوه وشأنه كما فعل غيرهم من الفاتحين السابقين"[٤]. ومع انه لم يشرح مدلول عدم عناية السلوقيين بأمر المناطق الجبلية، الا انه يفهم منها عدم اهتمامهم بها لأنها غير ذات أهمية. وإذا كانت المناطق الجبلية، ومنها جبل لبنان الجنوبي، بمعزل عن الاشراف السلوقي المباشر، ولا تحظى بالاهتمام، فانها كانت ممر للجيوش بين الساحل والبقاع، وان ساحلها كان مسرحاً للمعارك بين السلوقيين والبطالسة (المصريين).

الحروب بين السلوقيين والبطالسة

حروب انطيغونس مع البطالسة (المصريين) في فينيقيا: وفق بطليموس في ضم فينيقيا وسورية المجوّفة والسامرة واليهودية وقبرص إليه. وأقام في

١- سورية المجوّفة: وادي نهر العاصي، والبعض يضيف إليها وادي نهر الليطاني.

٢- جرجي يني: تاريخ سوريا، ص ١٢٥ – ١٢٧، ١٣٤.

٣- جواد بولس: لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٩٢.

٤- فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ٢٠٩.

سوريّة المجوّفة وفينيقيا حاميات للدفاع عنها. وأراد انطيغونس انتزاعها منه فحشد قواته، وهاجم سورية وفينيقيا، واحتلهما في سنة ٣١٢ق.م. وجمع غلال القمح في مراكز أقامها في مدن صيدون وجبيل وطرابلس. واتخذ من صيدون مركزاً لانطلاقه نحو صور وانتزاعها من عدوّه بطليموس، وحاصرها براً وبحراً، وتمكّن من احتلالها بعد حصار دام خمسة عشر شهراً، لأن صور كانت قد استعادت منعتها وقوتها بعد نكبتها على يد الاسكندر، ولأن البطالسة عنوا بها وحصّنوها.

ومن اجل بناء اسطول بحري يحاصر صور جمع انطيغونس نحو "ثمانية آلاف من قطّاعي الأخشاب والنشّارين، وأمرهم بقطع الأرز وخشب الجفر من جبال لبنان ففعلوا، وجيء بألف ثور فربطوا ذلك الخشب بأعناقها حيث جرّوه إلى طرابلس وجبيل وصيدا ليبني بها سفناً"[1]. ولما تم بناء السفن في هذه المدن، وبناء غيرها في كيليكيا ورودس، أتى انطيغونس بها جميعها لحصار صور. وخشب الأرز والجفر المجمّع في صيدون، هو من غابات جبلي الباروك ونيحا، وربما جبل الريحان.

وحين رجع انطيغونس إلى الشرق، بعد حملته الناجحة على المدن الفينيقية، استعاد بطليموس سيطرته على هذه المدن ما عدا صيدون التي ظلّت على ولائها لانطيغونس، فحاصرها بطليموس، ثم عقد هدنةً معها وعاد إلى مصر. لكنه، بعد سيطرته على قبرص، عاد وسيطر على المدن الفينيقية بما في ذلك صيدون. وظلت جميعها تابعة له طوال حياته.

معركة ممرات بيروت بين انطيوخس الثالث والبطالسة(المصريين): تجدّدت الحروب بين البطالسة والسلوقيين، في عهد بطليموس فيلوباتر وانطيوخس الثالث، لأن كلا منهما كان يدّعي ان سورية المجوّفة وفينيقيا والسامرة واليهودية من حقه. فهذه المناطق كانت مثار نزاع دائم بين البطالسة والسلوقيين. وقد نجح انطيوخس الثالث في استعادة بعض المراكز في سورية

---

[1]- جرجي يني: تاريخ سوريا، ص ١١٣.

المجوّفة، وطمح إلى احتلال ما تبقى من قلاع فيها واحتلال فينيقيا. وكان من بين الحصون التي تشكل خط الدفاع الأول للمصريين حصنان في البقاع، هما حصن جرّا Gerrah الواقع بالقرب من مجدل عنجر، وحصن بروكاي Brochoi الواقع عند قلعة المضيق إلى الجنوب من قب الياس"[١].

في سنة ٢١٩ ق.م.حاصر انطيوخس الثالث، وللمرة الثانية، حصن جرّا وهو في طريقه لمساعدة حليف جديد له هو تيودوتيوس d'Etolien [٢] الذي كان ضدّه وصدّه في سنة ٢٢١ ق.م. عن حصني جرّا وبروكاي، لكنه انقلب على الملك الجديد بطليموس الرابع، لأنه ما كان يثق بهذا الملك، ويخشى غدره، ولأن أعوان الملك افتروا عليه. فاتصل بانطيوخس، ووعده بمساعدته، وبتسليم ما تبقى من سورية وفينيقيا، خارج نفوذه، له. وأثناء حصار انطيوخس لجرّا وردته رسالة من تيودوتيوس يستحثّه على الاسراع في نجدته بعد أن حاصره القائد الأعلى لجيوش البطالسة ، نيقولاوس، في بتولماوس (عكا)، وحاصر حليفه بانياتولوس Panaetolos في صور. فتخلّى انطيوخس عن حصار جرّا، وأسرع بقواته الخفيفة لنجدة حليفه، مبقياً قواته الثقيلة على حصار جرّا لتأمين مؤخرة جيشه.

يذكر المؤرّخ بوليب ان القائد المصري نيقولاوس، تخلّى عن حصار بتولماوس (عكا) وصور، حين علم بقدوم انطيوخس ، وارسل قوات على رأسها القائد دوريمنوس l'étolien Doryménès ولاغوراس Le crétois lagoras ، للتمركز في ممرّات بيروت من أجل وقف زحف انطيوخس. كما يذكر أن انطيوخس هزم هذه القوات، وتمركز مكانها حتى وصلت قواته الثقيلة من البقاع، فسار بكامل جيشه نحو صور وعكا، ودخلهما مع حليفيه تيودوتيوس وبانياتولوس اللذين خفا لاستقباله قبل وصوله[٣].

١- Wassim Khalil: prospection dans le Liban meridional p 117, 120, 164.

٢- هناك تيودوتيوس آخر اسمه تيودوتيوس Hémilios، أحد قادة أنطيوخس الثالث.

٣- Polybe: Histoire Livre V 61: 9 -10 62:1

اكتفى بوليب بذكر ممرات بيروت Les passes de Beyrouth ، ولم يحدّد موقعها، ولا الطريق التي سلكها انطيوخس الثالث للوصول إليها، كما لم يذكر احتلاله لأي موقع ساحلي إلى الشمال منها كموقع نهر الكلب (ليكوس). وهذا يضع عدة احتمالات لموقع الممرّات، وللطريق التي سلكها انطيوخس للوصول إليها. إن ممرات بيروت هي مواقع المرور الالزامية، وهي مواقع صخرية لا تحصينات وأسوار، مع الإشارة إلى أن بيروت هي آنذاك من المدن غير المنيعة، وغير المهمة مثل صيدون وصور. فممراتها إذاً ليست في سهلها، بل في أحد المكانين التاليين: إما سن الفيل إلى الشمال من بيروت، والطريق إليه تنطلق من شمال جبل الكنيسة وتمرُّ في برمانا وبيت مرى. وإما بين الحدث ومرتغون[1] إلى الجنوب من بيروت، وهذا هو الأرجح، لأن أنطيوخس ما كان في شمال البقاع ليأتي على إحدى الطرق المؤدية منه إلى الساحل، بل كان في جرّا في البقاع الأوسط، والطريق الأقصر منها إلى جهات بيروت، والتي تؤمن له الاسراع لنجدة حليفه، هي طريق قب الياس – عين داره – بيروت. لذا رابطت القوات المصرية في الممرات التي تنتهي بها عند الساحل، والتي تقع بين الحدث شمالاً ومرتغون جنوباً، لتمسك طريق انطيوخس، وقد تكون علمت بمجيئه على هذه الطريق من جند الحصون المقامة عليها.

أمر آخر له أهمية كبرى، وهو لحاق القوات السلوقية الثقيلة بانطيوخس الذي سبقها بقواته الخفيفة، أي ان انطيوخس سار بالفرسان والمشاة إلى ممرّات بيروت، وأبقى فرقة الفيلة أو فرقة العربات التي تجرّها الأحصنة، أو الاثنتين معاً، وكلتاهما تتطلب طريقاً معروفة وسهلة تسلكها، مما يعني أن الطريق التي سلكتها القوات الثقيلة من البقاع إلى الساحل كانت قبل ذلك صالحة لسير هذه الأنواع من فرق الجيوش. فالفيلة كانت مستعملة عند السلوقيين والبطالسة في حروبهم: السلوقيون يعتمدون على الفيلة الهندية،

---

[1]– مرتغون: قرية دارسة شمال خلدة هي حالياً دوحة عرمون ، وتقع بالقرب من مسيل ماء شتوي اسمه نهر اليابس.

والبطالسة يعتمدون على الفيلة الأفريقية. وقد كان مع انطيوخس في معركة رافيا (رفح) مئة فيل وفيلان، على كلٍ منها برج خشبي وبه أربعة جنود إضافة إلى السائق. ومن قبل استعمل سلوقس الأول، في معركة ايسوس سنة ٣٠١ ق.م.، ٤٨٠ فيلاً كانت سبب انتصاره وكسبه آسيا الصغرى لأن الفيلة هي آنذاك بمثابة دبابات الجيوش[1].

معركة بلاطُنس وبورفيريون بين انطيوخس الثالث والبطالسة (المصريين):

لم تؤدّ الحرب بين انطيوخس الثالث وبطليموس إلى انتصار حاسم لاحدهما. ولم تسفر المفاوضات عن تسوية للنزاع تحدّد نفوذ كل منهما. لذا عاود انطيوخس الهجوم في ربيع سنة ٢١٨ ق.م. بعد أن جمع قواته البرية والبحرية. وسلك هذه المرة طريق الساحل الفينيقي فمرَّ في تيوبروسوبون théoprosopon (رأس الشقعة). واحتل بوتريس Botrys[2]. وأحرق تريارس Trières (انفا) وكالموس calmos. ووصل إلى بريتوس Bérytos (بيروت). وطلب من قائدية نيكارغوس Nicargos وتيودوتيوس المرابطة عند مضيق نهر الكلب. وإزاء ذلك بات على قائد المصريين نيقولاوس، المعطى صلاحيات واسعة من بطليموس، ان يستعدَّ لمواجهة انطيوخس وايقاف زحفه نحو الجنوب. فارسل قسماً من قواته للمرابطة عند الممرات الضيقة لبلاطُنس (Platanos) ورابط بما تبقى من القوات في بورفيريون، بحيث صار عنده ثلاثة خطوط دفاع، هي المركزان العسكريان الجديدان اضافة إلى صيدون حيث تتواجد قواته في الأساس[3].

عسكر انطيوخس في سهل الدامور. وبعد أن استكشف بنفسه مواقع عدوه عاد إلى معسكره. ثم زحف في اليوم التالي نحو الجنوب ليباشر المعركة بقواته التي يقودها براً، وبالاسطول البحري الذي يتبعه بقيادة

1- أنظر عن استعمال الفيلة في الجيوش وتأثيرها في المعارك: فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ص ٢٩١، ٢٩٢. وكارلهاينز برنهردت: لبنان القديم، ص ١٨٣.

2- بوتريس: موقع إلى الجنوب من رأس الشقعة.

3- Polybe: Histoire, livre V, 5: 68.

الأميرال ديوجنتوس Diognétos وبريجينوس Prégénus. وقسم قواته إلى ثلاثة أقسام:

- الأول بقيادة تيودوتيوس، ومهمته مهاجمة أعلى المنحدرات.
- الثاني بقيادة ميناديموس Ménédémos ، ومهمته المهاجمة في الوسط.
- والثالث بقيادة ديوكلوس Dioclos، ومهمته المهاجمة على شاطئ البحر.

وظل انطيوخس مع حرسه في الوسط مستعداً للتدخل عند الضرورة. وعند أول إشارة بدأ الجميع المعركة في البر والبحر. وانجلت عن هزيمة نيقولاوس، وتراجعه عن بلاطُنس وبورفيريون إلى صيدون. وقُتل من جيشه، المنسحب بدون نظام، الفان، واسر عدد مماثل له. أما اسطوله البحري، فقد انسحب من المعركة بعد أن تحقق النصر لانطيوخس في البر[1].

موقع بورفيريون معروف. وهو المكان الذي تقوم فيه حالياً بلدة الجيّة في ساحل الشوف. وممراتها الضيقة، المسمّاة عند بوليب Les défilés، هي رأس النبي يونس، الواقع إلى الجنوب منها حيث يضيق الساحل بعد سهل الجيّه. أما بلاطُنس، فموقعها غير متفق عليه عند المؤرخين. وقد ورد ذكرها في العهد الروماني أنها برج، أو مدينة صغيرة، في أراضي صيدا، سجن فيها حاكم بيروت اليهودي، هيرودس الكبير، ولديه اسكندر وإرسطوبولس، قبل قتلهما، بعد محاكمة صورية كاذبة[2].

أخطأ المؤرخون الذين حدّدوا موقع بلاطُنس قريباً جداً من نهر الدامور، ومنهم الرحّالة الأميركي إدوار روبنصون الذي جعله في رأس

١- Ibid, 5: 69.

٢- Flavius Josèphe: Antiquités Judaiques XXI, 11:2 guerre de juifs
أيضاً يوسف الدبس: من تاريخ سورية، الجزء الثالث، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

السعديات[1]، والرحالة الفرنسي لويس لورته، والمستشرق الألماني كارلهاينز برنهردت، اللذان جعلاه عند معبر نهر الدامور[2]. والدليل على خطأهم نجده في كلام بوليب نفسه عن استكشاف انطيوخس، بعد تمركزه في سهل الدامور، لقوات عدوّه. فلو كانت بلاطُنس موجودة عند رأس السعديات، أو عند مصب نهر الدامور، لما كان انطيوخس بحاجة إلى الاستكشاف لأن هذين المكانين متاخمان لمكان معسكره. فكل تحديد لموقع بلاطُنس انه إلى الشمال من بورفيريون هو تحديد خاطئ. ومن الأدلة على خطأه، إضافة إلى ما ذُكر، اثنان، أولهما أن نيقولاوس، وضع قسماً من قواته في ممرات بلاطُنس، ثم تمركز مع ما تبقى منها في ممرات بورفيريون. وثانيهما ان تيودوتيوس، بعد انتصاره في ممرات بلاطُنس، انحدر نحو قوات نيقولاوس، التي كانت تهرب من ممرات بورفيريون باتجاه صيدون.

وبناءً على ما تقدّم يمكن القول إن موقع بلاطُنس هو إلى الجنوب من بورفيريون، عند الرأس الصخري الواقع إلى الشمال من الرميلة. أما ممرّات بلاطُنس، التي وضع فيها نيقولاوس قسماً من قواته، فهي، في تقديرنا، منحدرات سبلين البعيدة قليلاً عن البحر، حيث توجد على تلّة فوق وادي الزينة[3] معروفة باسم "تلة الحصن" آثار بناء ضخم قديم، تاريخ بنائه وهوية بانيه مجهولان[4]. ومما يرجّح صحة تقديرنا هو أنه من غير المعقول أن يضع نيقولاوس خلفه مباشرة الجيش الذي لا يقوده، بل يضعه على يمينه لكي يكون وإياه جبهة واحدة في موازاة جيش عدوه الزاحف إليه بشكل جبهة

---

[1]- أدوار روبنصون: يوميات، الجزء الأول، ص ١٢٧.

[2]- لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٨٠. وكارلهاينز برنهردت" لبنان القديم، ص ١٨٣.

[3]- وادي الزينة هو في الأصل وادي الزانية حيث كانت تُرجم المخطئة بالحجارة بحسب إحدى روايات تفسيره.

[4]- تعرف تلة الحصن حالياً بـ"تلة جنبلاط" لأن المعلم الشهيد كمال جنبلاط كان يقيم فيها ببيت قديم أوقاتاً كثيرة.

واحدة على ثلاثة خطوط متوازية. ومما يرجّحها أيضاً هو أن أحد قادة جيش انطيوخس (تيودوتيوس) كانت مهمته مهاجمة المنحدرات العليا.

حاصر انطيوخس صيدون، لكنه لم يتمكن من احتلالها، فواصل زحفه باتجاه مصر. وبعد أن احتل بعض المدن داخل فلسطين وفي ساحلها، انهزم أمام بطليموس في معركة رافيا (رفح). فعاد إلى انطاكية. وعاد البطالسة إلى مواقعهم في سورية وفينيقيا، إلى أن توفي بطليموس فيلوباتر سنة ٢٠٤ ق.م.، وعهد بالملك لبطليموس ابيفانوس، أي الظاهر، وكان صغيراً عاجزاً عن إدارة شؤون الحكم. فاغتنم انطيوخس هذه الفرصة واستعاد فلسطين وبعض فينيقيا ، وكليسيريا (البقاع)، وانتصر على البطالسة في بانياس. وهزم الجيش الذي يقوده سكوباس في باتيوم، وحاصر هذا القائد الذي التجأ إلى صيدون وأجبره على التسليم في سنة ١٩٧ ق.م. [١]

الهياكل والحصون في جبل لبنان الجنوبي

ترك الأقدمون في لبنان هياكل لعبادة الآلهة الوثنية، وحصوناً وقلاعاً في الأماكن الاستراتيجية، وعلى قمم التلال والهضاب المنيعة والمشرفة، للدفاع عن الأراضي المحيطة بها، وللإشراف على الطرق الرئيسة. إلا ان بعضها لا يزال عصره والشعب الذي بناه مجهولين، ولم يعرف بعد ما إذا كان حصناً أم هيكلاً بسبب اندثار ما يثبت ذلك. كما أن اللبنانيين سمّوا كل بناء كبير، حتى لو كان هيكلاً مثل هياكل بعلبك، وهيكل فقرا، قلعة أو حصناً، وأعطوا بعض الأبنية الاسمين معاً "قلعة الحصن" للدلالة على مناعة البناء وضخامته.

معنى القلعة، في لغة العرب، الحصن المنيع في الجبل. ومعنى الحصن الموضع الحصين الذي لا يوصل إلى ما في جوفه. فالقلعة والحصن يعنيان المكان الذي يصعب الوصول إلى داخله، والذي حصّنه الإنسان بالأسوار والأبراج. والأماكن الأثرية التي تحمل الاسمين معاً هي قلعة

---

[١]- جرجي يني: تاريخ سورية، ص ١٢٣ – ١٢٤.

الحصن في مرتفعات البترون "الواقعة إلى الشمال الشرقي من قرية بشعلي، والمبنية على انقاض قلعة بناها الفينيقيون فاخربها القائد الروماني بمبيوس عند فتح الشام سنة ٦٤ق.م." [١]. ومنها في جبل لبنان الجنوبي القلاع التالية: قلعة الحصن في كيفون، قلعة الحصن في السمقانية، قلعة الحصن فوق وادي نهر الصفا إلى الشمال من قريتي كفرفاقود وديربابا، قلعة الحصن في معاصر الشوف، قلعة الحصن في سبلين.

وهناك أيضاً أماكن تحمل اسم "البرج"، قد تكون تسميتها هذه غير قديمة، وإنما هي أبنية قديمة. ومنها محلة "البرج" على هضبة كفرنيس في الشوف حيث يوجد بناء قديم "كان في داخله نفق (دهليز) يوصل إلى عين ماء في جدار كفرنيس طوله ٧٠٠ م. كما كان إلى الشرق منه طريق واسعة تشبه طريق العربات اليوم، تصله بقرية حرف لوزا، طولها ٢٠٠٠ م. وانقاضه تدل على انه كان حصناً عظيماً[٢]. ومنها قرية "البرجين" في الشوف، وقد سميت بهذا الاسم لوجود برجين أو أبراج فيها. ومنها برج الحصين في قرية حصروت في الشوف.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن المدن الفينيقية لم تكن في الأصل دولاً حربية منصرفة إلى التوسع العسكري، وإقامة الحصون والقلاع، بل جماعات ناشطة في مجال العمل، منصرفة إلى التوسع التجاري، وانها فقدت استقلالها منذ القرن الساس ق.م.، فصار أمر الدفاع عنها وعن ممتلكاتها، منوطاً بالدول التي احتلتها. لذا كانت معظم الحصون والقلاع فيها من بناء البطالسة الذين خاضوا، بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثاني ق.م.، حروباً متواصلة مع السلوقيين، وبنوا لحماية وجودهم في فينيقيا والبقاع شبكة من القلاع، لها وظيفة دفاعية ورقابية منها بعض حصون جبل لبنان الجنوبي التي سنتكلم عنها.

---

[١]- اسطفان البشعلاني: تاريخ بشعلي وصليما، ص ٩.

[٢]- بولس الكفرنيسي: تاريخ عائلة الخوري نادي" ص ١٢٨.

قلعة فقرا: موقعها على الطريق الرئيسة التاريخية التي تربط بين الساحل وشمال البقاع. إنها في الأصل هيكل فينيقي بني تكريماً للإله أدونيس. وليس بعيداً عنه أثر جميل على صخرة كبيرة في غينه، يرمز إلى الإله أدونيس والالهة عشتروت، من المرجّح أن يكون مع هيكل فقرا من بناء فينيقيّي مملكة جبيل. وقد أضيفت إلى الهيكل الفينيقي ابنية رومانية ضخمة.

حصن معراب: يقع في مكان يشرف على بيروت وجبيل. اعتبره البطريرك بولس مسعد بناءً غير قديم حين قال إن سليمان بن عراب التركماني هو بانيه"[1]. واعتبره البعض حصناً بناه الفينيقيون. واعتبره لامنس هيكلاً أقامه أرباب الدين القديم على مشارف لبنان تعزيزاً لديانتهم، دون أن يحدّد هوية هذا الدين وأربابه. طوله ٢٥م وعرضه ١٠م وعلوه ٦م. وبعض حجارته الضخمة يزيد طولها عن الخمسة أمتار، وعرضها عن المترين[2]. وربما كانت هذه الضخامة من دواعي تسميته من السكان "قلعة معراب".

هيكل بعل مرقد في بيت مرى: إنه في الأصل هيكل فينيقي، بني على أنقاضه هيكل روماني. وهو معروف حالياً باسم "دير القلعة" بسبب وجود دير للرهبان الموارنة بالقرب منه. شيد من قبل فينيقيي بيروت وأدّى لهم الدور الذي اداه هيكل افقا لفينيقيي مدينة جبيل. وعرف المكان المشاد فيه بالقرب من بيت مرى باسم "بيروت العتيقة" مما يؤكد الصلة بين بيروت وما وراءها من مرتفعات. وقد استمر هذا الاسم متداولاً حتى القرن الثامن عشر، بدليل وروده في زجليات ابن القلاعي (مواليد ١٤٤٧م) [3]، وورود في صك يعود إلى شوال ١١٦٢ هـ/ أيلول ١٧٤٩م[4].

---

[1]- الحتوني: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ، ص ١٢.

[2]- لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الأول، ص ٣٧ – ٣٨.

[3]- زجليات جبرائيل ابن القلاعي: نشر بطرس الجميل، ص ٩١.

[4]- صك بأرض دير القلعة، وفيه تعهد للقس سمعان عريض، الرئيس العام ورهبانه الانطونيانيين "ان يعمروا ديراً جديداً في بيروت العتيقة في أرض بيت مرى". أنظر سليمان أبو عز الدين: مصادر التاريخ اللبناني (الاقتصاد)، ص ٦٨٥.

حصنا صنّين وبرمانا: جمع المؤرّخ استرابون بين هذين الحصنين، وسماهما "سنّان" و"بورومّة". ومن المرجّح بناؤهما في العصر الهلنستي للإشراف على المنطقة، ولحماية الطريق بين بيروت والبقاع، التي تمر في المنخفض الواقع إلى الشمال من جبل الكنيسة. وقد دمّرهما القائد الروماني بمبيوس عندما احتل لبنان.

قلعة الحصن في كيفون: تقع هذه القلعة على هضبة، فوق بلدات كيفون وعيناب وسوق الغرب. يعود بناؤها إلى ما قبل عهد الرومان، وربما جدّد الرومان بناءها. وقد تكون في الأصل هيكلاً فينيقياً، أو حصناً هلنستياً، الغرض منه مراقبة المنطقة المحيطة به، وحماية الطريق المارة بالقرب منه والموصلة بين بيروت وساحلها الجنوبي وبين البقاع. اسمها في العهد التنوخي "حصن الغرب"، ويقال ان الأمير ناصر الدين الحسين (١٢٦٩ – ١٣٥٠) جدّد بناها. ومن المشكوك فيه أن يكون تجديده لبنائها تحويلها إلى حصن، ذلك أن المماليك، وقد عاش في عصرهم، انكروا على قريبه زين الدين بن علي بناء عمارة في رأس عرمون "جعلها اساس ابراج على هيئة قلعة، وامروه بإبطال ذلك، فعمّر فوق الأساس عليتين"[١].

الظاهر اليوم من قلعة الحصن بناء متوسط الحجم من طابقين: السفلي مغلق بالحجارة، والعلوي بقايا قناطر قائمة على جزء من السفلي، وحول البناء أساسات حجارتها ضخمة. واسم القلعة حالياً "القصر"، وهناك نزاع قضائي بين مالكه وبين الحريصين على أن تبقى القلعة أثراً تاريخياً.

قلعة الحصن في السمقانية: تقوم هذه القلعة وسط الشوف السويجاني، على تلة علوها ٩٥٠ م، تُعرف عند أهل السمقانية بـــ "قبة الحصن". ترتفع عما حولها من ناحية الشمال حيث تتصل بواسطة ما يسمى "باب المرمى"[٢] بمرج السمقانية، ومن ناحية الغرب حيث تتصل بمنخفض متاخم لمرج

١- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٧٦ (هامش).

٢- من المعتقد أن يكون لاسم "باب المرمى" علاقة بالقلعة وبالدفاع عنها.

بعقلين، ومن ناحية الجنوب حيث تتصل بوادٍ يفصلها عن تلة أخرى أعلى منها فيه نبع ماء، كان يوصل إليه من داخل القلعة بواسطة نفق". أما ارتفاعها عما حولها من ناحية الشرق حيث مدخلها وحيث تتصل بأراضي "الصليّب" و "بقعاتا"، فهو أربعة أمتار، وقد عدّلت فيه الحفريات التي جرت هناك لاستصلاح الأرض. إلا ان البرجين اللذين كانا قائمين في هذه الناحية عوضا عن قلة الارتفاع ، وزادا في مناعة القلعة.

اتخذت قلعة الحصن شكل التلة التي بُنيت عليها في اتجاهاتها وانعطافاتها، وفي ارتفاع أرضها الذي يزداد كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق حيث تبلغ الزيادة الخمسة والعشرين متراً. مساحتها حوالي العشرين ألف متر مربع. بطول حوالي ٣٠٠ م، وعرض بمعدل ٧٠م. لا تظهر منها إلا أساساتها العريضة. والظاهر منها في بعض الأماكن، والبالغ ٨ أمتار، ربما ليس أساس الحصن، وإنما أساس جداره والغرف والأبراج القائمة عليه. يظهر منها خمسة أبراج، اثنان على جانبي المدخل الرئيس الواقع في الجهة الشرقية[١]، واثنان في الجهة الجنوبية، وواحد في الجهة الشمالية الغربية. وفي الجهة الغربية من القلعة فسحة سهلية كانت على الأرجح ميداناً. وفي الجهة الجنوبية الغربية منها نواويس مطمورة. عدم تنسيق الحجارة الضخمة أفقياً وعمودياً، وعدم نقشها، وتآكلها، أمور تدل على قدم القلعة.

وصف الأب موريس تالّون قلعة الحصن، وقال إنها تتحكم بجميع طرقات وادي الباروك ووادي بيت الدين، وتشرف على طريق الساحل – البقاع. لكنه لم يحدّد تاريخ بنائها، وإنما اكتفى بالقول إنه يعود إلى زمان قديم[٢]. وأجرى الدكتور وسام خليل دراسة عليها فوجد فيها فخاريات تعود

١- كان البرجان، اللذان لم يبق منهما اليوم الا اساساتهما، ظاهرين في سنة ١٩٦٣ عندما زار الأب موريس تالون القلعة وكتب عنها. أنظر Mssurice Tallon: sanctuaires et itinéraires du Chouf et du sud de la Bequaa, les mélanges de l'univeristé de Saint Joseph 1967, P 23 – 251.

٢- Ibid.

إلى عهود مختلفة، هي العهد البيزنطي والعهد الروماني والعهد الهلنستي وعهد الحديد. وبناءً على أقدم الفخاريات، وعلى تقنية البناء المتشابهة مع تقنية بناء قلعة المرقب في سورية، التي تعود إلى العهد الأشوري، استنتج أن قلعة الحصن تعود إلى هذا العهد أيضاً، وأن مملكة صيدون بنتها في القرن الثامن أو السابع ق.م. لحماية الطريق التي تربط بين صيدا والبقاع، ولايقاف أية محاولة اشورية للتقدم من البقاع نحو صيدون يوم كانت هذه المدينة على نزاع مع الاشوريين من وجوهه ثورتها في عهد ملكها عبد ملكوت في سنة ٦٧٧ ق.م. على الملك الأشوري أسر حدون. (١)

إن موقع القلعة يؤهلها فقط للتحكم بجزء من طريق صيدون - قب الياس، ولا يؤهلها للتحكم بطرقات وادي الباروك ووادي بيت الدين كما ذكر تالون، لأنها لا تشرف عليها، إذ هي على تلة وسط منخفض، وبالقرب منها إلى الجنوب تلة أعلى من تلتها، وإلى الشمال لا يصل النظر إلا إلى أعالي تلة دير القمر القريبة منها، وإلى الغرب لا يصيل إلا إلى التلال القريبة منها التي بنيت عليها بعقلين، وإلى الشرق لا يرى المرء الا قمم جبل الباروك. واستنتاج وسام خليل أن القلعة بنيت في العهد الاشوري يجعلها من الآثار القديمة جداً في لبنان، وأقدم قلعة في جبل لبنان. أما قوله إنها بنيت لوقف تقدم الأشوريين من البقاع نحو صيدون، فهو خاطئ ، لأنها لا تشرف على صيدون، وموقعها لا يسمح برؤية أي هجوم يأتي من الشرق من ناحية البقاع، كما أنها غير مؤهلة لوقف تقدم الاشوريين لأن هؤلاء لم يقف في طريقهم مدن كبيرة محصنة، وهم قادرون على الوصول إلى صيدون عبر عدة طرق من وسط البقاع وشماله، وعبر طريق حمص - طرابلس. يضاف إلى ذلك أن ملك صيدون عبد ملكوت لم يلجأ إلى قلعة الحصن أو إلى الجبل حين انهزم مع حلفائه، بل فرَّ إلى البحر واصطاده الملك اسرحدون كسمكة كما يرد في أحد النقوش التي تخلّد انتصاراته.

١- Wissam Khalil, Prospection dans le :Liban meridional, volume I, P 63- 65

وجود قلعة الحصن على طريق صيدون – البقاع، وكبرها، ووجود أبراج فيها، أمور تدل على أنها بنيت لأغراض دفاعية، وأن بناتها توخوا منها حمايتهم من عدو معلوم، ومن مفاجآت الغزاة. إلا انها ليست من بناء الأشوريين، لأنه لم يعهد عنهم بناء القلاع في فينيقيا، وليست من بناء صيدون لغرض الدفاع عنها وان بنيت في جبل صار يعرف باسمها، لأنه لم يعهد منها بناء القلاع في المناطق الجبلية. وهذا يطرح احتمال أن تكون من بناء إحدى الجماعات الكنعانية التي توطنت الوهاد الداخلية، وكان لها كيانات مميّزة عن مدن الساحل قبل أن تذوب في ممالكها. وقد توطنت هذه الجماعة الشوف السويجاني، واستثمرت أصلح أراضيه، وبنت هذا الحصن ليكون لها بمثابة قرية كبيرة تقيم فيها، وتحتمي بها من الغزوات. فهذه هي المهمة الرئيسة له قبل مهمة الإشراف على طريق صيدون – البقاع.

ومما يعزّز القول بوجودٍ قديم للكنعانيين الفينيقيين، في قلعة الحصن ومحيطها، اسم قرية عينبال، واسم محلّة الداغون في غريفه، فالأول قد يكون عين بعل، أي عين الإله الكنعاني بعل، لا عين بل أو عين بال، بمعنى الخاطر، والثاني قد يكون اسم الإله الكنعاني داجون، لا اسماً سريانياً من لفظة "دجن" أو "داجن" بمعنى الظلمة. وفي اعتقادنا أن قلعة الحصن استعيض عنها في عهد البطالسة بحصن آخر قريب منها معروف باسم "قصر السويجاني". وقد تكون استعملت بعد ذلك من شعوب غيرهم، منها فرنجة سنيورية صيدا إبّان توسعهم في جبل صيدا.

حصون طريق صيدون – قب الياس في العصر الهلنستي

ازداد نشاط الحركة التجارية في العصر الهلنستي مما حتّم الاكثار من الحصون لتأمين المرور الآمن للتجار والبضائع على الطرقات البرية. وقد تكلم المؤرخون عن ذلك، وعن تجارة المدن الفينيقية التي انطلقت شرقاً إلى البقاع وسورية عبر ممرات المناطق الجبلية. منها ممر ضهر البيدر أفضل وأسهل الممرات في سلسلة جبال لبنان الغربية الممتدة من جبل عكار شمالاً إلى جبل نيحا جنوباً، وهو أقل انخفاضاً منها، إذ يبلغ ارتفاعه عن

سطح البحر ١٥٥٧متراً، يضاف إلى ذلك أنه مكان وسط لبنان ووسط جباله الغربية، تلتقي عنده، وبالقرب منه، أربع طرق، هي طريقان من بيروت وساحلها، وطريقان من صيدون، تتجه جميعها إلى قب الياس في البقاع، وكانت جميعها محمية بالحصون.

لم يكن تأمين الحركة التجارية على الطرقات الدافع الوحيد لبناء الحصون، بل كان هناك دافع آخر عند البطالسة ، هو تأمين الدفاع عن ممتلكاتهم في وجه الخطر السلوقي الزاحف من الشمال، الذي استهدف وجودهم في سورية المجوّفة وفينيقيا وفلسطين. لقد كان لهم في البداية خط دفاع أول في سورية المجوّفة عند جهات القاع في شمال البقاع، فيما كان لهم في الساحل خط دفاع ثانٍ يشمل المدن الفينيقية، وأهمها سكنياً وتجارياً كما حربياً مدينتا صيدون وصور. الا ان استمرار المعارك بينهم وبين السلوقيين عدّل في مناطق نفوذ كل منهما، وعدّل بالتالي في مواقع خط دفاع البطالسة في البقاع إذ انتقل من شماله إلى وسطه حيث تحصّنوا في مركزين كبيرين، هما حصن جرّا وحصن بروكاي، وبينهما باتجاه الجنوب عائق طبيعي هو بحيرة مرسياس التي كانت كبيرة في الماضي، ولم يبق منها إلا مستنقعات عميّق.

تكلم المؤرخ بوليب عن جرّا وبروكاي، لكنه وسواه من المؤرخين القدماء لم يتكلموا عن حصون للبطالسة تقع بين خط دفاعهم في البقاع، وخط دفاعهم في الساحل، وهي حصون ضرورية لتأمين الاتصال بينهما إضافة إلى تأمين حركة المرور التجارية على الطرقات التي تصل بين قب الياس في البقاع وبين صيدون وبيروت. كما هناك نقص كبير في دراسة الأماكن الأثرية الواقعة حول هذه الطرقات. وقد كانت بداية طريقنا إلى معرفة حصون طريق صيدون – قب الياس دراستان أجريتا على واحد منها في سنة ٢٠٠٥ وسنة ٢٠١٠ هو "حصن معروف بقصر السويجاني.

قصر السويجاني: قصر السويجاني قائم على تلة إلى الشمال من قرية الكحلونية الشوفية، تشرف على مساحات واسعة تمتد من جبل صنين وسفوحه الغربية شمالاً إلى تلال كفرحونه، الواقعة إلى الجنوب من جزين، جنوباً. إنه، على الأرجح، على اسم أمير من عشيرة بني الشويزاني (السويجاني) سكن فيه، وهذه العشيرة قدمت إلى جبل لبنان في القرن التاسع الميلادي. وآثاره قسمان، أولهما بناء تظهر أنقاضه وحجارته الضخمة والمنسقة، طوله من الشمال إلى الجنوب ٣٣,٥م، ومن الشرق إلى الغرب ٣٥ م، أحدث اللصوص في أساسه الشرقي فجوة وهدموا قسماً من حجارته الضخمة فبدا جزء منه مدرّجاً. وثانيهما ، إلى الجنوب منه، تظهر أساساته فقط، وهي على مستوى الأرض.

قام الاختصاصي بعلم الآثار، الدكتور حسن بدوي، بناءً لطلب اتحاد بلديات الشوف السويجاني، بأعمال التنقيب في القسم الأول ، سنة ٢٠٠٥، ولم يقدّم تقريره إلى المديرية العامة للآثار. إلا أن أحد تقاريره المقدّمة إلى رئاسة اتحاد بلديات الشوف السويجاني[١] يفيد أن الفخاريات التي عثر عليها يعود تاريخ أكثرها إلى القرن الثالث ق.م. ثم تابع الاختصاصي بعلم الآثار الدكتور وسام خليل، العمل في صيف ٢٠١٠، يعاونه الدكتور اسكندر حوراني، فتوصلا، بناءً للقى التي وجداها، إلى النتيجة نفسها، إذ عثرا في الرماد على سوار برونزية، وشفرة برونزية، وفخاريات يعود أكثرها وأحدثها إلى بداية القرن الثاني ق.م.، أو إلى أواخر القرن الثالث ق.م[٢]. وهذا التاريخ هو نهاية الصراع بين الملك السلوقي انطيوخس الثالث

١– أوراق اتحاد بلديات الشوف السويجاني المقدّمة إلى الدكتور وسام خليل، كمعطيات أولية عن الحصن.

٢– تقرير الدكتور وسام خليل إلى المديرية العامة للآثار، وإلى اتحاد بلديات الشوف السويجاني، وإلى بلدية الكحلونية التي يقع حصن السويجاني في خراجها. وهو سيكمل دراسته على بناءي قصر السويجاني، وربما يتوصل إلى معطيات جديدة ومهمة ، تؤكد ما توصل إليه، وما توصلنا إليه اعتماداً على دراسته، أو تبدّل فيهما بعض الشيء.

والبطالسة، الذي انتهى بسيطرة انطيوخس على فينيقيا سنة ١٩٧ ق.م. ومن كل هذا يُستنتج أن البناء حصن هلنستي بُني في القرن الثالث ق.م، ودُمِّر وأُحرق في مطلع القرن الثاني ق.م.

كان السؤال الأول والمهم، الذي تبادر إلى الذهن، هو، لماذا بني حصن السويجاني على مسافة كيلومتر من قلعة الحصن في السمقانية، التي هي أضخم وأمنع، وفيها أبراج، وتشرف مثله على طريق صيدون – قب الياس، وإن بمسافة أقل، فيما هو مبني على تلة الكحلونية غير المنيعة، وسط منبسط واسع نسبياً، الوصول إليها سهل من كل الجهات، مع وجود تلال حولها أمنع وأعلى منها، ومشرفة مثلها. وهذا ما يطرح فرضية علو الحصن ومناعته ليعوّض عن ضعف حصانة الموقع الطبيعي.

جميع الإجابات الأولية عن هذا السؤال، الآخذة بعين الاعتبار موقع قلعة الحصن، غير المشرف، كانت غير شافية، وغير مقنعة، ومجرّد احتمالات، مما اقتضى منا جولات على الأماكن الأثرية والأماكن التي من المحتمل أن يكون فيها آثار حول طريق صيدون – قب الياس. فلاحظنا أن الأقرب إلى صيدون مشرف عليها، وأنها بنيت عن قصد في أمكنة تشرف على بعضها البعض. وكانت نقطة البداية حصن السويجاني، إذ ظهر لنا أن بناءه على تلّة الكحلونية، وفي موقع وسط منبسطها، ليس من باب الصدفة، بل من باب الضرورة، لأن موقعه هو المكان الوحيد على التلّة، الذي يمكن الإطلالة منه غرباً عبر فتحة ضيّقة هي وادي قبريش المتصل بوادي عينبال، على موقع واحد هو تلة الصومعة في بكشتين الواقعة إلى الشمال الشرقي من إقليم الخرّوب، والمطلّة على صيدون[1]، كما يمكن الإطلاله منه باتجاه الشمال الشرقي على الأماكن التالية: تلة الزنبقية، شرق عين زحلتا وبمهريه، وادي الجوز، ممر ضهر البيدر، وهي أماكن حول طريق صيدون – قب

---

[1]- هناك تلة إلى الجنوب الغربي من "الصومعة" اسمها "الرجمة" أو "الدبشة"، واقعة فوق قرية عين الحور، تطل على صيدون، الا انه ليس فيها أي أثر، كما ان موقع قصر السويجاني لا يطل عليها، وإنما من الممكن أن يطل سطحه أو برجه على أعلاها.

الياس، إضافة إلى تلة واقعة إلى الغرب من المديرج، إلى جانب طريق قب الياس- بيروت، ومشرفة على أعالي المتن.

استنتجنا أن حصن السويجاني بني في موقعه، السالف الذكر، ليؤمن الإتصال من جهة الغرب بتلة الصومعة وعبرها بصيدون، ومن جهة الشمال الشرقي بتلة الزنبقية التي سنتكلم عنها، وبمواقع أبعد منها تشرف على بداية طريق صيدون – قب الياس، وطريق بيروت – قب الياس. وهذا مكّننا من معرفة سائر الحصون الهلنستية. وبما أن حصن السويجاني لم يبنَ قريباً من قلعة الحصن إلا لهذا السبب، ولكي يكون بديلاً عنها، يبقى التساؤل قائماً عن مصيرها، وهو تساؤل لا يمكن الإجابة عنه إلا في ضوء دراسة أوسع وأدق مما أجري عليها من دراسات، وإن كنا نرجّح اعتمادها في عصور لاحقة للعصر الهلنستي.

الصومعة: أفاد الساكنون بالقرب من تلة الصومعة أن فيها آثار حصن قديم. ووجدنا في أعلاها حجارة كبيرة وبقايا أساسات بناء. وقد جاء عنها في مرجع حديث ما يلي: "أما الموقع الأثري القديم في بكشتين، فيقع فوق قمة التلة على ارتفاع شاهق، ويُطلق عليه اسم "الصومعة". وقد امتدت إليها أيدي التخريب فنهبت موجوداتها وبعثرت محتوياتها، وهي الآن غارقة في غابة من الأشواك والنباتات البرية التي تغطي أجزاء منها"[1].

تلة الصومعة هي أعلى تلال بكشتين. تطل على صيدون وعلى مناطق ساحلية تمتد من بيروت إلى ما بعد صيدون. وتطل أيضاً على مناطق جبلية واسعة. وهي منيعة حصينة، ولا سيما من ناحيتي الشمال والشرق حيث تنحدر إلى وادي نهر الحمّام انحداراً حاداً. والآثار الموجودة عليها هي، على الأرجح، لحصن هلنستي، هو مع المحلّة الموجودة في البرجين، التي

---

[1]- أحمد يونس: المعالم الأثرية والتاريخية، ص ١٨٤. وفي نفس الصفحة مخطط وضعه المؤلف للآثار الموجودة في تلة الصومعة. وفي الصفحة التالية ذكر أنه يوجد معالم بناء طوله ٢٥ م وعرضه ٢٠ م، في داخله بقايا بناء آخر مهدّم ابعاده ٢٠م× ١٥م.

تحمل اسم "البرج"، أو مع الحصن الموجود في تلة القرحانية بالقرب من البرجين، وراء تسمية قرية البرجين باسمها هذا، إذ معناه البرج أو الأبراج.

تجدر الاشارة هنا إلى وجود بقايا بناء قديم، غير بعيد عن الصومعة، "موجود على تلة جنوب حصروت، اسمه "برج الحصين"، وُجدت فيه قطع فخارية وبرونزية، منها علبة للزينة من البرونز"[1]. إلا أن هذا البناء لا يشرف على صيدون غرباً، ولا على حصن السويجاني شرقاً.

اسكندرونة: تلة تقع في قرية المغيرية فوق وديان عميقة، وتشرف على صيدون. وهذه القرية هي من القرى الأولى التي تمر فيها طريق صيدون – قب الياس، بعد انطلاقتها من صيدون. وفي التلة بقايا بناء قديم ضلعه ٢٥م. واسمها يوحي أنها على اسم الاسكندر المقدوني، وأن من سماها يونانيون، وأن تاريخ بناء الحصن عليها يعود إلى العصر الهلنستي.

الزنبقية: تلة تقع إلى الشرق من كفرنبرخ، وتنحدر بشكل شبه عمودي نحو وادي نهر الصفا، وتواجه من الناحية الشمالية تلة كفرنيس التي يوجد عليها حصن قديم، ومن الناحية الجنوبية الغربية حصن السويجاني، وتشرف على مسافة طويلة من طريق صيدون – قب الياس التي تمر إلى الجنوب منها. وُجد فيها خاتم عليه كتابة هيروغليفية، وعملة على وجهها سفينة فينيقية، وعلى الوجه الآخر صورة تشبه الاسكندر. وهذا النوع من العملة كان يُسك في العصر الهلنستي، مما يؤكد أن الحجارة الكبيرة الموجودة على التلة، والموجودة خاصة في أساسات واضحة، هي بقايا حصن هلنستي صغير، استعمل أيضاً في العهد الروماني بدليل وجود مغارة مدفنية رومانية هناك.

تيروش: تقع تيروش في وادي الجوز إلى الشمال الشرقي من عين داره. وهي نهاية المراكز السكنية الواقعة على طريق صيدون – قب الياس. موقعها تحت ممر ضهر البيدر وإلى الغرب منه. كان فيها خرائب عبثت بها الجرّافات مؤخراً فلم يبق منها إلا ركام من الحجارة الكبيرة. وجد فيها

---

[1]- المرجع نفسه، ص ٢١٣.

فخاريات تعود إلى القرنين الثاني والأول ق.م. لذا قد تكون لحصن هلنستي، كما قد تكون بقايا أبنية رومانية، لأنه وجد إلى جانبها ناووس روماني. وعلى افتراض أن الخرائب هي لحصن هلنستي، فهو ليس الحصن الذي يلي حصن الزنبقية مباشرة.

أغميد: قياساً على أطوال المسافات الفاصلة بين حصون طريق صيدون – قب الياس، من المفترض وجود حصن إلى الشمال الشرقي من الزنبقية. والأماكن الواقعة حول الطريق في هذه الجهة ليس فيها آثار أبنية هلنستية، وإنما فيها آثار أبنية رومانية، الموجود منها في شحّار عين زحلتا قريب من الطريق لكنه لا يطل على الزنبقية. والموجود منها في بمهريه بعيد عن الطريق التي تمر إلى الشرق منه، في وادي العلّيق، ولا يشرف عليها. وبناءً على ذلك، وعلى فرضية وجود حصن قبل تيروش وعين داره، مواجه لتلة الزنبقية يتجه فكر الباحث إلى تلة الحصن في أغميد، المنتصبة أمام نظره عندما يقف في تلة الزنبقية، والواقعة في منطقة "الجرد" من قضاء عاليه حالياً، على علو ١٣٠٠ متر ونيّف عن سطح البحر، مما أهّلها أن تكون مركزاً لمحطتي ارسال للهاتف.

الجزء الأعلى من سطح التلة، وهو الشرقي منها، لا تزال بعض الحجارة الكبيرة موجودة فيه بشكل أساسات جدار، كما أن القليل منها موجود بينه وبين خلوتين للموحّدين الدروز، قائمتين في الناحية الغربية من التلة: خلوة قديمة وخلوة حديثة، وإلى جانبهما مدفن قديم. وهذه الحجارة هي لبناء قديم يعود إلى عهد الرومان، بحسب ما يقول ثقات من أبناء أغميد. وفي اعتقادنا أنه يعود إلى ما قبله، أي إلى العهد الهلنستي، لأنه متمّم لسلسلة الحصون الهلنستية المقامة على طريق صيدون – قب الياس، وظيفته مراقبة الطريق عند بدايتها من ناحية الشرق في تيروش وعين داره، والاتصال المباشر بحصن الزنبقية، القائم إلى الجنوب الغربي منه. كما انه يشرف أيضاً على بداية طريق بيروت – قب الياس من خلال اطلالته على المنطقة الواقعة بين ممر ضهر البيدر والمديرج.

بناءً على ما ورد عن جميع الحصون الهلنستية يمكن القول إنها مراقب انشئت لأسباب عسكرية أمنية، وأسباب اقتصادية تجارية، اعتمد الرومان معظمها لاحقاً، وإنها كانت حصوناً متوسطة أو صغيرة، طول معظمها ٢٥ م، وأطولها قصر السويجاني (٣٥م)، وهي لا تتسع إلا لحاميات قليلة العدد. وكان لها مهمات أمنية ورقابية وإعلامية ، واستطاعت أن تؤمن الاتصال السريع، إبّان الحروب، بين البقاع وصيدون، إمّا بواسطة الرسل، أو بواسطة طريقة أسرع، نعتقد أنها كانت مستعملة آنذاك بناء على تشييد الحصون في مواجهة بعضها البعض، وهي أن تشعل النار ليلاً أو نهاراً ، أثناء الرؤية الحسنة، في حصن، فتجيبها نار من حصن مقابل، أو تلة مقابلة، كما كان يحصل بعد ذلك في عهد المماليك. وبهذه الطريقة يصل الخبر فوراً من أبعد حصن في الشرق إلى صيدون. وبإحدى هاتين الوسيلتين تم إعلام قائد البطالسة، نيقولاوس، بانتقال انطيوخس الثالث من جرّا إلى الساحل عبر طريق قب الياس – بيروت، فأرسل قواته إلى ممرات بيروت ليقطع الطريق على انطيوخس.

الفصل الثالث

في العهد الروماني

الإحتلال الروماني

لبنان تحت الحكم الروماني: بلغت المملكة السلوقية أوج مجدها في عهد أنطيوخس الثالث، ثم ضعفت في عهد خلفائه، وثار النزاع على العرش بينهم. واستقلت اليهودية بقيادة شمعون المكابي، مؤسس الدولة الاسمونية (١٤٢-٤٠ ق.م). واحتل الفرس بلاد ما بين النهرين. ونعمت المدن الفينيقية بالإستقلال الداخلي الصوري. وكثر قطاع الطرق واللصوص. واضطرب الأمن في جميع أرجاء المملكة بحيث لم يعد للملوك السلوقيين السيطرة إلا على انطاكية ومحيطها، وخصوصاً عندما استقل الملك تيغران الأرمني بالأحكام. فكان كل هذا ممهّداً لانتقال المنطقة سريعاً إلى السيطرة الرومانية .

بعد أن توسعت روما في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، بدأت تتوسع في حوضه الشرقي، واحتلت بلاد آسيا الصغرى . ثم هزم واليها على هذه البلاد، بمبيوس، الملك تيغران . واحتل سورية وفينيقيا في سنة ٦٤ ق.م ، واورشليم وفلسطين في السنة التالية، فأنهى بذلك حكم السلوقيين في عهد آخر ملوكهم انطيوخس الثالث عشر الذي خلف ملكاً سلوقياً قُتل إبّان توليه الحكم هو انطيوخس الثاني عشر .

شهد الإحتلال الروماني للمناطق الواقعة إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط وجهين من الصراع : صراع القادة الرومان لتثبيته في هذه البقعة المضافة إلى روما . وصراع بين هؤلاء القادة أنفسهم على السلطة،

اتخذوا خلاله من الشرق مسرحاً لتصفية حساباتهم، ومن الاستفراد بحكمه سبيلاً إلى تسلم عرش روما أو استمرارهم عليه. وعلى إثر النزاعات التي نشبت بينهم انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، وآل القسم الشرقي منها إلى انطونيوس. إلا أن منافسه اوكتافيوس انتصر عليه وعلى حليفته وعشيقته كليوبترا، ملكة مصر، بعد ستة أعوام من الصراع، وأنهى في سنة ٣٠ ق.م حكم البطالة على مصر، الذين سبق لملكهم بطليموس أن اعترف بالسيادة الرومانية على بلاده في سنة ٥٩ ق.م . وضم اوكتافيوس مصر إلى الإمبراطورية الرومانية. ووحّد الإمبراطورية بوضع القسم الشرقي تحت سيطرته.

إنهاء الرومان لاعتداءات الإيطوريين: تمكّن بمبيوس بعد احتلاله لسورية وفينيقيا من تثبيت الأمن في المناطق التي كانت مسرحاً للإضطرابات والإعتداءات إبان الحكم السلوقي. وحارب الأيطوريين الذين كانوا يغيرون من مواقعهم في البقاع وفي الجبال اللبنانية على السواحل، وعلى القوافل التجاريّة. ولاحقهم في معاقلهم وخرّب حصونهم. وقطع رأس قائدهم ديونيسيوس في طرابلس، وهو أحد أقارب شيخهم بطليموس بن منايوس، حاكم خلقيس(عنجر)[١]. وقتل كنيراس في جبيل. وأجبر بطليموس على دفع ألف وزنة .

والايطوريون قبائل عربية نسبوا إلى ايطوريا في الجيدور، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق، حيث كانوا يقيمون في الجبال الصخرية المعروفة اليوم بجبل العرب واللجاه[٢] . كانوا يتكلمون اللغة الآرامية، ويجيدون رمي النبال. سيطر فريق منهم في أواخر العهد السلوقي على شمال البقاع ، واتخذ خلقيس قاعدة له . وسيطر فريق ثان على شمال لبنان، واتخذ

١- اعتبر المؤرخون خلقيس عنجر . إلا أن وسام خليل حدّد موقعها إلى الشمال من عنجر. انظر
Wissam Khalil, prospection dans le Liban meridional, volume.p110-113

٢- يوسف الدبس: من تاريخ سورية: المجلد الأول، ص ١٢٢ ، ولا منس : تسريح الأبصار، الجزء الأول، ص ٢٢

عرقة قاعدة له . وكان لهم حصون طبيعية يحتمون بها ، هي مغاور قاديشا . "وامتد سلطانهم في لبنان حتى الشاطئ الفينيقي حيث استولوا على الطريق المشهور في تيوبروسوبون Théouprosopon . واستولوا أيضاً على ميناء بوتريس Botrys . وكانوا يقلقون جبيل وبيروت باعتداءاتهم إلى أن تدخل بومبي [يمبيوس] ليضع حداً لتعسّفاتهم "[1] .

ومن حصون الإيطوريين أيضاً جيغرتا (حنوش اوسلعاتا) ، وحصنا سنّان (صنّين) وبوروماً (برمانا)، اللذان خرّبهما بمبيوس. ومن المرجّح أن يكون شاغلوهما والقائمون بالإعتداءات منهما على بيروت وجبلها ، هم من ايطوريي خلقيس، وقد تسرّبوا من البقاع إلى الجبال اللبنانية الغربية عبر الممرالواقع بين جبلي صنين والكنيسة، والممر الواقع بين جبلي الكنيسة والباروك. وأحد المراجع الحديثة ينسب إليهم بناء الهيكل الصخري قرب قب الياس، كما يذكر ان هيكل فقرا ربما كان في الأصل من بنائهم[2]. وربما أقاموا في قلعة الحصن في منطقة البترون.

لقّب الجغرافي استرابون، والمؤرخ فلافيوس جوزيف، الإيطوريين بأنهم سكان جبال ولصوص محترفون، أي أنهم أناس يعيشون على اللصوصية. وقد نشروا الفوضى على طول الساحل الفينيقي الممتد من طرابلس إلى بيروت. وكان أميرهم بطليموس (٨٥-٥٨ ق.م) يفرض الجزية على القوافل التي تأتي من دمشق إلى بيروت "مما اضطرّ الدمشقيين إلى استدعاء الملك النبطي، الحارث الثالث، ليعيد النظام. وهذا الأخير أقام في دمشق حيث سك العملة "[3]. بعض المؤرّخين يذكر أن الإيطوريين خرّبوا بيروت. وبعضهم الآخر يذكر أنهم وصلوا إلى صيدون. إلا أن وصولهم إلى صيدون غير مؤكّد. وربما كان المقصود بذكرها ذكر حدود مملكتها التي كانت تصل آنذاك قريباً من بيروت. وبناءً على هذا يمكن القول إن اعتداءات

---

[1]- رنيه ديسّو : العرب في سوريا ، ١٣-١٤ .

[2]- كارلهاينز برنهاردت: لبنان القديم، ص ١٩٠، ٢٠٨.

[3]- جواد بولس : لبنان والبلدان المجاورة ، ص ١٩٧

الإيطوريين شملت كسروان والمتن والجرد والغرب، وانهم استهدفوا القوافل المارة بين دمشق وبيروت في الإتجاهين. ومع كل الضربات التي تلقّوهـا، ظلت عاصمتهم خلقيس تقاوم الرومان إلى عهد الإمبراطور تراجـان (٩٨-١١٧).

التنظيم الإداري الروماني: غدت روما سيّدة العالم القديم. وجعلـت البحـر المتوسط بحيرة رومانية. وروّمنت المناطق التي سيطرت عليها لغة وثقافـة وإدارة وعمراناً. وأنشأت حضارة من أهم الحضارات العالمية. وأرست فـي مناطق سيطرتها ما سمي "السلم الروماني " بفضل ضبط الأمور، وإحـلال الأمن، وإقامة الحصون ومراكز الجند لمراقبة الطرقات وحماية المسافرين، ووضع القوانين المنظمة لشؤون الدولة والناس، وتحسـين الإدارة، وربـط المستعمرات بالعاصمة، وربط المناطق والمدن بالسكك.

حكم الرومان المناطق الواقعة إلى الشرق من البحر المتوسط حكمـاً مباشراً لأهميتها. ومن أجل ضبط الأمور، ومنع تجدّد الفوضى التي سـادت في أواخر العهد السلوقي، جعل بمبيوس منها ولاية عرفت فيما بعـد باسـم "الإقليم السوري " أو "سورية"، حاكمها بدرجة قنصل سابق، مفـوّض مـن الإمبراطور، يديرها من العاصمة، انطاكية، وبأمرته أربعة جيوش ، مدته في الأصل سنة واحدة، ويعزله الإمبراطور متى شاء. إلا أن ولايته الفعلية كانت أكثر من ذلك وصلاحياته كانت شبه مطلقة. وفي سنة ١٩٤ قسّم الإمبراطور سبتيموس سفيروس سورية إلى قسمين: شـرقي، وهـو يتضـمن سـورية المجوّفة، وعاصمته انطاكية. وغربي، وهو يتضمن سورية فونيقي (سورية الفينيقية)، وعاصمته صور. وكان في الأولى فيلقان من الجند، وفي الثانيـة فيلقان أيضاً [١].

حافظت روما على وحدتها حتى سنة ٣٩٥ حين قسّـم الإمبراطـور تيودوسيوس، وهو على فراش الموت، الإمبراطورية بين ولديه : اركاديوس

---

[١]- انظر عن تقسيم سورية يوسف الدبس: من تاريخ سورية، المجلد الرابع ، ص ١٤٠ .

وهونوريوس . فكان الشرق من نصيب الأول، والغرب من نصيب الثاني . وكانت فينيقيا جزءاً من القسم الشرقي الذي دعي بالإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى بيزنطيه التي اتخذها قسطنطين، في سنة ٣٣٠ ، عاصمة وأعطاها إسم القسطنطينية .

في نهاية القرن الرابع للميلاد كانت ولاية سورية تشتمل على خمسة أقاليم، هي سورية الشمالية وقاعدتها انطاكية، سورية الفينيقية، وسورية المجوّفة وقاعدتها بعلبك، وسورية الفلسطينية وقاعدتها بصرى اسكي شام. وقسّمت سورية الفينيقية إلى قسمين: الأول، وهو فينيقيا البحرية ومركزها صور، ومدنها الرئيسة بتولماوس (عكا) وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعرقة وأرواد، وهي تمتد من عكا جنوباً إلى جبلة شمالاً. والثاني، وهو فينيقيا التي تقابل لبنان، أي فينيقيا اللبنانية ومركزها مدينة حمص، ثم أصبح في أواخر العهد البيزنطي دمشق، وهي تضم هليوبوليس (بعلبك). "وقد ظل تقسيم البلاد على هذا النمط إلى الفتح العربي" [١] .

عودة السيطرة الفارسية على لبنان

لم يكن احتلال الرومان للشرق بمثابة أحادية دائمة، ولم تخل ساحته كلياً لهم ، بل وجد احياناً قوى اقليمية تنازعهم عليه منذ بداية احتلالهم له وتزعزع وجودهم فيه، بل انها كادت تنهيه يوماً ما.

إبّان صراع انطونيوس مع اوكتافيوس توسّع الفرتيون الذين كانوا يسيطرون على شمال سورية، وشمل نفوذهم بين سنتي ٤٠ و٣٨ ق.م المدن الفينيقية، وامتد إلى صور. وبين سنتي ٢٦٩ و٢٧٣ خضعت المدن الفينيقية للملكة زنوبيا التي وسّعت حدود مملكتها جنوباً حتى بلغت مصر، واستقلت عن الرومان. لكن القيصر الروماني اورليانوس تمكن من التغلب عليها، واخذها اسيرة إلى روما .

١- فيليب حتي : تاريخ لبنان ، ص ٢٣٤-٢٣٥.

استمرت الامبراطورية الرومانية في الشرق باسم امبراطورية الروم البيزنطيين، أو الامبراطورية البيزنطية التي اتخذت القسطنطينية عاصمة لها، وورثت الامبراطورية الرومانية في المجد والشهرة والسيطرة على سورية. إلا أن هذه الامبراطورية ضعفت بعد ازدهارها، ابتداءً من عهد يوستتيانوس، بسبب المنازعات الدينية بين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح والقائلين بالطبيعتين له، وبسبب الحروب التي قامت بينها وبين جارتها في الشرق، الامبراطورية الفارسية التي التقت حدودها الغربية في بلاد ما بين النهرين، مع الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية في ولاية سورية .

استطاع الفرس أن يعيدوا بناء دولتهم بعد هزيمتهم أمام الإسكندر، وخضوعهم لخلفائه. ودخلوا في صراع مع روما استمر إلى عهد ملوكهم من آل ساسان. فهاجم كسرى انوشروان سورية، وتغلب على الروم في معركة انطاكية. ثم هاجمها كسرى ابرويز واحتل دمشق، ووصل إلى الساحل الفينيقي، واحتل مدن بيروت وصيدا وصور. واحتل فلسطين في سنة ٦١٥، وأخذ من بيت المقدس، الذي خرّبه، خشب الصليب. وجعل الفرس من المناطق الجبلية التي سيطروا عليها إيالة فارسية من سنة ٦١١ إلى سنة ٦٢٢، ومما سهّل فتوحاتهم إستياء السكان من سوء الإدارة البيزنطية ، وانقساماتهم المذهبية ووقوف اليهود إلى جانب الفرس.

بدأ الروم (البيزنطيون) في سنة ٦٢٢ حملات ضد الفرس، بلغت ست حملات، استعادوا في نهايتها كامل أراضيهم وخشب الصليب في عهد الإمبراطور هرقل. فكان ذلك أحد التذكارات العديدة التي ترمز إلى تكريم الشرقيين للصليب في ١٤ أيلول من كل سنة، وذلك بإشعال النار على المرتفعات بالطريقة التي أعلم بها هرقل أهل القسطنطينية بانتصاره على الفرس، واسترجاعه خشب الصليب منهم[1] .

[1]– للمزيد من المعلومات عن عيد الصليب، انظر كتابنا "العادات والتقاليد في لبنان، ص ٧٨–٨٠.

من آثار الفرس في لبنان تسمية إحدى مناطقه باسم "كسروان"، الذي لم يتفق المؤلفون على تفسيره، إذ إن منهم من يعيده إلى أحد أمراء المردة كسرى. إلا أنه من المرجّح أن كسرى هذا وجمعه "كسروان" كان أحد أمراء الفرس، الذين تولّوا حكم هذه المنطقة، إما قبل الإحتلال المقدوني، وإما إبّان الإحتلال البيزنطي، وقد يكون أحد أمراء الفرس الذين استقدمهم الخليفة الأموي معاوية إلى الساحل، وهذا احتمال ضعيف.

ومن آثار الفرس في الأسماء إسم "خوند" ، ويلفظ أيضاً الخداوند أو الآخوند. ومعناه في الفارسية "السيد". ومنزلة صاحبه ، بين أصحاب الرتب في لبنان، هي دون الأمير. وتحمل هذا الإسم أُسرٌ لبنانية عديدة في جهات جزّين وصيدا والنبطية . وفي قرية كفرفاقود، من منطقة "المناصف" الشوفية، محلة تُعرف باسم "منطقة الخوند"[1]. وهناك رواية محلية تقول انها كانت مقر الحاكم . وقد اكتشفت فيها نواويس منقورة في الصخر، حُطِّم أحدها. كما اكتشف خاتم يعود إلى عهد البيزنطيين في لبنان. ومما يعزّز صحة هذه الرواية ان اسم كفرفاقود آرامي سرياني، معناه حصن الحاكم أو مقر الحاكم. وفي حال افتراض صحة هذه الرواية تكون كفرفاقود مقر الحاكم الفارسي، الخوند، وتكون منطقة "المناصف" مع محيطها المنطقة التي حكمها الخوند .

بيروت في العهد الروماني

في العهد الروماني فقدت المدن الفينيقية ملوكها الذين يرمز وجودهم في العهود السابقة إلى استقلال ذاتي هو غالباً استقلال شكلي. إلا أنها عوّضت عن ذلك بامتيازات أعطتها بعض وجوه الحكم الذاتي المتمثّل بوجود حكّام إداريين، أو قضاة، من أهلها، وبحق سك العملة. وكان هناك نوعان من المدن في الإمبراطورية الرومانية: "المستعمرة"، وهي صفة تطلق على المدن التي يقطنها الرومان، أي يستعمرونها، ومن حق سكانها التمتع بصفة

---

[1]- تقع هذه المنطقة على مرتفع صغير، مكانه فوق البيت العام لآل زهر الدين، على يمين الطريق العام.

"مواطنين رومانيين". ومدن لا تتمتع بهذه الصفة، يدفع سكانها ثلاثة أضعاف الضريبة التي يدفعها سكان "المستعمرة" .

كانت بيروت أوّل مدينة فينيقية تحصل على لقب "مستعمرة" ، وذلك منذ ان أولاها اوغسطوس قيصر عناية خاصة، ورفعها في سنة ١٥ ق.م إلى هذه الرتبة، وسمّاها باسم ابنته جوليا، أي مستعمرة جوليا اوغسطا السعيدة، وولّى عليها زوج ابنته هذه، القائد مرقس ويسّانيوس اغريبا .فاهتم هذا بتجميل بيروت وزيادة عمرانها. وأقام فيها فرقتين من الجند، هما الفرقة الخامسة المعروفة ب"المقدونية"، والفرقة الثامنة المنسوبة إلى اوغسطوس قيصر. وضرب النقود باسمها. ثم لاقت بيروت اهتماماً مماثلاً من هيرودس الكبير، ملك اليهود، ومن حفيده هيرودس اغريبا الأول. فشيّدت فيها النوادي الواسعة، والهياكل الفخمة، والأسواق والمخازن التجارية، والحمامات، والمسرح الفخم، والميدان الواسع لإقامة المبارزة حتى الموت[1]، ولاحتشاد الناس في المناسبات. وكان يقام فيها سباق للعربات ظل يُجرى حتى أواخر العهد البيزنطي. كما أن بيروت ازدادت عمراناً في عهد خليفته، هيرودس اغريبا الثاني، الذي ولاّه الرومان على قسم من سورية المجوّفة مع بلاد البثنيّة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق[2] .

كان هذا بداية مرحلة من الإزدهار والعمران تحوّلت بيروت فيها من مدينة صغيرة محدودة الأهمية والشهرة، ودورها دون دور صيدا وصور وجبيل، إلى مدينة كبيرة مزدهرة، تفوق بمركزها ودورها المدن المذكورة، هي قاعدة الأسطول الروماني في جنوب شرق البحر المتوسط، وأحد أهم مراكز الثقافة في الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث للميلاد، بفضل مدرسة الحقوق المنشأة فيها. وهي أيضاً مركز لكرسي اسقفية في القرن

---

[1]- تبارز في الاحتفال المقام لتدشين ابنية بيروت ١٤٠٠ رجل انقسموا إلى فريقين، وتقاتلوا حتى الموت. أنظر لويس شيخو: بيروت، ص ٣٦.

[2]- أنظر عن ازدهار بيروت وعمرانها، لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٣٤، ولويس شيخو : بيروت.. ص ٣٥ – ٣٧.

الرابع بعد دخول المسيحية إليها. ومن آثار المسيحية فيها كنيسة جاورجيوس، أو كنيسة القيامة التي هدمها زلزال ٥٥١ ، وبنيت على انقاضها خمس كنائس بالتتالي، ثم بنيت فوقها كنيسة الروم الأرثوذكس القائمة حالياً في وسط المدينة[١] .

توسّع البناء في بيروت، وامتد خارج الأسوار القديمة إلى ظاهرها بفضل إقبال التجار والأغنياء والقادة العسكريين على البناء في ضواحيها. فغدت لؤلؤة عمرانية كما هي لؤلؤة ثقافية ، بدليل ما ظهر من أبنيتها المطمورة في أماكن متفرقة بعيدة عن المدينة القديمة القائمة حول الميناء. وحين لم تعد تكفيها الآبار جُرّت المياه إليها من ينابيع الديشونية، بواسطة قناطر معروفة بقناطر زبيدة، هي أشهر من قناطر رومانية أخرى معروفة بنفس الإسم، تنقل المياه من نهر ابراهيم. والقناطر التي تنقل المياه إلى بيروت واقعة إلى الشمال الشرقي منها، على بعد ٧ كلم. تعلو ٥٠م عن مجرى نهر بيروت، وتنقل المياه من قناة موجودة على ضفته اليمنى، إلى الضفة اليسرى فوق الوادي الواقع بين محلّتي المكّلس والفيّاضية. وهي من ثلاثة صفوف للقناطر فوق بعضها. وكانت المياه تلج منها إلى نفق تحت الأرض تسير فيه لمسافة طويلة، وتنتهي في بيروت حيث توزّع المياه على دورها.

وصف المؤرخ بوسيفوس عمران بيروت وابنيتها ، وتغنّى الشاعر نونّس بها ووصفها بأنها معهد إله العدل، ووصف حدائقها وكرومها وعنبها وخمرتها. كما امتدح يلينيوس عنبها اللذيذ وخمرتها الطيّبة. وحدّد ياقوت الحموي المتوفى في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، نقلاً عن بطليموس، الذي عاش في القرن الثاني ب.م ، طول بيروت وعرضها، قبل أن يكتمل ازدهارها، فقال:" بيروت مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام ، تُعد من أعمال دمشق، بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ ، قال بطليموس : بيروت طولها ثمان وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة

---

[١]- المؤتمر الصحفي عن إعادة افتتاح الكنيسة ، يوم الاثنين في ٢٧ كانون الأول ٢٠١٠.

وعشرون دقيقة ، طالعها العوّاء، بيت حياتها الّميزان . وقال صاحب الزيج : طولها تسع وخمسون درجة ونصف، وعرضها اربع وثلاثون درجة في الإقليم الرابع "[1].

أصبح طول بيروت في عهد الفرنجة، الذين احتلوها في سنة ١١١٠ وجلوا عنها في سنة ١٢٩١ ، ٨٥٠ م، وعرضها ٦٠٠م [2] . وبعد أن ذكر صالح بن يحيى طولها وعرضها عن ياقوت الحموي ، وعن ابي الفداء في كتابه "تقويم البلدان"، قال: "قد حرّرنا عرض بيروت بآلات المرصدية فوجدناه ثلاث وثلاثون درجة واثني وخمسون دقيقة. واما الطول تعذّر علينا ادراكه "[3].

إن هذه التحديات لطول بيروت وعرضها هي لبيروت قبل أن تزدهر وتتوسع في العهد الروماني، وهي لبيروت الصغيرة داخل الأسوار في عهد الفرنجة وبعد جلائهم. إلا أن مساحة بيروت المزدهرة والمتسعة تفوق ما ذكر بكثير بدليل القول التالي لصالح بن يحيى: "ومما يستدل على كبر بيروت وسعتها ما يجدوه الناس في الحدايق بظاهرها من الرخام وآثار العماير القديمة ما طوله قريب من ميلين أوّله مكان يسمى بليدة ودقسية غربي البلد إلى مكان يسمى حقل القشا مقارب النهر شرقي البلد. فلما عمّروا السور اختصروه على القدر الذي هو عليه اليوم "[4].

لم تقتصر مستعمرة بيروت على المدينة وضواحيها ، بل انها شملت اقطاعات موقوفة عليها في المرتفعات الواقعة إلى الشرق منها ، وتجاوزتها احياناً إلى البقاع، وقد يكون منها بيت مرى المعروفة باسم "بيروت العتيقة". ومن الطبيعي القول إن مستعمرة بيروت في العهد الروماني هي مملكة بيروت سابقاً باسم آخر وبحدود مختلفة قليلاً .

---

[1]- ياقوت الحموي: معجم البلدان ، المجلد الأول، ص ٥٢٥.

[2]- لويس شيخو: بيروت.. ص ٨١ (هامش).

[3]- صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١١.

[4]- المصدر نفسه، ص ٨ – ٩.

وقوع بيروت بين فيلق اليمونة، وفيلق روم – جون الذي يمر في البحر إلى الغرب منها، جعلها عرضة لخطر الزلازل المدمّرة . واول زلزال تأثرت به هو زلزال سنة ٣٣٤، الذي ذكره المؤرّخ تيوفانس، وقال انه خرّب قسماً كبيراً منها ، واذعر الوثنيين فبادروا إلى الدخول في المسيحية، إلا ان بعضهم عاد إلى الوثنية بعد زوال الخطر . ثم وقع زلزال كبير في سنة ٥٥١، تبعته زلازل عدة أهمها في سنتي ٥٥٤ و٥٥٥ ، وحريق هائل.

وصف المؤرخ ميخائيل الكبير زلزال سنة ٥٥١، فقال: "لما حدث ذلك الزلزال في بيروت ومدن فينيقيا اندحرت المياه باذن الله إلى مسافة ميلين فانكشفت أعماق البحر وظهرت فيه سفن مشحونة بالبضائع وحمل الطمع الأهلين ولم يردهم الخوف فتقاطروا ليحرزوا تلك الكنوز فحملوها راجعين بسرعة إلى دورهم وإذا بالمياه عادت بغتة فاغرقتهم جميعاً . أما الذين كانوا على الساحل فهربوا لينجوا بنفسهم من الغرق إلا أن جدران الأبنية المتساقطة بفعل الزلزال قتلتهم فماتوا تحت الردم وانتشر الحريق في المدينة بعد خرابها مدة شهرين فحوّل مبانيها إلى رماد وحجارتها إلى كلس[1].والأعمدة المكتشفة حديثاً، والموجودة قرب كنيسة مار جرجس، في الوسط التجاري، قد تكون من بقايا مدرسة الحقوق. والأعمدة الخمسة الموجودة مقابل المتحف الوطني ، الذي افتتح في أيار ١٩٤٣، هي من بناء ضخم اكتشف في بيروت سنة ١٩٤٠.

فقدت بيروت بزلزال سنة ٥٥١ مدرسة الحقوق التي اكسبتها لقب "أم الشرائع"، والتي تهدمت أبنيتها وغادرها من تبقى من أساتذتها إلى صيدا. وتعثرت محاولات النهوض بها وإعادة إعمارها من قبل الأباطرة البيزنطيين بسبب الحروب المتلاحقة مع الفرس، والمنازعات المذهبيّة، ففقدت أهميتها ودورها، وأصبحت طرابلس وصيدا وصور مراكز للأسطول البيزنطي، فيما توزعت مراكز الجند بين دمشق وحمص في سورية، وقيسارية في فلسطين.

---

[1]– لويس شيخو: بيروت ... ص ٥٩.

صيدا في العهد الروماني

تحوّل اسم "صيدون" في العهد الروماني إلىٰ صيدا دون أن يتحوّل معه الشأن العظيم الذي كان لها سابقاً، إذ إن دورها تراجع فيما كبر دور بيروت. وفيما صارت بيروت "مستعمرة" في سنة ١٥ ق.م. ، صارت صيدا شبه جمهورية بين سنة ٤٧ ق.م. وسنة ١٨م . وفيما توفر لبيروت حكام عملوا على نهضتها وازدهارها في ظروف مؤاتية، لم يتوفّر لصيدا مثل ذلك فسبقتها بيروت في النمو والازدهار.

جاء يوليوس قيصر إلى سورية في سنة ٤٧ ق.م.، ومنح امتيازات خاصة لبعض المدن الفينيقية، منها الامتياز التالي الذي يتضمنه الأمر الموجّه إلى صيدا: "من يوليوس قيصر الامبراطور والحبر الأعظم والدكتاتور للمرة الثانية إلى حكام صيدا ومجلسها وأهاليها تحية"[1]. وبهذا صارت صيدا شبه جمهورية لها حكامها المسمون "أراخنة"، ومجلس شيوخ. وإبّان سيطرة القائد انطونيوس على القسم الشرقي من الامبراطورية، وهب عشيقته كليوباترا البقاع، ومدن الساحل السوري كلها، باستثناء صيدا وصور. واستثناؤه لهاتين المدينتين، وابقاؤهما تحت سلطته، جاءا احتراماً للامتيازات التي مُنحت لهما فيما كانت كليوباترا "ترغب في ضمهما إليها"[2]. وقد وقفت صيدا وصور إلى جانب انطونيوس في صراعه مع اوكتافيوس، لكنهما بعد انتصار الأخير أعلنتا ولاءهما له. وحرمانه لهما مما كانا يتمتعان به من امتياز غير مؤكد.

ورد في احد المراجع الحديثة ما يلي:" يُقال إن كليوباطرا كانت قد عزمت على بناء قصر لتلهو فيه مع حبيبها الروماني على هضبة من هضاب لبنان المشرفة على البحر، ولكن أثناء هذا التنافس السياسي، وفي غمرة تلك الحرب الأهلية [الحرب بين انطونيوس واوكتافيوس]، اغتنم الفرتيون (٤٠ – ٣٨ ق.م.) الفرصة السانحة فانقضوا على المنطقة بكاملها وسلخوها عن

---

[1]– فيليب حتّي: تاريخ لبنان ، ص ٢٢٨.

[2]– جرجي ينّي: تاريخ سوريا، ص ١٣٨.

الملك الروماني باستثناء مدينة صور"(١). ان عزم كليوباترا المشار إليه بكلمة "يقال" حال دون تحقيقه هجوم الفرتيين على المنطقة واحتلالها.

وورد في مرجع حديثٍ آخر، نقلاً عمن سمّاهم "العارفين": ما يلي: "يقول العارفون إنه كان بجوار باتر، أي مرج بسري، قصر للملكة "كليوباترا" ما زالت آثاره قائمة إلى اليوم (أربعة أعمدة ضخمة من الغرانيت)، وإن اسم باتر جاء تحريفاً للاسم كليوباترا"(٢). ان اسم "باتر" ليس تحريفاً للاسم "كليوباترا". والأعمدة الأربعة من الغرانيت الظاهرة في مرج بسرى هي بقايا الهيكل الروماني، المشاد بعد أيام انطونيوس وكليوباترا بزمن طويل، يضاف إلى ذلك أن صيدا لم تُمنح لكليوباترا كي يتحول عزمها على بناء قصر في جبل صيدا إلى فعل.

بعد انتشار المسيحية غدت صيدا في القرن الرابع للميلاد مركزاً لكرسي أسقفية. إلا أنها، وإن تساوت بذلك على الصعيد الديني مع مدن صور وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة، ظلت دون بيروت ودون صور على الصعيد العمراني، وظلت دون بيروت على الصعيد الثقافي. وبعد تدمير الزلازل لبيروت في سنة ٥٥١، انتقل بعض أساتذة مدرسة الحقوق التي كانت فيها إلى صيدا.

انتشار المسيحية

وطأت قدما السيد المسيح صيدا وصور. فقد جاء في "العهد الجديد" ما يلي: "ثم خرج يسوع من هناك وذهب إلى نواحي صور وصيدا وإذ امرأة كنعانية خارجة من تلك البلاد تصيح: رحماك يا رب يا ابن داود ان ابنتي يتخبطّها الشيطان تخبّطاً شديداً"(٣). كما ورد فيه أيضاً: "ومضى [يسوع] من هناك وذهب إلى نواحي صور... وانصرف من أراضي صور ومرَّ بصيدا

١- فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٢٨.

٢- أديب خطّار: باتر.... ص ٢١.

٣- انجيل متّى، ١٥: ٢١ – ٢٢.

قاصداً إلى بحر الجليل"[1]. ولما مرَّ تلميذ المسيح، القديس بولس، بصيدا ذهب إلى أصدقائه المسيحيين ليحظى بعنايتهم[2].

من المؤرخين من ينفي قدوم السيد المسيح إلى بيروت، ومنهم من يرجّح ذلك اعتماداً على قول القديس مرقس إن يسوع "بعد خروجه من صور، مرَّ في صيدا، وجاء فيما بين المدن العشر إلى بحر الجليل ، فبيّن أنه لم يرجع القهقري ليذهب إلى المدن العشر لكنه ذهب توّاً إليها على طريق مستقيم فقطع لبنان على السكة الرومانية التي كانت تؤدي من بيروت إلى دمشق"[3]. والمدن العشر هي سيتوبوليس (بيسان)، بالا (طبقات) فاهيل، ديون، فيلادلفيا (عمان) غدارة (أم قيس)، رفنية، قنوات، هيبوس، دمشق. وقد اتجه المسيح إليها بعد وصوله إلى صيدا متجهاً إلى اليمين سالكاً إحدى الطريقين التاليين، إمّا الطريق التي تجتاز الليطاني عند جسر الخردلي، وإمّا طريق جزّين. وفي حال سلوكه الطريق الثانية، فإن هذا يعني أنه سار في جبل لبنان الجنوبي. وإذا كان قدوم السيد المسيح إلى بيروت مشكوكاً فيه، فان تلميذه القديس بطرس مرَّ بها وبطرابلس وهو في طريقه من أورشليم إلى انطاكية، وأقام أسقفاً على بيروت، اسمه كوارتوس Quartus ، وأسقفاً على طرابلس، اسمه مارون، فيما عُين على جبيل تلميذه يوحنا مرقس[4].

الديانة الوثنية في لبنان هي ابّان ظهور المسيحية خليط من الفينيقية والرومانية. أهم آلهتها الإله الروماني جوبيتر، الذي يقابله عند الإغريق زفس وعند الشعوب السامية هدد – رمون، وقد أقيمت له الهياكل الكبرى كما في بعلبك (هليوبوليس)، وفي شحيم في الشوف. يليه الالهان أدونيس (تموز) وعشتروت اللذان استمرت عبادتهما في جهات جبيل، والاله بعل مرقد الذي

---

[1]- انجيل مرقس، ٧: ٢٤، ٣١.

[2]- أعمال الرسل، ٢٧: ٣ –٥.

[3]- لويس شيخو: بيروت، ص ٤٠ – ٤١.

[4]- للمزيد من المعلومات أنظر مقالة الفرد دوران اليسوعي بعنوان : "هل زار السيد المسيح بيروت" في مجلة "أوراق لبنانية" المجلد الثالث، ص ٢٤٩ – ٢٥٢.

أقيم له هيكل في بيت مرى، بني على انقاضه هيكل روماني باسمه، لأن الرومان أدخلوه في عبادتهم وضموه إلى آلهتهم.

كان انتشار المسيحية في لبنان يتم على حساب عبادة الآلهة الوثنية المذكورة، التي ما كان من السهل أن يتحوّل الناس عنها، بل ان اتباعها، المدعومين من السلطة الرومانية، اضطهدوا المسيحيين الاوئل خاصة أيام سنوات الاضطهاد الذي قام به الامبراطور نيرون (٥٤ – ٦٨)، ثم الامبراطور تراجان في سنة ١١٢، وداقيانوس في سنتي ٢٥٠ و ٢٥١، وفلريان في سنتي ٢٥٧ و ٢٥٨، وديوكليشان ومكسيميان بين سنتي ٣٠٣ و٣١٣. وكان من بين الشهداء بامفيلوس وابفيانوس "اللذان عذّبا وسجنا قبل أن يُقتلا"[١]، والقديس جاورجيوس الذي تقول الاسطورة عنه إنه انقذ الأميرة "هنا"، وقتل التنين في خليج إلى الشمال من بيروت يُعرف باسمه "خليج مارجرجس"، وعلى اسمه أقيمت ولا تزال تُقام الكنائس في لبنان.

بقيت المسيحية في لبنان، كما في غيره، تواجَه بالقمع والاضطهاد، وتَواجِه الصعوبات، حتى أوائل القرن الرابع "عندما نشر الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلان سنة ٣١٣، الذي منح المسيحيين حق ممارسة دينهم"[٢]. وقبل أن يبني في سنة ٣٣٠ عاصمته الجديدة ببزنطية، التي دعيت باسمه (القسطنطينية)، بنى الأسس الدينية لامبراطوريته باعترافه بالمسيحية الدين الجديد للدولة، فأفسح بذلك المجال واسعاً لتنصّر الناس وانتشار المسيحية بشكل سريع، ولا سيما ان الأوامر كانت تصدر بمنع تقديم الذبائح للآلهة الوثنية، وتحطيم كل ما يرمز إليها من صور وتماثيل. فانتشرت المسيحية في كل المناطق، ومنها بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي، مع بقاء الوثنية متحصنة في بعض المناطق الجبلية والأماكن النائية.

١– للمزيد من المعلومات، أنظر فيليب حتّي: تاريخ لبنان، ص ٢٥٦ – ٢٥٨. وكارلهاينز برنهردت: لبنان القديم، ص ٢١٧، ٢٢٠.

٢– جواد بولس : لبنان والبلدان المجاورة، ص ٢١١.

ترافق انتشار المسيحية مع بناء الكنائس، وتحويل الهياكل الوثنية إلى كنائس، وإنشاء الاسقفيات لتنظيم شؤون المسيحيين. والروايات تذكر مرور الامبراطور قسطنطين في جهات صيدا وتحويل مغارة في مغدوشة الواقعة إلى الجنوب الشرقي منها، إلى معبد باسم مريم والدة المسيح، وبناء برج قريب منها يدعى برج المنارة، لأنه سبق اشعال النار عليه عند اكتشاف والدة قسطنطين (هيلانة) خشب الصليب. وهذه الرواية مدوّنة في كتب عن كنيسة "سيدة المنطرة" للروم الكاثوليك في مغدوشة[١]. والمنطرة كلمة سريانية تعني المحرس والبرج والحصن، ومن مشتقاتها الناطور، ومن معانيها المراقبة والانتظار. وإحدى الروايات تقول إن كنيسة "سيدة المنطرة" بنيت في المكان الذي انتظرت فيه مريم ابنها يسوع عند قدومه إلى جهات صيدا وصور[٢].

صار في بعلبك كنيسة، إما ببناء جديد، وإما بتحويل أحد هياكلها إلى كنيسة. وبُني في سنة ٤٩٨ في الجانب الشمالي الشرقي من هيكل جوبيتر في شحيم- المرجيّات، المعروف بـ "القصر"، كنيسة. وشوّه وجه التمثال في الهيكل، الذي يرمز إلى آله الشمس (هيليوس). وتوفرت الظروف لاقامة عدة اسقفيات في المدن الفينيقية، هي اسقفية صيدا، وأسقفية بيروت، وأسقفية جبيل، وأسقفية طرابلس، وأسقفية عرقة [٣] في حين كانت أسقفية صور أهم الأسقفيات ويتبع لمطرانها أربع عشرة أسقفية. وقد جعل البعض من بورفيريون أسقفية على اعتبار أن كل مدينة ساحلية، فيها كنيسة، هي أسقفية.

ورد ذكر اسماء بعض الكنائس في سياق البحث، وهناك أيضاً العديد منها في ساحل بيروت وصيدا وفي مرتفعات جبل لبنان الجنوبي، هي:

- كنيسة بورفيريون: هي عند النبي يونس في سهل الجيّة، شاهد آثارها وكتب عنها الرحّالة الأجانب، والبعثات المختصة بالبحث عن

١- منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، ص ١٠٣. وقد نقل المؤلف ذلك عن "سيدة المنطرة" ص ٢٧، وعن "عجائب سيدة المنطرة" للمطران باسيليوس حجّار، ص ٣٣.

٢- فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص٢٥٤.

٣- أنظر عن هذه الأسقفيات يوسف الدبس: من تاريخ سورية، المجلد الرابع، ص ١٩٧ – ٢٠١.

الآثار[1]. ومن بقاياها قطع من الفسيفساء، وأعمدة مكسّرة ، ورؤوس أعمدة كورنثية، وتصاوير مختلفة، وأواني من معادن ثمينة، وأحجار عليها رسوم أسماك وطيور وحيوانات، ورسوم جدرانية وشمعدانات، ومباخر، وزخارف متنوّعة. وفي سنة ١٩٧٥ أجرت مديرية الآثار اللبنانية حفريات فيها أسفرت عن اكتشافات مذهلة. لكن الحرب الأهلية اللبنانية التي بدأت في هذه السنة أوقفت العمل، وأفسحت المجال أمام اللصوص، وهواة جمع المقتنيات الأثرية، ليسطوا على الكثير من آثار بورفيريون البيزنطية، والآثار اليونانية والفينيقية المدفونة بالقرب منها تحت الرمال. وقد سلم بعضها، ومنه الفسيفساء التي نقلها الوزير وليد جنبلاط إلى متحف قصر بيت الدين، ووُضعت في قاعة خاصة اسمها "متحف الفسيفساء البيزنطية".

- كنيسة خلدة: هي كنسة بيزنيطة صغيرة، بنيت في القرن الخامس، اكتشفت أساساتها في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، وموقعها في جنوب خلدة تحت جسر على الطريق الرئيسة بين بيروت وصيدا. وُضعت فسيفساؤها إلى جانب أعمدة خمسة، مقابل المتحف الوطني في بيروت.
- كنيسة قرب معبد اشمون في شمال شرق صيدا.
- كنيسة البرغوثية في إقليم الخروب.
- كنيسة دلهون في إقليم الخروب، وإلى جانبها صليب محفور في الصخر. ومن بقاياها حجارة أعمدة.
- كنيسة البرجين في إقليم الخرّوب، والظاهر منها أساستها فقط.

---

[1]- الرحالة الذين زاروا موقع بورفيريون هم أدوار روبنصون في سنتي ١٨٣٨ و ١٨٥٢، أنظر يومياته في لبنان، الجزء الأول، ص ٧٠. ولويس لورته في سنتي ١٨٧٥ و ١٨٨٠ ، أنظر مشاهداته في لبنان ، ص ٨٠-٨١. والبعثات التي عملت في موقع الجيّة هي بعثة رينان سنة ١٨٦٣، وبعثة كونتينو سنة ١٩٢٠.

- كنيسة أنان إلى الغرب من جزّين.
- كنيسة بمهريه، وقد اكتشفت فسيفساؤها وجرن المعمودية.

توسع السكن في جبل لبنان الجنوبي

المعلومات عن جبل لبنان، في كتب بعض الرحّالة، تفيد أنه كان قديماً مليئاً بالغابات التي تسرح فيها الحيوانات الضارية، ومنها الدببة والأسود والخنازير البرية والنمور، وأنه كان في العصور الوسطى قليل السكان، معموراً بالسياح والمنقطعين إلى الله، وبالإبدال، أي بالقوم الصالحين، إذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر[1].

قد يكون جبل لبنان – وربما قصد به منطقة منه – بلد النسّاك والأبدال والمنقطعين إلى الله. وقد تكون كل غاباته مسرحاً للوحوش الضارية المذكورة اعلاه، والتي كانت في عهد اسامة بن منقذ (مواليد ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) تسرح في الشام وجزيرة العرب[2]. الا أنه لم يكن في أي يوم، بشماله وجنوبه، بلد النسّاك فقط، بل بلداً عامراً بغيرهم من السكان الذين أنشأوا الكثير من الدساكر والقرى قبل العهد الروماني، وأنشأوا المزيد منها في هذا العهد. ولم تخلُ مناطقهم مؤخراً من الحيوانات المفترسة التي ظلت، باستثناء الأسود، كثيرة حتى النصف الأول من القرن السابع عشر، بحسب ما لاحظ أحد الرحّالة[3].

السكن في جبل لبنان الجنوبي يعود إلى ما قبل التاريخ، وقبل مجيء الآراميين والكنعانيين. ازداد تدريجاً مع الزمن، ومع ازدهار مملكتي بيروت وصيدون، وتوسعهما في المرتفعات حيث نشأت القرى على طرق

---

[1]- ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، الجزء الثاني، ص ٣٥، والقزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٠٨، ورحلة ابن بطوطة، الجزء الأول، ص ٩٩ – ١٠٠.

[2]- أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٦٥ – ١٩٠.

[3]- دومينيكو ما غرى المالطي: رحلة إلى جبل لبنان، ص ١٢٩ – ١٣٠.

المواصلات، وفي الأماكن الزراعية، وفي المناطق الغنية بالأحراج[1]. وازداد السكن في العهد الروماني بشكل ملحوظ وبنسبة مرتفعة، إذ لم يشمل فقط المناطق التي كانت مأهولة في السابق، ويؤدي إلى زيادة كثافة سكانها، بل شمل أيضاً مناطق خالية أو شبه خالية من السكان.

الازدهار الذي عرفته المدن الفينيقية الساحلية في العهد الروماني عرفته أيضاً المنطقة الداخلية، أي البقاع حيث قامت بعلبك كمركز ديني فيما قامت بيروت كمركز حضاري وثقافي. هذا الازدهار إلى الشرق من جبل لبنان، وإلى الغرب منه، انسحب عليه لأنه كان على تماس طبيعي وسكاني معهما، وكان الممر بينهما. وبناءً لذلك، وبفضل السلم الروماني، وإشاعة الأمن، وقطع دابر الشقاوة في المناطق التي كانت مسرحاً للاعتداءات، توسع السكن في جبل لبنان عموماً، وفي نصفه الجنوبي تحديداً. ومما ساهم في توسعه تحديد الرومان للضرائب على الناس والبضائع بشكل دقيق، وتخفيضها عما كانت قبلهم؛ إذ حدّدوا ضريبة معيّنة على الذكور ابتداءً بسن الرابعة عشرة، وعلى الإناث ابتداءً بسن الثانية عشرة، وعلى الاثنين انتهاء بسن الخامسة والستين. وأخذوا من الاملاك ضريبة واحد في المئة. وخفّضوا الضرائب على السلع المستوردة، فخفّ عبء الضرائب عن الأهلين الذين كانوا في العهود السابقة يقومون بأعمال السخرة ويدفعون الضرائب بحسب مشيئة الحاكمين ورغباتهم[2].

قُدِّر عدد سكان سورية في العهد الروماني بين ثمانية وعشرة ملايين نسمة، وهذا عدد ضخم إذا قيس بعدد سكانها قبل ذلك وبعده، وإذا قيس بأعداد المناطق في تلك الحقبة. وقد بلغ عدد سكان انطاكية في أواخر القرن

---

[1]- يرى لامنس أن بعض القرى التي تعد من أقدم دساكر لبنان، كإهدن وبشرى، ابتدأت مصانع لتحطيب الأرز وغيره من الأشجار الجبلية. أنظر لامنس : تسريح الأبصار، الجزء الثاني، ص ٢٦.

[2]- المرجع نفسه، الجزء الاول، ص ٢٤.

الرابع للميلاد مئتي ألف نسمة عدا الغرباء[1]. وإذا كان عدد سكان المدن الرئيسة والمدن الواقعة على طرق المواصلات هو الأكبر ، فإن عدد الأماكن السكنية في غيرها لا بأس به. وإذا كان بناء عدة طبقات في مدينتي أرواد وصور دليلاً على التوسع العمودي في السكن، فإن انتشار القرى والدساكر والقصور والهياكل في الأرياف والمرتفعات دليل على زيادة السكان وعلى التوسع الأفقي في السكن الذي بلغ أقصاه في العهد البيزنطي.

أقام النبلاء الرومان القصور، في الاقطاعات الممنوحة لهم في الجبال، للاصطياف أو للإقامة الدائمة. كما أقاموا مع الأغنياء من الفينيقيين الهياكل للآلهة الوثنية، ثم حوّلوا معظمها إلى كنائس، وبنوا المزيد من الكنائس، عندما انتشرت المسيحية وأصبحت دين الدولة الرسمي.

وتوسّعت الزراعة في المنبسطات والمروج والوهاد، وأهمها زراعة الحبوب والكرمة والتين، والزيتون الذي لا يزال المعمَّر منه يوصف لقدمه ولضخامته بأنه من "أيام الرومان". ولا تزال معاصر العنب ومعاصر الزيتون الكثيرة تشهد على انتشار شجرتي الكرمة والزيتون، وانتشار السكان واستخراجهم كميات كبيرة من الزبيب والدبس والنبيذ والزيت لسد حاجاتهم، ولتصدير الفائض. كما أن المرتفعات شهدت توسعاً في زراعة التوت بعد معرفة دود القز في عهد الأمبراطور يوستنيانوس الأول الذي استقدم بزره من الصين في سنة ٥٥٣ "بواسطة راهبين نقلاه في عصاتين"[2]. وللدلالة على اهتمام الرومان بالزراعة ضُرِب في مدينة بيروت نقدٌ يمثل جندياً يحرث الأرض. ولحل مشكلة عدم وجود ينابيع المياه، والأنهار، في بعض الأماكن الصالحة للسكن، عمد الرومان إلى حفر الآبار، وصنع البرك لتجميع المياه الشتوية فيها. وهذا أدّى إلى إيجاد تجمّعات سكنية في أماكن فقيرة بالينابيع أو بعيدة عنها.

---

[1] – جرجي ينّي: تاريخ سوريا، ص ١٥٧.

[2] – موريس شهاب: دور لبنان في تاريخ الحرير، ص ١٨.

كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة إلى المعادن اللازمة للصناعة، وإلى الأخشاب اللازمة لصناعة السفن والبيوت والأثاث. والحديد موجود في جبال بيروت. والنحاس موجود في جبال صيدا. والغابات موجودة فيهما وفي جبل كسروان. وهذا أدى إلى نشوء تجمعات سكنية حول المناجم، وفي مناطق الغابات التي نُظِّم قطع الأشجار منها، وأقيم على مداخل بعضها علامات تحددها انها ملك للدولة، منها حجر وُضع على قمة بين ضهور الشوير وزحلة، ونقل مؤخراً إلى أرض الجامعة الأميركية في بيروت[1].

في غياب النصوص القديمة، وإزاء ندرة الأبحاث التي تتناول التاريخ القديم والوسيط لجبل لبنان، لا بد من الاعتماد على بدائل للتعويض عن نقص المعلومات، وللإضاءة على أماكن سكن الإنسان في العصر الروماني، ولدحض آراء القائلين بخلو جنوب جبل لبنان من السكان عند قدوم العشائر العربية إليه من الجبل الأعلى في القرن الثامن للميلاد، وحتى عند قدوم الموارنة في القرن السابع للميلاد. وهذه البدائل هي الأبنية، والنواويس المنقورة في الصخر، وأسماء المكان، وهي بتتميمها لبعضها، وبتكاملها، توضح مراكز السكن ومدى انتشارها وكثافتها.

بناء الهياكل للحجاج في أماكن جبلية، بعيدة عن الساحل، وواقعة على الطرقات الرئيسة، هو مع سائر الأبنية من دلالات التوسّع في العمران والتوسّع في السكن. "هذا التوسع العمراني الكبير، وهذا التأسيس الجديد لأماكن الحج الذي شهده العصر الروماني من حين لآخر، ارتبط بعملية فتح واستغلال جبل لبنان، التي جعلت أماكن جد منعزلة، كمواقع العبادة في منطقة الأرز، أكثر أماناً وأسهل منالاً، ومكنت الحجيج من بلوغ معبد كمعبد جبل حفرون في منطقة أرز جبيل، الذي دمّره، في زمن أحدث، الباحثون عن الكنوز، وكان أعلى معبد جبلي في لبنان (١٩٥٠م)"[2].

---

[1]- فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٢٣٧.

[2]- كارلهاينز برنهردت: لبنان القديم، ص ٢٠٣.

دراسة الهياكل والكنائس والقصور ومراكز الجند في جبل لبنان الجنوبي مفيدة، إلا أنها غير كافية ، وتعطي صورة مجتزأة، لأن هذه الآثار موجودة في عدد محدود من الأمكنة، وتخلو منها مناطق عديدة. وبعضها بقايا جدران وأساسات تنبئ عن القدم، ولا تنبئ عن بناتها وتاريخ البناء، بسبب اندثار الكتابات والنقوش والفخاريات وغير ذلك من الشواهد والأدلة.

النواويس المنقورة في الصخر، التي شاع استعمالها في العهد الروماني وما قبله، شاهد مهم على وجود السكان، وكثرتها وانتشارها دليل على كثرتهم وانتشارهم. وأسماء المكان شاهد مهم آخر على نشوء القرى في العصر الذي سادت فيه اللغة التي تعود إليها هذه الأسماء، إذ إن الإنسان عندما يتوطن مكاناً يعطيه اسماً للدلالة عليه، ولتمييزه عن غيره. إن درس اسماء المكان "يقوم مقام ما أغفلته الأدلة الكتابية، ويدعم التقاليد المحلية. وبدونه لا نستطيع سبيلاً إلى تحقق النصوصات المبهمة الخالية من الحجة، والعارية من البرهان، فضلاً عن أنه يجدينا علماً عن أقدم الآثار التاريخية وأفضل الأسانيد"[1]. لذا سنقوم بدراسة أسماء المكان، والنواويس في جبل لبنان الجنوبي، لندعم القول عن توسع السكن فيه.

أسماء المكان السريانية ودلالات كثرتها

قبل تحديد اسماء المكان السريانية، ومعالجة دلالات كثرتها ، لا بد من التكلم أولاً عن تفسير اسماء المكان وصعوباته ، واللغة السريانية.

تفسير أسماء المكان: لكل مكان اسم، له في الأصل لغة واحدة وتفسير واحد، إذا توصّل الباحثُ إليهما توصل إلى مقاربة تاريخ إعطائه للمكان، وهو تاريخ سيادة لغته آنذاك.

يبرز في تفسير اسم المكان في لبنان، على صعيد لغوي، إشكال امكانية عودته إلى عدة لغات سامية نظراً لاشتراك الجذور فيها، والشبه الكلي في قواعد النطق والصرف والنحو، مثل اسم قرية "باتر" الواقعة في

---

[1]- هنري لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الثاني، ص ٢٢٨.

جنوب الشوف، الذي قد يكون عربياً أو سريانياً، كما أن البعض وضعوا احتمال ان يكون عبرانياً[١] لوروده في سفر الأناشيد للملك سليمان الذي يقول: "ارجع يا حبيبي وكن كالظبي أو كخشف الغزلان على جبال باتر"[٢].
إن تفسير الكتاب المقدّس للفظة "باتر" يقول إنها بفتح حرف "التاء"، وإنها إما اسم جغرافي لمكان غرب أورشليم، او اسم خرافي يعني جبال المرّ والبلسم. أما الإسم الخرافي، فهو وارد في سفر يشوع هكذا "بطير" من بين إحدى عشرة مدينة بقراها[٣]. وهذا ينفي أن يكون المقصود بكلمة "باتر" قرية باتر الشوفية أو جبالها، ويحصر تفسير اسم "باتر" في احتمالين، هما أن يكون عربياً، أو أن يكون سريانياً، وهذا هو الأرجح، لأن قرية باتر محاطة بقرى وخرب اسماؤها سريانية.

وهناك إشكال آخر ينتج من تصحيف الأسماء، ومنها في جبل لبنان الجنوبي، على سبيل المثال: كفرتمرتا (كفرمتى)، وشملال (شملان) وأعبيه (عبيه) وأبسوس (بسوس) وعين ماتور (عماطور) ومسكيفا (مسكيفى) وغريفا (غريفه) وقبر اشمول (قبرشمون) وسرحمور (سرحمول) وعين أوزيه (عين وزين) [٤] والبصيّه (البصيّل) وفرن السبّاك (فرن الشباك) ودير بسين أو دير السين (درب السيم)، وأدفول (دفون) وغيرها كثير.

---

[١]- انظر انيس فريحه: معجم اسماء المدن والقرى، ص ٩، وأديب خطار: باتر، ص ٢١.

[٢]- نشيد الأناشيد، ٢: ١٧.

[٣]- سفر يشوع، ١٥: ٥٩.

[٤]- فسّر كمال أبو مصلح اسم عين أوزيه على أساس اسمها المصحّف (عين وزين) فجعله مكوّناً من الحرفين: العين والزاي التي تلفظ في العامية "زين"، ومعناهما عنده مجتمعين "عز". كما جاء من تفسيراته أيضاً أنها "عين القوزة"، وان القاف لُفظت مرخّمة همزة. وهذا خطأ كبير لأن لفظ القاف همزة هو حديث عند الجبليين في لبنان، ولأن سكان عين أوزيه هم من الموحدين الدروز منذ قرون عديدة، ولا يزالون يلفظون حرف "القاف" مفخماً لا مرخماً. أنظر كمال أبو مصلح: معجم العربي المستعجم ، ص ٣٢٣ ، ٣٣١.

مفسّرو اسماء المكان في لبنان كثيرون، وتفسيرهم لها جرى على أسس لغوية. ومن خلاصة أبحاثهم وتفسيراتهم يتبيّن أن أكثرية اسماء القرى آرامية سريانية وعربية. والآرامية السريانية أكثر من العربية[1]. وقد قمنا بدورنا بدراسةٍ لأسماء قرى الشوف السويجاني العشر بالإضافة إلى بقعاتا، بالاعتماد على التفسيرات المعطاة لها، وبالاعتماد أيضاً على المصادر والوثائق القديمة، وكيفية لفظ الناس لهذه الأسماء، وكيفية تصحيفها، وبالاعتماد على المسار التاريخي للمنطقة، وتوصلنا إلى النتيجة التالية: أسماء تسع قرى سريانية، هي بعقلين، بقعاتا، بيقون، السمقانية، عنرين، عينبال، عين أوزيه (عين وزين) غريفا (غريفه)، الكحلونية. وإسما قريتين فقط عربيان، هما الجديدة (جديدة الشوف) والمزرعة (مزرعة الشوف) [2]. ودراسة هذه العيّنة المناطقية، إن صح التعبير، أكدت، كما أكدت من قبل دراسات مفسّري اسماء المكان في لبنان، ان معظمها سرياني يعود إلى عهد سيادة اللغة السريانية إبان العهد الروماني.

اللغة السريانية: اللغات التي جرى التكلم بها في لبنان هي لغة الإنسان القديم التي نجهلها، واللغة الكنعانية الفينيقية، ولغات الشعوب التي احتلت لبنان ولم يبقَ من ألفاظها الا القليل، وهي المصرية والحتّية والأكادية والأشورية

---

[1] - ممن درسوا بعض أسماء المكان هنري لامنس بمقالات كثيرة في مجلة "المشرق"، نشر معظمها في كتاب "تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار. وطنوس الشدياق في كتاب "أخبار الأعيان في جبل لبنان". وشاكر الخوري في كتاب "مجمع المسرّات". وابراهيم الأسود في كتاب "دليل لبنان". والعديد من المؤلفين الذين كتبوا عن المناطق والقرى، والذين ألفوا المعاجم عن مدن وقرى لبنان، وأقدمهم عفيف مرهج في موسوعة "إعرف لبنان". وأبرز من توسّع في تفسير الأسماء، على أساس لغوي، أنيس فريحه في "معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية" الذي هو دراسة قيمة. وكمال أبو مصلح في"معجم العربي المستعجم من أسماء المدن والقرى والأماكن في جمهورية لبنان الكبير". وفي حين أعاد فريحه أكثر الأسماء إلى السريانية أعاده أبو مصلح إلى العربية مستهدفاً، بحسب ما ذكر، اثبات عروبة اسماء المكان في لبنان كما الشعب والبلاد، ودحض آراء القائلين بغير ذلك.

[2] - بحث مقدم إلى مؤتمر الشوف السويجاني المنعقد بتاريخ ١٠ و ١١ نيسان ٢٠١٠.

والكلدانية والفارسية واليونانية والرومانية. إلا ان أهم لغة عرفها لبنان، قبل معرفته اللغة العربية،هي اللغة الآرامية السريانية.

أصبحت الآرامية، وهي إحدى اللغات السامية، اللغة الدبلوماسية واللغة الدولية في القرن السابع ق.م. عوضاً عن الأكادية. ثم أصبحت اللغة الرسمية في الامبراطورية الفارسية[1]، بفضل التوسع التجاري لا التوسع العسكري. ومع أن اللغة اليونانية غدت اللغة الرسمية في العصر الهلنستي، إلا أن الآرامية ظلت اللغة الشعبية السائدة، وكانت اللغة التجارية في بلاد ما بين النهرين وسورية وفينيقيا، وغلبت اللغة الفينيقية.

أخلت اللغة الآرامية مكانها لإحدى لهجاتها، اللغة السريانية، لأن السريانية سادت في العهد الروماني، بعد ظهور المسيح وتنصّر المنطقة، وغلبت اللغة الأم، الآرامية، "لأن اسم "آرامي" كان يذكّر المسيحيين بوثنيتهم"[2]. وبعد الفتح العربي في النصف الأول من القرن السابع للميلاد، بدأت السريانية تخلي مكانها للغة العربية، لكنها لا تزال حتى اليوم محكية في بعض القرى المسيحية في سورية، ومنها معلولا وبخعة وجب عادين. وظلت حتى القرن السابع عشر محكية في بعض قرى منطقة بشرى في شمال لبنان. وقد تركت بصماتها في لغة الكنائس، وفي مصطلحات الزراعة ، وفي الكثير من اسماء المكان، ومنها أسماء الكثير من قرى جبل لبنان الجنوبي.

كثرة اسماء القرى السريانية ودلالاتها: من غير المقنع كلياً الاكتفاء بالقول إن أكثرية أسماء قرى جبل لبنان الجنوبي سريانية، وإحالة القارئ إلى المراجع التي تذكر هذه الأسماء، وهذا أمر سهل. ومن الأفضل ذكر الأسماء لتحقيق الفائدة المرجوّة. إلا اننا سنكتفي من ذلك بذكر مجموعات الأسماء التالية:

---

[1]- دوبونت سومر: الآراميون، ص ١١٢ – ١١٣.

[2]- أنيس فريحة: معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية ص XXII.

- الأسماء المركبة التي تبدأ بلفظة "كفر" السريانية، وتعني القرية. من القرى العامرة: كفرعميه – كفرمتى – كفرشيما – كفرحيم – كفرنبرخ – كفرمايا (إقليم الخرّوب) وتلفظ كترمايا– كفرفاقود – كفرقطرا– كفرنيس– كفرسلوان – كفرحونه– كفر ملكى – كفرحتّى– كفرفالوس – كفرفيلا – كفرشلال– كفرتيه– كفريّا– كفربيت– كفرعقاب – كفرذبيان– كفرجرّه– الكفور (جمع كفر). ومن المزارع والخرب: كفرا (الغرب) كفرا (الشوف) – كفراغوص[1]–كفرتانيت – كفرمايا (الشوف)[2].
- الأسماء التي تتضمّن كلمة "مجدل" الآرامية، ومعناها برج ومكان عال مشرف، وهي: مجدل بعدا– مجدليا – مجدل معوش– مجيدل – مجدليون – عين مجدلين – مجدلونا.
- الأسماء التي تنتهي بواو ونون: من القرى العامرة: درعون – عجلتون – فيطرون – زرعون– عنقون – العيرون – ريفون – بدادون – الغابون – كيفون – بشامون – دقّون – دفون – البون (المشرف حالياً) – بتلون – بطلّون – بحمدون – عرمون (عاليه)– – عرمون (كسروان)– شارون – شرتون . ومن المزارع والخرب: مرتغون – قدرون – رمطون – بيزون – دلبون – باطون.
- الأسماء التي تنتهي بياء ونون، ومنها أسماء مركّبة من كلمتين أولاهما "بيت" وتلفظ مختصرة باءً مدمجةً مع الكلمة الثانية. من القرى العامرة: بمكّين – بعقلين – عترين – بيت الدين – بشتفين – بزبدين – الفساقين – (البساتين حالياً)– سبلين – رومين – بحنين – بتغرين . ومن

---

[1]– لم يبقَ عامراً من القرى التي تحمل اسم "كفرا" سوى قرية كفرا الواقعة في قضاء بنت جبيل في الجنوب اللبناني.

[2]– للدلالة على كثرة اسماء المكان في لبنان التي تبدأ بلفظة "كفر" هناك اكثر من عشرين قرية تبدأ بهذه اللفظة، واقعة إلى الجنوب من صيدا وبالقرب منها: أنظر مجلة أوراق لبنانية، المجلد الثالث، ص ٦٨٠.

المزارع والخرب: بتعلين – بوردين – بنمرين – بكشتين – شمعرين – شعرين.

- الأسماء التي تنتهي بياء وهاء: من القرى العامرة: عبيه – البنيّه – بخشتيه – سبنيه – بتخنيه – بمهريه – بنحليه – شانيه – بعلشميه – نيبيه (نابيه). ومن المزارع والخرب: شبطيه – بكرزيه – جبليه – بصنّيه – البصّيه[1] – كليليه.

قد يكون من بين الأسماء المذكورة أسماء فينيقية، مثل بشامون، وهو اسم من تفسيراته أنه بيت الآله أشمون، وبعلشميه، أي بعل السماء، ولفظة "بعل" تعني صنم عند الفينيقيين، وتطلق على الإله أدونيس (تموز). وهذه الأسماء وغيرها من اسماء قد تعود إلى لهجات سامية سادت قبل الفتح العربي، تدل كالأسماء السريانية على قدم القرى ونشأتها في العهد الروماني، وربما قبله.

ما ورد ذكره هو بعض قرى جبل لبنان الجنوبي، وفيها وفي ما لم يُذكر من قراه ما تشتمل خراجاته على العديد من الخرب ذات الأسماء السريانية. وقد تكون هناك قرى قليلة أنشأها، بعد جلاء الرومان، السكان الأصليون الذين ظلوا يتكلمون السريانية إلى حين تعريب المنطقة، الذي ساهمت فيه إلى حد كبير الأسر العربية التي قدمت إلى جبل لبنان ابتداءً من سنة ٧٥٩. كما قد يكون هناك قرى أنشأها الموارنة الذين قدموا إلى لبنان بعد الفتح العربي وتوطنوا كسروان وكانوا يتكلّمون السريانية. إلا أنهم والسكان الأصليين لا يمكن ان ينشئوا الا عدداً محدوداً في حال صحَّ افتراض انشائهم للقرى، فيما نشوء العدد الأكبر يعود إلى العهد الروماني، وعهد سيادة اللغة السريانية فيه. ومما يعزّز صحة هذا القول كون هذه القرى تشتمل على آثار رومانية، كالقصور والهياكل والكنائس ومراكز الجند والنواويس.

---

[1]– في البصّيه ناووسان منقوران في الصخر يدلاّن على قدمها.

إن في كل ما ورد دلالات على توسّع السكن في جبل لبنان الجنوبي في العهد الروماني، وانتشار اماكنه من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، ومن شاطئ البحر إلى جبال صنّين والكنيسة والباروك ونيحا والريحان، حيث توجد عند أقدامها القرى العالية التالية ذات الأسماء السريانية: فاريا، حراجل، كفرذبيان، ترشيش، كفرسلوان، قرنايل، فالوغا، حمانا، عين داره، تيروش، بمهريه، مرستي، نيحا.

النواويس ودلالات وجودها

لكل شعب طريقة في دفن الموتى، وانشاء المدافن، وإقامة الطقوس الجنائزية، مرتكزة على مفاهيمه الدينية، ونظرته للحياة بعد الموت، ولمصير الموتى. وجميعها تهدف إلى تكريم الميت بحفظ جثته وصونها من عبث الحيوانات واللصوص، ومن العوامل الطبيعية، أو بحرقها. فمن الشعوب القديمة من احرق جثث الموتى وبذر رمادها في الأنهر المقدّسة، أو وضعها في أواني. ومنها من وضع الجثث في العراء لتأكلها النسور. ومنها من حفظها بوضعها في مدافن تحت أبنية ضخمة كالأهرام مثلاً، او دفنها في نواويس ومغاور. والناووس، في اللغة، حجر منقور في الصخر يوضع فيه الميت. وقد يكون حفرة في الصخر داخل مغارة منقورة في الصخر، تتسع لمجموعة من الأموات، يطلق عليها احياناً الاسم المفرد "الناووس" كما تُسمّى مغارة مدفنية.

دفن الفينيقيون موتاهم في نواويس مصنوعة من الحجر أو الفخار أو الرصاص، وضعوها داخل المغاور وفي جروف الأرض، ودفنوا صغارهم في جرار من الفخار. ووضعوا مع النساء الحلى والمجوهرات وأدوات الزينة، ومع الرجال الخواتم والأسلحة . ولما كانوا يخشون سطو اللصوص على القبور، والعبث بها، وسلب محتوياتها، نقشوا عليها أدعية لحمايتها تهدّد

بالعقاب الإلهي من يجسر على اختراق حرمتها وفعل هذه الأمور. وأفضل مثال على ذلك ما كتبه ملك صيدا تيبنت عزر وابنه اشمون عزر[1].

توسّع الرومان أكثر من الفينيقيين في اعتماد النواويس المنقورة في الصخر والمنقورة في مغاور صخرية. وتتشابه طرق الدفن عندهم مع طرق الدفن عند الفينيقيين، وهي تخصيص مدفن لكل ميت هو جرن منقور في صخرة يمكن نقلها أو صخرة كبيرة، واعتماد المدافن الجماعية التي هي نواويس منقورة في الصخر داخل مغاور صخرية طبيعية أو منقورة في الصخر. وقد تكون النواويس منقورة في مسطحات صخرية مكشوفة. وجميعها لها أغطية حجرية مسطحة، أو هرمية بشكل "جمالون"، أو ما يُسمّى "ضهر الحمار". وكان يوضع أحياناً مع الميت نقد ثمين.

لم يكترث اللصوص لحرمة المدافن. ولم يخشوا غضب الآلهة الذي هُدّدوا به، بل عبثوا بالنواويس، وحطّموا اغطيتها ونقوشها وكتاباتها، وسلبوا محتوياتها، وأزالوا كل ما يدل على تاريخها وهوية أصحابها، فلم يبقَ سوى ركام وأجران فارغة، بعضها محطّم الجوانب، وبعضها الآخر مغطّى كلياً أو جزئياً بالتراب والحجارة، حتى أنه يقل أو يندر وجود الأغطية، لأن تكسيرها ضروري، وفي الوقت نفسه سهل، من أجل الإطلاع على ما في داخل النواويس وسلبه. لقد استفاد اللصوص قليلاً مما وجدوه فيها وفي غيرها من الآثار، لكنهم أفقدوا الباحثين المعلومات الكثيرة.

تتشابه النواويس في الأمور التالية: الطول والعرض والعمق. فهي للكبار بطول يتراوح، على العموم، بين ١٧٠ سم و ١٩٠ سم ، وللصغار أقل من ذلك . وهي بعرض بين ٥٠ و ٦٠ سم، وارتفاع بين ٥٠ و٦٠ سم. وفي بعضها مخدة لوضع رأس الميت. وعدد نواويس المغاور المدفنية يتراوح بين ثلاثة كحد أدنى وتسعة كحد أقصى، مداخلها ضيقة، بعرض وارتفاع يتراوح

[1]- أنظر عن طرائق الدفن عند الفينيقيين: يوسف الدبس: من تاريخ سورية، الجزء الأول، ص ٣٧٣ – ٣٧٤.

بين ٧٠ و ٨٠ سم، هو على العموم أعلى من مستوى الأرض، وأعلى من مستوى أرض داخل المدفن.

النواويس منتشرة في جميع أنحاء جبل لبنان الجنوبي بشكل إفراديّ أو بشكل حجر مدفنية، او بشكل مجموعات منقورة في مسطحات صخرية مكشوفة. ما هو ظاهر منها ومكتشف كثير للغاية. وهناك أيضاً الكثير مما أزيل وطمست معالمه، ومما لا يزال مجهولاً. ولما كان يعنينا منها فقط مقاربة عدد السكان، ومعرفة وجود الأماكن السكنية، ومدى كثافتها وانتشارها سنكتفي بذكر الأمور التالية:

أولاً: النواويس هي بالتأكيد خارج القرى التي كانت موجودة في العهد الروماني، لأن القانون الروماني يمنع انشاءها في داخلها. وقد اختلطت المدافن الرومانية مع الفينيقية في العديد من الأماكن مما يدل على استمرار السكن بالقرب منها، وتواصل استعمال العديد من المغاور والحفر للدفن عبر عصور عدة. وإذا كان من السهل أحياناً تمييز المدافن الفينيقية عن الرومانية بعمق الحفر وبنوعية النواويس وشكلها، وبنوع اللقى التي وُجدت فيها أو حولها، فإنه من الصعب جداً معرفة هوية أصحاب النواويس التي عبث بها.

ثانياً: النواويس هي مساكن الأموات الذين كانوا يقيمون قريباً من أمكنتها. إن وجود ناووس، على الأقل، أو مغارة مدفنية صغيرة، يدل على وجود دسكرة أو قرية. وكثرة عدد النواويس تدل، إما على كبر القرية، وإما على تواصل السكن فيها عبر عدة قرون. كما أن كثرة النواويس وبلوغها العشرات يدل على مدينة مدفنية كان بالقرب منها تجمع سكني كبير، كمحيط صيدا (البرامية، وعين الحلوه، ومغدوشه، وعبرا) حيث وجدت نواويس متفرقة ومغاور مدفنية يعود معظمها إلى العصر الهلنستي وما بعده، بينها ١٩ ناووساً محفوظاً في المتحف الوطني في بيروت، وكالأمكنة التالية الأخرى من جبل لبنان الجنوبي:

- بيت مرى: يوجد إلى الشرق منها مجموعتان، أولاهما من عشرين ناووساً، وثانيتهما من خمسة نواويس، وبالقرب منها مغارة تتسع لدفن ثمانية أشخاص[1]. ويوجد مقابل بيت مرى في خراج بلدة رأس المتن نواويس متفرقة.
- مجموعات النواويس في الخرب الثلاث المجاورة: طردلا والخريبة وشمشوم[2]. وكان ظاهراً منها في شمشوم، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ٣٥ ناووساً في كومتين، أغطية بعضها مزينة بالنقوش، وفوق مكانها نواويس أخرى[3].
- النواويس الكثيرة الموجودة في خلدة[4]. وقد وُجدت في خلدة ايضاً خزفيات لطقوس الموتى، تعود إلى عصر الحديد.
- المغاور المدفنية التسع الموجودة في البون (المشرف حالياً).
- المغاور المدفنية الكثيرة، والنواويس المنقورة في صخور أو في مسطحات صخرية، الموجودة في ساحل إقليم الخرّوب ومرتفعاته، حتى إنها موجودة في كل من قراه وبلداته الست والثلاثين، وفي بعضها مدن مدفنية كما في علمان والرميلة وسبلين ودلهون وشحيم وجون وبرجا، وفي إحداها (المغيرية) حيٌّ اسمه "حي النواويس"[5].

---

[1]- لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الأول ، ص ٢١.

[2]- الخرب الثلاث واقعة حالياً في قضاء عاليه، الأولى في خراج عبيه، والثانية في خراج عرمون، والثالثة تقع إلى الشرق من عرمون والغرب من قبرشمون.

[3]- إدوار روبنصون: يوميات ، الجزء الأول، ص ١٠٣ – ١٠٤.

[4]- المصدر نفسه، ص ٧٣، ١٢٦.

[5]- للمزيد من المعلومات عن النواويس في محيط صيدا وفي ساحل إقليم الخرّوب ومرتفعاته أنظر: E.Renan: mission de phénicie p 507-514. و Wissam Khalil, prospection dans le Liban meridional, volume 2 وأحمد يونس: المعالم التاريخية والحضارية.

ثالثاً: تقارب أماكن النواويس من بعضها في المناطق الساحلية، وفي تلك المشرفة على الساحل كما في ساحل صيدا وفي إقليم الخرّوب حيث تتكاثر في خراج القرية الواحدة من القرى العامرة اليوم، مما يدل على كثرة الاماكن السكنية سابقاً.

رابعاً: انتشار المدافن من الساحل إلى أقدام جبال صنين والكنيسة والباروك ونيحا والريحان، إلا أن عددها يقل كلما بعدنا عن الساحل واقتربنا من الجبال المذكورة. وفي هذا تشابه بين جميع مراحل التاريخ حتى اليوم من حيث تأثير المناخ في توزيع السكان، وفي عدم تجاوز السكن حداً من الارتفاع يصعب معه العيش من كثرة الثلوج وشدة الصقيع في الشتاء. وللدلالة على اختلاف الكثافات السكانية بسبب الارتفاع والصعوبات الناشئة منه قديماً، كما حديثاً، نأخذ من جبل لبنان الجنوبي منطقتين متجاورتين، متوازيتين، ومتدرّجتين في ارتفاعهما، هما الشوف الشويزاني (السويجاني) كمنطقة متوسطة الارتفاع ومعتدلة المناخ، والشوف الحيطي كمنطقة مرتفعة أعلى قراها، مرستى التي تعلو ١٢٥٠م عن سطح البحر، وهما على موازاة إقليم الخروب الدافئ في ساحله والمعتدل المناخ في مرتفعاته، الذي تدل كثرة نواويسه على كثرة سكانه قديماً .

قرى الشوف السويجاني حالياً عشر، توجد النواويس في ثمانٍ منها، هي غريفه التي تمتاز عن سائر قراه بكثرة النواويس، لأنها مجاورة لإقليم الخرّوب الذي امتد إليه السكن قبل امتداده إلى الشوف السويجاني، وفيها نواويس في المحلات التالية ذات الأسماء السريانية: كفريّا، والسباحية، وبسقيّا، والداغون حيث توجد خمس مغاور مدفنية، وبيزون حيث توجد عدة مغاور مدفنية ونواويس، وحجارة كبيرة، ومعاصر، تشير إلى وجود قرية. عثرين، وفيها نواويس في محلة "الدوّار". عينبال، وفيها نواويس في محلة "المشيتية" . بعقلين، ويقال انه كان فيها نواويس في محلة "القريّة" التابعة لها ولعينبال. السمقانية، وفيها نواويس في قلعة الحصن، ونواويس في محلة

"القليعة" عبثت بها الجرّافات الاسرائيلية في سنة ١٩٨٢. بقعاتا، وفيها ثلاثة عشر ناووساً في مسطح صخري وإلى جانبها مغارة مدفنية، واحدها يمتاز عن النواويس الأخرى بعمقه وبنقش زهرة على وجهه الجنوبي مما يدل على أنه لصاحب شأن. عين وزين، وفيها ثلاث مغاور مدفنية بجوارها، وناووس في محلة "الوطى" التي هي في وسطها. مزرعة الشوف، وفيها ناووسان[١] بالقرب من بقايا قصر روماني في محلة "الخربة"، وتسعة نواويس في مسطح صخري في محلة "ضهر القنيزحة"، ومغارتان مدفنيتان وستة نواويس في محلة "كفرمايا".

وقرى الشوف الحيطي ثلاث عشرة، في أربع منها فقط نواويس، هي: بطمه، وفيها ثلاث مغاور مدفنية ونواويس في محلة "قرنيّا" التحتا. بعذران، وفيها أربعة نواويس في محلة "طبعيله" غير البعيدة عن محلة "الخرايب" الأثرية، وُجد إلى جانبها وعاء زجاجي أزرق طوله عشرة سنتيمرات، ربما كان مخصّصاً لجمع الدموع على الأموت (بكاية) بحسب الطقوس الجنائزية عند الفينيقيين، وثلاث مغاور مدفنية في محلة "مشقير"، في إحداها نقش نسر كبير في الحائط المواجه للمدخل، يدل على أن الناووس الموجود تحته هو لذي شأن، فالنسر "إله الشمس في العصرين الهلنستي والروماني كما يرمز إلى المشتري"[٢]. نيحا، وفي بريتها نواويس[٣]. معاصر الفخار، وفيها ثلاث مغاور مدفنية في محلة "قلعة الحصن"، في كل من الأولى والثانية ثلاثة نواويس، وفي الثالثة أربعة نواويس.

خامساً: وجود النواويس حول الطرقات الرئيسة والفرعية، وبعضها موجود إلى جانب آثار رومانية، هي هياكل وقصور ومراكز جند. إن

١- أخذ أحد هذين الناووسين مؤخّراً لاستعماله جرناً لجمع الماء، لكن صاحب الأرض التي كان فيها الناووس استردّه ووضعه مؤقتاً أمام بيته في بقعاتا.

٢- R.Dussand, 1903 – 1905 P 22-23 ، ولبنان. مباحث علمية واجتماعية، الجزء الأول، ص ١٤٤. مقالة للأب لويس شيخو بعنوان "الآثار القديمة في لبنان".

٣- رياض غنام: نيحا الشوف في التاريخ، ص ١٨.

نواويس الشوف الحيطي، التي ورد ذكرها، موجودة على طريق صيدا – وادي الباروك الرئيسة والطرقات المتفرّعة منها. كما إن محيط طريق صيدا – قب الياس مليء بالنواويس الرومانية. فالقرى التي تمر فيها في إقليم الخرّوب هي علمان والجميلية ومجدلونا والمغيرية ومزبود وشحيم وعانوت وحصروت، والقرى التي تمر فيها في الشوف السويجاني هي غريفه وعينبال وعترين وبعقلين والسمقانية وبقعاتا وعين وزين، وجميعها فيها نواويس كما وردت الإشارة إلى ذلك. والقرى الأخرى التي تمر فيها هي: بتلون، وفيها مغارتان مدفنيتان على يمين الطريق الذاهبة من بتلون إلى بقعاتا. كفرنبرخ وفيها مغارة مدفنية في "تلة الزنبقية". بمهريه وفيها خمسة نواويس في وسط القرية، إلى الشرق منها مغارة مدفنية فيها ثلاثة نواويس صغيرة، وفي محلة "الرماله" ثلاثة نواويس. كما وجد في بمهريه مغارتان مدفنيتان جماعيتان، في الأولى أكثر من ثلاثين هيكلاً عظمياً، وفي الثانية ستة عشر هيكلاً. وفي عين داره وجد ناووس في محلة "تيروش".

خلاصة القول، في النهاية، إن كثرة النواويس الرومانية في جبل لبنان الجنوبي، وانتشارها في شتى مناطقه، كما القرى والخرب التي تحمل اسماء سريانية، من أفضل الأدلّة على توسع السكن فيه. ووجود النواويس في اماكن اسماؤها سريانية، وبعضها فينيقي، يشكل دليلاً إضافياً على قدم القرى، وينفي إشكالية الشك في أن بعض هذه الأسماء قد يكون عربياً.

الأبنية الرومانية في جبل لبنان الجنوبي

أنّى توجّه المرء في الأماكن التي وطأتها أقدام الرومان يجد آثاراً تذكّر بعظمتهم، ويدل الموجود منها في المناطق الجبلية والبعيدة، وفي تلك التي كانت خالية أو شبه خالية من السكان، على توسع السكن وانتشار العمران وزيادة السكان في عهدهم. فلقد أقاموا القصور والهياكل والكنائس في المدن والأرياف. وزيّنوا المدن بالمداخل من الاتجاهات الأربع،

وبالمسارح والحمامات والساحات العامة. وجدّدوا ما كان من حصون، وبنوا غيره على التلال المنيعة، وفي المراكز الاستراتيجية، خاصة على تخوم إمبراطوريتهم مع الأعداء. وأخذوا المياه بالقنوات من الأنهر والينابيع لري السهول وخدمة الهياكل وشرب سكان المدن. ونقروا الصخور لصنع الآبار. وصنعوا البرك لتجميع المياه. وحسّنوا الطرقات القديمة، وشقّوا طرقات جديدة، وأقاموا الخانات عليها لتأمين راحة المسافرين، ومراكز الجند لحمايتهم، والانصاب لتحديد المسافات. وكانت هذه الأعمال الجبارة تقوم، على العموم، على عاتق الجند، يساعدهم المهندسون والصّناع.

الآثار الرومانية موجودة في عدة أماكن من جبل لبنان الجنوبي. ومنها ما بُني على انقاض أبنية فينيقية وغير فينيقية، أو بني إلى جانبها. والعديد من آثار جبل لبنان الجنوبي لا يُعرف ما إذا كان رومانياً أو غير روماني، كما أن الكثير من أساسات الأبنية الضخمة لا يُعرف ما إذا كان هياكل أو قلاعاً أو قصوراً. وهذا يتطلب دراسات من قبل المختصين بالآثار، مع الإشارة إلى عدم حاجة الرومان لبناء القلاع والحصون في لبنان، بل إلى مراكز للجند على الطرقات، لأن القلاع والحصون التي بنوها هي على حدود مناطقهم الشرقية مع الفرتيين والفرس والبدو. إن الكثير من الأبنية تهدّمت، واختفت نقوشها وكتاباتها، إلا ان أساساتها الضخمة، وحجارتها الكبيرة المبعثرة، والنواويس المنقورة في الصخر، ومعاصر العنب والزيتون، الموجودة إلي جانبها، تشهد على أنها أبنية رومانية، وهي مع سائر الأبنية دليل يضاف إلى دليلي النواويس والأسماء السريانية على توسع السكن في العهد الروماني وبلوغه أقصى الأمكنة الصالحة له عند أقدام الجبال.

جرى الحديث سابقاً عن بعض آثار الرومان في جبل لبنان الجنوبي، وهي الهيكل الفينيقي في بيت مرى (هيكل بعل مرقد) الذي تحول إلى هيكل روماني بالإسم نفسه. كما جرى الحديث عن الكنائس المشادة في عهد الرومان، وعن قلعة الحصن في كيفون التي جدّدوا بناءها. ومن الآثار التي تختلط فيها آثارهم بآثار من سبقهم، قلعة فقرا التي وردت الإشارة إليها

كهيكل فينيقي، والتي تقع إلى الشمال الشرقي من مزرعة كفرنبيان، على تلة تعلو ١٦٠٠ م عن سطح البحر. وهي تتألف من هيكل ، وبناء مربع بإزائه، وبرج عظيم إلى الشمال منه، وبناء مستطيل إلى الجنوب منه. وليس هناك ما ينبئ عن تاريخ هذه الأقسام الأربعة، وإنما هناك كتابة على البرج تدل على أنه بني في سنة ٤٣ بعد المسيح تكريماً للقيصر كلاوديوس (٤١-٤٥) على "نفقة الإله العظيم" المرجّح ان يكون الإله أدونيس"[١].

من الآثار الرومانية بقايا حجارة قصر على "تلة بجيرو" الواقعة إلى الجنوب الشرقي من عين مزبود[٢]. وأساسات قصر في محلة "الخربة" إلى الجنوب الشرقي من مزرعة الشوف. وقصر في المختارة، بني على انقاضه قصر آل جنبلاط. واسم محلة "ما وراء القصر" في عين وزين، وفيها بقايا حجارة ضخمة غطاها البناء حديثاً. وحجارة كبيرة وأساسات ضخمة لأبنية في الأماكن التالية: محلة "الحوطة" على الهضبة التي تقع على سفحها قرية جباع الشوف حيث توجد حجارة ضخمة، إلى الغرب منها ومن جباع مغارة ربما كانت مدفنية. قلعة الحصن إلى الجنوب الغربي من معاصر الشوف، التي قد تكون قصراً، أو حصناً يحرس الطريق الفرعية المارة هناك إلى البقاع. محلة "الشحار" فوق عين زحلتا، حيث من المرجح أن تكون الحجارة الضخمة فيها، والأساسات التي غطّاها بناء حديث، عائدة إلى هيكل أو قصر روماني مندثر. بلدة ترشيش حيث توجد آثار حصن أو هيكل روماني. بمهريه حيث توجد بقايا هيكل أو قصر روماني، وهي حائط طوله حوالي ٣٥م، وأقصى ارتفاع له ٤ أمتار.

١- E. Renan, mission de phénicie p 335-338.

وللمزيد من المعلومات عن هيكل قفرا، أنظر H. Guis: Beyrouth et le Liban tome second p. 12 – 16. ولامنس : تسريح الأبصار، الجزء الأول ٥٣ – ٥٧. وبطرس ضو: تاريخ الموازنة، الجزء الثالث، ص ٨٣– ٨٧.

٢- أحمد يونس: المعالم الأثرية والتاريخية، ص١٢٩.

الهيكل الروماني في مرج بسرى (تهدمه وطمره)

سيجري التوسع في الحديث عن هيكل مرج بسرى، بعكس ما جرى حتى الآن من إيجاز في الحديث عن الآثار الرومانية، لأن ما يُعرف عنه قليل جداً، ولأن من الضروري إعطاء فكرة واضحة عنه، وعن تهدمه، وطمر بعض أجزائه مع أبنية أخرى في مرج بسرى، مع الإشارة إلى أن هذا الهيكل لم يصنّف بعد من الآثار بالرغم من أهميته.

مرج بسرى منخفض علوه عن سطح البحر ثلاثمائة متر ونيّف، قريب من مدينة صيدا، طوله حوالي عشرة كيلومترات. اتجاهه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. لم يكن في القديم سهلاً كما هو اليوم، وإنما كان وادياً متسعاً، أعمق مما هو حالياً، وأعمق في الجنوب أكثر من عشرين متراً. يجري فيه نهر الباروك، أو الأولي المعروف عنده بنهر بسرى. كان ومحيطه منطقة مسكونة في العهد الروماني، وقبله، من آثارها ثلاث مغاور مدفنية على الضفة اليسرى للنهر، ومغارتان مدفنيتان ومجموعة من النواويس في محلة "كفرمايا" في تلة صغيرة على الضفة اليمنى للنهر. وفي منطقته أيضاً قلعة شقيف تيرون الشهيرة، وحولها خرب فيها نواويس. وفيها محلّة بين باتر وجبليه، ومحلّة في جبليه، تطلان على مرج بسرى. اسم الأولى "قصر الملك"، يقال إنه كان فيها نواويس، واسم الثانية "مقابر اليهود".

ظل مرج بسرى لزمن طويل همزة وصل بين صيدا والبقاع عبر جزين، أو عبر الشوف الحيطي. كما أنه يصل بين المناطق الأربع التالية التي يقع في وسطها: الشوف السويجاني، والشوف الحيطي، وإقليم الخرّوب، وجزين. وهو يتّصل بالشوف السويجاني بمعبر مجهول تاريخ البناء، يُسمّى "معبور المزرعة"، ويسمّيه أبناء مزرعة الشوف "المعبور الروماني". انه معبر في شاهق صخري، علوه ٦٠ متراً، هو الأهم بين المعابر الجبلية ، ولا

مثيل له الا معبر في العاقورة. وقد وصفته اللايدي استر استنهوب، عندما مرت فيه في سنة ١٨١٤، بأنه "معبر مشقوق في صخر شبه عمودي"[١].

بما أن لمرج بسرى هذه الأهمية، ولوقوعه على طريق رئيسة تصل صيدا بالبقاع، انشأ الرومان هيكلاً فيه. يقع الهيكل في الزاوية التي تتشكل من التقاء نهر جزّين، المعروف أيضاً بنهر بحنين ونهر عاري[٢] مع نهر الأولي. لا يُعرف الإله الذي شيد له أسوة ببعض الهياكل الرومانية مثل هياكل بعلبك التي شيدت للإله جوبيتر (المشتري) والالهة فينوس (الزهرة) والإله باخوس (مركور)، وهيكل شحيم الذي شيد للإله جوبيتر. وإذا كان مبنياً، بحسب ما يُعتقد، على أنقاض هيكل فينيقي، فإنه قد يكون مبنياً للإله بوسترابنوس Bostrenus، إله الشفاء كما بني الهيكل الفينيقي القريب من صيدا للإله اشمون، إله الشفاء. ومما يعزّز ذلك تسمية الهيكل الروماني في بيت مرى، المبني على انقاض الهيكل الفينيقي للإله مرقد، باسم هيكل بعل مرقد. يضاف إلى ذلك أن الهيكل موجود في مرج بسرى، ومن تفسيرات بسرى أنها من كلمة "بوسترابنوس الرومانية، التي هي بوسترا اليونانية، وتصحيفها بسرى. ومنهم من يرى أن هذا الهيكل "ربما هو الهيكل الذي ذكره تبنيت عازار الذي اكتشفوا جثته في صيدا، ويذكر أنه أقام هيكلاً في الجبل. وهذا الهيكل موجود على مسير الأنهر المجتمعة[٣] في مرج بسرى"[٤].

لم يبق من الهيكل سوى جدار حجارته ضخمة، قائم حالياً على الضفة اليمنى لنهر عاري، وأربعة أعمدة من الغرانيت المصري، وتاج عمود ملقى عند قدم أحدها، وعمودين منكسرين أقل ضخامة من الأعمدة الأربعة،

١- Lady Esther Stanhop: Voyage d'orient T II p 106.

٢- يدعى نهر جزّين على اسم النبع الذي يخرج منه، ونهر بحنين ونهر عاري على اسم القريتين اللتين يجري في واديهما.

٣- الأنهر المجتمعة في امكنة متقاربة جداً هي نهر الأولي الذي تصب فيه الأنهر التالية: نهر عاري، نهر باتر، النهر الذي يتكون من نهري جبليه وسلمان.

٤- شاكر الخوري: مجمع المسرّات، ص ٥٥.

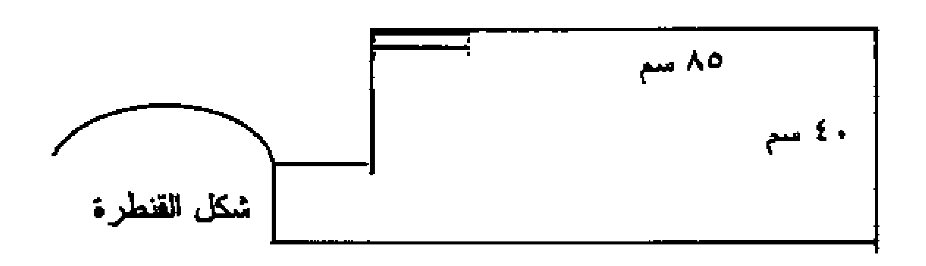
ملقيين في مجرى النهر. اعطت الأعمدة اسمها لمرج بسرى فصار يُعرف بمرج العواميد. اتجاهها من الشمال إلى الجنوب بانحراف نحو الجنوب الشرقي بمعدل ١٥ درجة. وطول خط الاعمدة من بدايتها إلى نهايتها ١٤,٧م. والمسافة الفاصلة بين الأول من الشمال والثاني هي ٣,٣٠ م، وبين الثاني والثالث ٤,٣١م، وبين الثالث والرابع ٣,٢٦م، مما يرجّح أن يكون مدخل الهيكل بين الثاني والثالث، وهو من ناحية الشرق. وبناءً على ذلك يبدو الهيكل أكبر وأطول من هيكل يانوح البالغ طوله ٢٠م، لأن المسافات بين أعمدته أطول من المسافات بين أعمدة هيكل يانوح. دائرة العمود ٣ أمتار. والظاهر من ارتفاعه ٣ أمتار، والمطمور منها حوالى ٣ أمتار.

أول من أشار إلى اعمدة الهيكل، والمرج الموجودة فيه وتسميته باسمها، هو المؤرّخ أحمد بن علي بن المغربي بن الحريري، المتوفى في سنة ١٥٢٠. واول من وصفها كشاهد عيان هو المؤرّخ ابن سباط الذي توقف عن الكتابة في سنة ١٥٢٠، فقال: "وتحت القلعة المذكورة [شقيف تيرون] مروج، وبها أثر عماير عظيمة وأقبية واعمدة عظيمة جداً بين نهري جزّين وصيدا، بمكان يقال له مرج بسرّاء"[1]. وفي هذا دلالة على تهدّم الهيكل قبل القرن السادس عشر، وبقاء الأعمدة الأربعة منه فقط.

إضافة إلى تهدّم الهيكل طُمرت الأجزاء السفلى لأعمدته حوالى ثلاثة أمتار. واختفى بناء مجاور له، أساس جداره في مجرى نهر عاري، اتجاهه من للشمال إلى الجنوب ومتعامد مع جدار الهيكل للظاهر. واختفى الجسر الروماني القديم الذي نرجّح وجوده، لأنه لا بد من جسر فوق نهر عاري، يوصل إلى الهيكل من جهة صيدا والجنوب. ولقد بنى الرومان جسوراً على مجاري ماء أقل أهمية، وعلى مجاري مياه شتوية. وهذا الجسر هو بالتأكيد غير الجسر الموجود حالياً، والذي هو بناء مملوكي أو عثماني، على قاعدته الشمالية نقش محفور قليلاً في الصخر، هذا هو شكله:

---

[1] – تاريخ ابن سباط، الجزء الأول ، ص ٤٢٣.



طُمر أيضاً، ولنفس سبب طمر الهيكل الروماني، مبنى واقع إلى الشمال الغربي من الأعمدة، على بعد ٦٣ متراً، الدليل على وجوده هو أن أحد جدرانه كان ظاهراً في مجرى نهر الأولي قبل تحولّه منذ حوالى ٤٠ سنة نحو الغرب[١]. وطُمر مبنى ظهرت الأجزاء العليا لثلاث غرف منه، جدرانها مبنية بشكل متناسق، وبحجارة ضخمة، معظمها حجر بطول متر يليه حجران بطول نصف متر، عليها نقوش أسود وطيور ونباتات[٢]. ولعلّ ما وجده الناس، عند استصلاح أراضيهم، من كنوز، هي من بقايا الأبنية المهدّمة والمطمورة[٣]. فما هي أسباب تهدم الهيكل والأبنية المجاورة له، وطمرها بالرواسب، وتغيير نهر عاري لمجراه، وتغيير نهر الأولي لمجراه مرات عديدة، يذكر المعمّرون بعضها ومنها أن مجراه كان لأمد قريب عند منطقة "الزورة" الواقعة إلى الشرق من مرج بسرى، وإلى الجنوب من الأعمدة، فيما هو اليوم بعيد عنها نحو الغرب.

إن وقوع مرج بسرى على خط فيلق روم – جون يرجّح هدم زلزلة أرضية للهيكل الروماني، هي الزلزلة التي دمّرت مدينة بيروت في سنة

١- كان الساكنون في مرج بسرى ومحيطه يشاهدون الجدار وفسيفساءه. ومنهم معمّرون عديدون من مزرعة الشوف.

٢- يقع هذا المبنى على بعد كيلومتر ونيّف إلى الجنوب من أعمدة الهيكل. وما أظهرته الحفريات من جدرانه طُمر بعد إيقاف الوزير وليد جنبلاط للقائمين بالحفر عن متابعته في صيف ٢٠٠٩.

٣- يروى أن احد مستصلحي أرضه عثر على نقود ذهبية كثيرة تحت بناء متهدّم، كما عثر على تمثالين من الذهب أهدى واحداً منهما إلى مسؤول سوري كبير.

٥٥١، أو إحدى الزلزلات القوية التي جرت بعد ذلك، والتي ذكرت المصادر القديمة العشرات منها، وذكرت أضرارها البالغة في مصر وبلاد الشام. وأهمها تلك التي حصلت سنة ١٢٦١، وأحدثت أضراراً بالغة في جنوب لبنان وشمال فلسطين ولا سيما السواحل. وفي الزلزلة التي حصلت في ١٦ آذار ١٩٥٦ دليل على مدى الأضرار التي تلحق بالمناطق الواقعة حول فيلق روم – جون، إذ إنها أحدثت في جنوب الشوف أضراراً أكثر مما الحقت بسائر المناطق، وخصوصاً في محيط مرج بسرى حيث يوجد الهيكل الروماني، وفي محيط شحيم حيث يوجد أيضاً الهيكل الروماني، مما يدل على أن الزلزلة، التي هدمت هيكل بسرى، هي نفسها التي هدمت هيكل شحيم والأبنية المجاورة له. وفي شحيم شاهد آخر على الزلزلات هو شق تقع حوله ابنيتها حالياً، اسمه "شق العجوز".

أما تكوّن الرواسب التي طمرت حوالى ثلاثة أمتار من أعمدة الهيكل، وطمرت أبنية أخرى، وبلغت سماكة عشرين متراً ونيفاً في جنوب مرج بسرى، فهي لا تعود، في رأينا، إلى نظرية تقول إن زلزلات متتالية بقوة من ست إلى سبع درجات، أحدثت كلٌ منها ارتفاع متر في جنوب المرج[1]، بل تعود إلى خسفة الجوبة المجهولة التاريخ، التي حصلت بالتأكيد بعد دمار الهيكل، لأن الناس يتذكرونها ولا يعرفون سبب دمار الهيكل. وهذه الخسفة نتجت من زلزلة، أحدثت انزلاقاً كبيراً في الأرض لا يزال ظاهراً إلى اليوم، سدّ لمدة طويلة مجرى نهر الأولي في جنوب مرج بسرى، وكوّن بحيرة خلفه، تجمعت في اسفلها الرواسب المحمولة من نهري الأولي وبحنّين، ورواسب الخسفة. وحين انفجر السدّ المكوّن من الانزلاق، بضغط المياه، ظلت الرواسب في المرج الذي كان أشبه بالوادي فغدا جراء ذلك

---

[1]- هذه النظرية هي للعالم الجيولوجي جورج عطا، أوردها وسام خليل في أطروحته، Prospection dans le Liban méridional tome I p 213.

سهلاً[1]. وحين طمرت الرواسب المجرى الأساس والثابت للنهر، صار يغيّر مجراه فيها من وقت إلى آخر عندما تغزر مياهه شتاءً.

وللتدليل على كبر تأثير خسفة الجوبة، في مكان واقع على فيلق روم – جون، نشير إلى خسفة حصلت في سنة ١١٨١ هـ/ ١٧٩٧م في خراج كفرنبرخ، نتج عنها "انتقال الجبل الذي تحت قرية كفرنبرخ إلى قرية مجد المعوش، وتلفت أرزاقٍ لا تحصى تحت الردم وبيوت بما فيها من الناس والمواشي. وعطّل الردم جميع تلك الأرض حتى احتبس نهر الصفا عن جريه أياماً وظل ماؤه معتكراً جملة سنين"[2].

الطرقـــــات

طرقات لبنان: للطرقات اسم آخر هو السكك، وبه عُرفت الخطوط التي تسير عليها القطارات (سكك الحديد). والطرقات فرضتها جيولوجية لبنان وطبيعة أرضه كوسيلة اتصال ضمن مناطقه، وبينه وبين محيطه، وقد سلكها الذين توطّنوه منذ أقدم العصور. فهو مكوّن من سلسلتي جبال، هما السلسلة الغربية وهي الأعلى بقليل، وتصل منحدراتها إلى الساحل الذي يتسع في بعض الأماكن حيث السهول الصغيرة، ويضيق في بعضها الآخر لوصول المنحدرات إلى البحر، والسلسلة الشرقية المسمّاة "انتي ليبان" التي تشكل الحدود مع سورية اليوم. وبين السلسلتين وادي البقاع، أو سهل البقاع أو الداخل، وهو أوسع السهول اللبنانية، وينفتح من الجهة الشمالية على وادي العاصي في سورية، ومن الجهة الجنوبية على وادي الأردن عبر وادي التيم.

تمرّ في الساحل اللبناني طريق رئيسة قديمة تصله شمالاً بالساحل السوري وعبرهُ بآسيا الصغرى. وتتفرّع منها عند شمال طرابلس طريق تتجه إلى آسيا الصغرى عبر حمص وحماه وحلب. وقبل وصولها إلى حلب

---

[1] – روايات مئات الناس، ومنهم المعمّرون الثقات في مناطق الشوف السويجاني والشوف الحيطي وإقليم الخرّوب وجهات جزّين.

[2] – تاريخ حيدر الشهابي، ص ٧٩٩.

تتجه إلى تدمر، ثم إلى بلاد ما بين النهرين. وهذه الطريق الساحلية تصل لبنان من الجنوب بفلسطين ومصر.

وتمر في وادي البقاع طريق قديمة رئيسة تصله شمالاً بسورية عند جهات حمص، وجنوباً بفلسطين عند بحيرة الحولة. وتتفرّع منها طريق إلى الشرق تصل إلى دمشق عبر الزبداني، وطريق من مجدل عنجر تصل إلى دمشق عبر وادي الحرير وميسلون، وطريق من جهات جب جنّين ووادي التيم تصل إلى دمشق عبر ميسلون، وطريق من جهات حاصبيا ومرجعيون إلى بانياس والقنيطرة في سورية.

وتتصل الطريق الساحلية بالبقاع بعدة طرقات تمرُّ في المنخفضات، أو الثغرات، الواقعة بين جبال السلسلة الغربية، هي، إضافة إلى طرق جبل لبنان الجنوبي التي سنتكلم عنها، طريق جبيل– العاقورة – اليمونه – بعلبك، وطريق صور – البقاع، التي تبدأ عند مصب نهر الليطاني في القاسمية، وتمر في وادي الليطاني.

هذه الطرقات موجودة منذ تأسيس الممالك المدن الكنعانية، وهي التي مرّت عليها الناس والجيوش والبضائع منذ أن بدأ التواصل بين المناطق اللبنانية، وبينها وبين الجوار، ومرت على الطريق الساحلية العربات منذ القرن الخامس عشر ق.م. وقد زادت الحركة عليها في العصر الهلنستي بفضل التجارة التي نشطت بعد انشاء الاسكندر المقدوني المدن في المناطق التي افتتحها، فغدت مراكز ثقافية وتجارية، تمر فيها تجارة الغرب إلى الشرق، وتجارة الشرق إلى الغرب، وتمثّل المدن الفينيقية، صيدا وصور وجبيل وارواد همزة وصل بينها.

الحديث عن الطرقات في عهد الرومان هو حديث أيضاً عن الطرقات في عهود الشعوب التي سبقتهم، لأن الرومان، حين احتلوا لبنان، اعتمدوا الطرق القديمة. وهو حديث عن الطرق في عهود الدول التي تعاقبت بعدهم على حكم لبنان، مع الإشارة إلى أنها بلغت في عهدهم قمة التطور الذي فاق ما قبله وما بعده، ولم يفقه سوى التطور الذي حصل مؤخراً. وإذا

لم يكن للرومان الفضل في تخطيط الطرقات، لأن الشعوب التي سبقتهم هي التي اعتمدت التخطيط الطبيعي لها، كان لهم الفضل في تطويرها وتحسينها وتوسيعها، ورصف بعضها بالحجارة لصونها، وإقامة الأنصاب عليها لتحديد المسافات، والمخافر لتأمين سلامة المسافرين، وقد نقشوا على بعض الأنصاب اسم القيصر الذي حُسّنت الطريق في عهده. كما لهم الفضل في استحداث طرق فرعية، وفي شق المعابر في الشواهق الصخرية. وبفضل هذا، وبفضل السلم الذي أرسوه، وتوسّع السكن والعمران وبلوغهما مناطق خالية أو شبه خالية منهما، وبفضل ازدياد النشاط التجاري، قويت الحركة على الطرقات بشكل لم يسبق له مثيل.

مخطط الطرقات قام على مبدأ المرور في الأماكن التي تقصّر المسافات. "وهو قديماً لا يختلف عنه حديثاً" كما يذكر رنيه ديسّو[1]. وتبعاً لذلك فإن طرقات جبل لبنان الجنوبي لم تختلف، منذ أن وجدت، عنها بعد ذلك الا بما اقتضى التعديل فيها مع الأيام لتمر في بعض البلدات والقرى المستجّدة، وإلا بما اقتضاه مؤخراً تجنبها للوديان والشعاب والمنحدرات لتسهيل سير الآليات عليها، لأن ما كان يصلح لسير المشاة والحيوانات لا يصلح لسير الآليات. وطرقات جبل لبنان الجنوبي هي قديماً، كما هي حالياً، قلب المواصلات الساحلية وعقدة المواصلات بين الساحل والبقاع.

طريق الساحل: طريق الساحل الممتدة في جبل لبنان الجنوبي، من نهر الزهراني جنوباً إلى نهر غزير شمالاً، هي جزء من الطريق الساحلية الطويلة التي رصف الرومان وسطها بالحجارة الكبيرة، ودعموها من الجانبين بثلاث طبقات، أسفلها من الحصباء والرمل، ووسطها من الحجارة الدقيقة الممزوجة مع الكلس، وأعلاها طبقة بسمك ١٥ سم من كسرات الخزف والآجر المتماسكة بواسطة الملاط الشديد[2]. ووفّروا الراحة للمسافرين بفضل الخانات غير المتباعدة. وأقاموا مراكز للجند للحماية

١- R.Dussand, 1927, op.cit, P60

٢- لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الأول، ص ٣١.

ولإيصال البريد. وحدّدوا المسافات بين المدن بواسطة انصاب حجرية أقاموها على جوانب الطريق، بين النصب والآخر مسافة ميل.

زالت معالم هذه الطريق تدريجاً مع تغيّر الجغرافيا البشرية وخريطة المواصلات. وبقاياها ظلت ظاهرة، مع بعض التقطّع، بين الدامور والنبي يونس، حتى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر. وإذ لم تعد موجودة على الطبيعة، يمكن تحديدها على وجه التقريب بأنها هي نفس خط سكة حديد الساحل، أي أنها تحاذي المنحدرات عند وصول هذه إلى البحر، وتبعد عن البحر في السهول كما في شرق بيروت، وصحراء الشويفات، وسهل الدامور، وسهل الجيّه، وسهل صيدا. اما بقاياها خارج جبل لبنان الجنوبي، فلا تزال ظاهرة في بعض الأماكن، وقد اكتشف منها في صيف ٢٠١١ جزء مرصوف بالحجارة عند مفترق البرج الشمالي من صور، وبالقرب منه نواويس رخامية رومانية.

من الجسور المبنية على طريق الساحل جسر نهر غزير، وجسر نهر الكلب، وجسر نهر بيروت، وجسر نهر الدامور، وجسر نهر الأولي، وجسر فوق سيل ماء شتوي في وادي الزينة الواقع إلى الشمال من الرميلة، يدل بناؤه على مدى اهتمام الرومان بالطرقات. ومن المحطات محطة بورفيريون، ومحطة خلدة المسماة Motolito Haldua. ومن الأنصاب ثلاثة إلى الشمال من صيدا منها نصب في بورفيريون. وآخرها جنوب نهر الدامور، وإلى الجنوب منه مخفر أو برج لحماية المسافرين[١].

طرق الساحل – البقاع

طرق الساحل – البقاع هي الطرق التي تربط أيضاً الساحل بسورية عبر البقاع. تنطلق من بيروت وصيدا، ومن الساحل الممتد إلى الشمال وإلى الجنوب منهما، وهي التالية من الشمال إلى الجنوب:

١- أنظر عن هذه المحطات والانصاب: أدوار روبنصون: يوميات في لبنان، الجزء الأول، ص ٦٩ – ٧١، ١٢٧ ولويس لورته: مشاهدات في لبنان ، ص ٨١.

طريق نهر الكلب– بعلبك: كانت هذه الطريق موجودة قبل الرومان بزمن طويل، بدليل وجود خمسة عشر نقشاً مصرياً وأشورياً ويونانياً على صخور نهر الكلب عند مصبه، قبل وجود كتابتَين لاتينيتين. وهذه الخمسة عشر نقشاً موزّعة كما يلي: ثلاثة نقوش باللغة الهيروغليفية المصرية، أقدمها وأقدم النقوش جميعها، نقش رعمسيس الثاني في أوائل القرن الثالث عشر ق.م.، الذي يخلّد انتصاراته. عشرة نقوش أشورية، منها أربعة على الضفة اليمنى للنهر، وستة على الضفة اليسرى. كتابتان يونانيتان. ثم استكملت هذه النقوش بلوحة تؤرخ للحملة الفرنسية التي جاءت إلى بلاد الشام سنة ١٨٦٠ على أثر الفتنة الطائفية بين الدروز والنصارى، وبلوحة للجلاء تؤرّخ لجلاء آخر جندي أجنبي عن لبنان في ٣١ كانون الأول من سنة ١٩٤٦. وتبعاً لذلك تعتبر صخور نهر الكلب أهم متحف طبيعي تاريخي في لبنان.

طريق نهر الكلب – بعلبك هي طريق الناس والقوافل التجارية وجيوش الغزاة بين الساحل الشمالي لبيروت والبقاع. وهي أهم الطرق الرومانية، في جبل لبنان الجنوبي، بعد طريق الساحل، لأنها تصل بين مركزين مهمين للرومان، هما مستعمرة بيروت التي كانت أهم مركز ثقافي، وبعلبك التي كانت أهم مركز ديني. وقد رصفوها بالحجارة كما رصفوا طريق الساحل، وآثار ذلك لا تزال بادية في بعض الأماكن. وهي تنطلق من الضفة اليسرى لنهر الكلب عند مصبه، ثم تجتازه إلى الضفة اليمنى على جسرٍ تجدّد بناؤه أكثر من مرة، والأقدم، بحسب ما هو معروف حتى الآن، الجسر الذي بناه انطيوخس الأول ملك سورية المعروف بسوتير، في سنة ٢٥٠ ق.م. وتمرّ الطريق في عينطورة كسروان، وعجلتون، وفيطرون، ومزرعة كفرذبيان، وفقرا الواقعة إلى الغرب من الجسر الحجري الطبيعي الكبير المشهور، ومن نبع اللبن الذي يغذي نهر الكلب. ومن فقرا تتجه الطريق إلى عيون السيمان، ومنها إلى بعلبك.

طريق بيروت – زحلة[1]: هذه الطريق كانت معتمدة قبل الرومان. تنطلق من شمال بيروت عند جهات سن الفيل، وتمر في بيت مرى وبرمانا، والمتين، وعينطورة المتن، وترشيش، ومنها إلى الكرك في البقاع ثم إلى بعلبك. آثارها لا تزال ظاهرة في جرود المتين، وفي عينطوره، وفي محلّة "برج الحمام" في ترشيش[2] حيث يبدو قسم معبّد منها. تلتقي بها طريقٌ تنطلق من الساحل عند انطلياس، وتمر في بكفيا. ونقطة تلاقيهما هي في جهات عينطوره.

طريق بيروت – وادي حمانا – قب الياس: تسير في وادي نهر بيروت، ثم في وادي رافده نهر حمانا، الذي يوجد على جانبيه أثران قديمان، هما "بناء في أسفل قرية رويسة البلّوط، اسمه "البرج" وبناء مقابل له في مزرعة رويسة دير قنات التي توجد فيها نواويس رومانية"[3]. تصل إلى جهات المديرج – عين داره ، ومنها إلى قب الياس.

طريق بيروت – عاليه – قب الياس: هي طريق بيروت – شتوره اليوم، السالكة لسير السيارات، وكانت خط سكة الحديد المتوقف عن العمل منذ أواسط القرن العشرين، مع اختلاف بينه وبين خط السيارات في بعض الأماكن. وطريق السيارات تختلف عن الطريق الرومانية بانحرافها عنها نحو الشمال، في الكثير من الأماكن. ومما يدل على ذلك الأمر الروماني الصادر في القرن الأول، أو القرن الثاني الميلادي، الذي يحظر مرور العربات

---

[1]- لم يكن اسم زحله، التي تنتهي فيها الطريق، من بيروت إلى البقاع اليوم، معروفاً في العصر الروماني. ولم تكن زحلة من بين القرى التي ذكرتها المصادر القديمة، ولا من بين القرى التي ذكرتها جداول الإحصاء العثمانية في القرن السادس عشر. لقد كانت تابعة لكرك نوح. ويعود وجودها إلى أواسط القرن السادس عشر. أنظر عيسى اسكندر المعلوف: "دواني القطوف"، الجزء الأول، ص ١٦٠، وفيه يرد ان زحلة ذكرت في الحديث عن حملة الوالي ابراهيم باشا على الدروز في سنة ١٥٨٤.

[2]- عفيف مرهج: أعرف لبنان، الجزء الثالث، ص ٢٩٨، والجزء التاسع ، ص ١٦٧.

[3]- فؤاد سليم أبو رسلان: رأس المتن... ص ٣٢ – ٣٦.

ويسمح بمرور السيارات على طريق بدادون الواقعة إلى الغرب من عاليه. تلتقي بها في جهات عاليه طريق تنطلق من مرتغون وخلدة الواقعتين إلى الجنوب من بيروت، وتمر بالقرب من قلعة الحصن في كيفون، الواقعة إلى الجنوب الغربي من ممر معيسنون الشهير، مما يجعل للقلعة مهمة حراسة هذه الطريق.

تمر الطريق في عين داره وفي ممر ضهر البيدر قبل وصولها إلى قب الياس. ومن هناك تسير إلى دمشق عبر محطات وقرى عديدة، أبرزها في لبنان مجدل عنجر، وفي سورية ميسلون. كانت في العهد المملوكي على الشكل التالي: بيروت – خان الحصين [1] – زبدل[2]–خان ميسلون – دمشق. وبين كل مركز وآخر مرحلة أو بريد[3].

طريق الدامور – وادي الصفا – قب الياس: تنطلق من محيط مصب نهر الدامور، وتسير في وادي نهر الدامور المعروف في أعاليه بوادي نهر الصفا. وتلتقي بطريق صيدا – قب الياس قبل وصولها إلى عين داره. حولها ثلاثة حصون، هي حصن الزنبقية فوق الضفة اليسرى لنهر الصفا، وحصن كفرنيس على تلة كفرنس بين واديي الصفا والرملية، وقلعة الحصن على الضفة اليسرى لنهر الصفا بعد التقائه بنهر الغابون.

طريق صيدا – شحيم – قب الياس: لمعرفة الأماكن التي تمر فيها طريق صيدا – شحيم – قب الياس دليلان، أولهما الحصون التي أقيمت عليها، وقد جرى الحديث عنها في الفصل السابق، وثانيهما الطريق التي كانت سالكة قبل شق طريق السيارات في القرن العشرين، والمعروفة كسائر الطرق الرئيسة، منذ عهد المماليك، بالطريق السلطاني، وبالسكة السلطانية، نسبة إلى سلاطين المماليك والعثمانيين.

---

[1]– خان الحصين واقع بين عاليه وبحمدون.

[2]– زبدل: تقع في البقاع.

[3]– أنظر عن هذه الطريق. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٥٠.

تنطلق الطريق من صيدا إلى هيكل أشمون الواقع إلى الشمال الشرقي منها، وتجتاز نهر الأولي عند علمان فتمر بعدها في الجميلية، ومجدلونا، والمغيرية، ومزبود، وشحيم، وداريّا، وعانوت، وحصروت، وغريفه حيث تتفرع هناك إلى طريقين تلتقيان في عين وزين: الأولى تمر في عينبال، وعترين، ومرج بعقلين[1]، وقلعة الحصن في السمقانية. والثانية تمر في الثغرة الواقعة إلى الشمال من مزرعة الشوف، وقصر السويجاني، ومحلّة "الصليب"، وبقعاتا. وبعد عين وزين تمر طريق صيدا – قب الياس بين بتلون وكفرنبرخ، ثم تمر في الفريديس، ونبع الباروك، وكفرا، ووادي العلّيق إلى الشرق من عين زحلتا وبمهريه، وتيروش في وادي الجوز من خراج عين داره وإلى الشرق منها، وضهر البيدر، وتنتهي في قب الياس في البقاع.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الكثير من المواقع العسكرية دارت حول هذه الطريق، ومنها مواقع في غريفه ومحيطها بين أهل الشوف والوالي العثماني حافظ باشا في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، وموقعة عين مزبود التي قتل فيها الأمير قرقماس المعني، ومواقع نهر الحمّام وغريفه في عهد الأمير يوسف والأمير بشير الثاني الشهابيين. ومن ثغرة مزرعة الشوف وصلت نجدة والي صيدا، عبدالله باشا، إلى حليفه الأمير بشير الشهابي الثاني في الصراع الدامي الذي نشب بينه وبين الشيخ بشير جنبلاط في السمقانية وبقعاتا. وفي كل هذا شواهد على استمرار أهمية الطريق حتى عهد الإمارتين: المعنية والشهابية.

إن وجود الهيكل الروماني، المبني على أنقاض هيكل فينيقي، على بعد كيلومتر إلى الشمال من شحيم، يفيد أن الطريق في العهد الروماني، وما قبله، قد تكون مختلفة في جهات شحيم عنها بعد هذا العهد. فالهيكل بُني على الطريق التي كانت موجودة قبل الرومان وموجودة في عهدهم. ومما يرجّح مرور الطريق بالقرب منه. هو أن الطريق الصاعدة من بورفيريون على الساحل تمرُّ في برجا التي كان لها شأن في العهد الهلنستي، ومن الطبيعي أن

---

[1]– تمر الطريق بالتحديد جنوب شرق مرج بعقلين.

تلتقي مع الطريق المنطلقة من صيدا إما في نقطة واقعة إلى الشمال من الهيكل أو في داريّا. وهذا مما يجعلنا نعتقد أن الطريق كانت تصعد من هناك وتسير إلى الشمال من شحيم حيث تصل إلى داريا، مخالفة بذلك "الطريق السلطاني" في العهدين المملوكي والعثماني، الذي يمرّ في وادي بَسير إلى الجنوب الغربي من شحيم. تتفرع منها عند الباروك وكفرا وبمهريه ثلاث طرق تتجه إلى البقاع.

من ميزات طريق صيدا – قب الياس أنها الأقصر والأسهل للوصول من صيدا إلى البقاع الأوسط، ومنه إلى سورية وشمال البقاع، فهي لا تمر في أي مجرى ماء شتوي أو صيفي غزير، ولا في أي وادٍ صعب المسالك. كما تمر في البقاع، بعد وصولها إلى قب الياس، إلى الشمال من بحيرة كانت موجودة في الزمان القديم، اسمها "مرسياس" Marsyas، متسعة في جهات المرج في الشمال، وحوش الحريم في الشرق، وقلعة المضيق في الغرب، وتضيق كلما اتجهنا جنوباً نحو جب جنّين. وقد جُفّف وجفّ القسم الأكبر منها بحيث لم يبقَ منها سوى مستنقعات عمّيق. وتتجه الطريق بعد وصولها إلى مجدل عنجر نحو دمشق. وهي تتجه من قب الياس شمالاً إلى كرك نوح ومنها إلى بعلبك. ومن الشواهد على قدمها نقش يمثل رجلاً بثياب بلاد ما بين النهرين، فوق قب الياس، في السفح الشرقي لجبل الباروك.

طريق صيدا – وادي الباروك – قب الياس: تنطلق هذه الطريق من صيدا، وتسير على الضفة اليسرى لنهر الأولي (الباروك) من مصبه إلى منبعه. تصل أولاً إلى هيكل أشمون، وبعده تسير في وادي النهر، وتمر تحت قلعة تحرسها، هي قلعة أبي الحسن الواقعة على ضفته اليسرى. ثم تسير في مرج بسرى حتى تصل إلى الهيكل الروماني، بعد أن تجتاز جسراً على نهر عاري، وهناك تتفرّع منها طريق تتجه نحو الجنوب الشرقي إلى وادي جزين حيث تتفرع منها طرق إلى قراه، وتلتقي في جزين بطريق صيدا – مشغره. وبعد مرج بسرى تتجه الطريق شمالاً، وتسير، من أجل تقصير المسافة، فوق الجرف الصخري لنهر الباروك، تحت قرى حارة جندل وعماطور وعين

قني والمختارة. ومن المختارة تصعد إلى بطمه، ومنها تسير إلى فرنيّا[1] والباروك حيث تلتقي هناك بطريق صيدا – قب الياس.

تمر طريق صيدا – وادي الباروك في قريتين فقط من قرى الشوف الحيطي، البالغة ثلاث عشرة قرية، هما المختارة وبطمه، إلا أنه تتفرع منها طرقٌ إلى باقي قراه. كما تلتقي بها تحت عماطور وعين قني والمختارة ثلاث طرق تصل من الشوف السويجاني إليها عبر ثلاثة جسور على نهر الباروك، القائم منها حالياً يعود إلى عهد الإمارة، ومن المرجح أنها مبنية على أنقاض جسور أقدم. وإضافة إلى اتصالها بالبقاع بسبب التقائها بطريق صيدا – قب الياس، تتصل به أيضاً عبر طريقين هما طريق تمر في ثغرة مرستى بين جبلي الباروك ونيحا، ومنها إلى عين زبدة وجب جنّين في البقاع الغربي، وطريق تمرّ في ثغرة المعاصر في جبل الباروك، ومنها إلى كفريّا وجب جنين، ومنها إلى ميسلون في سورية.

طريق صيدا – وادي الباروك قديمة بدليل وجود أماكن السكن حولها، التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، ومنها نبع الباروك وبطمة والمختارة. وهي التي أوصلت الانسان إلى الشوف الحيطي وعبره إلى البقاع. وكانت مع طريق صيدا – مشغره، وطريق صيدا – قب الياس، طريق الأخشاب، من غابات جبلي الباروك ونيحا وسفوحهما الغربية، إلى صيدا لبناء الأساطيل، ولمختلف الصناعات. وقد ظل لها أهميتها لمدة طويلة، قبل أن تتحول من الضفة اليسرى لنهر الباروك إلى القرى، بدليل بناء جسر لها هو جسر "بركة العروس" في أواخر العهد المملوكي، في وسط وادي نهر مرشد الذي يجري بين قريتي المختارة وعين قني، ويصب في نهر الباروك.

---

[1]- يوجد في فرنيا الفوقا سنديانة ضخمة، لا يزال الناس حتى اليوم يعلّقون فيها خرقاً، معتقدين أن صلاّحاً وأولياء استظلوها، وهي تسمّى "أم الشراطيط".

طريق صيدا – مشغره: هي الطريق الطبيعية والتاريخية بين صيدا ومحيطها وبين مشغره في البقاع الغربي. وهي تجتاز كفرفالوس وروم وجزين وعين مجدلين. والقرية الأخيرة سميت بهذا الاسم لوجود مكانين عاليين أو برجين عندها، ومنها تمر الطريق إلى الشمال من تومات نيحا، ثم تجتاز مشغره لتسير إلى دمشق عبر كفرقوق في وادي التيم في لبنان، وميسلون في سورية. إنها طريق الناس والقوافل التجارية والجيوش قبل الرومان وفي عهدهم وبعدهم. ذكرها العمري المتوفى في سنة١٣٤٨ بين الطرق الرئيسة في العهد المملوكي، التي تتفرّع من دمشق، وذكر أنها من خان ميسلون إلى جزين[1]. وجاء على ذكرها الرحّالة الأجانب[2].

---

[1]- العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٥٠.

[2]- من هؤلاء الرحّالة لوران دارفيو الذي أقام في صيدا بين سنتي ١٦٥٨ و ١٦٦٥. أنظر :
.Laurent D'Arvieux: memoires, T VI, P 208

الفصل الرابع

الفتح العربي والنزوح إلى جبل لبنان

الفتح العربي للبنان

الفتحِ العربيِ للبقاعِ والمدن الساحلية: شاخت الأمبراطوريتان، البيزنطية والفارسية، وأضعفتهما النزاعات الداخلية، وانهكتهما الحروب التي نشبت بينهما. فيما كانت قوة عربية تنمو وتتعاظم بسرعة في الجزيرة العربية، وتنطلق منها إلى بلاد ما بين النهرين، وبلاد فارس، ومصر، تحت راية دين جديد هو الإسلام، فتقضي على الامبراطورية الفارسية، وتزعزع أركان الامبراطورية البيزنطية بطرد جيوشها من مصر وبلاد الشام، في فتوحات سريعة مدهشة، بفعل الإيمان القوي بوجوب نشر الإسلام في العالم، وبفضل الرغبة في الخروج من الصحراء إلى الهلال الخصيب، وغيره من المناطق الخصبة.

قادة الجيوش العربية التي فتحت بلاد الشام، وطردت البيزنطيين منها، هم خالد بن الوليد، القائد العام في عهد الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق. وأبو عبيدة بن الجرّاح، القائد العام في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة. والقادة الذين تولّوا فتح لبنان هم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية.

بعد ان تمَّ للمسلمين فتح دمشق سنة ٦٣٥، توجّه أبو عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد إلى البقاع، فتم فتح بعلبك بعد معارك قاسية، على

أمان اعطاه أبو عبيدة لأهلها. ثم فتح أبو عبيدة وخالد بن الوليد حمص [١]. وبعد ذلك انسحب المسلمون إلى الجنوب لمواجهة الجيش البيزنطي، الذي جمعه الامبراطور البيزنطي هرقل، في وادي الأردن حيث انتصروا عليه في معركة اليرموك في ٢٠ آب ٦٣٦.

تابع المسلمون توسعهم ففتحوا المدن الساحلية اللبنانية، إذ إن يزيد بن أبي سفيان، الذي استخلفه أبو عبيدة على دمشق، سار إلى سواحلها، وهي صيدا وعرقة وجبيل وبيروت "وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها. وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه في ولاية يزيد"[٢].

عدم توغل العرب في جبل لبنان: يُستفاد مما ذكرته أقدم مصادر الفتوحات الإسلامية (الواقدي والبلاذري واليعقوبي والفسوي وابن الأثير) أن فتح بلاد الشام استغرق حوالى ثلاث سنوات، وفتح البقاع حصل قبل معركة اليرموك، وفتح المدن الساحلية اللبنانية جرى بعد هذه المعركة، وأن المناطق الجبلية اللبنانية لم يدخلها العرب في البداية، فكانت عملياتهم الحربية في المناطق المحيطة بها. لذا ثمة سؤالان يُطرحان في هذا المجال، هما لماذا لم يتوغل العرب في جبل لبنان، وهل صحيح ما ذكرته بعض المراجع الحديثة عن توغلهم فيه؟

ينفرد الواقدي بذكر حملة إسلامية إلى حصن واقع في شمال لبنان، بين مدينتي طرابلس وعرقة، فيقول إنه بعد تولية أبي عبيدة قائداً عاماً لجيوش المسلمين من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، أرسل وهو في دمشق، إلى الحصن بجريدة بقيادة عبدالله بن جعفر مؤلفة من خمسمائة فارس فيهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري، لكن هذه الحملة كادت تُسحق لولا نجدة خالد بن الوليد لها، التي مكنتها من الانسحاب[٣]. وفي حال صحة هذه

---

[١]- تاريخ اليعقوبي: المجلند الثاني، ص ١٤١.

[٢]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد الثاني، ص ٤٣١.

[٣]- الواقدي: فتوح الشام، ص ٩٧ – ١٠٥.

الرواية الغريبة، تكون حملة عبدالله بن جعفر، ونجدة خالد بن الوليد لها، أول تجريدتين إلى الساحل اللبناني، لكنهما لم تمرّا في الجبال اللبنانية، وانما في طريق حمص – عرقة إلى الشمال من هذه الجبال.

في معرض الحديث عن وجود السكان في المناطق الجبلية اللبنانية جاء عند المؤرّخ محمد علي مكّي، في كتابه الصادر بطبعته الأولى سنة ١٩٧٧، ما يلي:" ان قوة عربية كان خالد بن الوليد قد أرسلها من البقاع إلى بيروت تعرّضت لهجوم من قوم من الروم فنزلوا عليهم من عقبة بيروت وقضوا عليهم عند عين ميسون، فعُرفت العين بعد ذلك باسم عين الشهداء، وعين ميسنون ربما هي في أسفل الوادي شرقي سوق الغرب وكيفون الواقعتين إلى الشرق الجنوبي من بيروت"[١]. وقد زعم مكي ان هذا وارد عند الواقدي، فنقل كلامه بعض المؤلفين المعاصرين لتاريخ لبنان، دون أن يعودوا إلى الواقدي.

وفي حال صحة هذه الرواية، تكون الجيوش العربية قد اجتازت الجبال اللبنانية، إما للهجوم على السواحل بقصد احتلالها، وإما بقصد استكشاف المناطق ومعرفة أماكن وجود الحاميات الرومية فيها. وفي رأي أحد متبنيها، كانت معركة عين ميسنون بداية الاحتكاك مع الساحل اللبناني، وانه من نتائجها "التعجيل في فتح القطاع الأوسط من ساحل الشام، أي الساحل البيروتي والذي يمتد من الشمال إلى الجنوب، أي من حدود عرقة إلى مدينة صور"[٢].

ويورد محمد علي مكي ان أبا عبيده بن الجرّاح "عيّن يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وكلّفه بفتح السواحل، فعمد يزيد بمعونة أخيه معاوية إلى احتلال بيروت سنة ٦٣٥، ثم احتل في السنة التالية سنة ٦٣٦ مدن صيدا وصور وجبيل وعرقة، ولم تُعرف الطريق التي سلكها للوصول إلى بيروت

١- محمد علي مكي: لبنان... ، ص ١٦، ٢٩.

٢- طارق قاسم: تاريخ لبنان الوسيط، ص ٢٨.

فهل كانت عبر الجبال من البقاع، على غرار السرية التي كان من قبل قد أرسلها خالد بن الوليد وقُضي عليها في عين ميسنون، أما أنها كانت عن طريق الساحل من الجنوب؟"[1].

هذا الكلام يعزز كلام مكّي السابق عن توغّل الجيوش العربية في جبل لبنان، إلا أنه مخالف للوقائع التاريخية لأن الجيوش العربية وصلت في زحفها شمالاً إلى جهات حمص، وفي زحفها جنوباً إلى فلسطين، ومن الطبيعي أن تتوجه إلى المدن الساحلية اللبنانية إما من جهة عرقة وطرابلس، وإما من جهة فلسطين. وهي في حال توجهها رأساً إلى بيروت، من المستبعد جداً الاكتفاء باحتلالها والعودة منها، وعدم التوجه شمالاً إلى مدن جبيل وطرابلس وعرقة، وجنوباً إلى مدينتي صيدا وصور. وما جرى فعلاً هو أن المسلمين زحفوا إلى بيروت من ناحية صيدا وهذا ينفي ضرورة طرح أي سؤال عن الطريق الجبلية المباشرة لتقدم مزعوم من جهة دمشق مباشرة إلى بيروت عبر عين ميسنون التي هي مكان آخر غير المكان الذي اعتقده المؤرخ المذكور.

بالعودة إلى الواقدي لم نرَ عنده ذكراً لواقعة عين ميسنون. وبالعودة إلى المصادر الأخرى لم نرَ أي ذكر لها سوى عند الفسوي المتوفى في سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م، وقد ذكرها إبّان استعراضه لفتح المسلمين لدمشق، فقال: "وكانت للمسلمين مسلحتان مسلحة ببرزة عليها أبو الدرداء وكنت أنا فيها، والأخرى بعين ميسنون فأغار عليها سسناق البطريق من عقبة بيروت فكانت ميسنون تُدعى عين الشهداء"[2]. والبلاذري يذكر مسلحة برزة في حديثه عن فتح المسلمين لدمشق، لكنه لا يذكر شيئاً عن عين ميسنون[3].

١- محمد علي مكي: لبنان ... ، ص ٢٦.

٢- الفسوي: كتاب المعرفة والتاريخ، الجزء الثالث، ص ٣١١ – ٣١٣.

٣- البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٧.

إن برزة المقصودة هنا هي برزة القريبة من دمشق، التي أصبحت حالياً من احيائها، لا برزة الموجودة في محافظة حمص. وإن عين ميسنون هي عين ميسلون الواقعة على الطريق بين دمشق وبيروت، والتي كانت عقدة مواصلات تتفرع منها عدة طرق كما وردت الإشارة إلى ذلك. وهي غير عين معيسنون الواقعة إلى الشرق من كيفون وسوق الغرب على طريق قب الياس – بيروت وساحلها. والدليل على أن عين ميسنون هي عين ميسلون كلام الفسوي عن مسلحتين أحداهما في برزة التي هي سابقاً إحدى ضواحي دمشق، وثانيتهما في ميسلون القريبة منها، لكنها واقعة في شرق انتي ليبان، أي المنطقة الجبلية التي سمّاها الفسوي "عقبة بيروت". ولعل التشابه بين الاسمين: ميسنون ومعيسنون، وورود عبارة "عقبة بيروت"، هما اللذان حملا بعض المؤرخين على اعتبار ميسنون معيسنون الواقعة قريباً من بيروت، والنفاذ من ذلك إلى القول إن القوات العربية توغلت في جبل لبنان. والجدير بالذكر أن بعض الذين تكلموا عن الفتوحات الإسلامية اعتبروا عين ميسنون عين ميسلون[1].

أعاد بعض المؤرّخين عدم توغّل العرب في الجبال اللبنانية، أثناء الفتوحات وبعدها، إلى تهيّبهم دخولها لمنعتها، وإلى استسهالهم الحرب في السهل فقط. وفي هذا المجال يقول أحدهم: "إننا نقدّر ان جزءاً يسيراً من الجموع العربية، المتدفّقة إلى الهلال الخصيب أثر الفتوحات، تابع تقدمه إلى سواحل لبنان، لا إلى جباله.. إن لبنان الجبل لم يكن ليستهوي فرسان الحرب وموظفي الدولة والبدو الرحّل أو نصف الرحّل القادمين من الجزيرة العربية، فإنهم أرفع قدراً من أن يتعاطوا أعمال الزراعة والفلاحة. ولم يكن ثلج لبنان

---

[1]– البطريرك اغناطيوس الرابع هزيم: فتح العرب لبلاد الشام. انظر لبنان في تاريخه وتراثه، الجزء الأول ، ص ١٣٦. والبطريرك يشير إلى واقعة عين ميسنون بقوله: حقق البيزنطيون نصراً محدوداً على فيلق عربي قرب غوطة دمشق، لكن ذلك لم يعدّل بشكل جذري ميزان القوى".

بالشيء المستحب لديهم. ناهيك عن أن الحرب في مسالك الجبل ووعره ليس بالامر الذي يميل إليه المحارب العربي الذي كان يألف السهل"[1].

هل كانت منعة جبال لبنان، وعدم استهوائها فرسان العرب الفاتحين، وميل هؤلاء إلى القتال في السهول، هي ما منع العرب من التوغل في المناطق الجبلية اللبنانية؟ إننا لا نرى ذلك على الإطلاق ، لأن الجيوش العربية توغّلت في فتوحاتها ، من بلاد السند شرقاً إلى بلاد الأندلس غرباً، في الجبال أنّى اقتضى ذلك كما توغّلت في السهول، وكانت قادرة على التوغّل في المناطق الجبلية اللبنانية لو أن هناك ما استدعى هذا، إذ إن هذه المناطق كانت بعد هزيمة الروم (البيزنطيين) وجلائهم خالية من الحاميات العسكرية، وخالية في الوقت نفسه من الحواضر المهمة، فلا ضرورة لدخولها وخوض غمار السير في جبالها الملأى بالغابات، وفي مسالكها الوعرة.

تبعية جبل لبنان لجند دمشق: عندما جاء الخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب من المدينة إلى بلاد الشام لتسلم بيت المقدس، عقد مؤتمراً في الجابية ضم قادة الفتوحات، اتفق فيه على تقسيم بلاد الشام إلى أربع مناطق عسكرية، سميّت أجناداً، هي جند دمشق، جند حمص، جند الأردن، جند فلسطين. وكان سبب مجيء عمر "طلب أهل بيت المقدس من فاتح بلاد الشام، أبي عبيدة بن الجرّاح، أن يصالحهم على صلح أهل مدنها، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطّاب"[2]. ولما تسلم الخلافة الأموية يزيد بن معاوية جعل قنّسرين وأنطاكية ومنبج جنداً. وظل الأمر كذلك حتى تسلّم هرون الرشيد الخلافة العباسية " فجعل قنّسرين وحدها جنداً، وأفرد منبج ودلوك ورعيان وقورس وانطاكية وتيزين، وسمّاها العواصم[3]".

---

[1]- فيليب حتّي، تاريخ لبنان، ص ٢٩٧.

[2]- البكري: المسالك والممالك، المجلد الثاني، ص ٣٩. وتاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٤٧.

[3]- البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٨.

وبموجب هذا التقسيم تبع البقاع والساحل اللبناني من طرابلس إلى صيدا، وما يجاريه من المناطق الجبلية، إلى جند دمشق ومركزه مدينة دمشق. وتبعاً لذلك تبعت مدينتا بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي إلى مدينة دمشق، وظلت تتبع لها حتى قدوم حملات الفرنجة وسيطرتهم على بيروت وصيدا، باستثناء بعض فترات تبعت فيها المدينتان للحكم الفاطمي، وتبعت دمشق لحكم العباسيين أو السلاجقة[1].

عدم حصول فراغ سكاني في جبل لبنان

جلا الروم البيزنطيون عن بلاد الشام بعد هزائمهم أمام المسلمين، وخاصة بعد كبرى هزائمهم في معركة اليرموك في ٢٠ آب ٦٣٦. وخرّبوا بعض الحصون والمدن كي لا يستفيد منها المسلمون. وأجلوا معهم قسماً كبيراً من سكان مدن الساحل اللبناني والبقاع، ومن حواضر ومدن شمال سورية وساحلها، ومن بعض القبائل العربية الموالية لهم، على أمل الاستعانة بهم عند معاودتهم احتلال بلاد الشام، وبهدف شل الحياة الاقتصادية في البلاد التي تغلّب عليها أعداؤهم ، وارباكهم وإضعافهم. وجلا بعض السكان خوفاً من الفاتحين الجدد، واعتقاداً منهم ان البيزنطيين سيستعيدون الشام.

خيّر المسلمون السكان غير المقاتلين بين الجزية والإسلام والرحيل، ففضّل بعضهم الرحيل على دفع الجزية واعتناق الإسلام. كما أن المسلمين خرّبوا بعض المدن والحصون، وأجلوا سكانها كي لا يكونوا عوناً للبيزنطيين في حال قيامهم بهجوم معاكس. ومن السكان الذين جلوا بأنفسهم، جبلة بن الأيهم الغسّاني الذي رفض الإسلام، "ودخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً"، وبشر كثير من اهل دمشق لحقوا بهرقل وهو بأنطاكية، وبعض أهل طرابلس الذين حاصرهم المسلمون في أحد الحصون. ومن السكان الذين أجلاهم المسلمون

[1] - ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، الجزء الثاني، ص ٩٨ – ١٠٣.

كثير من أهل صيدا وبيروت وجبيل وعرقة، الذين أجلاهم يزيد بن أبي سفيان عند فتحه لهذه المدن[1].

وردت الإشارة إلى توسع السكن في جبل لبنان الجنوبي حتى وصل إلى المناطق الجبلية العالية، وإلى ان عدد السكان ازداد في العهد الروماني. وليس هناك ما يشير إلى احتمال حصول نقصٍ فيه، في أواخر هذا العهد، سوى الزلزلات التي ضربت بلاد الشام، وكانت أشدها الزلزلة التي هدمت مدينة بيروت، والتي كان تأثيرها في صيدا ومحيطها أقل، بدليل انتقال علماء مدرسة الحقوق البيروتية إلى صيدا بعد خراب بيروت.

والسكان في جبل لبنان الجنوبي آنذاك خليط من أقلية هي جاليات رومانية، واكثرية هي السكان الأصليون المتحدّرون من الكنعانيين واللبنانيين الأوائل، وبقايا جاليات من شعوب احتلت لبنان. ولم تتحدّث المصادر الإسلامية إلا عن إجلاء المسلمين لسكان بيروت وصيدا. ولربما كان هناك إجلاءٍ أو جلاءٌ من المدن الصغيرة الواقعة بينهما، وهي خلدة، وبورفيريون وبلاطُنس. كما قد يكون هناك حاميات بيزنطية موجودة في جبل لبنان الجنوبي احتشدت مع جيش هرقل في اليرموك، ثم انسحبت معه، بعد هزيمته، من بلاد الشام، لكن هؤلاء هم العدد القليل من مجمل السكان. ولم يدخل المسلمون جبل لبنان ليطرح احتمال إجلائهم لسكانه، او جلاء هؤلاء خوفاً منهم.

ليس أدل على بقاء السكان الأصليين، في جبل لبنان الجنوبي، من انتقال اسماء القرى فيه إلى العشائر العربية التي قدمت إليه ابتداءً من سنة ٧٥٩، إذ إن هذه الأسماء لا يمكن أن تكون معلومة من وافدين جدد أو من كتّاب الدواوين، التي اعتمدها العرب، إلا بواسطة السكان المقيمين.

---

[1]- البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٣، ١٤٢.

المرابطة في بيروت وصيدا

بسبب الإجلاء والجلاء، اللذين اعقبا الفتح العربي، حصل فراغ سكاني، وفراغ أمني، استدركهما العرب بإعادة تعمير المدن الساحلية ونقل السكان إليها، وشحنها بالمقاتلين لصد غارات الروم البيزنطيين.

كتب معاوية بن أبي سفيان، الذي تسلّم ولاية الشام بعد موت أخيه يزيد، إلى الخليفة عمر بن الخطّاب، يصف له حال السواحل "فكتب إليه عمر في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها، ولم يأذن له في غزو البحر، وان معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له في الغزو بحراً وأمره ان يعد في السواحل إذا غزا أو أعزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وان يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبني المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته. ثم أن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية"[1].

من وجوه تحصين معاوية لمدن الساحل أجراؤه تبديلاً سكانياً، ونقله جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص إلى أنطاكية. وحين غلب الروم على بعض السواحل ، في آخر خلافة عمر بن الخطّاب، أعاد معاوية فتحها، ثم رمّها وشحنها بالمقاتلين وأسكن في الحصن، الذي بناه سفيان بن مجيب الأزدي في طرابلس وسمي على اسمه، جماعة من اليهود. ولما أذن الخليفة عثمان بن عفّان لمعاوية بغزو البحر بنى معاوية، في عكا، الأسطول الذي أبعد خطر الروم عن السواحل، وسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وهزم الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥، ووصل إلى أسوار القسطنطينية، لكنه ارتد عنها بفعل النار الإغريقية.

تحوّلت المدن الساحلية في العهد الأموي إلى مراكز لبناء السفن الحربية والتجارية، وإلى مراكز للمرابطة قصدها الناس، وعاد إليها قسم من النازحين. كانت بيروت عند فتح المسلمين لها مدينة صغيرة، فبدأوا بترميمها

---

[1]- المصدر نفسه، ص ١٣٤ – ١٣٥.

إسوة بسائر المدن كي تكون أحد مراكز اسطولهم، واحد مراكز الدفاع عن الساحل، لأهمية موقعها ولقربها من العاصمة الاموية دمشق. والمصادر التاريخية تذكر أنهم فرضوا الجزية على المسيحيين سكانها الأصليين مما يؤكد عدم جلاء أو إجلاء جميع سكان المدن. ومع الأيام صار المسلمون يتكاثرون في بيروت والمسيحيون يقلون حتى صار أكثر أهلها بعد وقت قصير من المسلمين، ومنهم الإمام الأوزاعي، من مواليد بعلبك، الذي أقام في بيروت للمرابطة . وعندما مات دفن إلى الجنوب منها في قرية حنتوس التي سُمّيت على اسمه "الأوزاعي".

ومع ازدياد السكان في بيروت للمرابطة ازداد عمرانها، وقامت الأبنية على أساسات الأبنية المهدّمة والمحترقة جرّاء تدمير الزلازل لها والحريق الذي حصل فيها، في أواسط القرن السادس. وقد ظل قسم كبير من الآثار الرومانية ماثلاً للعيان حتى القرن الحادي عشر، بدليل ما شاهده الرحّالة الفارسي ناصر خسرو سنة ١٠٤٧ حين قدم على طريق الساحل من جبيل إلى بيروت. لقد شاهد قنطرة كبيرة فوق الطريق علوها ٦٢,٥ متراً، وسط قنطرتين أخريين. والقناطر مبنية بحجارة ضخمة منقوشة بنقوش فيها دقة وابداع. كما شاهد في السهل المحيط بهذا الأثر عدداً لا يحصى من الأعمدة ورؤوس الاكلة من الرخام. ومع ان بيروت تعرضت لغزوات بحرية من الروم، ولغزوات برية من جيوش القوى المتصارعة في بلاد الشام وعليها، إلا انها شهدت انتعاشاً تجارياً وإن بسيطاً بفضل تكاثرِ السكانِ فيها.

كانت صيدا في العهد الروماني أقل شأناً وازدهاراً وعمراناً من بيروت، لكنها لم تنكب مثلها بالزلازل، إذ إن الزلزال الذي أصابها في سنة ٥٧٣ لم يأت إلا على قسم من أبنيتها. وبعد أن فتحها المسلمون تحولت، كسائر الثغور على الساحل الشرقي للمتوسط، إلى مركز لمرابطة المسلمين مما أدى إلى زيادة السكان فيها وفي محيطها، إلا انها ظلت دون بيروت في الازدهار والاتساع والمنعة. وحين زارها الرحّالة الفارسي ناصر خسرو سنة

١٠٤٧ وجد فيها سوقاً جميلاً نظيفاً، وقلعة يدخل إليها من ثلاثة أبواب، وحول بيوتها بساتين مزروعة بقصب السكر.

حال الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بين المسلمين وبين اقتسامهم البلاد التي فتحت عنوة، إذ ترك عليها أهلها وتركها في أيدي أهلها[١]. لكنه سمح باقطاع ارضين للقادة في السواحل الشامية التي طلب ترميمها وشحنها بالمقاتلين بعد أن كادت تفرغ من السكان. ثم أن خليفته، عثمان بن عفّان، أباح للذين أرادوا تملك الأرض ان يتملّكوها[٢]. واتخذ المسلمون من بعض المواقع في جبال بيروت وصيدا، وفي جبل عامل، مراكز مرابطة لمساعدة الحاميات العسكرية التي اقطع قادتها أرضين في ثغور الساحل اللبناني، فنتج عن ذلك انتشار الإسلام، وتحول السكان في بيروت وصيدا وجبالهما إلى اكثرية اسلامية، فيما ظلت مدن داخلية سورية، كدمشق، وحمص، ذات أغلبية مسيحية.

النزوح إلى جبل لبنان

نزح الموارنة من وادي العاصي في سورية إلى لبنان، في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي. وتزامن نزوحهم مع قدوم المردة والجراجمة اليه من جبل اللكام في شمال سورية، ومن آسيا الصغرى، ثم تلا ذلك نزوح المناذرة اللخميين من معرة النعمان في شمال سورية، إلى لبنان في سنة ٧٥٩. فعمر جرّاء ذلك جبل لبنان بالسكان، وحفل تاريخه بالاحداث. سنتكلم في ما يلي عن هذه النزوحات، وعن إحدى اشكاليات التاريخ اللبناني، وهي إشكالية المردة والجراجمة والموارنة التالية: هل انهم عناصر ثلاثة مختلفة بأصولها ومصائرها، أم انها عناصر اختلطت مع بعضها ، وكوّنت، بحسب ما يرى بعض المؤرخين من الموارنة، شعباً عرف باسم الموارنة.

١- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية ، ص ٢٤٩.

٢- المرجع نفسه، ص ٢٥١ .

المردة والجراجمة والموارنة

المردة: المردة، أو المردائيون، من أصل فارسي ميدي، لهجاتهم خليط من الفارسية والميدية والاغريقية. كانوا وثنيين، ثم اعتنقوا، بعد ظهور المسيحية، مذاهب بحسب تقلّب أوضاع الكنيسة البيزنطية، وانتشار الهرطقات في عهود دولة الروم البيزنطيين، الأولى. نزل بعضهم في جبل اللكام في منطقة الجراجمة. واعتبروا مرتزقة مسخّرين لأغراض الروم الذين استعملوهم في حروبهم. وكثر منهم قطاع الطرق واللصوص[1]. وصلوا لى لبنان حين أرسلهم الامبراطور البيزنطي لاقلاق الأمن في بلاد الشام، واشغال الأمويين بالمتاعب لإعادة سيطرة الروم عليها، ولمنع المسلمين من التوسع في أراضي الأمبراطورية الرومية.

أول من ذكر المردة باسمهم هذا هو المؤرخ البيزنطي تيوفانس المتوفى سنة ٨١٨، الذي ذكرهم باسم Mardaite ، أي المردائيتاي. إلا أن المؤرّخين المسلمين، الذين تحدثوا عن الجماعات التي سخّرها الروم في صراعهم مع المسلمين، وعن الحوادث التي أثاروها، لم يذكروهم باسم "المردة"، وربما لم يطلّعوا على ما كتبه المؤرخون البيزنطيون والسريان عنهم. وقد أشار إليهم البلاذري في "فتوح البلدان" باسم "خيل الروم". ولفظة "المردة" لم تُعرف في لبنان قبل القرن السابع عشر، وأول من اعتمدها في هذا القرن هو المؤرخ البطريرك اسطفان الدويهي.

يستفاد مما كتبه المؤرخون عن المردة أنهم قدموا مرتين إلى لبنان، أولاهما في سنة ٦٦٩ في عهد الخليفة الأموي، معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ – ٦٨٠) عندما كان منهمكاً في مشكلة العراق. وثانيتهما في بداية عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ – ٧٠٥) عندما كان منشغلاً بالنزاع مع ابن الزبير، وفي هذه المرة ذُكروا باسم "خيل الروم" لا باسم المردة.

---

[1]– للمزيد من المعلومات عن المردة انظر كتاب عادل اسماعيل " المردائيون (المردة).

أورد الأب بطرس ضو، نقلاً عن المؤرخ البيزنطي تيوفانس، أنه في سنة ٦٦٩ دخل المردة لبنان، واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة المقدّسة، وانضم إليهم كثير من أبناء البلاد والعبيد والأسرى فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف. وأورد أيضاً، نقلاً عن بطريرك اليعاقبة ميخائيل السوري (١١٢٦ – ١١٩٩)، الذي نقل بدوره عن ديونيسيوس التلمحري المتوفى سنة ٨٤٥، أنه في السنة التاسعة لقسطنطين أتى الروم إلى جبال لبنان، كانوا يسمونهم مردة أو ليبهورا، وأهالي سورية كانوا يدعونهم جراجمة[١]. وبعد أن استعرض الأب ضو أقوال العديد من المؤرخين، خلص إلى القول:إن الجراجمة والمردة فرعان لشعب واحد، أصله من بلاد فارس، كان مدرّباً في الحرب. قسم منه أتى سورية وجعل من الجرجومة عاصمته فعرف هناك بالجراجمة. وقسم استقر في آسيا الصغرى من بلاد الروم، وعرف هناك بالمردة. وحملة المردة التي زحفت إلى لبنان وتمركزت فيه كانت مؤلفة بصورة رئيسة من المردة السوريين، أي الجراجمة، ومن المردة الآتين من بلاد الروم، أي آسيا الصغرى، وهو لم يستبعد أن يكون المردة فرعاً من الدوحة الأمورية[٢].

انتهى أمر المردة سياسياً وعسكرياً في لبنان بعد صلح الأمبراطور البيزنطي مع الخليفة عبدالملك بن مروان، فعادوا إلى أراضي الامبراطورية البيزنطية، وكان عددهم، بحسب ما ذُكر، اثني عشر ألفاً. وشكلت بقاياهم فرقة عسكرية تابعة للبيزنطيين. وتوزعوا في آسيا الصغرى وبلاد القفقاس[٣]. ولم يبقَ منهم في لبنان إلا عدد قليل "ذاب أكثره في الروم الارتوذكس لتقارب مذهبهم ، واقله في الموارنة"[٤].

١- بطرس ضو: تاريخ الموارنة ، الجزء الأول ، ص ٢٨١ – ٢٨٢.

٢- المرجع نفسه، ص ٢٨٦ – ٢٨٧.

٣- عادل اسماعيل: المردائيون (المردة)، ص ٨٢ وما بعدها.

٤- عادل اسماعيل: انقلاب على الماضي، ص ٤٤.

الجراجمة: أول من ذكر الجراجمة هو المؤرخ البلاذري المتوفى سنة ٨٩٢، الذي قال إنهم من مدينة جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا، يقال لها الجرجومة، وإن أمرهم كان، في أيام استيلاء الروم على الشام وانطاكية، إلى بطريق انطاكية وواليها. وحين تسلّم حبيب بن مسلمة الفهري أمر انطاكية بعد إعادة فتح أبي عبيدة لها، اثر غدر أهلها ونقضهم، غزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوا على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً لهم ومسالح في جبل اللكام، وان لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينقلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم. وقد دخل في هذا الصلح كل من كان في الجرجومة من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم وأهل القرى فسُمّوا الرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم، ويقال إنهم جاؤوا إلى عسكر المسلمين وهم أرداف لهم فسموا رواديف.

ويتابع البلاذري كلامه عن الجراجمة فيقول إنهم كانوا يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم. فلما كان نزاع عبدالملك بن مروان مع مصعب بن الزبير "خرجت خيل للروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان، وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد ابّاق من عبيد المسلمين، فاضطر عبد الملك إلى أن صالحهم على ألف دينار في كل جمعة [أسبوع]، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته وتخوّفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه. واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق فانه صالحهم على أن يؤدي إليهم مالاً"[1].

ما ذكره البلاذري عن الجراجمة ، وعن صلح عبد الملك مع الامبراطور البيزنطي، ذكره أيضاً ابن الأثير، فقال في ذكره لحوادث سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م ما يلي: "لما امتنع عمرو بن سعيد على عبد الملك خرج أيضاً قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام واتبعه خلق كثير من الجراجمة

---

[1]- البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٣ – ١٦٤.

والانباط وابّاق عبيد المسلمين ، ثم سار إلى لبنان"[1]. وقال في ذكره لحوادث سنة ٧٠هـ/٦٨٩م، وقال الطبري مثله ما يلي: "في هذه السنة اجتمعت الروم واستجاشوا على من بالشام فصالح عبد الملك ملكهم على أن يؤدي إليه كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين"[2].

لم يذكر البلاذري "المردة" من بين الذين خرجوا في عهد عبد الملك بن مروان، بل اكتفى بوصفهم "خيل للروم"، بينما ذكر تيوفانس أن الامبراطور البيزنطي كان يدفع بسكان من آسيا الصغرى لمهاجمة بلاد الشام، وتشكيل مصدر قلق واخلال بالأمن للأمويين في عهد معاوية ثم في عهد عبد الملك، وقد وصل بعض هؤلاء إلى لبنان.

استطاع عبد الملك بن مروان تجاوز الأزمة الداخلية التي أثارها ابن الزبير، وثبت دعائم خلافته، وانصرف إلى الجراجمة فأرسل إليهم سحيم بن المهاجر، فتمكن هذا أن يوقع بقائد الروم، وذلك بأن دبّر له مكيدة وأعدّ له كميناً "فقتله ومن كان معه من الروم ونادى في سائر من ضوى إليه بالأمان فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام، وأتى الأنباط قراهم فرجع العبيد إلى مواليهم"[3].

شكّل الجراجمة ما سُمّي بالجدار أو "السور الفولاذي"، أو "السور النحاسي" للامبراطورية البيزنطية، بمعنى الخط الدفاعي القوي عنها، بحكم موقع منطقتهم على الحدود بينها وبين الدولة العربية، وبحكم استفادتها منهم لإثارة المتاعب لهذه الدولة. لكن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ – ٧١٥) هدم هذا السور، وسهّل له الامبراطور البيزنطي ذلك بالاتفاق الذي تم بينهما، إذ أخرج الأمبراطور الجراجمة من جبل اللكام. أما الوليد بن عبد الملك، فقد وجّه إليهم أخاه مسلمة بن عبد الملك في سنة ٧٠٨ "فاخرب

---

[1] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، المجلد الرابع، ص ٣٠٤.

[2] – المصدر نفسه، ص ٣٠٦. والطبري: تاريخ الأمم والملوك،الجزء الخامس، ص٢.

[3] –البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٤ – ١٦٥.

مدينتهم [الجرجومة] وأنزلهم فأسكنهم جبل الحوار وسنح اللولون وعمق تيزين، وصار بعضهم إلى حمص ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه انطاكية ثم هرب إلى بلاد الروم"[1]. وبهذا انتهى أمر الجراجمة كعنصر ضاغط على الدولة الأموية من خلال وجودهم على حدودها مع الدولة البيزنطية. وكان قد انتهى قبل ذلك دورهم في لبنان بعد عودة الاثني عشر الف مقاتل منهم ومن المردة إلى المناطق التي خرجوا منها على أثر الاتفاق بين عبد الملك وبين الامبراطور البيزنطي بوستنيانوس.

الموارنة: من المرجّح أن معظم الموارنة كانوا من ناحية العرق من نبط الشام، يعملون في الزراعة، "ومنهم بعض الرعاة من أبناء العشائر في الجبال، وربما كان هؤلاء من أقحاح العرب"[2].إنهم احدى الطوائف المسيحية، ويُنسبون إلى مار مارون الذي عاش في الجيل الرابع، وتوفي في سنة ٤١٠، ودفن في براد في جبل نبو سابقاً، الذي هو جبل سمعان اليوم.

يذكر المسعودي المتوفى في سنة ٩٥٧، في حديثه عن موريق وموريقان، من ملوك الروم وقادتهم، أنه ظهر في عهد موريق رجل من أهل مدينة حماه من أعمال حمص، يعرف بمارون، وإليه تُنسب المارونية من النصارى إلى هذا الوقت المؤرّخ به كتابنا، وامرهم مشهور بالشام وغيرها ، اكثرهم في لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماه وشيزر ومعرّة النعمان[3]. ويرى العديد من المؤرخين أن هجرتهم إلى لبنان كانت بسبب صراعم مع اليعاقبة[4]. ذلك ان المنتقلين من الوثنية إلى المسيحية، الذين جمعهم الإيمان بالدين الجديد، انقسموا حول طبيعة المسيح بين قائلين بطبيعة واحدة له، وقائلين بطبيعتين، وحول علاقة الأب (الله) بالابن (المسيح)، ونشأت بينهم صراعات فكرية تحولت إلى صراعات دموية. فيما أحد المؤرخين

---

[1]- المصدر نفسه، ص ١٦٥ – ١٦٦.

[2]- كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ٣٧.

[3]- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٣١ – ١٣٢.

[4]- ميخائيل غبرئيل الشبابي: موسوعة تاريخ الموارنة، ص ٥٢٦.

المعاصرين يقول : "من الراجح أن تكون هذه الهجرة قد تمت بصورة طبيعية في وقت قطعت الشام شوطاً بعيداً في الانصهار في النظام الجديد، بعد انخراط قبائلها العربية المتنصّرة في الإسلام[1].

قال اسقف الاسكندرية، آريوس، بعقيدة الطبيعة الواحدة، أي ان السيد المسيح ليس إلهاً كالأب، فطبيعته إذاً ليست إلهية، وإنما مشيئته هي إلهية. فدعا الامبراطور البيزنطي إلى اجتماع في نيقيا للنظر في الامر فوجد الأساقفة المجتمعون فيه، في سنة ٣٢٥، أن ما إبتدعه آريوس مخالف لأصل الدين المسيحي[2]. وكان مار مارون من أشد معارضي الأريوسية ومحاربيها. وبعد انعقاد المجمع الخلقيدوني في سنة ٤٥١، وإقراره بالطبيعيتين للمسيح، انقسم المسيحيون بين مؤيدين لها ومعارضين يقولون بالطبيعة الواحدة. ومن المؤيدين أتباع مارون (الموارنة) الذين عملوا على نشر مقررات المجمع الخلقيدوني ، فكان ذلك سبباً للنزاع بينهم وبين القائلين بالطبيعة الواحدة، الذين شتت الامبراطور البيزنطي شملهم بعد مجمع القسطنطينية سنة ٥٣٦.

أعاد القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح تنظيم أمورهم على يد الأسقف يعقوب البرادعي، فعرفوا باليعاقبة نسبةً إليه، وانتظموا بالكنيسة السريانية، وكان لهم مشاركوهم في عقيدتهم هم الأرمن والأقباط. فيما انتظم القائلون بالطبيعتين للمسيح من الروم وأتباعهم في بلاد الشام ومصر بكنيسة الروم الملكيين وعرفوا بـــ "الملكانيين". ووُضع حل وسط يقول إن للمسيح طبيعتين وإنما له مشيئة واحدة، لكن هذا الحل لم ينجح.

في سنة ٥١٧ قتل القائلون بالطبيعة الواحدة، والمقيمون في وادي العاصي، حوالى ٣٥٠ راهباً من دير مار مارون المقام بالقرب من أفاميا

---

[1] – ابراهيم بيضون: "لبنان في العهدين الأموي والعباسي" أنظر : لبنان في تاريخه وتراثه، الجزء الأول، ص ١٦٣.

[2] – غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٠.

التي تعرف الآن بقلعة المضيق. وبعد تجدّد النزاع العقائدي احتكم الفريقان إلى الخليفة الأموي معاوية في سنة ٦٥٩ فحكم لمصلحة الموارنة. غير أن النزاع لم ينتهِ، إذ وقعت حروب ثأرية بينهم كانت أشدها تلك التي جرت سنة ٦٦٩ "أسفرت عن هجرة أقوام من الموارنة إلى شمال لبنان"[١]. ثم تبع ذلك هجرة ثانية في سنة ٦٨٥ عندما خرّب عسكر الروم دير مار مارون، وقتل خمسمائة من رهبانه[٢].

إشكالية المردة والجراجمة والموارنة في التاريخ اللبناني

يمكن إيجاز ما ورد ذكره عن المردة والجراجمة والموارنة بما يلي: انهم مختلفون في العرق واللغة والمذهب، وفي أسباب القدوم إلى لبنان. فالمردة من العرق الفارسي الميدي، ولغتهم خليط من الفارسية والميدية والاغريقية. كانوا وثنيين وتنصّروا متّبعين المذاهب التي تدين بها الدولة الرومية البيزنطية أو تعترف بها وتفضلها على غيرها. جاؤوا إلى لبنان بأمر من الدولة الرومية وخرجوا منه بأمر منها أيضاً بعد تأدية مهمة، وإقامة قصيرة في الثلث الأخير من القرن السابع الميلادي. سخرهم الروم في هذه الفترة لاقلاق أمن الدولة العربية فكانوا رأس حربة لهم، يساعدهم الجراجمة أحياناً في ذلك. أما الموارنة فهم عرب أنباط لغتهم آرامية سريانية، ثم صارت عربية. ومذهبهم مختلف عن مذهب المردة وعن مذهب الدولة البيزنطية، إلا في مراحل معينة. جاؤوا إلى لبنان لتجنب اضطهاد اليعاقبة والدولة البيزنطية لمخالفتهم لهم بالمذهب، وظلوا فيه، واندمج عدد قليل جداً ممن تبقى من المردة بهم.

---

[١]- فيليب حتي: تاريخ لبنان ، ص ٣٠٣.

[٢]- اعتبر الدكتور ابراهيم بيضون غزوة الروم هذه "غزوة مزعومة على اعتبار أنها لا يمكن أن تحصل في عمق الأراضي السورية إبّان عهد خليفة قوي هو عبد الملك بن مروان، على اعتبار أن خبرها ورد عند الدويهي اعتماداً على أصول مفقودة". انظر بحث ابراهيم بيضون بعنوان " لبنان في العهدين الأموي والعباسي" في كتاب " لبنان في تاريخه وتراثه" الجزء الأول، ص ١٦٨.

إن تزامن قدوم المردة والجراجمة والموارنة إلى لبنان، إضافة إلى ما كتبه المؤرخون من الموارنة بناءً لاعتبارات ايديولوجية، اوجد أشكالية[1] في التاريخ اللبناني، إذ اعتبر البعض هذه الشعوب شعباً واحداً، واعتبرها البعض الآخر شعوباً كوّنت الشعب الماروني، ونظر إليها فريق ثالث، كما هي، شعوباً مختلفة. وقد ظل اسم "المردة" في ذاكرة الموارنة وأدبياتهم، وصار في حالات عديدة معبّراً عن الوجود الماروني، أو عن قوة هذا الوجود، وتمرّده. ومن وجوه ذلك إعطاء إسم "المردة" لأحد التنظيمات العسكرية، الذي نشأ في الأحداث اللبنانية بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩٠، ثم تحول إلى تنظيم سياسي اسمه "تيار المردة". وقد تغذى هذا التوجه من أقوال المؤرخين الموارنة التي تعتبر أن المردة والجراجمة والموارنة شعب واحد.

أول من رأى ان المردة والموارنة شعب واحد هو البطريرك اسطفان الدويهي الذي عاش في القرن السابع عشر، فقال إن الموارنة "لقبوا بالمردة لأنهم خرجوا عن طاعة يستتيان الملك"[2]. واخذ برأيه هذا العديد من المؤرخين، منهم المطران يوسف الدبس الذي قال: "إن ملوك الروم وسوسوا لسكان سورية ليلبكوا أمر المسلمين الذين احتلوها، وكانت الموارنة ، الذين وسوس لهم ملوك الروم، تمتد من جبال انطاكية إلى جبال الجليل فلبكوا حكومتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطروا بعض الخلفاء ان يعقدوا صلحاً مع ملوك الروم على شرائط، ومنها أن يبكتوا الموارنة الذين تلقبوا عندئذ مردة ويصدوهم عن غزواتهم"[3].

المردة، بحسب ما أوردناه من كلام المؤرخين المذكورين، هم موارنة تمرّدوا فلقبوا بالمردة. إلا أن الأب بطرس ضو يتوسع في الكلام عن أصل المردة والجراجمة والموارنة، وفي إعطاء التسميات لهم وتفسيراتها. فنجد عنده "المردة البيزنطيين" و "المردة الموارنة" و "المردة الجراجمة الموارنة

---

[1]-الإشكال أو الاشكالية، في اللغة، هو ما التبس وغمض.

[2]- الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية، ص ٧٠، ٧٣.

[3]- الدبس: الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص ٢١ – ٢٢.

السوريين واللبنانيين" و"الجراجمة الموارنة" و"المردة الجراجمة"، و"الجراجمة المردة الموارنة "[1]. إلا أن هؤلاء هم عنده شعب واحد. "فالمردة والجراجمة جانحان لشعب واحد ذي أصل أثني واحد... وكانوا موارنة ديناً وحضارة ولغة... والمردة والموارنة اندمجوا وكوّنوا أمة واحدة"[2]. وقد اتبع الأب ضو هذه التسميات بأحكام وآراء وتفسيرات ذات أبعاد سياسية إيديولوجية، بعيدة عن الموضوعية، منها ان المردة والجراجمة والموارنة انشأوا دولة مستقلة ممتدة من شمال سورية إلى لبنان الذي أصبح قلب هذه الدولة[3].

رأى المفكر ميشال شيحا أن المردة والموارنة شعبان اندمجا في لبنان، فقال: هاهم المردة في لبنان، عهد الأمويين، يؤمونه من تخوم طوروس، فما يطول أمرهم حتّى يندمجوا بالموارنة"[4]. كما رأى المطران بولس نجيم انه "لا يمكن أن يقال ان المردة والموارنة شعب واحد. فالرأي الأقرب إلى الصواب ان المردة ارسلوا من جبال أرمينيا إلى لبنان بمثابة جالية حربية... وغادر المردة لبنان وعادوا إلى أرمينيا وانضموا هناك إلى جيش الملك... أما الموارنة فظلوا مقيمين في لبنان"[5]. وأكد المطران يوسف دريان أن المردة والجراجمة والموارنة جماعات ثلاث مختلفة عن بعضها، فقال: إن المردة ليسوا الجراجمة كما زعم حضرة الابوين لامنس اليسوعي وانستاس الكرملي، والعلامة نلدكه المستشرق الألماني الشهير قبلهما، وليسوا الموارنة كما زعم بعض السلف من علماء طائفتنا"[6].. وقد توسّع المؤرخ عادل اسماعيل في نقض مقولات إن المردة والجراجمة شعب واحد وإنهم أنشأوا دولة مستقلة وقال إن لا علاقة بين المردائيين (المردة) والجراجمة

---

[1]- بطرس ضو: تاريخ الموارنة، الجزء الثالث، ص ٢٤٥، ٢٥٠.

[2]-المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ٣١٠ – ٣١٣.

[3]- المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ٢٩٥.

[4]- ميشال شيحا: لبنان في شخصيته وحضوره، ص ٢٦.

[5]- بولس نجيم (جوبلان) القضية اللبنانية، ص ٤٦ – ٤٧.

[6]- يوسف دريان: البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة ، ص ١٢.

والموارنة، واعتبر القول إن الموارنة هم المردة اسطورة، وخلص إلى أن هذه الشعوب "مختلفة لغة وعرقاً ومذهباً"[1].

بناءً على كل ما ورد نخلص إلى القول إن كل إدخال للفظة "المردة" في التاريخ اللبناني، في إحداث ما بعد القرن السابع للميلاد، يجب أن تدخل تحت عنوان الموارنة، الذين باتوا منذ تلك التاريخ أكثرية السكان في المناطق الواقعة بين زغرتا شمالاً و"الغرب" والمتن جنوباً. ومن الخطأ، في رأينا، ان يُنسب الموارنة إلى عنصر شكّل نسبة قليلة جداً منهم، وان ينسب إلى هذه القلة ما صنعوه. لذا سنضطر إلى إضافة كلمة "موارنة" إلى كلمة "المردة" في كل نص يتكلم عن موضوع يخص الموارنة، ويسمّون فيه بالمردة. فإذا كان هناك مبرر للدمج بين أسماء وتواريخ المردة والجراجمة والموارنة إبان وجود المردة والجراجمة في لبنان في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، فإن ذلك ليس مبرراً بعد نهاية هذا القرن. يضاف إلى ذلك أن تداول اسم "المردة" في التاريخ اللبناني لم يبدأ إلا مع البطريرك اسطفان الدويهي، وابتداءً من القرن السابع عشر.

الموارنة في جبل لبنان

لجأ الموارنة النازحون من وادي العاصي في سنة ٦٦٩، والنازحون في سنة ٦٨٥، إلى شمال لبنان. كما لجأ إليه البطريرك يوحنا مارون واتخذ كفرحي مركزاً له. وظل فريق منهم يسكنون في وادي العاصي حتى القرن الحادي عشر للميلاد عندما نزحوا منه بسبب هجمات الروم عليه. إلا أن بعض المؤرخين الموارنة يتكلمون عن قدوم رهبان موارنة إلى لبنان لنشر المسيحية، قبل نزوج الموارنة المشار إليه. وبهذا يصبح الموارنة ، بناءً لرأي هؤلاء، فئتين: فئة من السكان الأصليين اللبنانيين نصّرها ومورنها الرهبان قبل الفتح العربي، وفئة قدمت بعده إلى لبنان على دفعات.

---

[1] – عادل اسماعيل: انقلاب على الماضي، ص ٤٢ – ٤٥. أيضاً : Histoire du Liban, 169 – 189.

الوجود الماروني الغامض في الشوف: أول راهب، في رأي هؤلاء المؤرخين، قدم إلى لبنان، هو القدّيس ابراهيم القورشي المتوفى في سنة ٤٢٨، الذي أقام مدة في قرية في أعالي منطقة جبيل، فهدى أهلها إلى المسيحية، ثم أقام في الدير الذي أنشأه في تلك البقعة. وبفضله انتشرت المارونية في جبّة المنيطرة، وانتشرت بعد ذلك في جبّة بشري بفضل تلاميذ مارسمعان العمودي المتوفى في سنة ٤٥٩[١].

ويذكر المؤرّخون الموارنة أن الراهب رابولا السميساطي "اتى إلى بيروت ونصّر بعض أهلها، وبنى لهم كنيسة بمؤازرة الامبراطور البيزنطي زينون (٤٧٤ – ٤٩١). ومنها انتقل إلى دير القمر حيث يعثر بقايا الهيكل الروماني المهجور، وأنشأ مكانه ديراً بمساعدة من وافاه من الرهبان"[٢]. والإشارة إلى هيكل روماني مهجور تعني أن الرومان، أو سكان الشوف الأقدمين، وصلوا إلى دير القمر وابتنوا فيها هيكلاً وثنياً، كما تعني أن انتشار المسيحية فيها سبق مجيئ رابولا، لأن الهيكل الوثني كان مدمّراً عند وصوله.

جعل الأب بطرس ضو دير القمر ومحيطها قاعدة مارونية ثالثة بعد القاعدة الأولى (جبّة المنيطرة)، والقاعدة الثانية (جبّة بشري)،. [٣] ثم ذكر أن هذه القواعد "لم تكن جزراً متفرقة، ولكنها استقطبت تدريجاً كل سكان المناطق الواقعة بين هذه المراكز وحولها، مثل الشوف والغرب والمتن وأطراف كسروان والبترون وجبيل والهرمل ومنطقة بعلبك"، وهو لم يقدّم الأدلة على الوجود الماروني آنذاك في "الغرب" والمتن، وقال عن وجوده في منطقة دير القمر إنه حصل في النصف الأول من القرن السادس للميلاد، إما للتبشير، وإما هرباً من الاضطهاد الذي لحق بالموارنة من المونوفيزيين، أي القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح. وهو يورد فقط دليلين، هما وجود لفظة

١- بطرس ضو: تاريخ الموارنة، الجزء الأول ، ص ٢١٦، والجزء الثالث، ص ١٨٠.

٢- كميل افرام البستاني: دير القمر في ثنايا الزمن، ص ٢٣.

٣- بطرس ضو: تاريخ الموارنة، الجزء الثالث، ص ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥، ١٩١.

"دير" في اسماء بعض القرى، وهي دير القمر، دير دوريت ، ديركوشه، دير باباء دوير الرمّان، ووجود ١٨ قرية في منطقة دير القمر لها اسماء ١٨ قرية متقاربة في سورية، وعلى مسافة غير بعيدة عن دير مار مارون الرئيس[١].

وبهذا يكون الأب ضو قد مورن جبل لبنان، وجعل منطقة دير القمر القاعدة المارونية الثالثة، ووصلها مع القاعدتين الأخريين (جبّة المنيطرة وجبّة بشري) عبر مناطق الغرب والجرد والمتن وكسروان، وذلك تدعيماً لنظريته التي تقول بوجود "الكيان الماروني"، وبأن جبل لبنان "وطن قومي ماروني" وان تيار الموارنة "نضج واكتمل وتبلور في كنيسة وأمة وكيان مستقل بزعامة البطريرك مار يوحنا مارون في أواخر الجيل السابع"[٢].

قِدمُ الوجود المسيحي في جبل لبنان أكيد لا تعوزه البراهين. إلا اننا نشك أن يكون في جنوبه على المذهب الماروني. كما نشك أن تكون المسيحية اقتلعت الوثنية كلياً من شماله ومن جنوبه. إن وجود لفظة "دير " في أسماء بعض قرى منطقة دير القمر، والتشابه في الأسماء بين ١٨ قرية منها و١٨ قرية من سورية، لا يكفيان لاعتبار قرى منطقة دير القمر مارونية. إن لفظة "دير" تنبئ فقط عن الوجود المسيحي، لكنها لا تنبئ بالتأكيد عن الوجود الماروني. والتشابه في الأسماء السريانية للمدن والقرى موجودٌ بين أكثر من منطقتين: سورية ولبنانية، وموجود كذلك بين المناطق اللبنانية، وموجود ضمن المنطقة اللبنانية الواحدة.

إن قرية البيرة مثلاً في جبل صيدا، التي نسبها الأب ضو إلى البارا في جبل الزاوية، لها مثيلات في لبنان، هي البيرة في "ألغرب" في جبل بيروت، وهي اليوم قرية دارسة، والبيرة في البقاع. ولها مثيلات في دول بلاد الشام الأخرى، هي ثلاث باسم "البارا"، وما لا يقل عن عشر باسم

---

[١]- المرجع نفسه، ص ١٨٥ – ١٨٩.

[٢]- المرجع نفسه، الجزء الأول ، ص ١٣.

"البيرة"[1]، واحدة منها فقط في فلسطين، بين بيت المقدس ونابلس، رآها الجغرافي ياقوت الحموي، وخرّبها الملك الناصر حين استردها من الفرنجة[2]، إضافة إلى البيرة الشهيرة في الأندلس. وقريتا عين داره وديركوشه اللتان نسب الأب ضو بناءهما إلى الموارنة، نسب أحد المؤرخين بناءهما إلى القرامطة[3]، مع الإشارة إلى أن هناك قرية باسم عين داره في البحرين (الاحساء حالياً) على الخليج العربي. ونيحا التي نسبها إلى نيحا في الجبل الوسطاني هناك قرية أخرى باسمها في قضاء البترون، وقرية أخرى باسمها في قضاء زحلة.

تشابه أسماء القرى، في منطقة دير القمر من جبل صيدا مع أسماء قرى سورية بعيدة عنها في المواقع، ليس دليلاً على أنها من بناء الموارنة الذين جاؤوا من وادي العاصي. إنه وليد التشابه في جذور اللغات السامية: الكنعانية الفينيقية، والآرامية، والسريانية، والعبرية، وعلى الأخص وليد سيادة اللغة السريانية. يضاف إلى ذلك أن نزوح الموارنة الكبير إلى لبنان حصل بعد الفتح العربي، وبعد أن اكتسبت قرى جبل لبنان الجنوبي، ومنها قرى منطقة دير القمر، اسماءها السريانية في العهد الروماني. ومن المعلوم أن الموارنة تكلموا اللغة العربية ابتداءً من القرن الثامن.

لم تنتشر المارونية في لبنان إلا بعد الفتح العربي. "وهي لم تنتشر بشكل واسع، ولا سيما في القرن الثامن، الا بعد اشتداد النزاع بين الموارنة واليعاقبة بعد الفتح العربي"[4]. وفي أوائل النصف الثاني من هذا القرن جاء اللخميون إلى جبل لبنان، وسكنوا وحدهم مناطق الغرب والجرد والمتن والشوف، فيما كان سكن الموارنة إلى الشمال منهم في كسروان . وقد ذكر الدويهي، نقلاً عن ابن القلاعي، ما يلي: "كان الموارنة في دخول المسلمين

---

[1]- أنظر عن قرى البيرة والبارا. عبدالله الحلو: تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٩٧، ١٤٢.

[2]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٥٢٦.

[3]- سليم أبو اسماعيل: الدروز، ص ١٨١.

[4]- بطرس فهد: الكنائس الشرقية عبر التاريخ، ص ٧٩.

إلى بلاد الشام يسكنون جبل لبنان... وكانت بلادهم من حدود بلاد الشوف إلى بلاد الدريب [عكار]. ولخوفهم من الدروز القاطنين في الشوف ابتنوا الحصن المعروف بالقلعة الحجرية في انطلياس والحصن المشهور في درجة بحر صاف"[١]. وهذا دليل آخر على انه لم يكن للموارنة قاعدة في منطقة دير القمر من الشوف الذي يمتد حده الشمالي، بحسب ما يستشف من ابن القلاعي إلى نهر الجعماني.

كل ما ورد يثير الشكوك، لا حول كثافة الوجود الماروني في الشوف فقط، بل حول الوجود الماروني نفسه، ولكنه لا ينفي، على الإطلاق ، وجود سكان فيه يؤمنون بالمسيحية، ويتكلمون اللغة السريانية التي هي لغة الديانة المسيحية بعد تنصّر المنطقة. وفي الواقع إن الموارنة، الذين قدمت أكثريتهم بعد الفتح العربي، توطّنوا شمال جبل لبنان في جبة بشرى، وجبة المنيطرة، وكسروان، ولم يصلوا في تقدمهم نحو الجنوب أبعد من نهر الجعماني. وإن الموارنة المسميين عند البعض المردة، الذي شنّوا الغارات على البقاع في عهد الدولة العربية وفي أوائل عهد الدولة العباسية، انطلقوا من المناطق المذكورة فقط، ولم يذكر أي مصدر أو مرجع انطلاق اي هجوم ماروني على البقاع من جهات المتن والجرد والغرب والشوف.

إن أماكن نزول الموارنة في كسروان تقلّصت من نهر الجعماني إلى نهر انطلياس بسبب المعارك التي جرت بينهم وبين الارسلانيين اللخميين، ثم تقلّصت للسبب نفسه من نهر انطلياس إلى نهر الكلب. لكنهم ظلوا يقيمون في بعض هذه الأماكن حتى حصول الحملات المملوكية على كسروان في أواخر القرن الثالث عشر.

مقدّمية الموارنة: للموارنة رئاسة دينية، ورئاسة زمنية، بينهما ترابط وتماس في الصلاحيات والسلطة. تبعوا للكرسي الانطاكي لطائفة الملكية. إلا أن علاقتهم لم تكن دائماً حسنة معه لسبب عقائدي يعود إلى تقلّب آراء

---

[١]- الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية ، ص ٩٨.

البطريركية إزاء اتباع المذاهب المسيحية، ولسبب اجتماعي يعود إلى الفوارق بين أتباع مار مارون من الفلاّحين والرعاة من جهة، والقيّمين على الكرسي الأنطاكي من أعيان المدن وأثريائها من جهة أخرى[1].

ظهر انفصال الموارنة عن الكرسي الملكي بعد الفتح العربي، وانتقال الكرسي إلى القسطنطينية، إذ ضعفت سلطته على المسيحيين المقيمين في الشام، مما أدّى إلى عدم قبول رهبان دير مار مارون بالبطريرك تيوفانس المعيّن على الكنيسة الملكية في الشام من قبل المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠، فنصّبوا يوحنا مارون بطريركاً على كرسي "انطاكية وسائر المشرق". وقد اضطر هذا البطريرك إلى الانتقال من وادي العاصي إلى قرية كفرحي في شمال جبل لبنان. والروايات المارونية تذكر أنه انشأ علاقات مع البابا في روما، ولا تستبعد قيامه بزيارته. ولقد كان البطريرك المصدر الأول للسلطات الزمنية ، لأنه هو الذي يعيّن الرئيس السياسي المسمى "الأمير" أو "المقدّم" أو "الرقيب". وكان هذا يُسمى أيضاً شمّاساً أو شدياقاً لأنه هو أيضاً منخرط في سلك الاكليروس[2].

الروايات المارونية تميّز بين أمراء الموارنة في كسروان وأمرائهم في جبيل، فتذكر أن لكلٍّ منهما مقدَّماً، أو أميراً. فعلى كسروان المقدّم كسروان الذي سُميت كسروان، بحسب بعض الروايات، على اسمه، وهو الذي حارب العرب سنة ٦٧٥ وسنة ٦٧٦ ، وغزا البقاع والبلاد التابعة للخليفة الأموي معاوية، والمقدم الياس، والأمير سمعان الذي أقام في بكفيا.

هجمات الموارنة على البقاع: الروايات المارونية تذكر أن كل فريق، من فريقي الموارنة المقيمين في جبل لبنان، كان يهاجم منطقة من البقاع. "كان موارنة بسكنتا وبلاد كسروان يشنّون الهجوم تلو الهجوم على البقاع الجنوبي

---

[1]- كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ٣٩.

[2]- بطرس ضو: تاريخ الموارنة ، الجزء الثالث، ص ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٤.

فيقتل أميرهم الياس في إحدى تلك المعارك سنة ٧٥٢ في قب الياس . وكان موارنة المنيطرة وبلاد جبيل يهاجمون البقاع الشمالي ومنطقة بعلبك"[١].

ذكر البطريرك الدويهي رواية تستدعي المناقشة ، وهي أنه بعد عقد الصلح بين الخليفة عبد الملك والامبراطور البيزنطي، لم يمتثل له من سمّاه الدويهي" أمير جبل لبنان" الأمير يوحنا، فتغيّظ الملك ونسبه وجماعته "إلى العصيان والتمرّد"، وسيّر العساكر لقتاله". فلما ان وصلت عساكر الروم إلى البقاع انفرد عنهم القائد وتوجّه نحو قب الياس بنفر قليل وخلا بالأمير وأمّنه بالخلع والكتب السلطانية وجعل يخادعه بقوله إنه زاحف على العرب ويسأله النجدة عليهم ثم دعاه إلى مؤاكلته. وبينا هو كذلك استلّ علوج الروم سيوفهم ووثبوا على يوحنا فقتلوه. وعندها تضرّمت جيوش يوحنا غيظاً وأخذت تقاتل جيوش الروم فانجلت الواقعة عن انكسار المردة، لأنهم أخذوا بغتة، وإلى ذلك أشار ابن القلاعي في إزجاله عن كسروان"[٢].

موقعة قب الياس واردة أيضاً عند البعض أنها جرت مع مقدم الموارنة، الياس، في أوائل العهد العباسي. ففي سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢م هاجم مقدم كسروان، الياس، البقاع "فنهب تلك القرايا وقتل أهلها فأرسل والي الشام من قبل أبي العباس إليه رسلاً ليجعل معه صلحاً. ثم أرسل وهاجمه في قرية المروج وقتله. وبعد رجوع عسكر الشام رجع أصحابه ودفنوه بقرب الجامع الذي في القرية. ومنذ ذلك الحين سميت قبر الياس المعروفة بقب الياس، وكانت القرية تسمّى المروح. ثم أقيم مقدّماً على الجيش سمعان ابن أخت المقتول، فسارت إليه عساكر الشام، وكانت الحرب بينهم في قرية شرق قرية الشوير[٣] فانكسرت عساكر الشام، وارتدت راجعة ودام القتال بين عساكر الإسلام ونصارى تلك البلاد مدة طويلة"[٤].

---

[١]- المرجع نفسه، ص ٢٧٩.

[٢]- الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية، ص ٧٢ -٧٣.

[٣]-ربما المقصود بذلك قرية المروج.

[٤]- تاريخ حيدر الشهابي، ص ١٠٠.

السؤال الذي يُطرح، هو هل هناك موقعتان جرتا في نفس المكان، أي قب الياس: موقعة قُتل فيها المقدّم يوحنا، وموقعة قُتل فيها المقدم الياس. أم ان هناك موقعة واحدة جرى فيها الخلط بين الأسماء والتواريخ، كما جرى في بعض الروايات عن تاريخ الموارنة القديم. من المستبعد حصول المعركتين، لأنه من المستبعد توغل القائد البيزنطي في بلاد الشام حتى البقاع القريب من العاصمة الأموية دمشق، وهو ما كان بحاجة إلى ذلك، لأن القوة المحاربة المتوغلة في جبال لبنان هي المردة، وهؤلاء طوع أمر الامبراطور، وقد امتثلوا له بتوجههم نحو جبل لبنان، ثم امتثلوا له حين استدعاهم للعودة إلى آسيا الصغرى.

ومما يرجّح القول إن معركة قب الياس جرت في سنة ٧٥٢ هو حصول الاضطرابات في بلاد الشام بتشجيع من البيزنطيين إبان انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، وهو أيضاً زجليات ابن القلاعي التي استشهد بها الدويهي، والتي تفيد ان المقصود بكلمة "سلطان" هو سلطان العرب، و"بالملك" الذي سكن في بسكنتا هو المقدم الياس:

"سكن الملك في بسكنتا | وارسل عساكر في بغتة
نهب البقاع بفرد نكتة | وقتل رجاله مع النسوان

وطلع سكن في قب الياس | وأرسل عساكر مع حراس
والبقاع تحت حوافر خيله انداس | وطلعت أخباره للسلطان

بعث له خلعه مع قصّاد | واطمّن وأكل معهم زاد
عساكر وراهم تتجرّد | كبسوه في ساعة اطمئنان

قتلوه وانقتل معه العسكر | وانقتل كثير من الآخر
واعطون في قب الياس نار | وملكون البقاع من تلك الآن"[1]

[1] – زجليات ابن القلاعي: مديحة في جبل لبنان، ص ٩١.

لم تقتصر أعمال الروم على ارسال المردة لإشغال المسلمين في بلاد الشام، بل إنهم كانوا يقومون بالغارات على الساحل، ومنها غارة على طرابلس في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ أو ٧٠٨م، صمد في وجهها والي طرابلس سحيم بن المهاجر حتى أنجده أمير الساحل عبد الرحمن بن سليم الكلبي بحملة من بيروت انقذت طرابلس. وفي سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م حصلت ثورة المنيطرة فيما كان اسطول بيزنطي يهاجم مدينة طرابلس.

أسباب هذه الثورة تعود إلى تذمر أهالي المنيطرة من الضرائب التي فرضها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور. لقد قام بأول محاولة في بلاد الشام من أجل ضبط الأملاك لفرض الضرائب عليها. فتقدّم أهل المنيطرة بشكوى ضد عامل بعلبك احتجاجاً على هذه الضرائب، ثم استغلوا نزول جيش الروم في طرابلس، فقاموا بتشجيع منهم بالعصيان بقيادة شاب اسمه بندار لبس التاج ورفع الصليب، وأخذوا بالغارة على أراضي البقاع. فأقام لهم عامل بعلبك، من قبل والي الشام صالح بن علي، كميناً وأوقع بهم ثم لاحقهم في جرود المنيطرة، وشكا بعض من لم يعودوا أمرهم إلى الامام الأوزاعي فكتب إلى صالح بن علي محتجاً[1]. أما بندار ، فقد فرَّ من المنطقة، والتجأ إلى الروم في طرابلس.

النزوح من معرّة النعمان إلى جبل لبنان

مصدران رئيسان تحدثا عن النزوح من معرّة النعمان وجهاتها إلى جبل لبنان، أولهما السجل الأرسلاني[2] الذي تحدث عن نزوح المناذرة

---

[1] – أنظر عن ثورة أهالي المنيطرة واحتجاج الامام الأوزاعي: البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٦ – ١٦٧.

[2] – ظل السجل الأرسلاني مخطوطاً إلى ان نشر الأمير شكيب أرسلان معظم نصوصه في سنة ١٩٣٥، في تعليقه على ديوان أخيه الأمير نسيب "الروض الشقيق في الجزل الرقيق". ثم جرى تحقيقه من قبل الدكتورين محمد الباشا ورياض غنام في سنة ١٩٩٩، ونشر كاملاً، وفيه واحد وعشرون اثباتاً لصحة النسب الأرسلاني، أولها في ٢ شعبان ١٤١هـ/ ٨ كانون الأول ٧٥٨م، وآخرها في ١٥ شعبان ١٤١٩هـ/ ٤ كانون الأول ١٩٩٨م.

اللخميين في سنة ٧٥٩، وسمّي على اسم فرع منهم هو الفرع الأرسلاني، وهم يعودون في نسبهم إلى ملوك الحيرة المناذرة اللخميين الذين انتقلت قبيلتهم لخم من جنوب الجزيرة العربية إلى البحرين (الاحساء حالياً)، ومنها إلى الحيرة في العراق. وثانيهما كتاب "قواعد الآداب حفظ الأنساب"[١] الذي تكلم عن نزوح اثنتي عشرة عشيرة في سنة ٨٢٠. ولو لم يكن هناك اختلاف في تاريخي النزوحين وسببيهما، لكان يصح أن يقال إن هناك نزوحاً واحداً لا اثنين، نظراً لأوجه التشابه بين المصدرين المهمين اللذين اعتمد عليهما المؤرخون سابقاً، ولا بد لأي مؤرخ ان يعتمد عليهما في الكتابة عن تاريخ لبنان في العصور الوسطى. وإذا كان هناك شك في بعض موادهما، وأخطاء، فإن البعض الآخر مفيد، وان بعض ما جاء في السجل الأرسلاني منسّق مع سياق التاريخ العام، وصحيح.

يذكر السجل الأرسلاني أن فريقاً من اللخميين سار مع القائد خالد بن الوليد من الحيرة إلى الشام، وانه ساهم في فتوح الشام ومصر، وان القسم الأكبر منه نزل في معرّة النعمان بناءً لإقرار القائد العام للجيوش العربية، أبي عبيدة بن الجرّاح، بأمر من الخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب[٢]. وفي سنة ٧٥٨ طلب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور من الأمير المنذر وأخيه رسلان، ابني الأمير مالك بن بركات بن المنذر بن مسعود بن عون ابن الملك المنذر (المغرور) ابن الملك النعمان أبو قابوس، أن ينتقلا إلى جبال بيروت للمرابطة فيها من أجل حماية بيروت من اعتداءات الروم البيزنطيين، وحماية طرقها من اعتداءات حلفائهم المحليين. فانتقل الاميران من معرّة النعمان برفقة أبناء أخوتهما وسائر أفراد العشيرة، ونزلوا بحصن وادي التيم بن ثعلبة ثم بالمغيثة[٣]، ثم اعتزلوا المضارب وتفرّقوا بالبلاد[٤]. ومن

١- حقق الدكتور الياس القطّار مخطوط "قواعد الآداب حفظ الأنساب" ونشر في سنة ١٩٨٦.

٢- السجل الأرسلاني: الإثبات الأول، ص١٧، ٢٨-٣٣. والأشرفاني: عمدة العارفين، ص٦٨٦.

٣- المغيثة: الأرض الواقعة بين ممر ضهر البيدر والمديرج.

٤- السجل الأرسلاني: الإثبات الأول، ص ١٣ – ١٤. والاثبات الثاني، ص ٤٤ – ٤٥.

الانتقادات الموجّهة إلى السجل الارسلاني إيراده اسم "ارسلان" بدلاً من "رسلان" الذي هو الاسم الحقيقي، المأخوذ عن السلاجقة.

استقدام العباسيين للمناذرة اللخميين من أجل الإقامة في جبل بيروت، هو من جملة إجراءات اتخذوها لبسط سيادتهم في جميع أراضي الدولة، وصد غارات الروم، وقمع الاضطرابات، إذ تجدّدت غارات الروم على الثغور الشامية، مستغلين ضعف المسلمين إبّان الصراع بين الأمويين والعباسيين، وإبّان انشغال العباسيين بتثبيت دعائم خلافتهم، وترافق ذلك مع قيام البدو بالاعتداءات على القرى وغزوهم الأراضي وتحويلها إلى مراعي، ومع انطلاق من سمّوا "المردة"، وهم الموارنة، من الجبال اللبنانية والإغارة على البقاع والاعتداء على الطرق بينه وبين الساحل. ومما زاد في ضعف إشراف العباسيين على بلاد الشام بعدهم عنها. كل هذا حمل الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور على استقدام المناذرة إلى جبال بيروت لوقف اعتداءات الموارنة، والدفاع عن السواحل ضد هجمات الروم.

من قبل كان الأسلوب المتبّع للدفاع عن الثغور هو قدوم جماعات من الداخل (دمشق أو بعلبك) عند حصول الغارات، أو توقع حصولها، فتقيم في الثغور مدة ثم ترحل. إلا أن الخليفة العباسي شاء، باستقدامه المناذرة إلى جبال بيروت، إنزال جماعات ثابتة فيها تشكل قوة ذاتية تدافع عنها، تدعمها عند الحاجة قوة من الداخل. وبما أن أبناء الأمير ارسلان سيترأسون إمارة المناذرة في جبل لبنان ستُعرف إمارة هؤلاء بالإمارة الإرسلانية.

يتحدّث كتاب "قواعد الآداب حفظ الانساب" عن نزوح سنة ٨٢٠ ، فيقول إن اثنتي عشرة" طائفة" أي عشيرة استقرت في معرّة النعمان، بعد نزوحها إليها من الحيرة. وإن مشدّ المغل فيها، من قبل والي حلب، اعتدى على فتاة منهم مما دفع بأحد أقاربها (نبا) إلى قتله والرحيل إلى لبنان. وحين طلبه والي حلب من عشيرته ساءت الأوضاع بينهم وبينه، وتركوا معرّة النعمان وجاؤوا إلى جبل لبنان . وهذا السبب يكفي وحده أن يكون وراء نزوح جماعة حسب ونسب، لا يتحملون التعرض للشرف، ويأبون الظلم، الا

أنه قد يكون متضافراً مع أسباب اقتصادية وسياسية ناجمة من سياسة القمع والتشدّد التي اتبعها الخليفة العباسي المأمون، وأدت إلى انتفاضات في حاضر قنّسرين وحاضر حلب سنة ٨١٤.

ان الاثنتي عشرة عشيرة بلغت في لبنان مع فروعها مائة وإحدى عشرة عشيرة، هي جذور الكثير من الأسر الموجودة حالياً في جبل لبنان الجنوبي بأسماء مختلفة، لأن أجداد الأسر الحالية عرفوا في الماضي بأسمائهم وأسماء آبائهم، وبصفاتهم، في التخاطب والتوقيع والاحصاءات الرسمية، فأصبحت هذه الأسماء أسماء الأسر الحالية، مع الإشارة إلى أن أسماء بعض العشائر القديمة لا تزال متداولة إلى اليوم، مثل بني ارسلان وبني أبي اللمع وآل عبدالله وبني هلال وبني معن وبني حرب وبني هاشم وبني حصن وبني محرس وبني حاتم وبني فايد.

أماكن نزول النازحين من معرّة النعمان

تذكر رواية متأخرة أن اللخميين الذين قدموا إلى لبنان سنة ٧٥٩ "عمروا جبال بيروت الخالية وتحضّروا " وأن الذين قدموا في سنة ٨٢٠، "وجهّهم نبا إلى الديار الخالية من السكان"[١]. ولم تكن جبال بيروت وحدها خالية، بحسب هذه الرواية، بل إن الشوف أيضاً، أي جبل صيدا " كان قفراً خالياً من السكان" وان الأمير معن، القادم إليه في سنة ١١٢٠ ، اعتزل المضارب، لأنه رأى المنازل الحجرية، التي بناها له بناؤون أرسلهم الامير بحتر التنوخي من "الغرب" أفضل من المضارب[٢].

في هذه الرواية عدة مغالطات، هي ان اللخميين كانوا بدواً رحّلاً عند قدومهم إلى لبنان ثم تحضّروا. وفي الحقيقة إنهم كانوا حضراً في معرّة النعمان قبل انتقالهم منها إلى جبل لبنان. ومن المغالطات القول إن جبال بيروت وصيدا كانت خالية من السكان عند قدوم النازحين إليها في القرن

١- الشدياق: أخبار الأعيان، الجزء الأول، ص ٢١٧، والجزء الثاني، ص ٤٩٥.

٢- تاريخ حيدر الشهابي، ص ٣٢٤.

الثامن وفي القرن التاسع للميلاد، لأنها كانت آنذاك آهلة باناس يتكلّمون السريانية، نزل النازحون بينهم وبجوارهم، وتعايشوا وإياهم، وأخذوا منهم الأسماء السريانية للقرى. ومن المغالطات أيضاً القول إن الشوف ظل حتى سنة ١١٢٠ قفراً خالياً من السكان، إذ كان مسكوناً قبل سنة ٧٥٩، وازداد السكن فيه بعد هذه السنة التي قدم فيها اللخميون. ولو كانت جبال بيروت وصيدا خالية من السكان لما انتقلت أسماء المكان القديمة فيها إلى الوافدين الجدد، كما أن هؤلاء الوافدين كانوا أطلقوا على الأماكن اسماء عربية.

هناك دليل آخر على أن جبال بيروت وصيدا كانت مأهولة بالسكان، هو أن الخلفاء الأمويين والعباسيين أعادوا تعمير مدن الساحل وتعمير بعلبك والبقاع، ولا يعقل في هذه الحال أن تبقى الجبال اللبنانية الواقعة بين الساحل والبقاع مقفرة من السكان، وهي التي توصل بينهما، في حال كونها خالية من السكان سابقاً.

المصدر الذي يؤرّخ للنزوح الأول من معرّة النعمان إلى جبل لبنان، ويذكر سببه الرئيس، هو السجل الارسلاني. ومنه ومن سبب النزوح تعرف الأماكن الأولى التي نزل فيها النازحون. هذا السبب هو الدفاع عن ثغر بيروت ضد هجمات الروم البيزنطيين، وحماية الطريق الساحلية، والطريق التي تصل بين بيروت والبقاع، من هجمات الموارنة. لذا من الطبيعي ان ينزل النازحون إلى جبل لبنان في الأماكن القريبة من بيروت وتلك المطلة عليها، وحول الطريقين المذكورتين. والامراء الذين انيطت بهم هذه المهمة هم الاميران المنذر وأخوه ارسلان وأبناء اخوتهما.

بالعودة إلى السجل الأرسلاني نجد أن الأماكن، التي نزلها الأرسلانيون، هي خلدة، وسن الفيل، وسرحمور، والشويفات، وطردلا[١] وعرمون، والعمروسية[٢]، والفيجانية[٣] ومرتغون[٤]، إضافة إلى أماكن

[١]– طردلا: قرية دارسة إلى الشمال الغربي من بلدة عبيه.
[٢]– العمروسية: من احياء الشويفات حالياً.
[٣]– الفيجانية: قرية دارسة بين الشويفات وكفرشيما.
[٤]– مرتغون: جرى التعريف بها.

أخرى قد تكون بينها وبجوارها ولم يذكرها السجل. وبالاعتماد على ذلك يمكن القول إن المنطقة الاولى لتوطن الأرسلانيين المناذرة تمتد على الساحل من سن الفيل شمالاً إلى خلدة جنوباً، وتمتد شرقاً إلى جهات عرمون وطردلا وما يوازي ارتفاعهما من الاماكن المشرفة على الساحل. وهذه المنطقة هي التي عُرفت بـــ "الغرب"، لأنها واقعة في جهة الغرب وإلى الغرب من المناطق الشرقية التي سكنها النازحون الآخرون من معرّة النعمان، وهي التي عرفت بإمارة الغرب وشكلت نواة الإمارة الإرسلانية ثم الإمارة التنوخية. وكان مع الامراء الارسلانيين أبناء عمومتهم: آل فوارس، وآل عبدالله، والتنوخيون، وقد نزل بعض هؤلاء بينهم، فيما نزل أكثرهم إلى الشرق منهم، في هضاب "الغرب" العليا، وانتشروا من هناك ومن الجرد إلى المتن وكسروان.

وبالعودة إلى كتاب "قواعد الآداب حفظ الأنساب" نرى أنه يذكر ١٤٠ قرية من جبل لبنان الجنوبي، والعشيرة أو العشائر التي نزلت في كل منها، بينها ١٩ قرية هي دارسة اليوم[1]، إلا أن الفائدة الجزيلة من ذلك لم تكتمل بذكر تاريخ توطن العشائر للقرى عند نزولها فيها لأول مرة، وعند انتقالها من قرية إلى أخرى. وقرى توطن العشائر، بحسب "قواعد الآداب.." هي في جميع مناطق جبل لبنان الجنوبي، وأكثرها في منطقة "الغرب" ثم في منطقة "الجرد". وهذا عائد إلى أن "الجرد"، كان مركز انطلاق العشائر إلى سائر المناطق، فيما كان "الغرب" المنطقة المنشودة من أجل حماية ثغر بيروت وثغر صيدا. ويأتي الشوف الشويزاني، بحدوده الموسّعة قديماً، بعد منطقتي "الجرد" و"الغرب"، ويليه المتن. وإذا أخذنا الأقضية الحالية اليوم، فإن قضاء عاليه كان فيه أكثر القرى المسكونة آنذاك، يليه الشوف فالمتن فجزّين، وأخيراً كسروان.

تحقيق مخطوط "قواعد الآداب..." اصطدم، كالعديد من المخطوطات، بصعوبة عدم وضوح بعض الكلمات وأسماء القرى. ومن وجوه ذلك أن

---

[1]- قواعد الآداب حفظ الانساب، ص ٣٣ – ٤٩.

اللفظتين التاليتين: "كفرمحلوبيه"[1] وردتا في التحقيق قرية واحدة. وفي الحقيقة هما قريتا كفرا وكحلونية الواقعتان في قضاء الشوف حالياً، كما ان في الكتاب قرى عديدة هي اليوم دارسة أو مزارع صغيرة. وما يلفت منها هما قريتا بقعاتا والمزرعة نظراً لوجود أكثر من بقعاتا واكثر من مزرعة. فهل المقصود ببقعاتا بقعاتا كنعان أم بقعاتا الشوف. وأية مزرعة يُقصد من المزارع التي بلغ عددها في لبنان بالمئات، وبلغ عددها في شوف ابن معن (الشوف الحيطي والشوف السويجاني) ٤٢ مزرعة، في دفاتر التحرير (الاحصاء) العثمانية في القرن السادس عشر .

جاء في تحقيق نسبةٍ من "قواعد الآداب..." أن المقصود ببقعاتا بقعاتا كنعان، لأنه ليس ما يشير إلى توطن بقعاتا الشوف قبل النصف الثاني من القرن العشرين، والمقصود بالمزرعة مزرعة محمود الدارسة الواقعة قرب رمحالا[2]. وفي الحقيقة المقصود ببقعاتا بقعاتا الشوف لورود إسمها بعد اسمي بلدتي دير القمر والسمقانية القريبتين منها، ولأنها من الاماكن المسكونة منذ أيام الرومان، إذ فيها نواويس رومانية ومغارة مدفنية وردت الإشارة إليها. وإلى الجنوب الشرقي من سهلها آثار أبنية تُعرف باسم "الخرايب الجواونة" أي الجوّانية، بمعنى الداخلية. وإلى الشمال الشرقي منه آثار أبنية تُعرف باسم "الخرايب البرارنة" أي البرّانية، بمعنى الخارجية. وقد تكون هذه الخرايب مساكن العشائر العربية التي نزلت في بقعاتا.

والمقصود بالمزرعة مزرعة الشوف لورود اسمها في "قواعد الآداب"، بعد اسم جارتها الكحلونية، وذلك في كل مرة جرى الحديث عنهما، ولأنها هي الوحيدة التي ذكرت في وثائق الفرنج في أواسط القرن الثالث عشر، ثم ذُكرت في دفاتر التحرير العثمانية من بين الاثنتين والأربعين

---

[1]- المصدر نفسه، ص ٤٧.

[2]- اسم النسبة "كتاب العجائب والغرائب في ذكر الحوادث والنوائب" وقد حققها الأستاذان سليمان تقي الدين ونائل أبو شقرا، بعنوان "الأسر في جبل الشوف من خلال مخطوط قديم" ص ٦٤، ٨٩.

مزرعة في شوف ابن معن، في حين أنه لم يرد اسم مزرعة محمود، لا في وثائق الفرنج، ولا في دفاتر التحرير العثمانية. وقد ورد اسمها بعد ذلك في جدول قرى متصرفية جبل لبنان، مما يعني نشوءها مؤخراً.

الفصل الخامس

في العصرين: العباسي والفاطمي

كثر عدد المسيحيين في لبنان بنزوح الموارنة إليه في أواخر القرن السابع، وزادت مكوّناته السكانية، في القرن الثامن والقرن التاسع ، بنزوح اللخميين وغيرهم إليه، وزادت مكوناته الدينية والمذهبية بانتشار الإسلام فيه، وظهور المذاهب الإسلامية التالية: الاسماعيلية، والشيعة الإمامية، والنصيرية، والموحّدين الدروز، فغدا بتعدديّه دينية مذهبية، هي من مميزاته. وفي ما يلي سيجري الحديث عن المذاهب الإسلامية، وعن أوضاع جبل لبنان الجنوبي وبيروت وصيدا إبان ضعف الدولة العباسية، ونشوء الدويلات والدول في قلبها وأطرافها، وحروبها مع بعضها البعض.

كانت مدينتا بيروت وصيدا في هذه الحقبة التاريخية عرضةً للتجاذب بين القوى المتصارعة في بلاد الشام، وعرضة لتأثير صراع الدول الإسلامية مع الإمبراطورية البيزنطية. وكان وضع جبل لبنان الجنوبي آنذاك، مشابهاً لوضعه في السابق، أي أنه ليس في عين عواصف الأحداث المتلاحقة، وفي قلب الصراعات الدائرة، وإنما لم يكن بمنجى من تأثيراتها، وحركات الجيوش التي تجتاز ممراته الجبلية وساحله. كما ان أمراءه كانوا مضطرين، على الغالب، إلى اتخاذ موقف مؤيد او معارض لما يجري، وللقوة الحاكمة او للقوة المهاجمة، بغية الحفاظ على الإمارة، أو البقاء على رأسها، فأدّى تجاذب القوى، وطموحهم إلى السلطة، للصراع فيما بينهم، ولعدم استقرار أوضاع الإمارة، خاصة عند اشتداد هبوب العواصف الخارجية.

الإمارة الأرسلانية

بعد زوال مملكة لخم في الحيرة لم ينتهِ شأن اللخميين، بل استمر من خلال ثلاثة أمور، أولها الاشتراك في الفتح العربي لبلاد الشام مما اكسبهم شرف الجهاد من أجل الإسلام، وهو جهاد سيستمر في عهود ومحطات تاريخية لاحقة. وثانيها تأسيس إمارتين في جبل لبنان، هما الإمارة الأرسلانية ، والإمارة التنوخية. وثالثها وصول بعضهم إلى منصب الوزارة وتسلم ملك الأندلس.

وللتعريف بالإمارة الأرسلانية بإيجاز لا بد من العودة إلى قدوم المناذرة اللخميين إلى جبل لبنان في سنة ٧٥٩. آنذاك كان على رأسهم الأمير المنذر، وكان برفقته أخوه أرسلان، وابن أخيه عبد الملك (فوارس)، وابن أخيه النعمان (عبدالله) ، وابن أخيه حسان (خالد). وقد توفي الأمير المنذر بدون عقب. وتوفي حفيد الامير خالد (عوف)، بدون عقب أيضاً. فيما كان لأرسلان وفوارس وعبد الله أبناء وأحفاد تسلسلوا من بعدهم، سيعرفون بآل ارسلان، وآل فوارس، وآل عبدالله. وكان إلى جانبهم أمراء من أبناء عمهم، الذين يعودون في النسب مثلهم إلى الملك النعمان (أبو قابوس)، والذين سيُعرفون بالأمراء التنوخيين، وسيؤسسون إمارة تلي الإمارة الأرسلانية في حكم جبل لبنان الجنوبي، وبيروت وصيدا.

كانت الإمارة لأمير من نسل الأمير أرسلان لذا دعيت بالإمارة الأرسلانية. إلا أنه كان مقدّماً بين متساوين من أبناء الفرع الأرسلاني، وأبناء فرع فوارس، وأبناء فرع عبدالله، وأبناء الفرع التنوخي. وسمي الامراء الأرسلانيون ابتداءً من سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٠م بعدة تسميات، هي أمير الجبل، أمير الغرب، أمير جبل الغرب وبيروت، أمير صيدا وبيروت والغرب، أمير بيروت وجبل لبنان[1]. وقد أقرَّ الخليفة العباسي، المهدي، للأميرين المنذر

---

[1]- السجل الارسلاني: الإثبات الثاني، ص ٤٧. والإثبات الثالث ص٥١. والإثبات الخامس، ص ٦٧. والإثبات السادس، ص ٧١. والإثبات السابع، ص ٨٠ – ٨٣.

وأرسلان "بالتواقيع في تقريرهما على ولايتهما"[١]. وأقر الخليفة العباسي، المعتمد على الله، الامير النعمان بن عامر بن هاني بن مسعود بن رسلان، "على إمارته هو وذريته"[٢].

في ما ورد اعتماداً على السجل الأرسلاني دلالات على نشوء إمارة لخمية أرسلانية، يشمل نفوذها بيروت وصيدا وجبل لبنان، دون تعيين لحدودها في جبل لبنان. وقد وُليّ الأمير النعمان بن عامر على صفد، والأمير رشد الدولة زنكي على اللجون وبعلبك وصفد وغيرها[٣]، وكان الأمراء الارسلانيون يتفقون وحدهم، او يتفقون مع الأهالي، على تولية أحدهم. كما كانوا يتنافسون، احياناً، ويحتكمون إلى السلاح، او يلجأون إلى حاكم دمشق لحسم الخلاف وإقرارهم على الإمارة. أما مقر الإمارة ، فهو ليس ثابتاً، بل هو المكان الذي يقيم فيه الأمير: سن الفيل – بيروت – سرحمور – الشويفات – عرمون.

استمر الأمراء الارسلانيون بالحكم حتى سنة ١١١٠. ففي هذه السنة نُكبوا باحتلال الفرنجة لبيروت، وبهجومهم على "الغرب"، فلم ينجُ منهم سوى بحتر، الابن الرضيع لعضد الدولة علي أمير "الغرب" وبيروت وصيدا، الذي أخفته أمه في عرمون. فتسلم الإمارة مجد الدولة محمد، وهو من آل عبدالله. وبعد مقتله في سنة ١١٣٧ تنافس على إمارة الغرب الأمير بحتر الارسلاني ولقبه ناهض الدين، والأمير بحتر التنوخي ولقبه ناهض الدولة، فنشأت بذلك إمارة تنوخية منافسة للإمارة الارسلانية، ثم إمارة متفرّدة بالحكم.

الارسلانيون والموارنة

بحسب السجل الأرسلاني قدم المناذرة إلى جبل لبنان للقيام بمهمة واضحة محددة، هي حماية ثغر بيروت، والمحافظة على أبناء السبيل، ومنع

---

[١]– الشدياق : أخبار الأعيان، الجزء الثاني ، ص ٤٩٥.

[٢]– السجل الأرسلاني: الإثبات الرابع، ص ٦٤.

[٣]– السجل الإرسلاني: الإثبات السادس، ص ٧٣. والاثبات الثامن ، ص٩٦.

اعتداءات من سموّا في بعض المصادر "المردة" والمقصود بهم الموارنة. ولإتمام هذه المهمة أقام الامير أرسلان في سن الفيل. وأقام الامير المنذر في سرحمور. وحين انتقل أبناء الامير أرسلان من سن الفيل عمّر مسعود الشويفات وسكنها، وأقام أخواه مالك وعون بجواره، واخوه محمود في خلدة، وأخواه همّام واسحق في الفيجانية. وجميع الاماكن المذكورة تتحكم بطريق الساحل، وطرق بيروت – البقاع.

نزول الأرسلانيين المناذرة في خط متقدّم إلى الشمال الشرقي من بيروت، عند سن الفيل، جعلهم على احتكاك مباشر مع الموارنة. وأولى المواقع بين الأميرين، المنذر وأخيه ارسلان، وبينهم جرت عند نهر صغير واقع إلى الشمال من بيروت، اسمه "نهر الموت" "لأنه يشكل مستنقعاً آسناً يجعل البقعة ضارة بالصحة"[1].بينما الرواية التي تتحدث عن هذه الموقعة تذكر انه سمي بهذا الإسم "لكثرة القتلى فيه". والموقعة الثانية هي موقعة انطلياس التي قُتل فيها من الفريقين أكثر من ثلاثمائة رجل، وكانت النصرة فيها للأميرين المذكورين، ومن نتائجها انكفاء المردة (الموارنة) "عن ساحل بيروت، وتأمين أبناء السبيل"[2].

مكان موقعة نهر الموت قريب من سن الفيل حيث نزل الأمير أرسلان. ومنه لا يُعرف البادئ بالهجوم، هل هم الموارنة أم هو الأمير ارسلان. إلا ان مكان موقعة انطلياس بعيد عن سن الفيل، وإلى الشمال منها. ومنه يستفاد أن الأمير أرسلان وأخاه المنذر هما مع رجالهما البادئون بالهجوم، وانهما باشرا عملية تقليص نفوذ الموارنة نحو الشمال، ونجحا في ابعاد خطرهم عن طريق بيروت –بيت مرى– البقاع. إلا أن الموارنة ظلوا قادرين على شنّ الغارات على الأرسلانيين. ففي سنة ٧٩١ دهموا الأمير مسعود ابن الأمير ارسلان في سن الفيل، فالتقاهم إلى خارج القرية وهزمهم،

---

[1]– إدوار روبنصون: يوميات .. ، الجزء الأول ، ص ٩٣.

[2]– الشدياق : اخبار الاعيان، الجزء الثاني ، ص٤٩٦.

"وقتل منهم مقتلة كبيرة، وأحرق بعضاً من قراهم السفلى"[1]. ومن هذا النص يستفاد أن الامير مسعود تعقّبهم إلى قراهم.

في سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م انتقل الأمير هاني، ابن الأمير مسعود، من سن الفيل إلى محلة كانت تابعة لقرية برج البراجنة الواقعة إلى الشمال من بيروت، حيث بنى قرية سُمّيت "الشويفات" لوقوعها على عدة ربوات مشرفة. ولم يكن السبب في انتقاله ضغط الموارنة، لأن هؤلاء تراجعوا قليلاً نحو الشمال، وانما كان لانتفاء الحاجة إلى وجود الأرسلانيين في موقع متقدّم لدرء، خطر الموارنة، بدليل أن الحوادث لم تتجدّد بينهم إلا بعد ٤٦ سنة. ففي سنة ٢٣١ هـ/٨٤٥م. وقعت بين الأمير هاني وبين "المردة" الموارنة مواقع، لم يحدّد السجّل الأرسلاني أماكنها، إنما ذكر ان الأمير هاني كاد أن يدمّرهم فلقّب بالغضنفر أبي الأهوال"، وأنه بلغ خبرها إلى الأمير خاقان التركي فكتب به إلى "الحضرة"[2] أي إلى الخليفة العباسي.

وفي سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م جرت بين الأمير النعمان، حفيد الأمير هاني، وبين "المردة" (الموارنة) موقعة على نهر بيروت، دامت أياماً، انتصر فيها الأمير النعمان، وأرسل الأسرى ورؤوس القتلى إلى بغداد ، فكتب الخليفة العباسي، المعتمد على الله، إليه يقرّه على إمارته هو وذريته، ويمتدح شجاعته ، ويحرّضه على القتال ، كما أرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود، فتقلّد الأمير السيف وشدّ المنطقة، ولف الشاش . وزُينت البلاد والمدن وهادته الشعراء بالتهاني فاشتد أمره وعظم شأنه[3]. وممن كتب إليه أيضاً الموفق أخو المعتمد على الله. "الذي كانت له السلطة الفعلية فيما لم يكن للمعتمد من الخلافة غير اسمها"[4].

---

[1]- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[2]- السجل الإرسلاني: الاثبات الثالث، ص ٥٥ – ٥٦.

[3]- المصدر نفسه: الاثبات الرابع، ص ٦٢-٦٤ والشدياق: أخبار الأعيان، الجزء الثاني ص٤٩٩.

[4]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السابع ، ص ٣٩٤.

حصول هذه الموقعة على نهر بيروت دليل على أن شوكة المردة (الموارنة) لم تتكسر، وأنهم هم المبادرون إلى الهجوم ، إذ زحفوا من قراهم في شمال كسروان نحو بيروت . وأهميتها لا تكمن فقط في تصدي الأمير الأرسلاني لهم والتغلب عليهم، بل تكمن أيضاً في الصدى الذي أحدثته في بغداد وغيرها، وعند الخليفة العباسي وأخيه، وفي إقرار الأمير على "الغرب" وجعل إمارته فيها وراثية.

وفي سنة ١٠٨١ كتب تاج الدين تتش السلجوقي إلى الأمير شجاع الدولة يستدعيه "ويحثه على غزو المردة [الموارنة] والمحافظة من الأفرنج"[١]. ومن هذا يستفاد استمرار دور الارسلانيين في المحافظة على ثغر بيروت، واستمرار الموارنة في التعاون مع "الافرنج"، والمقصود بهم البيزنطيون، لأن غزوات الصليبيين المعروفين عند المسلمين بـــ "الافرنج" لم تكن قد بدأت بعد. وهذان الدوران سيستمران عند بدء حملات الفرنج ووصولهم إلى الشرق في سنة ١٠٩٨، إذ سيقف أمراء "الغرب" ضدهم وسيقف الموارنة معهم، وسيساعدونهم في الهجوم على منطقة "الغرب" في سنة ١١١٠ كما سيأتي ذكره.

بين العباسيين والطولونيين

أكثر الخلفاء العباسيون من الاعتماد على العنصر التركي في جيشهم، فغدا لهؤلاء نفوذ في بغداد منذ عهد الخليفة المعتصم الذي تولّى الخلافة سنة ٨٣٣، وفي بلاد الشام منذ عهد الخليفة المتوكل الذي تولى الخلافة سنة ٨٤٧. فقد عصى متولي دمشق، عيسى ابن الشيخ، على الخليفة المعتمد في سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م، فولّى الخليفة القائد أماجور التركي بدلاً عنه، فسار هذا بألف رجل لقتال عيسى، فيما وجّه عيسى ابنه منصور بعشرين ألف

١- الشدياق : أخبار الأعيان ، الجزء الثاني، ص ٥٨.

رجل لمواجهة أماجور. لكن منصور هُزم وقُتل في المعركة "فوهن عيسى وسار إلى أرمينيا على طريق الساحل، ووّلي أماجور دمشق"[1].

وقف الأمير ابراهيم ارسلان في هذا الصراع مع عيسى ابن الشيخ، ووافاه إلى أذرعات، وحضر المعركة الخاسرة مع ابنه منصور، فيما جاء الأمير النعمان الأرسلاني، الذي كان يحصّل العلم في بغداد ، مع اماجور، وبعد انتصار الأخير ولى النعمان على بيروت وصيدا وجبالهما[2].

توفي أماجور بعد بضع سنوات من تسلّمه دمشق. وقامت في مصر الدولة الطولونية (٨٧٨ – ٩٠٥)، ذلك أن أحد قادة الأتراك عند العباسيين، أحمد بن طولون، استطاع السيطرة على مصر، ثم زحف على بلاد الشام في سنة ٨٧٩ بعد وفاة واليها أماجور، وضمّها إلى سلطته، واستقل عن بغداد "واقر قوّاد أماجور على اقطاعهم"[3]. وكان من بين هؤلاء القادة الأمير النعمان الذي ابتنى داراً في مدينة بيروت أقام فيها، وحصّن سور المدينة، وظل أميراً من سنة ٨٧٠ حتى سنة ٩٣٦، متجاوزاً كل الصعوبات الناجمة عن تقلّب الدول في بلاد الشام، متغلباً على الأمير ابراهيم أرسلان أولاً، ثم على ولديه محبوب وهلال، إذ إنه قضى عليهما في كمين في وادي الحرير وهما ذاهبان إلى الشام ليشكواه ، ثم قضى على أبنائهما الصغار[4].

ظل الامير النعمان موالياً للطولونيين بعد وفاة مؤسس دولتهم، أحمد بن طولون. وفي حين انتفض والي الشام من قبل أحمد بن طولون، على ابنه وخليفته خمارويه، وانتفض معه بعض الأمراء الشاميين معلنين ولاءهم للعباسيين، لم يماشهم الأمير النعمان في حركتهم. وعادت بلاد الشام مجدداً إلى الحكم الطولوني بعد تغلّب خمارويه على المتمرّدين في معركة الطواحين

---

[1] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السابع، ص ٢٣٨.

[2] – الشدياق: أخبار الأعيان: الجزء الثاني، ص ٤٩٨ – ٤٩٩.

[3] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السابع، ص ٣١٦.

[4] – السجل الأرسلاني: الاثبات الخامس، ص ٦٧ – ٦٨.

في الرملة. وموقف النعمان هذا كان أهم عوامل بقائه في إمارته وحفظها من التدخل الخارجي الخطير.

بعد نهاية الدولة الطولونية في سنة ٩٠٥، عادت بلاد الشام ومصر مجدّداً إلى السيطرة العباسية بفضل محمد بن طغج الملقب بـــ "الإخشيد"، وهو لقب فارسي يعني أمير الأمراء. ثم استقل الإخشيد بمصر والشام، واستقل بهما خلفاؤه، ومنهم كافور ممدوح الشاعر أبي الطيب المتنبي. إلا أن فترة حكم الإخشيديين (٩٣٥ – ٩٦٩) لم تكن ذات تأثير يذكر على بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي.

في ظل الحكم الفاطمي

قيام الدولة الفاطمية واحتلالها بلاد الشام: سمي الفاطميون بهذا الإسم نسبةً إلى مؤسس دولتهم عبيدالله المهدي، المنتسب إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص)، وهو ابن محمد بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. مذهبهم أحد مذاهب الاسماعيلية. ودولتهم إحدى الدول الشيعية. أنشأوا خلافة اسلامية إلى جانب الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الأموية في الأندلس. وبلغوا في توسعهم شرقاً الحجاز وشمال سورية وتخوم العراق، لكنهم واجهوا صعوبات وأخطاراً عدة من ثلاث جهات، هي من الشمال تجدد غارات الروم البيزنطيين، ومن الشرق محاولات العباسيين استعادة بلاد الشام، ومن الجنوب استمرار غارات القرامطة، إضافة إلى خطر المرداسيين والحمدانيين وبعض العرب والسلاجقة الأتراك والفرنجة.

أقام الفاطميون دولتهم بتونس في شمال أفريقيا، وعاصمتها المهدّية، في سنة ٢٩٦هـــ/٩٠٨م. ثم أرسل الخليفة المعز لدين الله القائد جوهر الصقلي إلى مصر، فوصل إليها في شعبان ٣٥٨هـــ/ تموز ٩٦٩م، واحتلها بسهولة بسبب ما كانت تعاني من الاضطرابات والأوضاع الاقتصادية السيئة بعد وفاة كافور الاخشيدي. وخطب جوهر للمعز في مصر، وباشر ببناء مدينة جديدة، سُميت على اسم المعز "القاهرة المعزّية"، واتخذت عاصمة

جديدة للفاطميين. وسيّر جوهر في السنة نفسها القائد جعفر بن فلاح الكتامي لاحتلال الشام، فاحتل الرملة بعد تغلّبه على محمد الحسن بن عبدالله بن طغج، ثم دخل طبريا، وكانت سبقته إليها دعوة صاحبها للخليفة الفاطمي المعز، وتابع زحفه إلى دمشق، ودخلها بعد قتال شديد مع أهلها الذين كانوا بقيادة الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي[1]، وعيّن عليها ظالم بن موهوب[2]، فاعلنت طرابلس وصيدا وبعلبك الولاء للفاطميين، الذين عيّنوا على طرابلس ريّان الخادم، وعلى صيدا رئيس المغاربة، ابو الفتّح ابن الشيخ.

تجدّد غارات الروم: عاد الروم البيزنطيون إلى غزو بلاد الشام، فهاجم ملكهم نقفور حلب، واحتلها سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، واحتل المصيصة وانطرسوس (طرطوس أو طرسوس) سنة ٩٦٥، وتيزين سنة ٩٦٦. وفي سنة ٩٦٨ فتح معرّة النعمان وحماه وحمص، وسار إلى طرابلس وأحرق ربضها، وحاصر مدينة عرقة تسعة أيام وفتحها بالسيف وسبى أهلها، ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها. وحصل في يده من السبي ما لا يُحصى عدده. وفتح حصن طرسوس ومرقية وحصن جبلة. وصالح أصحاب اللاذقية عليها. وخرّب الكثير من القرى. ثم احتل مدينة انطاكية في أواخر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م[3] وظلت بأيدي الروم حتى سنة ١٠٨٥. وكان يغزو القرى ويحرقها ويسبي أهلها ويأخذ مواشيها، ويخرج وقت حصاد الزرع ويحرق الغلال، ويترك الأهالي يموتون جوعاً ليضطروا إلى تسليم المدن إليه، فملك بذلك الثغور الشامية بأسرها، وصارت غزواته كالنزهة له ولأصحابه لأنه ما كان يلقى أية مقاومة من المسلمين[4].

---

[1]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد الثامن، ص ٥٩١ – ٥٩٢، وابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٩.

[2]- يرد الاسم في بعض المصادر (مرهوب).

[3]- أنظر عن غزوات الملك نقفور: تاريخ الأنطاكي، ص ٩٩، ١٠٧، ١١٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٤.

[4]-المصدر نفسه، ص ١٣٧.

وفي بداية العهد الفاطمي عاود الروم الهجوم على بلاد الشام في عهد ملكهم يانيس شموشكين، المعروف بيوحنا ابن الشمشقيق. فبعد أن عاد ابن الشمشقيق من حروبه مع ملك الروس في بلغاريا، زحف على بلاد الشام سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، واحتل أجزاء واسعة من شمالها. ثم زحف عليها في سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م فصالحه أهل طرسوس وساروا مع الثغور وعدة من بطون العرب في خدمته. وافتتح حمص، وسار إلى بعلبك وأخذ جماعة من اهلها وأسر متوليها ابن الصمصام. وبعد ذلك سار إلى دمشق، لكنه لم يدخلها، لأن صاحبها الفتكين (هفتكين) وأعيانها وعدوه بدفع ستين ألف دينار، فكتب بذلك كتاباً عليه تواقيعهم، وأخذ جماعة منهم رهينة[1]. وغادر دمشق معجباً بجمالها وبأعمال الفروسية التي قام بها هفتكين أمامه[2].

كانت دمشق آخر مدينة في الداخل الشامي وصل إليها ابن الشمشقيق في زحفه جنوباً، وصيدا آخر مدينة ساحلية. وتذكر المصادر أنه انتقل من الأولى إلى الثانية دون تحديد الطريق التي سلكها من طرق جبال صيدا، إلا انها، على الأرجح، طريق: مشغره – جزّين. وعند وصوله إلى صيدا خرج إليه أبو الفتح ابن الشيخ، وكان رجلاً جليل القدر، ومعه شيوخ البلد، وصالحوه على مال وهدية حملوها إليه "فانصرف عنهم على سلم وموادعة". وانتقل إلى بيروت فامتنع أهلها عليه فقاتلهم واحتلها عنوة ونهبها، وسبى الكثير من أهلها. واجرى مثل ذلك مع مدينة جبيل. ثم حاصر مدينة طرابلس أربعين يوماً، وتركها قبل أن يحتلها، لأن خال باسيل وقسطنطين دسّا له سماً اعتل منه ورحل إلى انطاكية[3].

وفي سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م زحف ملك الروم باسيل الثاني نحو حلب ملبياً طلب أبي الفضائل سعد الدولة الحمداني، لرفع حصار بنجوتكين عنه، فانسحب بنجوتكين، وظلت مدينة حلب لأبي الفضائل. وتابع باسيل زحفه إلى

---

[1]- المصدر نفسه: ص ١٦١ – ١٦٢.

[2]- ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٤ – ٢٦.

[3]- المصدر نفسه، ص ٢٦-٢٧، وأبو الفرج جمال الدين ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٦٨.

رفنية وحمص حيث سبى وأحرق وغنم، وحاصر طرابلس دون ان يتمكن من احتلالها[1]. ثم عاد مجدّداً إلى غزو بلاد الشام، ووصل في زحفه إلى مشارف طرابلس ردّاً على وصول الجيش الفاطمي في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله إلى مشارف أنطاكية بقصد احتلالها، لكن الصلح عقد بينهما لمدة عشر سنوات.

بالإضافة إلى غزوات الروم الكبيرة، كان هناك اعتداءات تقوم بها سفنهم على مدن الساحل، منها قدوم عدة منها سنة ٩١٥ إلى رأس بيروت، ونزول ملاّحيها إلى البر. فسار إليهم النعمان بن عامر الأرسلاني مع جماعة من رجاله وأسر منهم ثمانية، وقتل ستة. ثم قدمت سفن أخرى إلى ميناء بيروت "ففاداهم الأمير النعمان على من أسروه من المسلمين"[2].

من تأثيرات غزو الروم لبلاد الشام، واتصالهم بأهلها، ثورة مدينة صور في سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، بقيادة بحّار اسمه علاّقة، سكّ النقود باسمه وكتب عليها "عزٌّ بعد فاقة للأمير علاّقة". واستنجد بملك الروم باسيل، وضمن له تسليم البلد إليه، فسيّر إليه الملك نجدة بحرية. لكن الفاطميين حاصروا صور برّاً وبحراً، وتغلّب اسطولهم على أسطول الروم، ومنع وصول المساعدات إلى الصوريين، فاستسلموا مع أميرهم علاّقة في سنة ٩٩٨، واخذ الفاطميون الأسرى إلى القاهرة حيث سلخوا علاّقة حياً، وعلّقوا جلده المحشو بالقطن خارج أسوارها[3].

بين العباسيين والفاطميين: لم يتقبّل أهالي دمشق الحكم الفاطمي، وعانت مدينتهم شهوراً من الفوضى، إذ كان الاحداث[4] غالبين فيها، لا يتقيدون بأوامر السلطة الفاطمية الممثلة آنذاك بريّان الخادم، ولا يصغون لأعيان المدينة. وكان القائد العباسي هفتكين قد ترك بغداد في أوائل سنة ٣٦٤هـ/

---

[1]- تاريخ الأنطاكي، ص ٢٢٨ – ٢٢٩.

[2]- الشدياق: أخبار الأعيان، الجزء الثاني، ص ٥٠٠.

[3]- تاريخ الأنطاكي ، ص ٢٤٠ – ٢٤١.

[4]-الأحداث هم بمثابة الميليشيات المسلحة.

٩٧٤م مع أكثر من ثلاثمائة فارس، إثر سيطرة البويهيين الشيعة عليها بقيادة عضد الدولة، فتوجّه اولاً إلى حمص، ومنها انتقل إلى دمشق، فطلب أشرافها وشيوخها منه كف شر الاحداث وتخليصهم من الفاطميين الشيعة المخالفين لهم في الاعتقاد[١].

سيطر هفتكين على دمشق، وجنّبها احتلال ملك الروم، ابن الشمشقيق، بارضائه بالمال، وكفّ شرّ الأحداث عنها، وأخرج منها ريّان الخادم، وقطع خطبة الخليفة الفاطمي المعز، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله. فجمع المعز العساكر بقصد الزحف لقتاله واستعادة دمشق منه، لكنه مرض ومات قبل أن يسير من مصر.

كان على إمارة "الغرب" آنذاك الامير المنذر الأرسلاني الملقب بسيف الدولة، الذي تولى الإمارة في سنة ٩٣٦، بعد موت والده النعمان، فاضطر أن يأخذ موقفاً من المستجدات. فلقد كتب إليه جعفر بن فلاح بعد وصوله إلى الرملة وطبريا، وطلب منه ان يبايع الخليفة الفاطمي المعز، فاستشار عشيرته، وأجابه جواباً لطيفاً ليرى ما سيكون منه، ثم سار إليه بعد احتلاله دمشق فخلع عليه واقرّه على أعماله[٢]، وفي هذا إظهار تبعية وولاء للحكم الفاطمي.

إلا أن هفتكين، بعد استقلاله بدمشق في سنة ٩٧٤، وتأمينه جانب الفاطميين، ولو مؤقتاً، قصد الساحل عبر إحدى طرق جبال صيدا، وحاصر صيدا التي كانت تحت السيطرة الفاطمية، وفيها ابن الشيخ، ورؤوس المغاربة، ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي" والي الشام أكثر من مرة من قبل الفاطميين. ومن قبل الحسن القرمطي"[٣]. فقاتلهم هفتكين. وحين رأى كثرتهم تظاهر بالهزيمة، وانسحب إلى نهر بالقرب من صيدا كما تقول المصادر، هو

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد الثامن، ص ٦٥٦، وابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢٢.

٢- السجل الأرسلاني، الاثبات السادس، ص ٧٥ – ٧٦.

٣- الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ص ٣٠٤.

إما نهر الأولي الواقع إلى الشمال منها، واما نهر سينيق الواقع إلى الجنوب منها "ونجح في استدراجهم، وعاد إليهم بعد أن بعدوا عن صيدا، فقتل نحو أربعة آلاف منهم"[1]. ثم توجه إلى عكا ومنها توجه إلى طبريا واحتلها وعاد إلى دمشق.

انقسم الأمراء الأرسلانيون، إبّان الصراع بين هفتكين وأخصامه، إلى فريقين. أيد الأمير درويش بن عمرو هفتكين، وأيّد الاميرُ المنذر أبنَ الشيخ وابن موهوب، ولجأ بعد انهزامهما أمام هفتكين إلى قلعة شقيف تيرون. فعيّن هفتكين حليفه الأمير درويش، على بيروت وجبل الغرب، وأخذ هذا الأمير لقب "فخر الدولة".

تسلّم العزيز بالله الخلافة الفاطمية، بعد موت والده المعز، ووجّه القائد جوهر الصقلي لاستعادة ما اخذه هفتكين من الفاطميين في بلاد الشام. فوصل جوهر إلى دمشق في سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، وحاصرها لمدة شهرين دون ان يتمكن من احتلالها. ثم ارتد عنها حين علم بقدوم الحسن بن أحمد القرمطي لمساعدة هفتكين بناء لطلبه، فتبعه القرمطي وهفتكين إلى الرملة ثم إلى عسقلان[2]، واضطراه للعودة إلى مصر، وكان معه الأمير تميم الأرسلاني وابن الشيخ وابن موهوب. لكن الخليفة العزيز قاد بنفسه الجيش الفاطمي لقتال هفتكين والقرمطي، فهزمهما ومن معهما من العرب في معركة "الرملة" سنة ٩٧٦، واستعاد المناطق التي خسرها الفاطميون في بلاد الشام، واعاد الأمير تميم، الذي كان برفقة جيشه، إلى الإمارة.

مما سبق يتبيّن تلاحق الأحداث في بلاد الشام، وتنازع القوى عليها، بشكل لم يسبق له مثيل، وتأثر بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي بذلك، إذ ما إن تخضع لسلطة حتى سرعان ما تخضع لسلطة أخرى. وفيما كان فريق من الأمراء الأرسلانيين يناصر إحداها كان فريق آخر منهم يناصر عدوتها،

١- ابن الأثير، المجلد الثامن، ص ٦٥٧.

٢- الصفدي: تحفة ذوي الألباب ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩.

مما أدى إلى صراع داخلي على الإمارة بين الأمراء الأرسلانيين، وأفضى في النهاية إلى اتفاقهم على اقتسام المقاطعات.

بين الفاطميين وأعدائهم الحمدانيين والمرداسيين والسلاجقة: ظهر اعداء جدد للفاطميين هم الحمدانيون الشيعة مثلهم، لكن على المذهب الإمامي، والمرداسيون حكام حلب، كما قامت الدولة السلجوقية السنية تنازعهم السيادة على دمشق. في سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م عصا أبو نصر، المعروف بـ "الفتح"، مولاه مرتضى الدولة، ونادى بشعار الحاكم، وتملّك حلب. فهرب مرتضى الدولة منها إلى بلاد الروم ليستنجد بهم. وقد حكم في حلب، بعد الفتح، سديد الدولة أبو الحسن علي بن أحمد ، المعروف بـ "الضيف"، لست سنين، وعوّض الحاكم للمرتضى عن حلب ببيروت وصيدا وصور. وكان استيلاء الفاطميين على حلب من سنة ١٠١٥ إلى سنة ١٠٢٤ انتقل في خلالها إليها مختار الدولة بن نزال الكتامي، ووالي صيدا مرهف الدولة[١].

حين دار الصراع بين آل مرداس والفاطميين، كانت بيروت وصيدا طريق عساكر الفريقين. ففي سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م حاصر سنان بن عليان دمشق وأخرب داريا. وملك صالح بن مرداس حمص وبعلبك وصيدا وحماه ورفنية، وبقي مسيطراً على هذه المدن إلى أن قُتل في معركة الأقحوانة في ربيع الآخر ٤٢٠ هـ / أيار ١٠٢٩م، التي هزم فيها مع حليفه حسّان بن مفرّج أمام القائد الفاطمي، أنوشتكين الدزبري، وحليفه أمير كلب، رافع بن أبي الليل[٢]. وصارت صيدا إلى المتولّي على دمشق من قبل الفاطميين.

آنذاك آلت السيطرة على بغداد للسلاجقة الأتراك السنّة، وهم قبائل من الغز، ينتسبون إلى مؤسس دولتهم، سلجوق. انطلقوا من اواسط آسيا، ووصلوا في زحفهم وتوسعهم إلى بغداد. ففي محرّم ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م،

---

[١]- محمد بن علي العظيمي الحلبي: تاريخ حلب، ص ٣٢٣. وأبن شدّاد : الأعلاق الخطيرة، الجزء الثاني، ص ١٠١ – ١٠٢.

[٢]- أنظر عن معركة الأقحوانة: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١١٩ – ١٢٠.

استقبل الخليفة العباسي، القائم بأمر الله، السلطان السلجوقي طغرلبك، حفيد سلجوق، وكان بينهما مترجم يُفهم كلاً منهما ما يقوله الآخر، ففوّض الخليفة السلطان معوّلاً على نصرته ضد آل بويه الشيعة، الذين استبدوا بالسلطة في بغداد، "وشرّفه بعمامة مسكية مذهبّة ، وخاطبه بملك الشرق والغرب، ولقّب بالمتوّج المعمّم"[1]. أي انه لبس التاج على طريقة الفرس، ولبس العمامة المميزة على طريقة العرب في تسويد الرجال.

إلا ان القائد البساسيري أعاد النفوذ الشيعي إلى بغداد بشخص الملك الرحيم البويهي، وطرد الخليفة العباسي، وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر، وذلك إبّان وجود طغرلبك خارج بغداد لتنظيم أمور دولته، وللقضاء على ثورة أخيه من امه، ابراهيم[2]. وبعد فراغ طغرلبك من ذلك، عاد إلى بغداد مع الخليفة العباسي، وقضى على البساسيري والملك الرحيم "وتوعّد بقصد الشام وبان يفعل في حق صاحب مصر [الخليفة الفاطمي المستنصر] ما فعله هذا في بغداد بواسطة البساسيري"[3]. وبالمقابل كان الفاطميون يرغبون بالتوسّع شرقاً نحو العراق، إذ إن خليفتهم ، الآمر، اعدّ العدّة للغارة على بلاد بغداد[4].

كل هذا جعل السلاجقة على تماس مباشر مع الفاطميين، وجعل بلاد الشام مسرحاً للنزاع بينهم. فعندما نشب النزاع بين أطسز، صاحب دمشق، والفاطميين، سيّر أمير الجيوش الفاطمية، بدر المستنصري، عسكراً كبيراً إلى اطسز في سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، وحاصر دمشق، فاستنجد اطسز بتاج الدولة تتش ابن السلطان ألب أرسلان الذي ورث الملك عن عمه طغرلبك "فسار تتش إلى دمشق وامتلكها، ودبّر حيلة قتل بها اطسز، وجهز عسكراً في

[1] -الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٦-١٧.

[2] -المصدر نفسه، ص ١٨.

[3] - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد التاسع، ص ٦٤٧.

[4] - ابن الطوير: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ص ١٩.

أثر العسكر المصري فلم يدركه"[1]. لكن امير الجيوش الفاطمية خرج من مصر في السنة التالية، وحاصر صيدا وأخذها بالامان، وظلت مع بيروت في أيدي الفاطميين إلى ان احتلهما الإفرنج، فيما نشات في سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩م امارتان مستقلتان عن الفاطميين، هما إمارة بني عقيل في صور، التي استمرت حتى سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م، والتي استعصت على أمير الجيوش الفاطمية بدر المستنصري حين حاصرها في البر والبحر ولم يستطع احتلالها[2]، وإمارة بني عمّار في طرابلس.

استمر انسحاب صراع القوى في بلاد الشام على الإمارة الأرسلانية، فكان تقاعس الأمير تميم في سنة ٩٩٣، عن نصرة والي الشام بنجوتكين التركي، المعيّن من الخليفة الفاطمي العزيز بالله، سبب عزله من الإمارة، وتولية الامير منصور بن درويش على جبل "الغرب" وبيروت، وأخيه مذحج على صيدا، وابن عمه هارون على صور، لأن هؤلاء ساروا إلى والي الشام. وقد عهد الأمير منصور بولاية جبل بيروت إلى الأمير مذحج ، أثناء غيابه لقتال بني حمدان في سنة ٩٩٥، لكن مذحج لم يستطع دخول الجبل لقوة الأمير تميم مما اضطر بنجوتكين إلى إمداد الأمير منصور بجيش ليتمكن من دخول جبل بيروت عند عودته إليه.

حين قلّد الحاكم بأمر الله سليمان الكتامي ولاية الشام بدلاً من بنجوتكين، سنة٩٩٦، هزم الكتامي بنجوتكين، ودخل الشام، فقدم إليه الأمير تميم، فولاّه طرابلس، وولّى ولده مطوع "الغرب" وبيروت، وولّى الأمير غالب بن مسعود صيدا، وولى الأمير هارون صور. وعندما انهزم أمير دمشق، ناصر الدولة بن حمدان، مع الأمير عمرو الأرسلاني في حربهما ضد ابن مرداس سنة ١٠٤٨، قلّد المستنصر بالله مظفراً الصقلي إمارة دمشق

---

[1]- المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، الجزء الثاني، ص ١٤١.

[2]- ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٦٥.

فقبض هذا على ابن حمدان وحليفه الأمير عمرو الارسلاني، وولى الأمير شرف الدولة أبا سعيد قابوس بن فاتك بن منصور إمارة بيروت والغرب[1].

قدوم بني نكد إلى الشوف: استقدم الفاطميون معهم عند مجيئهم من تونس إلى مصر الكثيرين من المغاربة الذين خدموا في جيشهم. واستصحبوا قسماً منهم مع جيوشهم عند قدومهم إلى بلاد الشام وإبّان حكمهم لها. وكان تذمّر أهل الشام من ممارسة هؤلاء أحد أسباب استدعاء القائد العباسي هفتكين التركي لتسلم الشام، وهو الذي قاتل المغاربة في صيدا وانتصر عليهم.

من بين المغاربة المستقدمين مع الفاطميين إلى لبنان بنو نكد الذين ينتسبون إلى مرّة بن تميم أحد بطون بني تغلب بن وائل. إنهم من القبائل العدنانية المستعربة، التي كانت تنزل في بلاد الحجاز لعهد الجاهلية. ولما جاء الإسلام أقبل أسلاف هذه الأسرة على اعتناقه، وجاهدوا في سبيله[2].

شارك النكديون في فتح مصر والمغرب، وغلب عليهم لقب "الأنكاد"، ولا يزال هذا اللقب اسماً للقبيلة الباقية منهم حتى الآن في المغرب الأقصى. اعتنقوا الدعوة الشيعية الفاطمية. وجاؤوا مع جوهر الصقلي إلى مصر حين سار لفتحها، ونزلوا في منطقة البحيرة حيث لا يزال قسم منهم فيها يحمل اسم أولاد علي، ويتزيا بالزي المغربي. ثم جاؤوا من مصر إلى بلاد الشام مع القائد جعفر بن فلاح الكتامي في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م فنزلوا في منطقة حلب، ومنها جاؤوا إلى البقاع في أوائل القرن الحادي عشر، واستوطنوا غزة فيما نزلت باقي قبائل تغلب في مشغرة. بعد هذا انتقل النكديون إلى الثغور

---

[1]- الشدياق: أخبار الأعيان ، الجزء الثاني، ص ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٥. وابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٣٦، وقد ورد عنده طارق الصقلبي بدلاً من مظفر الصقلي.

[2]- أنظر عن نسب الأسرة النكدية: نسيب سعيد نكد: سيرة الأسرة النكدية، تحقيق نائلة تقي الدين قائدبيه، بعنوان "الإمارة الشهابية والاقطاعيون الدروز"، ص ٧٠، ٧١، وعاطف بو عماد: الأسرة النكدية، ص ١٩.

الساحلية للمشاركة في حمايتها من الفرنج، وكان كبيرهم "الشيخ محمد أحمد الخالدي الانكادي متولي شؤون صيدا فنقلوا إليها"[1].

انتقل النكديون من صيدا إلى القرى المجاورة لها في إقليم الخروب، واتخذوا من برجا منطلقاً لتوسّعهم حتى شمل نفوذهم القسم الشمالي الغربي من إقليم الخرّوب"[2]. وبعد ذلك انتقلوا إلى بعقلين وآزروا المعنيين في غاراتهم ضد الفرنجة. ثم انتقلوا إلى دير القمر لاتخاذ المعنيين منها مركزاً لإمارتهم. وغدا لهم منطقة "المناصف" والشحار الغربي. وكانوا من الأسر المقاطعجية في العهد الشهابي، ومن بين الأسر الدرزية الخمس الكبرى، وبيضة القبّان بينها، يرجّحون كفة الفريق الذي يميلون إليه من الفريقين المتنافسين: الفريق اليزبكي، والفريق الجنبلاطي.

القرامطة

القرامطة فئة من المسلمين يلحقها البعض بالإسماعيلية، ويذكر انهم سمّوا باسمهم هذا في عهد الإمام عبدالله بن محمد بن اسماعيل، ويرى أن القصد منه خفض قدرهم وذلك بشرح لفظة قرمط أنها تعني المدلس أو الخبيث أو المكار أو المحتال"[3]. إلا أن آراء الأكثرية تتفق انهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى حمدان بن الأشعث الملقّب بـــ "قرمط" "لأنه كان قصيراً ورجلاه قصيرتين وخطوه متقارباً، فسمي لذلك قرمطاً"[4]. تميزوا بالإيمان الصلب والقتال المستميت والقسوة في حروبهم. ونشروا الرعب والخراب في المناطق التي دخلوها ولم تذعن لهم. إلا انهم تمشوا فيما بينهم على نظام الألفة والأخاء والاشتراكية[5].

---

[1] – عيسى اسكندر المعلوف: دواني القطوف، الجزء الأول، ص ٢٤٤.

[2] – عاطف بو عماد: الأسرة النكدية، ص ٢٠.

[3] – أنظر عارف تامر: القرامطة، ص ٧٦.

[4] – المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، الجزء الأول، ص ٢١٦.

[5] – للمزيد من المعلومات عن مبادئ القرمطية، أنظر مصطفى غالب: القرامطة، ص١٦٩-١٧٢.

بدأت دعوة القرامطة في سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م، مستغلين ضعف العباسيين والفوضى التي نشأت أثناءه، وانشغالهم بقتال الخوارج وبقتال صاحب الزنج بالبصرة. ظهروا في البحرين (الاحساء حالياً)، وأقاموا الدعاة وبثّوهم لنشر دعوتهم. وشمل نشاطهم العسكري المناطق الممتدة من بلاد فارس شرقاً إلى مصر غرباً، ومن شمال العراق وبلاد الشام إلى اليمن جنوباً. وأقاموا عدة دول. وما كانوا يهزمون في معركة حتى ينتصروا في أخرى، أو يختفون من مكان حتى يظهروا في آخر، أو يضعفون في زمن حتى يقووا في غيره على يد أحد الدعاة الجدد. أغاروا على الحجّاج وسلبوهم. وزحفوا نحو مكة وأخذوا منها الحجر الأسود، ولم يعيدوه لقاء مبلغ خمسين ألف دينار، إنما أعادوه بدون أن يأخذوا أي مبلغ، وقالوا : "أخذناه بأمر وأعدناه بأمر"[1].

انقسم القرامطة بسبب النزاع على السلطة وكيفية نشر الدعوة إلى فريقين: فريق آل الجنابي، الذي أقام دولته في الأحساء. وفريق آل زكرويه الذي خاض الحروب في العراق وبلاد الشام، بقيادة يحيى بن زكرويه، صاحب الناقة المأمورة، الذي هُزم وقُتل في إحدى المعارك حول دمشق، ثم بقيادة أخيه حسين، صاحب الشامة، الذي أعاد جمع صفوف القرامطة في البادية بعد هذه الهزيمة، والذي أظهر الشذوذ عن الدعوة إلى الإمام عبيدالله المهدي، ونكّل بأهل الإمام في سلمية[2]، وهُزم أخيراً أمام جيش الخليفة العباسي المكتفي على بعد عشرة أميال من حماه.

بعد هذه المعلومات الموجزة عن القرامطة يبرز السؤال التالي: هل كان للعاصفة التي أثاروها على امتداد معظم العالم الإسلامي تأثير في بيروت وصيدا وجبل لبنان؟ ورد عند المؤلف سليم أبو اسماعيل عن القرامطة "أنه اشتد ساعدهم سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م في وادي التيم من أعمال لبنان" وانه في ٦ محرّم ٢٩١هـ/٩٠٣م جرت معركة السيل بين القرامطة

---

[1]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد الثامن، ص ٤٨٦.

[2]- مصطفى غالب: القرامطة، ص ٣٧٤.

وجيش الخليفة العباسي المكتفي، وأن القرامطة "انهزموا إلى الشام متصعّدين الجبال المحيطة بدمشق في جبل حوران وجبال سنير وحرمون ولبنان حيث نزلوا أعالي الشوف وكسروان فبنوا فيه [الشوف] بلدتهم الأولى عين داره ذكرى لبلدتهم في الأحساء، وتيروش بلدة في أعالي جبل عين داره، والعبادية ذكرى لإحدى دور الدعوة في سواد الكوفة، وعبيه نسبة إلى مياه لبني بكر بن وائل، والمختارة نسبة إلى مَحلة كانت لهم في الجانب الشرقي في بغداد، وحماه [ربما حمّانا] التي تقع في الجرد الجنوبي من جبل لبنان، ودير كوشه ذكرى لإحدى قراهم التي تقع على نهر العاصي قرب حلب، وشقيف ديركوش الذي يقع جنوبي حارم، وزكريت التي تقع قرب عين عار في كسروان المتن اليوم، ذكرى لمرورهم الأول فيما يجاور اليوم إمارة قطر"[1].

لم يحدّد المؤلف أبو اسماعيل المرجع الذي اعتمد عليه. وكذلك لم يحدّد الدكتور كمال الصليبي المرجع الذي اعتمد عليه في كلامه عن اتباع للقرامطة في ما سمّاه "الأشواف" وهو يقصد بذلك أقضية المتن الجنوبي (بعبدا) وعاليه والشوف حالياً، فقال "وتكرّرت غارات القرامطة على الشام في غضون القرن العاشر حتى ردّهم الخلفاء الفاطميون عن البلاد نهائياً عام ٩٧٧م. ولا بد أن اتباعهم ازدادوا عدداً في تلك الفترة في المناطق الشامية التي تكرّر دخولها تحت سيطرتهم، ومن هذه المناطق غوطة دمشق ووادي التيم وربما "الأشواف" من جبل لبنان في جند دمشق، وبعض الأطراف الجبلية من أجناد حلب، وحمص، والأردن، وربما أيضاً فلسطين"[2].

لم نرَ في أي مصدر أو مرجع[3] تحدث عن القرامطة أي ذكر لوصولهم إلى جبل لبنان. كل ما ورد عنهم أنه بعد أن نكّل حسين بن

---

[1]- سليم أبو اسماعيل: الدروز، ص ١٦٥، ١٨٠، ١٨١.

[2]- كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ٦٠.

[3]- أنظر من هذه المصادر والمراجع. عارف تامر: القرامطة. أصلهم وحروبهم. ومصطفى غالب: القرامطة. والمقريزي: اتعاظ الحنفاء، الجزء الأول، ص ٢١٦ – ٢٨١. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السابع، ص ٥٣٠، ٥٤١ – ٥٥١، والمجلد الثامن، ص ١٤٣،

زكرويه بأهل حمص وحماه ومعرّة النعمان وغيرها "سار إلى بعلبك ، فقتل عامة أهلها حتى لم يبق منهم إلا اليسير"[1]. كما أنهم وصلوا إلى وادي التيم حيث صدّهم الطولونيون عن كوكبا. ووصولهم إلى بعلبك وكوكبا ووادي التيم لا يعني بالضرورة وجود أتباع لهم، أو تكاثر لأتباعهم في هذه الجهات، لأن اجتيازهم لها كان عبوراً سريعاً، رافقه التنكيل الذي ظهر جلياً في أهالي بعلبك، ولم يؤدِّ إلى الاستقرار.

وفي حين لم يؤكد الصليبي وجود اتباع للقرامطة في "الأشواف" من جبل لبنان، بقوله "ربما"، أكّد أبو اسماعيل لجوءهم إلى جبل حرمون وأعالي جبل لبنان الجنوبي، ومناطق جبلية أخرى في محيط دمشق، وهذا لم يشر إليه أي مصدر كما وردت الإشارة إلى ذلك. فأبن الاثير، مثلاً، الذي تكلم بتوسع عن انهزام القرامطة في المعركة التي سمّاها أبو اسماعيل "معركة السيل"، قال إن الخليفة العباسي المكتفي سيّر جيشاً لقتال القرامطة وكانوا بقيادة صاحب الشامة، وان القرامطة "انهزمت وقتلوا كل قتلة واسر من رجالهم بشر كثير وتفرّق الباقون في البوادي"[2]. فابن الأثير يذكر أن بقايا القرامطة ممن لم يُقتلوا ويؤسروا تفرّقوا في البوادي لا في الجبال، ولقد جرت المعركة بعيداً عن جبل لبنان.

هناك موضوعان طرحهما أبو اسماعيل، أولهما بناء القرامطة لثماني قرى في أعالي الشوف وكسروان، منها قريتان جعل الأب بطرس ضو بناءهما على يد الموارنة، هما عين داره وديركوشه. وهذه المعلومات غير واردة الا عند المؤلفين المذكورين. ومن الأرجح أنهما قالا ذلك بناء لتشابه اسماء المكان الموجودة في مناطق مختلفة. فالمختارة، مثلاً، التي هي محلة

١٤٤، ١٥٥، ١٧٠، ١٨١، ٢٠٧، ٤٨٦، ٦١٤، ٦١٥. ومسكويه: تجارب الأمم، المجلد الرابع، ص ٣٨٢، ٣٩٢، ٤٠٢ – ٤٢٦. وابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١ – ٤، ٧، ٣٣. وتاريخ أبي الفداء، الجزء الأول، ص ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٩٣، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٥١.

[1] – مسكويه: تجارب الأمم، المجلد الرابع، ص ٤٠٦.

[2] – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السابع، ص ٥٣٠.

كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد[1]، هي أيضاً مدينة في العراق كان اسمها مدينة الخبيث، وقد سماها صاحب الزنج إبان ثورته على العباسيين "المختارة" وحاصر فيها[2]. وثانيهما إيراد اسماء عشائر جديدة غير العشائر التي نزلت في سنة ٨٢٠ في تيروش وعين داره، ومنهما تفرقوا في مناطق جبل لبنان الجنوبي. وطالما أن كلام أبي اسماعيل لم يعتمد على أي مصدر، أو مرجع، يمكن القول إنه استنتاجات قابلة للنقاش، وغير مقنعة.

الشيعة

المذاهب الشيعية: الشيعة، في لغة العرب، تعني الأتباع، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره. لكن هذا الاسم "غلب على أتباع علي وأهل بيته (ع) حتى صار اسماً خاصاً لهم". ويعيد البعض الشيعة إلى زمن النبي(ص)، ومنهم المقداد ابن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر ومن وافق مودته مودة علي(ع) "وهم أول من سمي باسم التشيّع في هذه الأمة"[3]. وبعض المؤرخين الشيعة يعيدون التشيع إلى زمن أقدم، ويجعلونه متزامناً مع البدء بالدعوة إلى الإسلام، فيقولون إن الدعوة إلى التشيع "ابتدأت من اليوم الذي هتف فيه المنقذ الأعظم "محمد" صلوات الله عليه وآله، صارخاً لا اله إلا الله في شعاب مكة وجبالها"[4].

والشيعة، بحسب تعريف الأكثرية لهم، هم الذين بايعوا علياً وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً "واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده"[5]. فالإمام علي، ابن عم الرسول (ص) وزوج ابنته فاطمة، هو عند شيعته أحق

---

[1]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الخامس، ص ٧١.

[2]- تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث، ص ٣٢١ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السابع، ص ٣٥٠.

[3]- القزويني: الشيعة في عقائدهم وأحكامهم، ص ١٧.

[4]- محمد حسين المظفر: تاريخ الشيعة، ص ١٨.

[5]- الشهرستاني: الملل والنحل، المجلد الأول، ص ١٤٦.

بالخلافة من بعده. لذا لم يعترفوا بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الذين تولّوا شؤون المسلمين تباعاً بعد وفاة الرسول (ص). كما لم يعترفوا بخلفاء بني أمية وبني العباس.

كبار الفرق الإسلامية أربع، هي القدرية، الصفاتية، الخوارج، والشيعة، ثم يتركّب بعضها مع بعض ويتشعّب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة[1]. والمذاهب الشيعية الأساسية هي شيعة زيد بن علي بن الحسين بن علي (الزيدية)، وليس لهؤلاء أتباع في لبنان، وشيعة اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين (الإسماعيلية)، وشيعة أخيه موسى بن جعفر وهم الموسوية أو الاثني عشرية أو الامامية أو المتاولة. والإمامية يعتبرون أن هناك اثني عشر إماماً آخرهم من سلالة الكاظم، وهو الإمام محمد المهدي المنتظر الذي ينتظرون ظهوره بعد الغيبة. وهم يختلفون عن الاسماعيلية حول الإمام السابع الذي هو عندهم موسى فيما هو عند الأسماعيلية أخوه الأكبر اسماعيل، لذا نسبوا إليه.

بعض الباحثين في الديانات والمذاهب يعتبر النصيرية أصحاب مذهب خاص، ويعتبر القرامطة من انصار آل الجنابي فريقاً من الاسماعيلية، ويعتبر فريق آل زكرويه شاذاً عن الدعوة الإسماعيلية. وللخوارج معتقد خاص، وهو معارضتهم حصر الخلافة بفئة معينة، او ببيت معين مهما كانت القرابة للرسول (ص)، لأنها، في رأيهم، حق لأي مسلم. وقد سموا بهذا الاسم لأنهم خرجوا على إرادة الإمام علي.

التشيّع في لبنان: المنطلق الأساس للتشيّع هو القول بإمامة علي وأحقيته بالخلافة بعد الرسول (ص) دون غيره، واحقية أبنائه بها دون غيرهم. ثم صار للتشيّع ركن أساس ابتداءً من سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م، هو عاشوراء الحسين بن علي ذات الأهمية الكبيرة، إذ لا شيعة بدون عاشوراء بحسب المقولة السائدة عند الشيعة. لذا كان المأتم الحسيني من أهم مظاهر التعبير

---

[1]- المرجع نفسه، ص ١٥.

عن الإيمان والعقيدة، وكان التمتع سابقاً بحق إقامته دليلاً على التسامح مع الشيعة ودليلاً على ازدهار التشيّع، ومنعه دليلاً على الاضطهاد والتشدد.

تعرّض الشيعة للتنكيل في العهد الأموي وأوائل العصر العباسي، واضطروا خلالهما إلى اعتماد التقية. وبعد أن تمتعوا بقدر يسير من الحرية في عهد الخليفة العباسي، المأمون، لأنّ الإمام الرضا كان ولي عهده، اضطهدوا مجدّداً في عهد الخليفة المتوكل، الذي ضيّق عليهم، وهدم قبر الحسين، ومنع الناس من زيارته. ثم منع المستعصم قراءة كتب "المقتل". وعارض الحنابلة إقامة الشعائر الشيعية. "وكان الناس لا يستطيعون النياحة على الحسين خوفاً منهم"[1]. وظل الوضع على ما هو عليه من التشدّد حتى قيام الدول الشيعية التالية: البويهية في بلاد فارس، والحمدانية في شمال سورية، والفاطمية في مصر وبلاد الشام، بحيث صار بإمكان الشيعة أن يظهروا انفسهم بدون خوف، وأن يمارسوا شعائرهم، وأن يقيموا المأتم الحسيني. لكن السلاجقة الأتراك والأتابكة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وجميعهم سنة، ضيقوا، وبنسب متفاوتة، على الشيعة مما أثر على الوجود الشيعي في مناطق سيطرتهم، ومنها لبنان.

لا يمكن فهم الوجود الشيعي في لبنان إلا من خلال الإطار السياسي العام الذي ورد ذكره. فالمصادر عنه قليلة. أقدمها ما كتبه الرحّالة الفارسي ناصر خسرو، وأوسعها ما كتبه علماء الشيعة ومؤلفوهم عن أعلام الشيعة وعن جبل عامل الذي هو في نظرهم أوّل مكان للتشيع في لبنان، سبق بزمن طويل التشيّع في بلاد فارس.

تعود جذور التشيّع في جبل عاملٍ إلى الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، وقد نشر مذهبه في كل مكان حلّ فيه. ولما بلغ الخليفة الراشدي

[1]- التنوخي البصري: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، الجزء الأول، ص ٣١٢.

عثمان بن عفان "أن أبا ذر يقع فيه ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله وسنن أبي بكر وعمر، نفاه إلى الشام فاقام في الربذة حتى توفي"[1].

يرى الشيخ أحمد رضا أن أبا ذر، الذي له مقامان في قريتي الصرفند وميس الجبل في جبل عامل، حلّ في هذا الجبل، فبدأ التشيّع فيه منذ ذلك التاريخ[2]. وذكر محمد كردعلي، نقلاً عن الحر العاملي في كتابه "أمل الآمل" أن أبا ذر لما أُخرج إلى الشام تشيّع فيها جماعة، ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيّعوا منذ ذلك اليوم. ثم ذكر رواية عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وقد سئل عن أعمال الشقيف، "فقال: أرنون وبيوت وربوع وتعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقاً"[3].

ومع أن حلول أبي ذر في جبل عامل، أو مروره فيه، أمران غير مؤكّدين، الا أن جذور التشيّع لمذهب أهل البيت تعود في عرف العامليين إليه، كما يعتبرون تشيّعهم ، بناءً لهذا، أسبق من تشيّع أية جماعة، باستثناء أهل الحجاز "فإن صح أن تشيّع أهل جبل عامل من زمن نفي أبي ذر إلى الشام لم يكن أسبق منهم إلى التشيّع سوى بعض أهل الحجاز"[4].

وإذا كانت جذور التشيّع في جبل عامل، وبعض مناطق بلاد الشام الأخرى، تعود إلى أبي ذر، وإلى عهد الخليفة عثمان بن عفان، فإن انتشاره فيها يعود إلى المائة الثالثة للهجرة. وأسباب تأخر فشوه إلى هذا التاريخ، هي ضعف تيار الشيعة العام في بلاد الإسلام في بدايات تكونه، واضطهاد الدولة الأموية والدولة العباسية للشيعة، وكون بلاد الشام منطلق الدولة الأموية، ودمشق عاصمتها. وبعد أن دب الضعف في جسم الدولة العباسية بدأت الفرق الشيعية بعقائدها المختلفة تقوى وتشتد معارضتها للخلافة السنّية، ثم توصلت

1- تاريخ اليعقوبي: المجلد الثاني، ص ١٧١ – ١٧٣.

2- الشيخ أحمد رضا: مجلة المقتطف سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠م، ص ٤٢٧ – ٤٢٨.

3- أمل الآمل، القسم الأول، ص ١٦. ومحمد كرد علي: خطط الشام، الجزء السادس، ص ٢٤٦.

4- محسن الأمين: خطط جبل عامل، ص ٨٣.

إلى إنشاء عدة دول شيعية تأثر لبنان باثنتين منها، هما الدولة الحمدانية التي قامت في حلب وتأثر بها شمال لبنان، والدولة الفاطمية التي انشقّت عقيدتها من المذهب الإسماعيلي، وتأثر بها كل لبنان.

وفّر بعد بلاد الشام نسبياً عن مركز الخلافة العباسية، ثم سيطرة الدولة الفاطمية والحمدانية عليها، مجال انتشار الشيعة فيها على نطاق واسع، فعُرفت بعض الأماكن باسمهم كبلاد النصيرية (بلاد العلويين) في الجهة الغربية من سورية، وبلاد الضنية في المرتفعات الواقعة إلى الشرق من مدينة طرابلس. وكان في بعض نواحي وادي التيم والشوف وكسروان اسماعيلية ونصيرية.

زاد انتشار الشيعة في جبل عامل، كما انتشرت في بعض مدن الساحل اللبناني. وذكر الرحّالة الفارسي ناصر خسرو، الذي مرّ في طرابلس سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، ان جميع أهاليها شيعة، وأن أكثر سكان صور شيعة، بنوا فيها المساجد فيما قاضيها سني. ومع أن في كلام هذا الرحّالة الشيعي بعض الغلو، وفيه التعجّب من كون قاضي صور سنياً، إلا أنّ فيه دلالة على انتشار التشيع في لبنان عموماً، وفي مدينتي طرابلس وصور خصوصاً. ولم يبقَ في العهد الفاطمي، الذي سادت فيه الشيعة الإسماعيلية، على مذهب السنّة سوى مدينة الشام ومحيطها، وبعض مناطق فلسطين وجيوب متفرّقة هنا وهناك كما في مدينتي بيروت وصيدا ومحيطهما.

التشيّع في جبل لبنان الجنوبي: سكان جبل لبنان الجنوبي، قبل الفتح العربي، أكثريتهم مسيحية، وأقليتهم وثنية. وبعد الفتح العربي، ونزوح العشائر العربية للمثاغرة، غدا سكان بيروت وصيدا وساحلهما ومرتفعاتهما مسلمين، وظل بعض سكان كسروان مسيحيين حتى أوائل القرن الرابع عشر، وهم بقايا السكان الأصليين، والموارنة الذين قدموا إلى جبل لبنان بعد الفتح العربي. وعندما بدأت المذاهب الإسلامية بالظهور برزت في جبل لبنان الجنوبي الشيعة التي يمكن تتبعها من خلال المحطات التاريخية، ومن خلال ذكر المصادر الإسلامية لها.

بعد استيلاء الفاطميين على دمشق، أعلن الامير المنذر الأرسلاني البيعة لهم، فأقروه على أعماله. ومبايعته هذه لم تكن سياسية فقط، بل هي أيضاً، على الأرجح، دينية تتجلّى في تحول الامير إلى الشيعة، وتحول كل عشيرته، او معظمها، معه تطبيقاً للقاعدة التي تقول إن الناس على دين ملوكهم. وهذا مهّد لانتشار دعوة التوحيد التي أعلن عنها في سنة ١٠١٧.

انتشر التشيّع في جبل لبنان الجنوبي على المذهب الإسماعيلي الفاطمي، وعلى المذهب الشيعي الإمامي، في أجواء من الحرية التامة لإظهار العقيدة، ولممارسة الطقوس. ومن ذلك أن الناس في مصر، في العهد الفاطمي، كانوا، بحسب ما يذكر المقريزي، ينحرون الإبل والبقر والغنم في يوم عاشوراء، ويكثرون النوح والبكاء، ويسبّون من قتل الحسين، وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا من عاشوراء يوم عطلة وإقفال للأسواق، يقام فيه المأتم الحسيني في احتفال رسمي[1].

المصادر الإسلامية تذكر الشيعة باسم الرافضة، وتحدّد مناطقهم في جبل لبنان الجنوبي بكسروان وجزّين. ولقد جمع الشيخ أحمد بن تيمية بين شيعة هاتين المنطقتين في كلامه عن الأذية التي لحقت بالجيش المملوكي المنسحب بعد هزيمته أمام التتار، فقال إن شيعة كسروان أقاموا سوق المسلمين بالساحل عشرين يوماً "يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جزّين وما حواليها وجبل عامل ونواحيه"[2]. وجزّين كانت قاعدة رئيسة للشيعة، وقد زاد عددهم فيها بعد نزوح شيعة كسروان إليها.

وجود الشيعة الإمامية في جبل لبنان الجنوبي يثبته أيضاً بقاياه قبل أن يحصل الاختلاط السكاني مؤخراً، والانفجار السكاني الشيعي. إن

---

[1]- المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص ٤٣٠، ٤٣١، ٤٩٠. وللمزيد من المعلومات عن المأتم الحسيني، أنظر كتابنا : العادات والتقاليد في لبنان، ص ١١٣ – ١٥٤.

[2]- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد ٢٨، ص ٣٩٩- ٤٠٨.

الروايات المحلية تتحدث عن وجودهم سابقاً في بعلشميه وتلثيثا (محطة بحمدون حالياً)[١]، وكحلونية المتن الجنوبي، ووجودهم الذي لا يزال قائماً في برج البراجنة في قضاء المتن الجنوبي، وفي كيفون والقماطية في قضاء عاليه، والوردانية وجون والجيّة في قضاء الشوف. وكان لهم وجود في قضاء الشوف في المحوّطة[٢] وكفرنيس[٣]، ووجود في أمكنة أخرى تتحدث عنه العنعنات، مع الإشارة إلى أن المحلات التي تحمل اسم "علي" ليس من الضرورة أن تكون شيعية، .لأن السنّة والموحدين الدروز يسمّون علي ويتباركون بهذا الإسم، وإلى أن المحلات التي تحمل اسم الجامع، مثل ساحة الجامع في كل من عين وزين ومرستى، قد تكون من مخلّفات الشيعة كما يعتقد البعض، وقد تكون من مخلفات الموحدين الدروز في العهد المملوكي الذي كثر فيه بناؤهم للجوامع.

الموحّدون الدروز

المذهب والاسم: الموحّدون الدروز إحدى الفرق الإسلامية. ومذهبهم أحد المذاهب الشيعية الإسماعيلية، وإنما له جذور فكرية تعود إلى المسالك التوحيدية العرفانية القديمة. تهيأت الدعوة إليه في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة، إبّان بلوغ النهضة العلمية والفكرية أوجها بسبب اتصال المسلمين بثقافات اليونانيين والمصريين والإيرانيين والهنود.

إسم مذهب الموحّدين مذهب التوحيد، أو مسلك التوحيد، فهو مسلك لا دين، يختلف عن المذاهب الإسلامية الأخرى بتفسيره الخاص لبعض آيات القرآن الكريم، ويختلف، إضافة إلى ذلك، عن سائر المذاهب الشيعية ببعض مفاهيمه للإمامة، وبكيفية تسلسلها عبر العصور. "إنه غير الباطنية، وإن هو انبثق منها أو انشق عنها واشترك في كثير من مراتبها ومناسكها

١- سليمان أبو عز الدين: مصادر التاريخ اللبناني (الاقتصاد) ص ١١١.

٢- المحوّطة : قرية دارسة قرب كفرنيس في قضاء الشوف.

٣- بولس الكفرنيسي: عائلة الخوري تادي، ص ١٣١ – ١٣٢.

وتعابيرها"[١]. أحيط بالسرية التي تتميز بها سائر المسالك التوحيدية العرفانية. ولذلك سببان، اولهما واقعي، وهو التقية التي كانت تلجئ المخالفين لمذهب الدولة الحاكمة عدم إظهار حقيقة معتقدهم تجنباً للاضطهاد في عصور التشدّد والتعصب الديني، وعدم قبول رأي الآخر. وثانيهما فكري يتصل بصلب المذهب، وهو وقاية تعاليمه ممن لا يستطيعون إدراكها. "وهذه السرية كانت نهج حكماء الهند ومصر القديمة والصين وإيران واليونان وسواهم من الأقوام، ولا تزال ميزة من لا يزالوان تعمر حياتهم وأرواحهم بمسلك الحكمة القديم المتصل المتجدد أبد الدهر"[٢].

الاسم الحقيقي لاتباع مذهب التوحيد هو "الموحّدون". وقد خاطبهم إمامهم به وبالمسلمين، وكنّاهم بالأعراف. فلُقبوا بناءً لذلك ولتمسكهم بالمعروف "بني معروف". وهذا اللقب المحبّب إليهم ظل شعار اليمنية منهم في لبنان حتى زوال حزبهم بعد انهزامهم أمام القيسية في موقعة عين داره سنة ١٧١١. وظل الإسم المحبّب لليمنية الذين نزحوا إلى جبل حوران (جبل العرب أو محافظة السويداء حالياً في الجمهورية العربية السورية)، وللذين تبعوهم إليه من سائر مناطق بلاد الشام. لكن الإسم الذي عرف به الموحّدون عبر التاريخ هو "الدروز" نسبة إلى أحد أوائل الدعاة إلى المذهب، نشتكين الدرزي، الذي قُتل في القاهرة في السنة الأولى لبدء الدعوة بعد أن شذَّ عنها ودعا لنفسه.

جهل الكثير من المؤلفين اسم الموحدين الحقيقي، كما جهلوا أن من نسب إليه الموحّدون خطأً قُتل في القاهرة، فقالوا إن الحاكم بأمر الله أمر نشتكين بالابتعاد عن القاهرة إلى الشام لنشر الدعوة في الجبال، ففعل وانتقل إلى وادي التيم، ونشر المذهب فيه[٣]. وقد زعم بعضهم أن نشتكين قُتل في

---

[١]- عبدالله النجّار: مذهب الموحّدين الدروز، ص ٤٣.

[٢]- من مقدّمة كمال جنبلاط لكتاب سامي مكارم: "أضواء على مسلك التوحيد" ص١١.

[٣]- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، الجزء الرابع، ص ١٨٦- ١٨٧. ودوساسي: مدخل إلى ديانة الدروز، ص ٢٠٢.

الوادي[١] مع العلم أن أقدامه لم تطأ أرضه، وأنه قُتل قبل انتشار مذهب التوحيد فيه. ومن أسباب الزعم أن نشتكين الدرزي جاء إلى بلاد الشام، وتحديداً إلى وادي التيم، التشابه بين اسمه واسم القائد الفاطمي أنوشتكين الدزبري الذي انتصر في معركة الأقحوانة، وعين والياً على بعلبك ثم على قيسارية، وكان نصير الموحِّدين، وفي أيامه انتشر مذهب التوحيد في المناطق التابعة له.

الاعتقاد الخاطئ بمجيء نشتكين الدرزي إلى وادي التيم، ومقتله فيه، قاد إلى قول أكثر خطأً، هو زعم هنري غيز، قنصل فرنسا الذي عاش في جبل لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أن الدروز جاؤوا من مصر، وأن أول مكان نزلوا فيه هو وادي التيم حيث أخذوا اسمه Tagané ، وأن الحماية التي لاقوها في الشوف من شيخ هذه المقاطعة، الدرزي، الذي اعتنق أخيراً مذهبهم ، حملتهم على أن ينتسبوا إليه اعترافاً بجميله[٢].

ومن الأخطاء الناتجة، أيضاً، من الاسم "الدروز" قول بعض المؤلفين الأجانب إن الدروز ينتسبون إلى الكونت الافرنجي "درو"، وإنهم من بقايا الافرنج (الصليبيين) في الشرق. فهم ، في رأي دومينيكو ماغرى المالطي، الذي نشر كتابه في روما في سنة ١٦٥٥، "بقايا من هؤلاء الأبطال الكرام الغير المقهورين، الذين قادهم بويون الكبير فاستعادوا الأراضي المقدّسة. أما اليوم، وقد فسد دينهم الأصلي، فلا يبقون على أي أثر من المسيحية"[٣]. وقد تبنّى هذا الرأي بيجيه ده سان بيير، الذي نشر كتابه في سنة ١٧٦٢، فزعم أن إحدى الفرق الفرنجية، التي كانت تقوم بقيادة الكونت درو بحماية القوات الصليبية، اضطرت بعد هزيمة الفرنج إلى الاعتصام بجبل عين جدي في

١- تشرشل، الدروز والموارنة تحت الحكم التركي، ص ٨.

٢- Henri Guis: Beyrouth et le Liban Tom second p 46.

٣- دومينيكو ماغرى المالطي: رحلة إلى جبل لبنان، ص ١٣٥.

فلسطين. وحين يئست من قدوم النجدة الصليبية انتقلت إلى جبال لبنان حيث أصبح أفرادها جيراناً للدروز ففكّروا في السعي لمحالفتهم[1].

ويتابع بيجيه ده سان بيير قائلاً في معرض حديثه عن طموحات الأمير فخر الدين المعني الثاني: "وكانت القدس الغاية التي اتجهت نحوها آماله. فاسترجاع صولجان هذه المملكة المنتزع من أجداده كان هدفه الأساسي"[2]. إن الشبه بين لفظة "درو" ولفظة "دروز" كان الأساس الذي اعتمدت عليه خلفيّة هذا الكاتب لإيجاد صلة بين الأمير فخر الدين وقومه الدروز، وبين الغرب، بلاد الصليبيين، الذي حاول فخر الدين يوماً الاعتماد عليه للنهوض بإمارته والحفاظ عليها.

أُغلق باب الدعوة إلى مذهب التوحيد في سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م، ولم يعد يُجاز بعدها لأحد الدخول فيه. وهذا التاريخ يأتي بعد ست وعشرين سنة من مقتل الدرزي، وقبل مائة وأربعين سنة من هزيمة الصليبيين في حطين سنة ١١٨٧. وقد لاحظ الكاتب جيوفاني ماريتي ذلك، فرأى أن الكلام عن نسبة الدروز إلى الكونت "درو" ضعيف. ومما يدل على ضعفه هو أنه كان لهم كيانهم قبل هزيمة الصليبيين[3]. كما تجدر الإشارة إلى أن أقدم رحّالة غربي زار الشرق في أواسط القرن الثاني عشر، إبان احتلال الفرنجة له، ذكر "أن الدروز متحدّرون من الايطوريين العرب"[4]. وان الباحثين الأجانب، الذين استقوا المعلومات مؤخراً، عن الدروز، من الدروز أنفسهم، لم يخطئوا، فذكروا أصولهم العربية والإسلامية، وقاربوا حقيقة مذهبهم، ومعتقداتهم، ومنهم المستشرق الألماني ماكس أوبنهايم[5].

---

[1]- بيجيه ده سان بيير: الدولة الدرزية، ص ٣٦.

[2]-المصدر نفسه، ص ٤٥.

[3]- جيوفاني ماريتي: تاريخ فخر الدين، ص ٣٦.

[4]- عباس أبو صالح: تاريخ الموحدين، ص ١٩.

[5]- ماكس أوبنهايم: الدروز، صفحات متفرقة.

وردت تسمية "الدرزية" عند مؤرّخ معاصر لنشوء مذهب التوحيد، هو يحيى بن سعيد الأنطاكي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م، وذلك حين تحدث عن مقتل نشتكين الدرزي ، فقال: عمل بعض غلمان الأتراك على قتل الدرزي فوثب إليه وهو في موكب الحاكم وقتله، ونُهبت داره، وافتتنت القاهرة، وأغلقت أبوابها، ولبثت الفتنة ثلاثة أيام، وقتل فيها جماعة من الدرزية"[١]. ثم قال في مكان آخر، يصف انتشار مذهب التوحيد بفضل الداعي الحقيقي حمزة بن علي، الذي صحّح مسار الدعوة بعد أن شوهّه نشتكين الدرزي الملقب بداعي الإحرام: "وتزايد أمر الدرزية"[٢]. ثم ورد ذكر "الدرزية" عند محمد بن علي العظيمي (٤٨٢ – ٥٥٦ هـ – ١٠٨٩ – ١١٦١م) بقوله: "وكثر الدرزية بمصر"[٣] .

إذاً سمي اتباع الدعوة بالدرزية نسبةً إلى نشتكين الدرزي، نظراً لاسبقيته فيها، وللضجة التي أثارها في القاهرة بحياته وبمقتله. وعُرف الموحدون بهذا الاسم الخاطئ الذي اطلقه الأنطاكي أولاً، وأخذه المؤرخون والناس وتداولوه، لأنهم جهلوا الاسم الحقيقي للمذهب ولأتباعه، فيما ينكر الموحّدون هذه التسمية ويتبرّأون منها كما يتبرّأون ممن نُسبوا إليه. ومخطوطاتهم التي تعود إلى حوالى ألف سنة لا تذكر "الدرزية" ولا "الدروز" كإسم لهم، بل تلعن الدرزي. وأدبياتهم عبر العصور لا تذكر اسم "الدروز" ، ومنها السجل الأرسلاني، وقواعد الآداب حفظ الأنساب، وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى، وتاريخ ابن سباط. ومنها مؤلفات شيوخهم وعلمائهم ، وأشهرهم الأمير جمال الدين عبدالله التنوخي (١٤١٧ – ١٤٧٦) والشيخ الفاضل (١٥٧٩ – ١٦٤٠).

إلا أن الموحّدين، الذين ظلوا يتداولون فقط الاسم الحقيقي في أوساطهم وأدبياتهم، اضطروا إلى تقبّل اسم عُرفوا به عبر التاريخ واشتهروا،

١- تاريخ الأنطاكي، ص ٣٤٠.

٢- المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

٣- محمد بن علي العظيمي: تاريخ حلب، ص ٣٢٣.

وهو "الدرزية" أو "الدروز"، لأنهم ما عادوا يستطيعون إزاحته عنهم، وكانوا قد أخفوا لقرون هويتهم بالإضافة إلى اسمهم ، واتبعوا التقية وأظهروا السنّة. وفي الوقت الذي ما عاد يضرّ بهم إظهار هويتهم واسمهم الحقيقي، ما عاد يضيرهم اسم "الدروز"، لأنه يعرّف بهم أكثر مما يعرّف اسمهم الحقيقي "الموحّدون"، وما كان سبيلاً في أي يوم من الأيام إلى الحط من كرامتهم، ولا كان مدعاةً إلى القول إن حامليه مختلفون في نهجهم ومسلكهم وتقاليدهم عمن يحملون الإسم الحقيقي، مع الإشارة إلى أن الموّحدين الدروز هم براء من التهم والأباطيل التي الحقت بنشتكين الدرزي وأمثاله من المرتدين، ويتّهمون بدورهم هؤلاء المرتدين بالشذوذ عن تعاليم المذهب.

تكرّس اسم "الدروز" رسمياً في تلقيب رئيسهم الروحي بشيخ عقل الدروز[1]، وفي مجموعة من القوانين صدرت بين أوائل سنة ١٩٤٨، وأواخر سنة ١٩٩٩، ورد فيها اسم "الدروز" فقط، أو اسم "الطائفة الدرزية"[2]. ثم رأى الكثيرون ضرورة تصحيح خطأ الاسم، أو على الأقل، توضيحه. فبدأوا في كتاباتهم يدرجون اسم الموحدين بدلاً من الدروز، أو يضعون اسم "الموحدين" قبل اسم الدروز، كحل يوضح الاسم الحقيقي ولا يقطع الصلة مع اسم عرفوا به حوالى الف عام. وعلى هذا الأساس صدر قانون تنظيم شؤون الموحدين في أيار ٢٠٠٦ حاملاً الاسمين معاً" قانون تنظيم شؤون طائفة الموحدين الدروز".

الدعوة إلى مذهب التوحيد: تهيأت الأجواء الفكرية والسياسية لإعلان المذهب في عهد الحاكم بامر الله، سادس الخلفاء الفاطميين (٩٩٦ – ١٠٢١). فبعد ثلاث مراحل من دعوة النذر، مدة كل منها ٧ سنوات، هم

---

[1]- الأصل عقّال لا عقل، بمعنى الأشخاص الذين عقلوا أمور الديانة أي فهموها.

[2]- من هذه القوانين : قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية الصادر في ٢٤ شباط ١٩٤٨. وقانون تنظيم القضاء المذهبي الدرزي في سنة ١٩٦٠. وقانون انشاء المجلس المذهبي للطائفة الدرزية، وقانون انتخاب شيخ عقل للطائفة الدرزية الصادرين في سنة ١٩٦٢. وقانون إنشاء مجلس أمناء الطائفة الدرزية الصادر في ٢٨ كانون الأول ١٩٩٩.

النذير الأول، والنذير الثاني، والنذير الثالث، أعلن عن المذهب في أول محرم ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، ونودي بحمزة بن علي إماماً للموحّدين. لكن الدعوة توقفت باختفاء الحاكم، الذي أمن الغطاء السياسي والأمني لانتشارها، ليل ٢٧ شوال ٤١١هـ/ شباط ١٠٢١م. وبعض المصادر التاريخية يعتبر اختفاءه جريمة قتل دبّرتها اخته ست الكل سلطانة[١]، فيما يعتبرها الموحّدون الدروز غيبةً فيها امتحان لهم ولإخلاصهم لعقيدة التوحيد[٢]. وبعد أربعين يوماً من تسلّم ابنه علي الظاهر الحكم بدأ التنكيل بالموحّدين، لأنهم لم يعترفوا بإمامته بل بإمامة حمزة بن علي، ولأنه نهج معهم نهجاً مختلفاً عن الحاكم. وقد إستمر التنكيل بهم ست سنوات ونيّفاً في مناطق السيطرة الفاطمية، وعلى الأخص في شمالها وفي أنطاكية، فسمّوا سنوات اضطهادهم وإبادتهم "محنة أنطاكية"، وفيها تتبع الروم المسلمين في إيذائهم، وكان صالح بن مرداس وقطبان الروم في انطاكية أشد أعدائهم[٣].

تجدّد نشاط الدعاة بعد توقف لمدة سبع سنوات، وكان أبرزهم، بالإضافة إلى حمزة بن علي، المقتنى بهاء الدين. وأرسلوا الكتب إلى أمراء المناطق وشيوخها، ومنها ما يرد فيه أسماء المناطق والقرى في بلاد الشام، مثل الجبل الأعلى الموصوف بالجبل الأنور، ودمشق وغوطتها الموصوفة بالبستان، ووادي التيم الموصوف بالوادي الأزهر، كما يرد في الرسائل

---

[١]– ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٢٨. والمقريزي: اتعاظ الحنفا ، الجزء الأول ، ص ٣٩٦ – ٣٩٧. وتاريخ ابن خلدون، الجزء الرابع، ص ٦١. وتاريخ الأنطاكي، ص ٣٦٠ – ٣٦١. وابن الأثير : الكامل، المجلد التاسع، ص ٣١٤ – ٣١٧.

[٢]– ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٢٨. وعباس أبو صالح: تاريخ الموحّدين، ص٦٥. وفي إحدى رسائل الدعوة يرد قول للحاكم: " إن غيبتي عنكم غيبة امتحان لكم ولجميع الأديان" أنظر دوساسي: مدخل إلى ديانة الدروز، ص ٢١٧.

[٣]– أنظر عن اضطهاد الموحدين في شمال سورية، وانطاكية : تاريخ الانطاكي، ص ٤٢٩. وابن العديم: زبدة الحلب ، الجزء الأول ، ص ٢١١ – ٢١٢.

أسماء العشائر والأسر، مثل آل سليمان شيوخ وادي التيم، وآل عبدالله وآل تنوخ وآل جميهر أمراء "الغرب"، وآل أبي تراب شيوخ فلسطين.

إن معتنقي التوحيد ليسوا كامل سكان أية منطقة انتشر فيها، ولا أحياناً كامل عشيرة تفشى بين أبنائها، إذ هناك من آمن به فيما ظل أقرباؤه، أو حتى أخوته، على مذهب آخر. ومن ذلك في لبنان، على سبيل المثال، الجنادلة الذين منهم المؤمنون المحمودون، والمرتدون المذموبون. وقد أشار إلى ذلك الشيخ محمد الأشرفاني، فذكر مجموعة من المحمودين من شيوخ وادي التيم تحت عنوان "ذكر المحمودين من شيوخ آل سليمان"، ومنهم أحد الدعاة محمد بن ابراهيم، المعروف بـــ"أبي المعالي" فيما كان أخوه من أعداء الموحِّدين[1]. وبالرغم من هذا الفراق على صعيد مذهبي ظل هناك نوع من العلاقات على صعيد عشائري بين المنتسبين إلى مذهب التوحيد وأبناء عشائرهم المعتنقين لمذهب آخر.

إن إحدى رسائل الدعوة إلى مذهب التوحيد تدخل جبل لبنان الجنوبي، ووادي التيم، دون أن تسميهما، في منطقة الداعي سكين المسمّاة "جزيرة الشام الفوقا"، وذلك حين تحدّدها بما يلي:"من الشجرتين إلى الأردن إلى ما ضامه من بلد الشراة مع بلاد عمّان وأرض البلقا راجع إلى السواحل وكورها وجبالها شامل لعرقة وجونها إلى رفنية وما ضامها مع حمص وأعمالها أخذ إلى حماه وتدمر مع سلمية منبت الزعفران راجع فيما قبلها حاوي لدمشق وعملها مع بلاد البثنية وحوران"[2].

يذكر المؤرخ كمال الصليبي أن المنتسبين إلى مذهب التوحيد "كانوا بأكثرهم في الأصل من فرقة القرامطة، وليس من سائر الفرق الشيعية. ومما يدل على ذلك أن القرامطة لم يعد لهم ذكر في الشام بعد انتشار الدرزية فيها، بينما استمر الشيعة من الإمامية والنصيرية والاسماعيلية يتواجدون بكثرة في

---

[1]- الأشرفاني : عمدة العارفين، الجزء الثالث ، ص ٧١٤ -٧١٧.

[2]- رسائل الدعوة إلى مذهب التوحيد: الرسالة ٤٦.

مناطق مختلفة من البلاد بما فيها معظم مناطق الدروز"[1]. وهذا القول فيه الكثير من المبالغة ويجعل الموحدين الدروز على صلة بجميع فرق القرامطة، بينما هؤلاء عند الموحدين فئتان: فئة محمودة منها سادة القرامطة في البحرين، المنتسبون إلى مذهب التوحيد، وهم "السيد أبو الفضل الظاهر، والسيد أبو العباس، والسيد العباس، والسيد أبو الفضل العمران، والسيد أبو اسحق المعلا والسيد أبو الفتح الفرج"[2]. وفئة مذمومة منها الذين غزوا الفاطميين في مصر مرتين، وخاضوا الحروب معهم في مصر وبلاد الشام، وكان هناك تهديد متبادل بين أحد قادتهم والحاكم بأمر الله[3].

أمّا سبب عدم وجود ذكر للقرامطة في بلاد الشام "بعد انتشار الدرزية فيها"، فهو ليس انتشار المذهب بينهم، بحسب ما ذكر الصليبي وإنما هو في الأساس تغلب العباسيين عليهم، وكسر شوكتهم في معركتي دمشق وحماه، ثم تغلّب الفاطميين عليهم وملاحقتهم ، مما أدّى إلى قلتهم وتشتتهم.

أُجهز على دعوة التوحيد في البلد الذي انطلقت منه، مصر، بعد أن شهدت فيه إقبالاً عليها وصفه أحد المؤرخين بما يلي: "أقبل الناس من سائر النواحي فدخلوا في الدعوة"[4]. وصارت جريدة إمامها في القاهرة، بحسب ما جاء عند مؤرّخ معاصر لها "ستة عشر ألف فارس"[5]. واضطهد أتباعها في جهات حلب وانطاكية حتى كاد يُقضى عليهم نهائياً. وتراجع عددهم في جهات فلسطين بالرغم من الانتصار الكبير الذي تحقق لأنوشتكين الدزبري

---

[1]- كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ٦٨.

[2]- الأشرفاني، عمدة العارفين، الجزء الثالث، ص ٧٠٩ وعباس أبو صالح : تاريخ الموحدين، ص ٦٢.

[3]- الرسالة الرابعة من رسائل الدعوة إلى مذهب التوحيد. أنظر أيضاً دوساسي: مدخل إلى ديانة الدروز، ص ٢٤٧.

[4]- المقريزي : الخطط ، الجزء الثاني، ص ٢٨٦.

[5]- تاريخ الأنطاكي، ص ٣٤٣.

في معركة الأقحوانة. وتحوّل بعض أتباعها في دمشق وغوطتها ووادي بردى، وغيرها من الأماكن، إلى السنّة تجنباً للقمع والاضطهاد.

إلا أن الدعوة وجدت في الجبل الأعلى إلى الغرب من حلب، وسفوح جبل حرمون الشرقية والغربية، وجبل الجليل، وجبل لبنان، مراكز تضمن انتشارها واستمراريتها بفضل منعتها الطبيعية والمنعة البشرية للعصبيات القوية المقيمة فيها. فكانت هذه المراكز مع جبل العرب (جبل حوران سابقاً) في سورية، الذي توطّنه الموحّدون ابتداءً من سنة ١٦٨٥ ، المراكز الرئيسة لهم في بلاد الشام.

وككل دعوة جديدة قيّض لها من آمن بها عن صدق وضحّى من أجلها، كما انتسب إليها من لم يفهمها على حقيقتها وحاول تسخيرها لمصالحه الشخصية، فعرفت بين بدايتها ونهايتها تشويهات لتعاليمها، وحركات ردية جرى قمعها إبان الدعوة بحسب ما تذكر أدبيات الموحدين. وهي حركة نشتكين الدرزي التي انتهت بمقتله في أواخر سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧ أو ١٠١٨م. وابن البربرية في سبسطاس بمصر، وقد قضى بهاء الدين على حركته في سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩م. ولاحق بن الشرف العباسي الذي قضى بهاء الدين على حركته بتاريخ مجهول، إلا أنه على الأرجح في الثلاثينيات من القرن الحادي عشر للميلاد. ومصعب التيمي الذي قضى بهاء الدين على حركته. ومسعود بن سكينة الكردي المعروف بسكين، وكان أخطر المرتدّين، وقد قلّده بهاء الدين أمور الدعوة في ما سمّاه جزيرة الشام الفوقا في سنة ١٠٢٨، وحين انحرف وشذّ وأساء إلى نهج الدعوة قُضي عليه في سنة ١٠٣٧م. والحركات الردية الثلاث قامت في جهات وادي التيم ومحيطه.

دعوة التوحيد في جبل لبنان الجنوبي

تميّزت دعوة التوحيد في جبل لبنان الجنوبي بالأمور التالية: انتشارها بين أتباع المذهب الاسماعيلي الفاطمي الذي كان سائداً آنذاك، وخلو مسارها من أية حركة ردية، وعدم تعرّض أتباعها للاضطهاد كما تعرّض

إخوانهم في سائر المناطق، وتركّز نشاطها في منطقة "الغرب" ومساهمة أحد أمرائه في تصحيح حركة سكين الردية في وادي التيم.

جبل بيروت: أُرسلت إلى أمراء "الغرب" أربع رسائل، اولاها تقليد المقتنى بهاء الدين للأمير أبي الفوارس معضاد بن يوسف الساكن بفلّجين[١]، وهو من بني فوارس. وثانيتها الرسالة الموسومة بالجميهرية نسبة إلى جميهر، وهو فخذ من تنوخ، وهي مرسلة من بهاء الدين إلى ثلاثة من الأمراء وضعت أسماؤهم ضمن دائرة كي لا يظهر أحدهم متقدّماً على الآخرين، وهم أبو الفضائل عبد الخالق ابن محمد، وأبو الحسن يوسف ابن مصبح، وأبو إسحق ابراهيم ابن عبدالله، القاطنون في البيرة[٢]. وثالثتها منشور إلى آل عبد الله. ورابعتها منشور إلى آل عبدالله وآل سليمان[٣].

قدّر لمنطقة "الغرب" في جبل بيروت أن تستضيف أحد اهم الدعاة، وهو المقتنى بهاء الدين الذي مرَّ في شمليخ، وقضى ليلة هناك مع مؤمنين بعقيدة التوحيد، فأقيم في المكان مقام، اسمه "المقام الشريف" وكان اسمه على اسم لوقا[٤]، وهو من المزارات الشهيرة عند الموحدين، مكانه على الطريق الرئيسة بين بلدتي العزّونية وشارون. وكانت شمليخ قرية أحرقها العسكر المملوكي في سنة ١٣٠٥، وظلّت مسكونة بدليل دفن الأمير سيف الدين فرج

١- فلّجين: قرية دارسة موقعها بالقرب من مدينة عاليه.

٢- البيرة: قرية دارسة بالقرب من كيفون في قضاء عاليه، وقد لخطأ البعض بالقول إن المقصود بها هو قرية البيرة العامرة حالياً والواقعة في قضاء الشوف، ومنهم المؤرخ نديم حمزة. انظر نديم حمزة:التنوخيون ، ص ٥٣. كا أخطأ أمين آل ناصر الدين حين اعتبر البيرة أنها بيرجك الواقعة على شاطئ الفرات في شرق حلب الشمالي. أنظر مقالته بعنوان: "الامراء آل تنوخ" في مجلة " أوراق لبنانية" المجلد الثاني، ص ٣٠٧.

٣- رسائل الدعوة إلى مذهب التوحيد رقم ٤٨، ٥٠، ٩٠، ٩٩. أنظر دوساسي: مدخل إلى ديانة الدروز، ص ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٧٣.

٤- لوقا: كاتب الانجيل الثالث وأعمال الرسل المعروف بانجيل لوقا. أنظر قاموس الكتاب المقدس، ص ٨٢٢.

التنوخي فيها بتاريخ ١٣٨٠[١]. إلا أنها خربت بعد ذلك بدليل عدم ورود اسمها، في دفاتر الاحصاء العثمانية العائدة للنصف الأول من القرن السادس عشر. تقع شمليخ بالقرب من عين داره، على طريق بيروت – عاليه – قب الياس، التي تمر في منطقتي الغرب والجرد. ومرور بهاء الدين فيها، وقضاؤه ليلة في ما سُمّي "المقام الشريف" يعنيان أنه كان على اتصال مباشر بمعتنقي الدعوة في الجرد والغرب.

وكان للأمير أبي النوارس معضاد الدور الأكبر في القضاء على الحركة الردّية التي قام سكين. طلب منه المقتنى بهاء الدين ذلك، فتوجّه على رأس رجاله إلى وادي التيم حيث تعاون مع السيدة صالحة ، ابنة أحد شيوخ المرتدين أبي جمعة، وهاجم المرتدين المجتمعين للعبث، في بيت أبي جمعة، في قرية ينطا، وقضى عليهم ، باستثناء سكين الذي تمكّن من الهرب، لكنه، بحسب الرواية الدرزية ، لاقى حتفه في قرية عرنة في السفح الشرقي لجبل حرمون، على يد إحدى الموحّدات من آل كبّول، التي ألقت به في التنور الذي تصنع الخبز عليه.

جبل صيدا: خلت رسائل الدعوة من ذكر أي مكان في جبل صيدا، أي قضاء الشوف حالياً، إلا انه هناك أسماء مكان على اسم الداعية، السيدة ساره أو الست ساره، وعنعنة تحكي عن مرورها في جنوب الشوف. وهي ابنة أخ المقتنى بهاء الدين، ومنهم من يقول ابنة أخته[٢]. ولها هجرتان في سبيل الدعوة، أولاهما من حلب إلى القاهرة، وثانيتهما من القاهرة إلى وادي التيم ومنه إلى القاهرة. أرسلها بهاء الدين إلى وادي التيم لهداية من ارتدّوا عن الدعوة واتبعوا المرتد سكين وقتلوا رسول بهاء الدين إليهم، الداعي أبا اليقظان عمّار. لها في وادي التيم مقامان في بلدتي عيحا وضهر الأحمر. ولها في جبل بيروت مقام في شارون. أما في جبل صيدا، فقد سميت باسمها مغارة البزوز الواقعة إلى الجنوب من قرية جديدة الشوف. وهناك مكان في

---

[١]– صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١٤٨.

[٢]– الأشرفاني: عمدة للعارفين، الجزء الثالث، ص ٦٩٥ ، ٦٩٩.

بعقلين اسمه "دعسة الست ساره"، ومكان في "معبور مزرعة الشوف" بنفس الإسم، أي "دعسة جواد الست ساره". وفي الذاكرة الشعبية رواية عن هربها في أرجاء الشوف من أمام مرتد يلاحقها[1].

هل يعود عدم ورود اسم جبل صيدا، أو اسم إحدى مناطقه، أو اسم أحد سكانه إلى عدم وجود بارزين فيه، او إلى اختفاء الرسائل إلى أهله مع الرسائل التي لم يعثر عليها، أم ان الدعاة لم يرسلوا فعلاً أية رسالة. لا يمكن الإجابة عن هذا، وإنما يمكن القول إن سكان جبل صيدا آمنوا بالتوحيد في بداية الدعوة إليه كما آمن به إخوانهم في جبل بيروت.

كسروان: الرسالة المرسلة إلى الامير ابي الفوارس معضاد تذكر قرى فلّجين وعين صوفر والمروج وعين عار، وتطلب منه الاهتمام بمن فيها ومن يجاورهم. وفي هذا دلالة على شمول نطاق الدعوة كسروان من خلال ذكر قريتين منه، هما المروج وعين عار وجوارهما، ودلالة على وجودٍ قديمٍ للموحّدين الدروز فيه استمر مئات السنين، ولا تزال بقاياه إلى اليوم في مجموعة من القرى في الناحية الشمالية منه، المسمّاة "الخارجة".

وبناءً على ما ورد ذكره من انتهاء جميع الحركات الردّية بين سنتي ١٠١٧ و ١٠٣٧، يُفترض ان يكون الموحّدون الدروز في كسروان، إبّان الحملات المملوكية عليه ابتداءً من اواخر القرن الثالث عشر الميلادي، على النهج التصحيحي الذي أرساه بهاء الدين بعد القضاء على الحركات الردّية، ومنها حركة نشتكين الدرزي، وان يكونوا كإخوانهم في سائر المناطق، لا لبس بعقيدتهم، ولا بمسلكهم وتقيدهم بالتعاليم والتقاليد التوحيدية، ولاسيما المهمة منها. إلا أن أحد المؤرخين المعاصرين، نائل أبو شقرا، يصفهم

---

[1]- تصطبغ الرواية بالصبغة الأسطورية حيث تتحدث عن كيفية نجاة السيدة ساره من المرتد الذي يلاحقها، وذلك بلجوئها إلى مغارة البزوز، وبهروبها من أمامه وسلوكها "معبور المزرعة" حيث توجد في أعلاه جورة في الصخر، وفي أسفله مثلها، اعتقد السذّج المؤمنون بالخرافات والأساطير أنهما دعستا حصان السيدة ساره. لذا تضع النساء ثماني حصى في كل منهما تبركاً بالدعسة وتبركاً بالعدد ثمانية الذي هو جمع لعددين لهما دلالة دينية، هما الخمسة والثلاثة.

بالمرتدين. وقد جاء كلامه هذا في معرض محاولته إثبات أن جميع أهل كسروان كانوا دروزاً إبان الحملات المملوكية عليه.

سبق للاستاذ أبي شقرا قوله في مؤلف سابق له إن جميع أهل كسروان شيعة[١]. وها هو في مؤلَّف آخر يعدّل رأيه – وهذا حق طبيعي له – فيجعلهم جميعهم دروزاً، لكنهم في عرفه دروز مرتدون. أما حد كسروان الجنوبي عنده فهو، خلال القرن الخامس عشر الميلادي وما قبله، مجرى نهر الكلب[٢]، مع العلم أن حده الجنوبي، بحسب التنظيمات الإدارية العثمانية في النصف الاول من القرن السادس عشر، هو نهر الجعماني المسمّى عند مصبه نهر بيروت. ومن المستبعد أن يكون غير ذلك في العهد المملوكي، في القرن الخامس عشر. وبتحديده الخاطئ هذا، الذي لا يعتمد فيه على أي مرجع، ضيّق الإطار الجغرافي لكسروان، وضيّق بالتالي الإطار الجغرافي للوجود الدرزي المؤكد فيه، والذي هو في العهد المملوكي بين نهر الكلب في الشمال ونهر الجعماني في الجنوب. والذي يعنينا هنا، ليس البحث في حجم هذا الوجود، وفيما إذا كان يشكل أحادية مذهبية إسلامية، حاول الأستاذ أبو شقرا اثباتها بمناقشته للمصادر الإسلامية، أو يشكّل اكثرية أو أقلية، وإنما هو تحديد هوية هذا الوجود، والتأكيد على أنه لم يكن في أواخر القرن الثالث عشر، وبعده، من يمكن أن يسموا بالدروز المرتدين، وأن من يؤمنون بتعاليم أي من الدعاة المرتدين لا يسمون دروزاً.

قال الأستاذ أبو شقرا عن هوية الدروز الكسروانيين ما يلي: " كان على جماعة الموحّدين الذين ثبتوا على جوهر الدعوة، بعد عهد الدولة الفاطمية، أن يتّقوا الواقع السياسي الجديد، فوالوا السلطة الإسلامية السنية الجديدة، ونجحوا في الحفاظ على مذهبهم، وحقّقوا استقراراً نسبياً من الأمن ولا سيما في جبل الغرب من بلاد بيروت، في ظل خصوصيتهم المفروضة من الدولة والجماعة. في حين أن دروز كسروان كانوا حتى القرن السابع

---

[١]– نائل أبو شقرا: التحولات، ص ٢٤، ٢٦.

[٢]– نائل أبو شقرا: تاريخ لبنان، ص ١٢٠.

الهجري، الثالث عشر الميلادي، يؤمنون بمحمد الدرزي، تماماً كما كان يؤمن بعض الجماعات في وادي التيم في مطلع دعوة التوحيد، وبسبب التوجّه السياسي المتطرّف لقيادتهم، ضاعوا بين الـــ "توشتكينية" التي عُرفت كصفة للداعي محمد الدرزي، والحركة التصحيحية التي قام بها الداعي بهاء الدين السموقي"[1].

ثم ان الأستاذ أبو شقرا جعل من دروز كسروان فئتين ، فئة كانت مقيمة فيه، وفئة من التيامنة وفدت إليه ، فقال: "إن تسمية ابن كثير لهؤلاء الكسروانيين بـــ (التيامنة) تقودنا إلى الظن بأن جماعات تيمية على نهج محمد الدرزي ، هاجرت مواطنها الأصلية وتوطنت كسروان خلال دعوة التوحيد، أو بعدها بقليل، بحيث وجدت ضالتها في جبل من أصعب الجبال وأشقها ساحة، وفي مجتمع يتوافق مع معتقدها "[2]. وتفسيره للمجتمع الذي يتوافق مع معتقد هذه الجماعات هو انه ليس اسماعيلياً ولا نصيرياً ولا شيعياً، لأنه نفى وجود هذه المذاهب في كسروان[3] مما يقود حتماً إلى الاستنتاج أن هذا المجتمع "على نهج محمد الدرزي" ، أي دروز مرتدون.

إن كلام الأستاذ أبو شقرا، عن قدوم جماعة على مذهب محمد الدرزي (نشتكين) من وادي التيم إلى كسروان، مبني على الظن، كما أن انحراف الدعوة في وادي التيم لم يقترن باسم نشتكين، بل باسم سكين وحلفائه. فنشتكين قتل في السنة الأولى للدعوة، ولم تطأ أقدامه وادي التيم. وحركته الردية انتهت بمقتله. والحركة التي قام بها سكين لا علاقة لها بنشتكين. وإذا كان من غير المنطقي القول بنقل عقيدة الردة النشتكينية من مصر إلى وادي التيم، ثم من وادي التيم إلى كسروان، فإنه من المستحيل القول بوجود جماعة مقيمة أصلاً في كسروان هي على مبدأ محمد الدرزي (نشتكين)، إذ إن الدعوة إلى التوحيد في جبل لبنان تقترن باسم بهاء الدين،

---

[1]- المرجع نفسه، ص ١٨٠.

[2]- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[3]- المرجع نفسه، ص ١٦٤ وما بعدها.

ولم تحصل فيه أية حركة ردية، بل إن احد امرائه الأمير معضاد التنوخي قضى على حركة سكين في وادي التيم، فهل يعقل أن يكون في عقر داره، أي في جهات كسروان التي كان مسؤولاً عنها بتكليف من بهاء الدين، جماعة مرتدة على نهج محمد الدرزي.

إن ما عرضه الأستاذ أبو شقرا من آراء، وما اعتمد عليه من شواهد، غير مقنع. ومنه شكه غير المبرّر بصالح بن يحيى، بعد وصفه له مرتين بالتميّز بالتجرّد، لأنه لم يذكر هوية الكسروانيين وهو يعلم انهم دروز، بحسب اتهام أبو شقرا له، بل اكتفى بالقول "أهل كسروان"، بهدف إلقاء تبعة أحداث كسروان على الشيعة وإبعادها عن الدروز. ومنه ثقته بابن فضل الله العمري الذي كان، في رأينا، يعرف أسرار الدولة المملوكية كونه صاحب السر في مصر، لكنه لا يعرف عن الدرزية إلا الاسم الخاطئ والمعلومات الخاطئة، ولو كان على دراية بحقيقتها وبمسلك الموحدين وحرصهم على الفضائل لما اتهمهم، كما اتهمهم سائر من يجهلونهم، بما ليس فيهم، ولما عمّم وقال: "أهل كسروان ومن جاورهم" وهو يعني بذلك الدرزية[1]. وشأنه في اعتبار أهل كسروان "درزية فقط، كشأن المقريزي في اعتباره هذا الذي قال عنه المؤرخ كمال الصليبي: "هو خطأ واضح يعود إلى قلة معرفة المؤرخين المصريين في ذلك الوقت بشؤون الشام الداخلية"[2].

ومما هو غير مقنع أيضاً، وهو صميم الموضوع، كلام الأستاذ أبو شقرا عن دروز كسروان أنهم ضائعون بين حركة نشتكين الدرزي والحركة التصحيحية لبهاء الدين، وانهم مرتدون معتقدون بنشتكين، لأنه بعد كل الايضاحات التي قدمناها عن الحركات الردّية، والقائمين بها، وتواريخها، وتصحيحاتها، لا يمكن القول بوجود دروز مرتدين في كسروان في اواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر، بعد انتهاء الحركات الردية بأكثر من قرنين ونصف.. وإذا افترضنا وجود مثل هؤلاء في هذا الزمن،

---

[1]-العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٠٤ – ٢٠٥.

[2]- كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ١٣٥ (هامش).

فإنه يصح إطلاق أي اسم عليهم سوى اسم "الدروز"، على اعتبار أن الدرزية أطلقت خطأ على أتباع مذهب التوحيد منذ بداية الدعوة، من قبل المؤرخ الانطاكي الذي عاصرها، ثم تبنّاها سائر المؤرخين الذين جاؤوا بعده. وممن أطلق عليهم هذه التسمية أثناء الحملات المملوكية على كسروان ابتداءً من سنة ١٢٩٢ العمري المتوفى سنة ١٣٤٨، وابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٥، والمقريزي المتوفى سنة ١٤٤١. صحيح أن الموحدين الدروز مرّوا، بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر للميلاد، بارباكات وصعوبات، إلا أن هذا لم يمنع من ترسيخ مفاهيمهم الأساسية، وإبراز خصوصيتهم، وتميزهم بها وبالاسم عن الآخرين. ومن ارتدوا لم يعد اسمهم "الدروز".

جذور الثنائية في جبل لبنان

في قاموس الفكر السياسي، وفي مصطلحات تاريخ لبنان، مقولة "الثنائية السياسية". وهي في جبل لبنان درزية مارونية حتى نهاية عهد المتصرفية، ومنذ ولادة دولة لبنان الكبير في سنة ١٩٢٠ سنية مارونية. وهي منذ اتفاق الطائف في سنة ١٩٨٩ سنية شيعية ضمن المعادلة الطوائفية القائمة: السنة والشيعة والموارنة. وهذا يعني ان المعادلة لم تتخطّ بعد الإطار الطائفي والمذهبي وتصل إلى الإطار السياسي الصرف، أي الإطار العقائدي الحزبي الذي تتشكل فيه الأحزاب من كل الطوائف والمذاهب.

إن جذور الثنائية في لبنان تعود في نظر المؤرّخين إلى حوالى ألف سنة باسم الدرزية والمارونية، أي أنها نشأت بعد ظهور مذهب التوحيد الدرزي في النصف الأول من القرن الحادي عشر للميلاد. إلا انها، في رأينا، أقدم من ذلك، وانها تعود إلى القرن الثامن. وممن اعادها إلى ما بعد القرن الحادي عشر المؤرخ كمال الصليبي الذي حدّد نشوءها باكتمال صورة لبنان والمناطق المجاورة له من ناحية تركيب العناصر البشرية فيها، فقال:

"هناك الموارنة في شمال لبنان، والدروز في بلاد "الأشواف" ووادي التيم، والشيعة الإمامية في جبل عاملة وبلاد بعلبك وكسروان ومناطق أخرى يصعب تحديدها بما فيها بعض مدن الساحل على الأقل. وهناك أيضاً جاليات

من السنّة اكثرها في مدن الساحل (وعلى الأخص بيروت) وبعضها في مناطق أخرى على الأرجح. هذا بالإضافة إلى ما كان هنا وهناك من الشيعة الإسماعيلية والشيعة النصيرية، وغيرهم. والواقع إن المناطق اللبنانية لم يكن لها في هذا الدور تاريخ يختص بها. وقد بقيت هذه المناطق تشكل أجزاء هامشية من البلاد الشامية، لا تنفصل عنها حتى اواخر القرن الميلادي الحادي عشر. وفي اوائل القرن التالي انطلق الدروز والموارنة من بين الطوائف اللبنانية – كل فريق على حدة – في مسيرة تاريخية واضحة المعالم. ومع انطلاق هاتين المسيرتين بدأ تاريخ الجبل اللبناني ينتهج نهجه الخاص"[1].

إن مسيرة الدروز كجماعة مذهبية بدات مع الموارنة في القرن الحادي عشر، وإن مسيرتهم كعشائر عربية اسلامية بدأت في القرن الثامن للميلاد مع أجدادهم عند مجيئهم إلى جبل لبنان، بعد أن سبقهم الموارنة إليه وتوطّنوه في القرن السابع. فحين جاء أجداد الموحدين الدروز إلى جنوب الجبل كانوا على دين الإسلام بعد تنصّر بعضهم لمدة من الزمن. ومهمتهم جهادية هي حماية ثغر بيروت وساحلها من هجمات الروم، وحماية الطرق الرئيسة من اعتداءات المردة (الموارنة). فقد أخذوا دور القوات الإسلامية التي كانت، قبل قدومهم، تأتي من الداخل لمنع اعتداءات الروم أو لصد اعتداءاتهم، فتقيم مدة ثم تعود إلى مناطقها، فكان المناذرة اللخميون حماة الثغور عبرِ عدة قرونٍ، مما جعل المؤرّخ صالحِ بن يحيى، وهو من أحد فروعهم (التنوخيين) يقول "تا الله لا يأتي الزمان بمثلهم أبداً، ولا يحمي الثغور سواهم"[2]. لقد كانوا سيوفاً اسلامية في خط الدفاع الأول عن الداخل.

كان تعريب الدواوين والنقد تعريباً للدولة على صعيد رسمي، له تداعياته بالطبع على الصعيد الشعبي. وإلى جانب هذا كان للدروز والموارنة فضل في تعريب جبل لبنان على صعيد السكان، وعلى صعيد انتشار اللغة

---

[1]– المرجع نفسه، ص ٧٣ – ٧٤.

[2]–صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ، ص ٧-٨.

العربية فيه، بالرغم من أن القليل من الموارنة ظل يتكلم اللغة السريانية في شمال الجبل حتى القرن السابع عشر. وكان للدروز فضل في اسلمة الجبل. وبناءً لهذا دخل جبل لبنان في إطار التاريخ العربي والإسلامي. وفي هذا يقول دومينيك شوفاليه: "المؤرخون الدروز والموارنة يُدخلون منطقتهم ضمن سياق التاريخ العام للعالم الإسلامي"[1].

دخلت مناطق الدروز العرب والموارنة العرب في سياق التاريخ العام للعالم العربي والإسلامي. إلا أنه ظل للموارنة توجه سياسي خارج هذا الإطار، يظهر في المحطات التاريخية أثناء غزو الغرب للشرق وتدخله في شؤونه. وهذا جعلهم في موقف متعارض مع موقف الدروز العربي والإسلامي ، وأحياناً في جبهة حربية ضدهم.

قدّر لأجداد الموحدين الدروز أن يكونوا جيران الموارنة ابتداءً من سنة ٧٥٩، ثم قدّر للموحّدين الدروز، منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، أن يكونوا جيران الموارنة ثم مساكنيهم بعد قدوم هؤلاء من شمال جبل لبنان إلى جنوبه. فكانوا الجيران والمساكنين لبعضهم والمتآخين والمتعايشين معاً في فترات السلم والأمن، وكانوا المتخاصمين عندما يأخذ كلٌ منهم اتجاهاً مغايراً لاتجاه الآخر تبعاً لما يفرضه عليهم الموقع الجغرافي والموقع السياسي. ومع تخاصمهم في محطات كثيرة خلال ثلاثة عشر قرناً، سنذكر بعضها لاحقاً، كان قدرهم العيش الواحد في ظل التسامح الديني والاجتماعي، والتسامح السياسي. لقد عبّروا بوجودهم معاً ومع سائر الطوائف عن التنوّع الطائفي والسياسي في جبل لبنان، وكانوا أسّ كيانه بصيغة "لبنان الصغير"، الذي هو نواة "لبنان الكبير" المبني على التنوّع، المحكوم بالانفتاح على كل الثقافات والمستجدات، والاتجاهات مع البقاء في محيطه المشرقي العربي والإسلامي.

---

[1]- دومينيك شوفاليه : مجتمع جبل لبنان، ص ٦٣.

الفصل السادس

في عهد الأتابكة والأيوبيين وبداية عهد المماليك

(عهد الفرنج ١٠٩٩ - ١٢٩١)

حملات الفرنج

الأسباب: أطلق على الأوروبيين، الذين قاموا ابتداءً من سنة ١٠٩٦ بسبع حملات على الشرق، اسم الصليبيين "لأنهم رفعوا شارة الصليب ووضعوها خصوصاً على أيديهم، فيما أطلق المؤرّخون المسلمون عليهم أسماء "الفرنج" و"الافرنج" و"الافرنجة" لغلبة من كانوا يسمَّون بهذا الاسم، ويسكنون في المناطق الواقعة بين شمال الأندلس وشمال إيطاليا، عليهم. وكان لبنان بحكم موقعه، وكونه بوّابة الغرب إلى الشرق، ممراً لهم إلى الأماكن المقدّسة ثم مستقراً، كما كان ممراً ومستقراً لغيرهم من الغزاة والفاتحين.

تضافرت مجموعة من الأسباب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليقوم الغرب المسيحي بغزو الشرق المسلم. ففيما كان الغرب يقوم بعمليات ناجحة لاسترداد الأندلس، وجزر غرب البحر الأبيض المتوسط، من المسلمين، كان السلاجقة الأتراك المسلمون يزحفون باتجاه أوروبا من خلال آسيا الصغرى، ويُنزلون، بقيادة سلطانهم ألب أرسلان، هزيمة ساحقة بامبراطور الروم ارمانوس في ملازكرت سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م، انتهت بأسر الأمبراطور واضطراره إلى عقد الصلح على أن يدفع كل سنة ألف

ألف دينار[1]. هذا التوسع السلجوقي أفضى إلى قيام امارة سلجوقية قوية في آسيا الصغرى سنة ١٠٨٦، عُرف أتباعها بسلاجقة الروم، عاصمتها قونيا. كما مهّد الطريق لتوسّع السلاجقة ووصولهم قبالة الشواطئ الأوروبية، إذ كان أمراؤهم "يسبّحون خيولهم في بحر مرمرة ويرتقبون نهزة للعبور إلى تراقيا"[2]. فبدت القسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، مهدَّدة بالسقوط. ثم جاءت معركة "الزلاّقة" في الأندلس، التي انتصر فيها المرابطون المسلمون على جيش الفونسو السادس القشتالي سنة ١٠٨٧. تجديداً للخطر على أوروبا من ناحية الغرب، فصارت كأنها بين فكّي كماشة اسلامية.

آنذاك كانت البابوية تعيد تنظيم الكنيسة اللاتينية وتضعها تحت إشرافها المباشر، وتتطلّع إلى وضع المسيحيين المخالفين لها، والتابعين للكنيسة البيزنطية، تحت سلطتها، وإلى الإشراف على الأماكن المقدّسة في فلسطين. وتلاقت رغباتها تلك مع رغبة النبلاء الأوروبيين بتأسيس ممالك لهم في الشرق، ورغبة الملوك بالتخلّص من هؤلاء النبلاء بعد أن بلغوا شأواً كبيراً من النفوذ وباتوا ينافسونهم، ورغبة الفقراء بالتخلّص من الفقر المدقع وتحسين أوضاعهم، ورغبة المؤمنين بغفران الذنوب والأخطاء جزاءً لمشاركتهم في استعادة الأماكن المقدّسة وتأمين وصول الحجّاج إليها بأمان، بعد ان ضُخِّمت أخبار اعتداءات المسلمين على الحجاج المسيحيين . فجاءت الحروب الإفرنجية (الصليبية) سبيلاً لتحقيق هذه الرغبات، ووسيلة تخفّف الضغط الإسلامي على أوروبا بنقل الحرب إلي ديار الإسلام نفسها.

لبّى البابا والغرب نداءات الامبراطور البيزنطي الكسيوس لمجابهة الخطر السلجوقي على امبراطوريته وعاصمته القسطنطينية، ودعا إلى عقد مجمع ديني في كليرمونت في جنوب شرق فرنسا. لكنه في خطابه في هذا المؤتمر، في ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥، لم يتحدّث عن بيزنطية التي

---

[1]– أنظر عن معركة ملازكرت واسر الأمبراطور البيزنطي: صدر الدين بن علي الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، ص٥١– ٥٢. والأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٠ – ٤٢.

[2]– رنيه غروسيه: رصيد التاريخ، الجزء الثاني، ص ١١٠.

استنجدت به، بل وصف ما ينزله المسلمون بالحجّاج المسيحيين من العذاب والمتاعب أثناء حجّهم إلى الأماكن المقدّسة[1]. وخاطب المسيحيين نيابة عن الرب، ووجّه نداءه الشهير إليهم بأن ينطلقوا لاسترجاع مدينة القدس، واعداً بغفران ذنوب من يُفقدون في البر والبحر في قتال من اسماهم "الكفّار".

الحملة الأولى: سبق نداء البابا دعواتٌ إلى وجوب استخلاص الأماكن المقدّسة، كان أشدّها على لسان بطرس الناسك[2] الذي طاف على الناس، وتكلّم عما لاقاه ويلاقيه الحجاج المسيحيون من العذاب وسوء المعاملة من العرب والتركمان. وأعيد إلى الأذهان خبر هدم الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله، كنيسة القيامة في سنة ١٠٠٩ [3] بعد أن طواه الزمن. وحين أطلق البابا نداءه إلى حمل السلاح هتف سامعوه "هكذا أراد الله". واستجاب له بسرعة عشرات آلاف المتحمّسين، وساروا في حملة شعبية غير منظمة، بقيادة عديدين أبرزهم بطرس الناسك. ونشر أفرادها الخراب والدمار والقتل، واعتدوا على النساء في الأماكن التي مرّوا بها في أوروبا الوسطى والشرقية. وحين وصلوا إلى القسطنطينية لم يمتثل قائدهم بطرس الناسك لنصيحة الامبراطور بوجوب انتظار الحملة المنظمة، فتابعوا زحفهم إلى آسيا الصغرى. وحين بلغوا محيط نيقيا نهبوا قراه، وقاموا بأعمال وحشية هي "تقطيع بعض الأطفال إلى قطع ووضع بعضهم الآخر على قضبان خشبية

١- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول، ص ١٦١.

٢- كان لبطرس لقب آخر غير لقب "الناسك" لم يشتهر به، هو كوكو بطرس، أي بطرس الصغير تمييزاً له عن بطرس الأكبر.

٣- سميت كنيسة القيامة بهذا الإسم لاعتبار المسيحيين أن المسيح قامت قيامته فيها. وسميت في بعض المصادر الإسلامية "كنيسة القمامة". أنظر، مثلاً، الظاهري الحنفي: نيل الأمل، المجلد الثاني، ص٢٥، على اعتبار ان المكان الذي قامت فيه كان موضعاً تُرمى فيه القمامة (الأوساخ) ظاهر بيت المقدس. وأنظر أيضاً ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الرابع، ص٣٩٦.

وشيّهم فوق النار، وتعذيب الشيوخ"[1]. وعندما وصلوا إلى نيقيا أجهز السلاجقة عليهم.

أراد الأمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينوس مساعدة أوروبية ترفع الخطر عن بلاده وعن عاصمتها المهدّدة بالسقوط، وتساعده على استعادة ما فقدته الامبراطورية من أراضي بسبب التوسّع الإسلامي فيها. لكنه حرص على سلامة بلاده من الأفرنج أنفسهم، سيما بعد أن استشفّ خطرهم من خلال مشاريعهم التوسعية، وقوة حملاتهم، وكثرة اعتداءاتهم في المناطق التي مرّوا فيها. ولكي يضمن المستقبل، وليحول دون قيام الحملة المنظمة، التي وصلت إلى القسطنطينية في سنة ١٠٩٧، باعتداءات مماثلة لتلك التي قامت بها الحملة الشعبية، اشترط على قادتها أن يقسموا يمين الولاء له، وأن يضعوا ما يستخلصونه من أراضي في عهدته، مقابل نقلهم إلى البر الأسيوي، وتسهيل طريقهم، وتقديم المساعدات لهم. وكان أبرز هؤلاء القادة غودفروا دى بويون ويسميّه المسلمون كندفري وكندجري، وأخوه بودوان، ويسمّونه بغدوين وبردويل وبلدوين، وبوهيموند النورماندي ويسمّونه بيمند وبيمنت، وريموند دى تولوز، أو ريمون دى سان جيل، ويسمّونه صنجيل.

وبحسب ما جاء في المصدر التاريخي المعاصر للحملة الفرنجية، أقسم بعض قادة الفرنج طوعاً يمين الولاء للامبراطور، وبعضهم أقسم جبراً، وقلة منهم لم تفعل ذلك[2]. فظهر منذ البداية التباين بين أهدافه واهدافهم، وعدم الثقة المتبادل. ثم ظهر ذلك جلياً في تلكؤ الامبراطور عن مساعدتهم على احتلال انطاكية. وبالمقابل نكث الفرنج بيمينهم واحتفظوا بإمارة الرها (أورفا) التي احتلها بغدوين في سنة ١٠٩٨، وأسس فيها أول إمارة إفرنجية في الشرق، واحتفظوا بأنطاكية التي احتلوها، قبل الرها، في آذار سنة

---

[1]- آنا كومنينا: كتاب الالكسياد، ترجمة سهيل زكّار بعنوان الحروب الصليبية، الجزء الأول، ص١٦. والمؤرخة هي ابنة الأمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينوس.

[2]- المصدر نفسه، ص ١٣٠ ، ١٧٣، ١٧٤.

١٠٩٨، وأخذوها من صاحبها ياغي سيان التركي. وقد أسس فيها بوهيموند الإمارة الثانية وسلّمها إلى ابن اخته تانكرد[1]. وإضافة إلى ذلك طرد الأفرنج البطريرك الارثوذكسي منها وعيّنوا الأسقف اللاتيني برنارد. وهذا جعل الأمبراطور البيزنطي يعزم على تجهيز حملة لاسترجاع أنطاكية، وسبق الفرنجة إلى احتلال بيت المقدس.

لم يكن الفرنجة يطمعون في أراضي الإسلام فقط، بل إنهم طمعوا في أراضي الامبراطورية البيزنطية نفسها، إذ إن بوهيموند جهّز، بعد عودته إلى بلاده في سنة ١١٠٥، قوة نورماندية، وسار على رأسها لاحتلال القسطنطينية . لكن الامبراطور تمكن من التغلّب عليه. وما لم يتحقق على يد بوهيموند تحقق على يد البنادقة في سنة ١٢٠٤، فقد احتلوا القسطنطينية مما جعل الحرب الأوروبية المقدّسة المسمّاة بالصليبية تتجه ضد الصليب الشرقي كما اتجهت ضد الهلال.

حقّق الفرنجة انتصارين كبيرين باحتلال أنطاكية والرها. ثم حقّقوا انتصاراً على أمير الموصل كربوقا التركي الذي قاد سلاجقة الشام والجزيرة وجموع العرب، وكاد يستعيد أنطاكية سنة ١٠٩٨، لولا الخلاف بينه وبين القادة المسلمين الذين اجتمعوا إليه[2]. وبعد هذه الانتصارات، وبعد أن وقفوا على ضعف المسلمين وتشتتهم، ونجحوا في إيهام صاحبي حلب ودمشق "بأنهم لا يقصدون غير البلاد التي كانت بيد الروم"[3]، ما عادوا يكترثون لمساعدات الأمبراطور البيزنطي، ولا يخشون ما يمكن أن يقوم به ضدهم. ولما كان هدفهم الأول بيت المقدس، اسرعوا في الزحف إليه، ولم يضيعوا الوقت في احتلال المدن التي مرّوا بها عموماً، والمدن الساحلية اللبنانية تحديداً، مكتفين عوضاً عن ذلك بالحصول على المؤن والمساعدات، والأدلاّء لمعرفة طريقهم.

---

[1]- المصدر نفسه، ص ١٨٦.

[2]- تاريخ ابي الفداء: الجزء الثاني، ص ٢٧.

[3]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد العاشر، ص ٢٧٥.

أول مدينة لبنانية وصل الفرنج إليها هي مدينة عرقة التي كانت تتبع لصاحب طرابلس، ابن عمّار، فبدأوا حصارها. إلا أنهم حين رأوا أنه سيطول، بسبب منعتها، وافقوا على رفعه مقابل تقديم صاحب طرابلس لهم المال والمؤن والخيول والأدلاّء. كانت طرابلس تابعة للخلافة الفاطمية في مصر، إلا أن متسلّمها، أبا طالب الحسن بن عمّار، وكان قاضياً على المذهب الجعفري، استقلّ عن الفاطميين. وخلفه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمّار. وبعد موت هذا خلفه أخوه أبو علي فخر الملك بن عمّار الذي قدم الفرنج في عهده إلى طرابلس. ففضّل التفاهم معهم ليحافظ على إمارته في وجه القوى الثلاث المتصارعة: السلاجقة والفاطميون والفرنجة.

وبعد أن أقام الفرنج في ضواحي طرابلس ثلاثة أيام، تابعوا السير على الساحل اللبناني ومعهم الأدلاّء، ولا سيما من موارنة شمال جبل لبنان. فمرّوا بأنفا ورأس شكا والبترون وجبيل. ووصلوا في ١٩ أيار ١٠٩٩ إلى بيروت التي كانت تتبع للفاطميين، فعرض أهلها عليهم تقديم ما يلزم من مؤن، على الا يتعدوا على حدائق المدينة وبساتينها. وعند وصولهم إلى صيدا نزلوا على ضفة نهر الأولي الجنوبية، وهناك جوبهوا بمقاومة من اهلها فانتقموا بتخريب البساتين. "وقبل أهل صيدا أن يدفعوا جزية سنوية لهم مقدارها ٢٠٠ دينار على أن لا تُمسّ مدينتهم"[١].

كان بيت المقدس للفاطميين، لكن تاج الدولة تتش السلجوقي انتزعه منهم، وأقطعه الامير سقمان بن أرتق التركماني. ولما وهن السلاجقة بمعركة انطاكية طمع الفاطميون في استرجاعه، فحاصره الأفضل بن بدر الجمالي أربعين يوماً، ثم ملكه بالأمان وولّى عليه الأمير افتخار الدولة[٢]. وصل الأفرنج إلى بيت المقدس في ٧ حزيران ١٠٩٩ فاحكموا الحصار عليه، واحتلوه في ١٥ تموز ١٠٩٩. ولبثوا فيه أسبوعاً يقتلون المسلمين حتى بلغ ما قتلوا ما يزيد عن سبعين ألفاً بينهم الأئمة والعلماء والعبّاد والزهّاد، وشيوخ

---

[١]- منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، ص ١٥٥.

[٢]- تاريخ ابن خلدون: الجزء الخامس، ص ٢١.

ونساء وأطفال لجأوا إلى المسجد الأقصى "ولم يوفّروا أحداً لا لعمره ولا لجنسه ولا لمرتبته ولا لأي وضع من الأوضاع"[1]. وتحت ستار انتزاع الأماكن المقدّسة قام الافرنج بأعمال وحشية تتعارض مع تعاليم المسيحية، مما حمل البابا على تقديم اعتذار للمسلمين باسم الكنيسة الكاثوليكية عن هذه الأعمال، وذلك خلال زيارته للقدس في شهر آذار سنة ١٩٩٨.

قال في الفرنج مؤرخ معاصر لهم عايشهم وخبرهم: "إنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل"[2]. وهذه الميزة ساعدتهم في انتصاراتهم حوالى القرنين في الوسط الإسلامي المعادي لهم والمتفوّق عليهم في العدد. ولم يكن المسلمون أقل شجاعة منهم ومقدرة على القتال، كما إن إيمانهم بوجوب الاحتفاظ بالأماكن المقدّسة في فلسطين ليس أقل من إيمان الفرنج بوجوب أخذها. إلا أنهم كانوا إبّان حصول حملات الفرنج منقسمين على أسس دينية وعرقية وسياسية إلى ملل ونحل، وأفرقاء متنازعين ومتنافسين . ففي الشرق والشمال يسيطر السلاجقة السنّة . وشمال بلاد الشام، الداخل ضمن منطقة نفوذهم ، مجزأ إلى مقاطعات بعضها مستقل، وإمارات سلجوقية وتركمانية متخاصمة. وفي مصر وجنوب بلاد الشام يسيطر الفاطميون الشيعة المتنافسون على النفوذ مع السلاجقة.

وبدلاً من أن يتحد أفرقاء المسلمين، ويشكلوا جبهة واحدة تقاتل العدو المشترك، واجهوه فرادى، وتراخوا عن نصرة بعضهم بعضاً، فغلبهم عدوهم واحداً بعد آخر. فبينما كان السلاجقة يواجهون الفرنج في أنطاكية كان الفاطميون يحاولون التفاهم مع الفرنج على تقسيم مناطق النفوذ، ويستخلصون القدس من أيدي السلاجقة بعد أن انتزعها منهم هؤلاء في السابق، وبعد أن قهر الفرنج السلاجقة في انطاكية قهروا الفاطميين في القدس. وقد رأى بعض الأمراء والحكام المسلمين في الفرنج حليفاً له على منافسه وخصمه، وبلغ الضعف ببعضهم الآخر حد موادعتهم ومهادنتهم ودفع الجزية والتخلي عن

[1] – أورديك فيتالي: التاريخ الكنسي، ص ١١٩.

[2] – أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ، ٢٢٨ – ٢٢٩.

بعض الحصون والمدن مقابل عدم تعرض الفرنج لهم وضمان نفوذهم واستمرار حكمهم.

سقوط بيروت وصيدا

بعد انشاء الفرنج إمارتي الرها وانطاكية والمملكة اللاتينية في القدس، وثبات أقدامهم في الشرق، رأوا ضرورة احتلال مدن الساحل اللبناني والفلسطيني لوصل هذه الكيانات ببعضها، ولتأمين الطريق الساحلية، وإيجاد المرافئ لاستقبال سفنهم، ولتحصين وجودهم في الشرق.

ملك الفرنج في سنة ٤٩٤هـ / ١١٠١م حيفا وقيسارية عنوة، وارسوف بالأمان. وملكوا جبيل في سنة ١١٠٣، وعرقة في سنة ١١٠٩. وحاصروا طرابلس واحتلوها في شهر ذي الحجة من سنة ٥٠٢ هـ / تموز ١١٠٩م، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها واطفالها، ونهبوا كنوزها وخزائن أربابها، وقرروا أن يكون ثلثها للجنوبيين والثلثين لريمون دى سان جيل، وافردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به[1]. وكان من أسباب سقوطها، وهي التي امتنعت على الروم، تألب جموع الفرنج وقادتهم عليها، وعدم وصول الأسطول الفاطمي لنجدتها، لأن الرياح العاتية صدّته ومنعته من إنزال حمولته فأفرغها في صور مما ساهم في صمودها وصمود بيروت وصيدا[2]. واحتل هنكري، صاحب انطاكية، بانياس.

وسقطت حلبا وأنفا والبترون. ونزل ملك الفرنج بغدوين وابن صنجيل على ثغر بيروت، وحاصراه براً وبحراً، واتاهما جوسلين صاحب تل باشر (تل باجر اليوم) للمساعدة. وأقام الفرنج برجاً على سور بيروت، لكن حجارة المنجنيق كسرته، فبنوا برجاً آخر، وشدّدوا الحصار على المدينة. واستبسل أهلها في الدفاع عنها. وتقوّوا بوصول تسع عشرة سفينة فاطمية أنزلت لهم الميرة، وعوّضت قليلاً عما كان متوقعاً أن يقدمه لهم طغتكين،

---

[1]- سهيل زكّار: الحروب الصليبية ، الجزء الثاني، ص ٥٥٧.

[2]- ابن الأثير: الكامل، المجلد العاشر، ص٤٧٥ – ٤٧٦، وابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢٦٢.

حاكم دمشق، لكنه لم يفعل بسبب موادعته للفرنج. وهذا حمل الملك بغدوين على الاستنجاد بالسفن الجنوية النازلة في السويدية، فوصل منها أربعون سفينة محمّلة بالجنود مما أخلّ بميزان القوى لمصلحة الفرنج الذين بنوا برجين على سور بيروت تمكنوا بواسطتهما من الدخول اليها وامتلاكها بالسيف بعد مقتل قائد الأسطول الفاطمي، وإبداء أهل بيروت مقاومة لم يرَ الفرنج مثلها من قبل. وقد قتل الفرنج والي بيروت الذي هرب بالأموال، وأخذوا منه ما حمل منها، ونهبوا المدينة واستباحوها[١].

أعقب ذلك وصول ملك النرويج سيجورد على رأس اسطول إلى مملكة بيت المقدس، وهو أول ملك أوروبي يحج إلى القدس، فوافق على مساعدة بغدوين في محاصرة صيدا، فبدأ الفرنج حصارها في ربيع الآخر ٥٠٤هـ/ تشرين الأول ١١١٠م. إلا ان الأسطول الفاطمي كاد يبدّد الأسطول النرويجي لو لم ينقذه اسطول البنادقة. وانشأ الفرنج حول صيدا برجاً من خشب. فلما رأى أهلها إحكام الحصار عليهم من البر والبحر خافوا أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت إن لم يسلّموا بالأمان، فأرسلوا القاضي وبعض الشيوخ إلى الفرنج طالبين التسليم على أمان يعطى لهم، فأمنهم هؤلاء، وأمنوا المقاتلين على الأنفس والأموال ، وسمحوا لمن لا يريد البقاء في صيدا بالخروج منها، فغادرها كثير من الموالي والأعيان في العشرين من جمادى الأولى ٥٠٤هـ / أوائل كانون الأول ١١١٠م. وفرض بغدوين على الفقراء، الذين لم ينزحوا من صيدا، جزية بلغت عشرين ألف دينار[٢].

برزت في حصار صيدا قضية المسلم الذي عمّده الملك بغدوين باسم "بغدوين". لكنه ارتد، واتصل بمسلمي صيدا، وتآمر معهم على قتل الملك،

١- أنظر عن احتلال الفرنج بيروت ومقاومتها لهم، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ٢٦٨-٢٦٩. وسهيل زكار: الحروب الصليبية، الجزء الثاني، ص ٥٦٢.

٢- أنظر عن حصار صيدا: ابن الأثير: الكامل، المجلد العاشر، ص ٤٧٩ - ٤٨٠. وستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثاني، ص ١٥٠ - ١٥١.

فعرف مسيحيو صيدا بذلك، وأعلموا الملك به بواسطة رسالة رموها بسهم، فكانت نهاية هذا المسلم الموت على الخازوق[١].

وفي ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ/ تشرين الثاني ١١١١م بدأ الفرنج حصار صور، لكنهم لم يتمكنوا من احتلالها بسبب قوة دفاع أهلها ونجدة طغتكين زنكي لها[٢]. وقد تأخر احتلالهم لها إلى سنة ١١٢٣ بعد أن ظلت ومدينة عسقلان آخر حصنين اسلاميين يستعصيان عليهم.

مشاركة المناذرة بقيادة الأرسلانيين في التصدّي للفرنج

استُقدم المناذرة في سنة ٧٥٩ للدفاع عن ثغر بيروت من اعتداءات الروم، وحماية الطرقات من اعتداءات "المردة " (الموارنة) حلفاء الروم. وها هم في أواخر القرن الحادي عشر، وأوائل القرن الثاني عشر، امام عدوٍّ جديد، هو الفرنج، سيخوضون ضده معارك نهر الكلب وبيروت و"الغرب" وصيدا، وسيكون لهم دور في الدفاع عن بيروت وعن صيدا، تميّز بالكثير من التضحيات، وتخلّله الكثير من المآسي. وكانوا ، كما في السابق، بقيادة الأمراء الارسلانيين. إلا أن دور أبناء عمومتهم، ولاسيما بني عبدالله وبني فوارس، يظهر هنا واضحاً، فيما لم تذكر المصادر التاريخية أي دور لهم في الحوادث السابقة.

في سنة ١١٠١ سار شمس الملوك دقاق السلجوقي من دمشق، ومعه جناح الدولة، صاحب حمص، إلى نهر الكلب، لاعتراض مسيرة بغدوين إلى القدس لتسلم عرش مملكتها بعد مقتل أخيه غودفروا دى بويون في حصار عكا. وحضر الأمير عضد الدولة علي الأرسلاني مع شمس الملوك، ومعه عمال صيدا وصور ورجال "الغرب". لكن بغدوين ظفر ببعض اصحاب جناح الدولة[٣]، إذ تظاهر بالرجوع قبل أن يصل إلى ممر نهر الكلب الضيق

[١]– أنظر عن موضوع المسلم المتنصر: الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ١٠١ – ١٠٢.

[٢]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد العاشر، ص ٤٨٨، ٤٩٠.

[٣]– سهيل زكّار: الحروب الصليبية، الجزء الثاني، ص ٥٤٠.

بهدف إخراج الجمع من مكمنهم، فلحقوا به. عندها ارتد نحوهم وأحدث ثغرة في جموعهم وتابع سيره. "وبسبب هذه الواقعة ولّى شمس الملوك الأمير عضد الدولة علي على مدينة صيدا، وأمره بتحصين البلدتين [بيروت وصيدا] فحصنهما ، وأرسل إلى صيدا نايباً عنه الأمير مجد الدولة محمد ابن الأمير عدي ابن الأمير سلمان ابن الأمير عبدالله من الامراء بني عبدالله"[1].

كانت بيروت وصيدا تابعتين للفاطميين، "وعلى صيدا في سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م سند الدولة أبو منصور استكين الأفضلي"[2]. وتعيين شمس الملوك دقاق للأمير عضد الدولة علي الأرسلاني، وتعيين هذا مجد الدولةَ من بني عبدالله مكانه على صيدا أمر يثير التساؤل، إذ إن الفاطميين هم الذين يعيّنون الوالي على صيدا لا منافسهم شمس الملوك، سيما أن اسطولهم كان يتولّى دعم جميع المدن الساحلية بما في ذلك مدينة طرابلس المنفصلة عنهم. ولربما كان تعيين مجد الدولة من قبلهم لا من الأمير عضد الدولة المعين من شمس الملوك، أو أنه كان عند عضد الدولة ازدواجية في الولاء، للفاطميين ولشمس الملوك معاً.

وفيما اكتفى السجل الأرسلاني بذكر أسماء القتلى من بني أرسلان وبني فوارس المناذرة، في الدفاع عن بيروت، وفي ما اسماه "وقائع الغرب"[3]، توسع الشدياق في وصف هذه الوقائع، وقال: لما تعذّر على بلدوين فتح بيروت التي كان فيها شجاع الدولة وجماعة من أقاربه "استنجد بافرنج السواحل وأمراء المردة فانجدوه. فنهض أفرنج الشمال وتجمّعوا مع المردة في جبيل، ونهض فرنج الجنوب وتجمعوا في مرج الغازية. ثم نهض الفريقان في يوم واحد، الشماليون على طريق الجرد والجنوبيون على طريق الساحل، وداهموا الغرب صباحاً فنهبوه وأحرقوه وقتلوا وأسروا من وجدوه. فلم ينج من أهاليه سوى الغائبين والمنهزمين والمختبئين... ولم يبقَ من

---

[1]- السجل الأرسلاني: الأثبات الثامن، ص ٩٨.

[2]- الياس القطّار: لبنان في القرون الوسطى، ص ٨٢.

[3]- السجل الأرسلاني: الإثبات العاشر، ص ١٠٤.

الأمراء الموجودين في الغرب سوى الأمير بحتر ابن الأمير عضد الدولة علي إذ أخفته أمه في عرمون حتى انجلت الافرنج. ثم انحدرت الافرنج إلى بيروت وشدّدوا عليها الحصار ففتحوها بالسيف"[١].

في ما ورد دلالات ثلاث، أولاها التضحيات التي قدّمها المناذرة في الدفاع عن مدينة بيروت. وثانيتها هي أن منطقتهم "الغرب" كانت تشكل خط دفاع عنها، ومكاناً لامداد المحاصرين فيها بالرجال والمؤن، مما حال دون سقوطها وأطال مدة حصارها، ودفع بالفرنج إلى إزالة هذا الظهير الدفاعي ليتمكنوا من احتلالها. وثالثتها هي وقوف المناذرة و"المردة" أي الموارنة، مرة أخرى على خط التعارض: المناذرة بقيادة الارسلانيين مع القوى الإسلامية المناهضة للفرنج والمردة (الموارنة) مع هؤلاء.

من الدوافع لاتخاذ "المردة" (الموارنة) هذا الموقف المناصر للفرنجة ضد مجاوريهم الذين أصبحوا آنذاك على مذهب التوحيد، رغبتهم في الثأر منهم، لأنهم قاتلوهم في عدة معارك سابقة، وانتصروا عليهم، وأزاحوهم من مواقعهم نحو الشمال، بحيث صارت حدودهم تقف عند نهر الكلب. ومنها نظرتهم إلى الفرنجة "كما كانوا ينظرون إلى كل غاز مسيحي انه حليف طبيعي تجمعهم وإياه رابطة الدين"[٢]. وبهذا تطوّر موقف الموارنة من ادلاّء للفرنجة على الطرقات المؤدية إلى بيت المقدس إلى مقاتلين معهم ومساعدين في شتى المجالات حتى رحيلهم عن الشرق.

وفيما أُعتبرت حرب المناذرة للفرنجة جهاداً من موقع طبيعي، وحلقة من دور تاريخي، اعتبر بعض المؤرّخين الموارنة أن وقوف الموارنة مع الفرنجة هو "لخلاص النصارى ورفع نير الاضطهاد عنهم... وقد دخلت كل بلاد الموارنة في حكم هؤلاء الإفرنج ونالهم منهم كل رعاية. وقد تمتعوا في عهدهم بتمام الحرية مع المحافظة على استقلالهم وعاداتهم، فكان يحكمهم

---

[١]- الشدياق : أخبار الأعيان، الجزء الثاني، ص ٥٠٦- ٥٠٧.

[٢]- يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام، الجزء الأول ، ص ٩٩.

أعيانهم على الطريقة الاقطاعية"[1]. الا أن هذا كان له ثمن باهظ لأن الإفرنج "إذا كانوا قد مدّوا إلى مسيحيي لبنان يد المساعدة في بعض الأحيان مجتهدين بنفوذهم أن يخفّفوا عنهم المظالم، فقد قاموا ببعض واجبهم ووفّوا جزءاً يسيراً من دينهم لأننا أضعنا سهولنا وسواحلنا وجرودنا وحريتنا ودماءنا وثقة جيراننا المسلمين في سبيل الانضمام إلى دعوتهم والقتال في جانبهم وارشادهم في حروبهم مدة ثلاثة قرون متوالية"[2].

يُذكر هنا موقفٌ للروم الارثوذكس في الكورة مغاير لموقف الموارنة، وهو أنهم كانوا أدلاء، وقدّموا مساعدات لأتابكة دمشق عندما هاجموا طرابلس وفاجأوا حاكمها بنطس وقتلوه. وهذا حمل خليفته ريموند أن يقوم في سنة ١١٣٧ بحملة على القرى التي ارتاب في مساعدتها للأتابكة "فقتل كل رجالها وسبى نساءها وأطفالها فباعهم رقيقاً بطرابلس. وعلى الرغم من أن هذه الصرامة والشدة أذلّت اللبنانيين، فإنها جعلتهم ينفرون من الفرنج"[3].

تنظيم الفرنج للأراضي المحتلة

نظّم الفرنجة الأراضي التي احتلوها فأسّسوا ثلاث امارات ، سمّوها بأسماء مراكزها وكبرى مدنها، هي إمارة الرها (١٠٩٨ – ١١٤٦) ومؤسسها بغدوين. إمارة أنطاكية (١٠٩٨ – ١٢٦١) ومؤسسها بوهيموند. كونتية طرابلس (١١٠٩ – ١٢٨٩) ومؤسسها ريمون دى تولوز. كما أسسوا مملكة بيت المقدس (١٠٩٩ – ١٢٩١) وكانت أطول الكيانات الإفرنجية عمراً، وأعظمها شأناً.

---

[1]– اسطفان البشعلاني: لبنان ويوسف بك كرم، ص ٦٠.

[2]– مقدّمة الأب بولس قرألي لكتاب الخوري جرجس زغيب: عودة النصارى إلى جرود كسروان، ص ٣.

[3]– ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثاني، ص ٣٢٣.

بعد احتلال الإفرنج للقدس في ١٥ تموز ١٠٩٩ تدارس قادتهم وأبرز رجال الدين اختيار سيّد لها. واختلفت آراؤهم حول هويته. أيكون رجلاً زمنياً وقائداً عسكرياً، أم رجل دين، ذلك أن العسكريين فضّلوا اختيار واحدٍ منهم لصعوبة المرحلة، ولأن عليهم عبء الجهاد أكثر من غيرهم، فيما رأى رجال الدين أن حكم الأراضي المقدّسة يجب أن يكون للبابا بواسطة بطريرك منتخب يمثّله. وبعد ثمانية أيام من النقاش والمؤامرات اختاروا غودفروا دى بويون ملكاً على الأراضي المقدّسة. فقبل المهمة، ولم يلبس التاج على اعتبار أن السيد المسيح لبس تاجاً من الشوك، واكتفى بلقب "حامي القبر المقدّس". عبّر الكونت ريمون دى تولوز عن استيائه من نتيجة الانتخاب فرفض تسليم الملك المنتخب برج داود، إذ كان يريد منصب الملك لنفسه. وفي الأول من آب ١٠٩٩ اجتمع رجال الدين واختاروا الأسقف أرنولف بطريركاً[١] . واتخذ الفرنج من يوم الجمعة في ١٥ تموز عيداً لأنه يوم أخذهم للمدينة المقدّسة[٢]. إلا أن الأسقف الإيطالي دامبير عمل على إبطال انتخاب الأسقف أرنولف بطريركاً ونجح في ذلك وانتخب بديلاً عنه.

امتدت كونتية طرابلس من شمال طرطوس إلى المعاملتين . وشملت من سورية مدينة طرطوس، ومن لبنان مدن عرقة وحلبا وطرابلس وانفا والبترون وجبيل. وتبعت سائر المدن الساحلية اللبنانية مع شريط ساحلي لمملكة القدس، فيما ظلت الأقسام الشرقية من المناطق الجبلية مع البقاع وأجزاء من وادي التيم خارج حدود الكيانات الفرنجية.

كان للملك السلطة في مملكة بيت المقدس، وعلى الإمارات الثلاث بحسب النظام الاقطاعي السائد في أوروبا، أي أنه مقدّم بين متساوين ، له الكلمة الأولى في القرارات المصيرية، وإليه يعود تسلم المهمات الرئيسة. وكان يتبع له مدن القدس وعكا ونابلس. وقد اختلف تنظيم المملكة تبعاً

١- أنظر عن انتخاب الفرنج لملك بيت المقدس وللبطريرك: أورديك فيتالي: التاريخ الكنسي، ص ١٢٠ – ١٢١. وستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية الجزء الأول، ص ٤١٠ – ٤١٤.

٢- أورديك فيتالي: التاريخ الكنسي، ص ١٢٠ – ١٢١.

للتطورات والتقسيمات الإدارية المختلفة، وتبعاً لاتساعها وتقلصها. وضمت سنيوريات بلغ عددها اثنتين وعشرين سنيورية، بينها في لبنان سنيورية بيروت وسنيورية صيدا وسنيورية تبنين وسنيورية صور[١].

وكان هناك منظّمات عسكرية دينية، أعلنت ولاءها منذ بداية حروب الفرنجة للبابا لا لملك بيت المقدس. إلا أن فرسانها كانوا يقاتلون إلى جانب الملك كمتطوعين وحلفاء. وأشهر هذه المنظّمات فرسان الأسبتارية، وفرسان الداوية، أي فرسان الهيكل.

سنيورية بيروت

شكّل الحدّ الشمالي لسنيورية بيروت حدّ مملكة بيت المقدس مع كونتية طرابلس. وهذا الحد هو نهر المعاملتين أو نهر غزير الواقع إلى الشمال من جونيه، وتبعاً لذلك تجاوزت سنيورية بيروت الحد الشمالي لمملكة بيروت الذي كان يصل فقط إلى نهر الكلب. إلا أن عرضها أقل بكثير من عرض مملكة بيروت لأنها اشتملت فقط، ولا سيما إبّان ضعفها، على شريط ساحلي ضيّق، بحسب ما يظهر من شروط الهدنة المعقودة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين مالكة، أو سيّدة سنيورية بيروت، والتي تسمّي القرى الواقعة بين جونيه شمالاً والناعمة جنوباً[٢]، مما يدل على أن الحدود الجنوبية لسنيورية بيروت هي الناعمة أو الدامور، التي كانت الحدود الجنوبية لمملكة بيروت. وقد حكمت عائلة دوغينس De Guines الفلامندية سنيورية بيروت قبل أن تنتقل إلى ملك القدس.

من حكام سنيورية بيروت بريسبار (١١٥٧ – ١١٦٤)، وغوتيه الثالث المعين في سنة ١١٦٧ من ملك القدس. وإبان حكم آل بريسبار لبيروت أقام التلاحقة فيها، وتنازعوا مع أمراء بني الحمراء، وجرت بينهم أعمال قتل وثأر انتقل على اثرها آل تلحوق إلى مقاطعة "الغرب" لفترة ثم

---

[١]- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثالث، ص ٤٧٥ – ٤٧٦.

[٢]- القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء ١٤، ص ٤٠ – ٤٢.

عادوا إلى بيروت[١]. وقد غدوا في أوائل القرن الثامن عشر إحدى الأسر المقاطعجية الدرزية في جبل لبنان.

بعد ذلك صارت بيروت من اقطاع أسرة جديدة نافذة في مملكة القدس هي آل ابلين، العريقة في نسبها، والبارزة في نضالها من أجل توسّع مملكة الأفرنج. وهي تنتسب إلى باليان ديبلين Balian d'Ibelin. تسلم ابنه جان كنتُسطبل[٢] مملكة القدس في عهد ملكها كونراد دى مونفرّا Conrad de Monneferrat . وقد ولاّه الملك بيروت في سنة ١١٩٨، وخلفه ابنه باليان الثالث (١٢٣٦ – ١٢٥٣)، وكان كنتُسطبلاً لمملكة قبرص. ثم خلفه ابنه جان الثاني المعروف بالصغير (١٢٥٣ – ١٢٦١). وبعد وفاته خلفته ابنته الكبرى ايزابيلا (١٢٦٤ – ١٢٨٠)، ثم الصغرى أشيف التي اقترنت بأمير مدينة صور همفري دى مونفور، فأورثته حقوقها على بيروت. وحين مات زوجها سنة ١٢٨٤ صار ابنهما روبين Rupin سيداً على مدينتي صور وبيروت، وكان آخر أمراء الفرنجة على بيروت حين فتحها بالأمان الملك الأشرف خليل في سنة ١٢٩١[٣].

بلغت سنيورية بيروت أوج مجدها في عهد جان ديبلين الذي تمكّن من ضبط أمورها، وأحدث فيها نهضة فكرية واقتصادية وعمرانية. وإذا كانت حدودها متغيرة تبعاً لما تأخذه إمارة "الغرب" التنوخية منها، في فترة الجهاد ضد الفرنجة، فإن صلاحيات أسيادها كانت تشمل مدنا خارج حدود السنيورية وفق النظام الإقطاعي الذي يجيز توريث البنات وتوريث الورثة المباشرين وغير المباشرين، كما كانت تشمل نفوذاً في مملكة قبرص، ومن وجوه ذلك أخذ جان ديبلين مدينة أرسوف التي كانت لحميه، فأصبح نائباً لمملكة قبرص.

١- لويس شيخو: بيروت ... ص ٧٦.

٢- كنتُسطبل هي تصحيف للكلمة الفرنسية connetable التي تعني القائد العام للجيوش في عهد الفرنجة.

٣- أنظر عن حكام مدينة بيروت من آل ديبلين: لويس شيخو : بيروت، ص ٨١ – ٨٣.

سنيورية صيدا

تأتي سنيورية صيدا في الأهمية بعد سنيورية الجليل وسنيورية يافا، وتوازي في الأهمية سنيورية ما وراء نهر الأردن. وتشمل، بالإضافة إلى مدينة صيدا وساحلها، أراضي واسعة من جبال صيدا، وتمتد من الدامور شمالاً إلى نهر القاسمية جنوباً. وطولها وعرضها، تبعاً لذلك، يفوقان طول وعرض سنيورية بيروت. وقد توسعت في الشرق حتى بلغت أحياناً جبال الباروك ونيحا والريحان، ووصلت إلى جهات مرجعيون وحاصبيا. وعُرف صاحبها بسنيور صيدا وشقيف أرنون.

أسّس أوستاش غارنيه سنيورية صيدا. وهو من أسرة عريقة امتلكت أيضاً سنيورية قيسارية. وجاء بعده ابنه جيرار(١١٢٤ – ١١٥٤) . ثم خلف جيرار ابنه رينو الذي غدا أيضاً صاحب شقيف ارنون، ثم باليان ابن رينو في سنة ١٢١٠، ثم جوليان ابن باليان في سنة ١٢٣٩، وهو الذي أقطع الفرسان التوتونيين الألمان القرى في جبال صيدا، وباع السنيورية في سنة ١٢٦٠ إلى توماس بيرار، واعتزل أحد الأديرة. وحل في حكم صيدا بعد بيرار مقدم الداوية وليم دى بوجويه[١].

كان تنظيم سنيورية صيدا وسنيورية بيروت صورة مصغّرة عن تنظيم مملكة القدس، إذ امتلك صاحباها حق سك النقود، وكان فيهما مجلس ومحكمة. كما كان فيهما وفي قلعة شقيف أرنون التابعة لسنيورية صيدا مجلس للبورجوازية ومحكمة[٢]. وكان في كل منهما مجموعات مما سُميّ "الفياف"، وهو اقطاع قد يكون قرية casal، أو عدة قرى. والعلاقة بين الأسياد وبين سكان القرى هي العلاقة ذاتها التي تحدّدت في الإمارات الفرنجية ومملكة القدس على أساس النظام الاقطاعي، إذ كان السيد يمتلك

١- أنظر عن حكام سنيورية صيدا: الياس القطار: لبنان في القرون الوسطى، الجزء الثاني، ص٣١٦ – ٣١٧.

٢- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

الحدائق والكروم، ويترك سائر الأراضي للفلاحين يعملون فيها مقابل محصول بالكاد يفي بحاجتهم، فيما يأخذ السيد الباقي، "ويأخذ من الفلاح ضريبة شخصية، هي ضريبة على الرأس، كما تأخذ الكنيسة من المسلمين، ومن المسيحيين الذين ينتمون إلى الكنائس غير الكنيسة الغربية، ضريبة العشر"[1]. هذا التمييز في المعاملة دفع ببعض الروم الارثوذكس إلى الالتحاق بالمناطق الداخلية التابعة للمسلمين. وكان السيد على صلة بسكان القرية بواسطة شيخها، أو بواسطة من سماه الافرنج الوسيط ("Regulus").

نشوء الإمارة التنوخية

التنوخيون هم أبناء عم الأرسلانيين، أي أنهم مناذرة لخميون، جدهم الأعلى تميم هو والملك المنذر (المغرور) ابنا الملك النعمان أبو قابوس. لا صلة لهم بقبيلة تنوخ ولا بحلف تنوخ الذي قال بعض المؤرخين والنسّابين العرب أنه قام في البحرين (الاحساء من المملكة العربية السعودية).

نشأت الإمارة التنوخية في عهد أتابكة دمشق إبّان الاحتلال الافرنجي. والأتابكة اسم مركّب من لفظتين، أولاهما "أتا" بمعنى الأب أو المربيّ، وثانيتهما "بك" بمعنى السيد أو الأمير. فالاتابكة إذاً هم "لغوياً" مربّو الأمراء، إذ كانوا قادة جيوش سلاطين السلاجقة ومربيّ أمرائهم. وقد تسلّموا السلطة الفعلية بعد ضعف هؤلاء. ومن أشهرهم أتابكة الموصل، واتابكة حلب، وأتابكة دمشق. والأخيرون تبع لهم جبل لبنان الجنوبي.

كان طغتكين أتابك ملك دمشق السلجوقي، شمس الملوك دقاق بن تتش بن ألب ارسلان، وزوجاً لوالدته. وبعد وفاة الملك في رمضان ٤٩٧ هـ/ ١١٠٤م[2] خطب طغتكين لولده الصغير الذي كان عمره سنة واحدة، ثم خطب لعمه بكتاش بن تتش. لكن بكتاش استوحش من طغتكين وعاث في نواحي حوران، واتصل بالفرنج فلم يلقَ منهم إلا الكلام، وصار الأمر في

---

[1]- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثالث، ص ٤٧٥ -٤٧٨.

[2]- ابن خلّكان : وفيّات الأعيان، المجلد الأول، ص ٢٩٦.

دمشق إلى طغتكين[1]، ثم انتقل بعد وفاته سنة ١١٢٨ إلى ابنه تاج الملوك بوري (١١٢٨ – ١١٣١)، ثم إلى شمس الملوك (١١٣١ – ١١٣٤)، وكان آخرهم حفيد تاج الملوك بوري، مجير الدين آبق (١١٤٠ – ١١٥٤)[2].

بعد دفاع الأمير مجد الدولة محمد عن صيدا، وعودته إلى منطقة "الغرب"، نهض بالإمارة المنكوبة على يد الفرنجة، وتسلّم في سنة ١١٢٦ كتاباً من طغتكين يوليّه الامارة، ويعطيه قرى معلومة. وكان هذا، على الأرجح، تقديراً من طغتكين له على اشتراكه في صدّ الفرنجة الذين زحفوا بقيادة ملك القدس، بغدوين، نحو دمشق لاحتلالها. فلقد كاتب طغتكين أمراء التركمان ومقدّميهم واعيانهم وولاة الأطراف ورجال الغوطة والمرج وأحداث الباطنية من حمص والعقبة وقصر حجاج والشاغور، واستطاعت قواته، مع هذا الحشد المستنفر لمساعدتها، التغلّب على الفرنجة في معركة مرج الصفر سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م. وكان من ولاة الأطراف وأمرائها مجد الدولة، وربما غيره من الأمراء. وقد قُتل بعد ذلك في محلة "البرج" أثناء غزوة للفرنج في سنة ١١٢٧.

مهّد قضاءُ الفرنجة على كبار الزعماء الأرسلانيين عند غزوهم للغرب في سنة ١١١٠، ثم موت مجد الدولة، وهو من آل عبدالله، لقيام إمارة جديدة هي الامارة التنوخية البحترية. فالامراء الأرسلانيون كانوا مقدَّمين بين متساوين، لذا برز بعدهم وبعد مجد الدولة مقدّم بين متساوين هو الأمير بحتر الملَّقب بناهض الدولة، وبأبي العشائر، وهو من سلالة الأمير تنوخ.

تلقّى الأمير بحتر من مجير الدين آبق منشوراً، في محرّم ٥٤٢هـ ١١٤٧م، يقرّه على "رسومه المستمرة وقاعدته المستقرة من الضياع المنسوبة إلى رسمه، المعروفة باسم والده واسمه، وان يتناول ما يخص

---

[1]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد العاشر، ص ٣٧٥– ٣٧٦. وابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب، المجلد الرابع، ص ٢١٣.

[2]– ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، المجلد الرابع، ص ٢٤٢.

الخاص السعيد منها بحيث يصرفه في مصالحه، ويتقوى به على الخدمة واجرى على معهوده من الامارة بالغرب من جبل بيروت... والواجب على الرؤساء والفلاحين سماع كلمته والدخول تحت طاعته فيما يلتمسه منهم من استخراج الحقوق السلطانية وموافقته على ما يطرأ من الخدم الديوانية"[1]. وفي هذا المنشور تأكيد على تبعية الأمير التنوخي لحاكم دمشق من الأتابكة، وعلى ضرورة القيام بالخدمة المطلوبة منه، والتي هي التصدي للفرنجة والجهاد ضدهم. إلا أن الأمير التنوخي لم ينفرد بالحكم متقدماً على الأمير الارسلاني إلا في سنة ١١٦١ عندما أقر الملك العادل نور الدين الأمير كرامة بن بحتر على إمارة "الغرب" مقابل تقديمه أربعين فارساً للخدمة.

مؤسس الإمارة الجديدة التي تسلّمت حكم "الغرب" هو بحتر، وهذا يدعو إلى تسميتها "الإمارة البحترية"، وتسمية من تولّوها من ذريته "الأمراء البحتريين". إلا أن هؤلاء هم من نسل الأمير تنوخ الذي عرف باسمه أحد فروع المناذرة الأربعة. وهذا يدعو إلى تسميتها "الإمارة التنوخية". وبناء لذكرها في المؤلفات باسم الإمارة التنوخية وباسم الإمارة البحترية، سنذكرها غالباً بهذين الاسمين معاً كي يكون هناك وضوح للقارئ، وكي لا يكون هناك مجال للاعتقاد بوجود إمارتين، هما إمارة تنوخية وإمارة بحترية.

المعنيون في الشوف

يعود وجود المعنيين في الشوف إلى سنة ١١٢٠ ، بحسب رواية متأخرة لحيدر الشهابي وطنوس الشدياق، دونت في القرن التاسع عشر. وهي تذكر أن الأمير معن بن ربيعة الأيوبي، الذي ينتسبون إليه، خاض معارك مظفّرة ضد الفرنج في شمال سورية، لكنه وأصحاب أمير الترك إيليغازي انهزموا أمام بغدوين في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م، عند الجبل الأسود، فرحل الامير معن بالعرب الأيوبية إلى البقاع، ثم نزل وعشيرته بطلب من طغتكين زنكي، صاحب دمشق، في الشوف ليقوم بالإغارة على الفرنج. وكان الشوف

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٠.

عند نزوله فيه سنة ١١٢٠، بحسب الرواية المذكورة، قفراً خالياً من السكان[1]. لكنه تحول بفضل ما بناه الأمير وأتباعه إلى عامر جذب إليه السكان من مختلف المناطق، فتأسست فيه الأمارة المعنية التي تابعت الجهاد ضد الإفرنج، وساعدت الشهابيين في ذلك، وواصلت غاراتها عليهم، ومنها غارة للأمير معن "اهلكت منهم خلقاً كثيراً"[2].

أورد الشهابي أن معارك الأمير معن مع الفرنجة ذكرها أكثر المؤرخين، لكنه لم يسمِ أياً منهم. وبالعودة إلى المصادر المعاصرة للفرنجة، وأبرزها ابن القلانسي (١٠٧٧ – ١١٦٠)، وابن الأثير (١١٦٠ – ١٢٣٢)، وابن العديم المولود في مدينة حلب والمتوفى سنة ١٢٦١، لم نرَ ذكراً للأمير معن. كما أن معظم معارك المسلمين مع الفرنجة بين سنتي ١١١٧ و ١١٢٠ في شمال سورية كانت معارك منتصرة، بحيث تتضاءل احتمالات نزوح العشائر منها، مما يثير الشكوك حول رواية مجيء الأمير معن إلى الشوف بعد انكفائه في إحدى المعارك مع الفرنجة. كما أن الشكوك تزداد بذكر الرواية أن الشوف كان عند قدومه إليه قفراً خالياً من السكان ، وهذا امر جرت مناقشته ودحضه. إلا أن نسب المعنيين وكيفية وجودهم في الشوف وظهور إمارتهم المفاجئ سنة ١١٢٠، ثم اختفاؤها لتظهر بعد اكثر من ثلاثة قرون مع الأمير فخر الدين عثمان، مواضيع تتطلب بحثاً مستفيضاً لا مجال له هنا، لذا سنكتفي بالإشارة إليها فقط.

الإمارة المعنية في الشوف في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ليست الوحيدة فيه، إذ إنه كان إلى جانبها في جنوبه إمارة آل جندل. وهو أيضاً منطقة نفوذ لأمراء "الغرب" البحتريين بدليل إعطاء الأمير بحتر في سنة ١١٦١ برجا في ساحل الشوف، والمعاصر الفوقا في أعاليه، مما يعني تعدّدية الإمارات فيه مع احتمال أن يكون هناك إمارة غير الإمارات المذكورة، هي امارة بني الشويزاني.

---

[1]– تاريخ حيدر الشهابي، ص ٣٢٢ – ٣٢٤. والشدياق: أخبار الأعيان، الجزء الأول، ص ٢٣٥.

[2]– تاريخ حيدر الشهابي، ص ٣٧٢.

امارة آل جندل والصراع على شقيف تيرون

كان آل جندل أمراء وادي التيم، وفي الوقت نفسه أمراء جنوب الشوف في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، من خلال تسلّم أميرهم الضحّاك شقيف تيرون. ووجودهم في الشوف قد يكون قبل ذلك، وقد يكون استمر بعده، بدليل وجود قرية فيه تحمل اسمهم "حارة جندل"، واستمرار سكن فرع منهم هو آل برغشة في الجديدة، القريبة من حارة جندل، حتى القرن السادس عشر. والمعلوم أن آل برغشة سُمّوا من السلطان العثماني، سليم الأول، بعد احتلاله بلاد الشام في سنة ١٥١٦، مقدمي وادي التيم.

أخذت قلعة شقيف تيرون، الواقعة إلى الجنوب من نيحا، أهمية كبيرة في عهد الفرنجة. ويعود أول ذكر لها في التاريخ -على حد علمنا – إلى اواخر القرن العاشر الميلادي، حين التجأ إليها الأمير تميم بن المنذر الأرسلاني مع ابن الشيخ وابن موهوب. ووجودها أقدم من ذلك، إنما لا يُعرف تاريخه بالضبط.

وُضعت تفسيرات عدة لإسم شقيف تيرون، منها أنها تُنسب إلى جندي روماني هو تيرو أو تيرون، ومنها أن معناها في اليونانية "المجبنة"، أي مكان لصنع الجبن. وفي رأينا أنها اسم آرامي سرياني من لفظتين، هما شقيف ومعناها الصخر الشاهق الارتفاع، وطيرون بحرف الطاء وكتبت أحياناً به[١]، كما كتبت تيروش (طيروش)، ومعناها الزريبة الصغيرة، أي أنه تصغير لكلمة "طير" الآرامية السريانية التي تعني الزريبة، وقد دخلت في أسماء العديد من القرى، ومنها طير حرفا، وطير فلسى، وطير دبّا، ومنها قرى دارسة، هي "طير زبنا، وطير سمحات، وطير عديس"[٢]. ومما يدل

---

[١]-لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الثاني، ص ٢٠٩، وعيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الامير فخر الدين، ص ٤٦ (هامش). والخالدي الصفدي: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٣٨.

[٢]- محسن الأمين : خطط جبل عامل، ص ٣٢٠.

على سريانية اسم شقيف طيرون وجودها وسط محيط تكثر فيه الأسماء السريانية، وكثرة حظائر الماعز (الزرائب) التي ظلت حتى أواخر القرن العشرين في برية نيحا لوفرة مراعيها.

كانت تيرون في الأصل مغارة لسكن الإنسان القديم. وقد وسّعها من سكنوا جهات جزّين وجنوب الشوف، وجعلوا فيها غرفاً وآباراً لجمع المياه، واتخذوها معقلاً لمناعتها، إذ هي مغارة وسط شاهق صخري يرتفع عمودياً حوالى ثلاثمائة متر، لا يمكن الوصول إليها من فوق أو من تحت او من الجنوب، وإنما يمكن الوصول إليها من ناحية الشمال عبر ممر صخري ضيق طويل. ويزيد في مناعتها وجود منحدر شبه عمودي يعلو حوالى خمسمائة متر من أسفل الشقيف (ألصخر) إلى أسفل وادي جزّين عند التقائه بمرج بسرى. وقد تحولت مغارة تيرون إلى حصن يصلح التمركز فيه للاحتماء من الأعداء، إضافة إلى إشرافه على مناطق واسعة من جزّين والشوف، وإشرافه على طريق صيدا - جزّين - البقاع، وطريق صيدا - وادي الباروك - البقاع.

في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م تسلّم أتابك طغتكين زنكي ، صاحب دمشق "مدينة تدمر والشقيف"[١]. والمقصود هنا بالشقيف شقيف تيرون لأن حصن شقيف أرنون بناه الإفرنج، وظل بيدهم إلى أن اخذه السلطان صلاح الدين الأيوبي منهم في سنة ١١٩٠. ثم أخذ الضحّاك بن جندل شقيف تيرون، وامتنع به، "فتحاماه المسلمون والفرنج يحتمي على كل طائفة بالأخرى"[٢]. ونظراً لموقفه هذا كان وجوده لا يزعج الفرنجة بقدر ما يزعج صاحب دمشق،[٣].

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد العاشر، ص ٥٨٧.

٢- المصدر نفسه، المجلد :١١، ص ١١.

٣- J. Richard: Le royaume latin de Jérusalem, P 38

وفيما كان طغتكين، على تفاهم تام مع أمراء "الغرب". والامراء المعنيين في شمال الشوف، كان محاذراً لآل جندل في وادي التيم، لأنهم حلفاء الفاطميين في مصر. كما كان حفيده شمس الملوك محاذراً لأميرهم الضحّاك، متسلّم قلعة الشقيف، لأنه ممالئ للفرنجة. ومن أجل هذا أعطى طغتكين قلعة بانياس للنصيرية، وانتزع شمس الملوك قلعة الشقيف من الضحّاك. سمح طغتكين لبهرام، الداعية الأكبر للنصيرية، بالتمركز في قلعة بانياس، وبهذا أصبح العدو الأكبر للجنادلة على حدود منطقتهم، وادي التيم، ويعمل على بث مذهب النصيرية بين أتباعهم. وكان طغتكين يأمل بذلك أن يقف النصيرية في وجه توسّع مملكة بيت المقدس التي وصلت حدودها إلى منطقة بانياس.

أثار عمل طغتكين النزاع بين النصيرية والجنادلة الدروز، وأدى إلى قتل النصيرية لبرق بن جندل، وثأر الجنادلة بقيادة أخيه الضحاك حين ردّوا سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨م هجوم النصيرية عليهم وقتلوا بهرام، وأرسلوا رأسه ويده وخاتمه إلى الخليفة الفاطمي في مصر، الآمر بأحكام الله[١]، الذي كان النصيرية يرون فيه مغتصباً يجب خلعه وإقامة الإمامة في سلالة نزار. وحين تسلّم تاج الملوك بوري الحكم بعد وفاة والده طغتكين إنقلب على النصيرية لأنهم مالأوا الفرنجة، وتمادوا بشرورهم في دمشق ومحيط بانياس، فقتل نصيرهم الوزير المزدقاني، ونكّل أهل دمشق بهم فتفرّق من بقي منهم في البلاد فيما سلّم داعيتهم اسماعيل قلعة بانياس إلى الفرنجة مقابل قبوله مع اتباعه في أراضيهم[٢].

وانتزع شمس الملوك، صاحب دمشق، شقيف تيرون من الضحّاك بن جندل في سنة ١١٣٣ [٣]، في فترة نقض الفرنجة للموادعة بينه وبينهم. إلا أن آل غارنيه، امراء سنيورية صيدا، سارعوا إلى انتزاعه من شمس الملوك

١- أنظر عن النزاع بين النصيرية والجنادلة: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٥١ – ٣٥٢.

٢- المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

٣- المصدر نفسه، ص ٣٨٢. وابن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٢، ص ٢٠٦.

في السنة التالية، ووسّعوا باحتلالهم له حدود سنيوريتهم إلى جنوب الشوف. وهذا يبرز أهمية شقيف تيرون لمملكة دمشق من أجل حماية البقاع من الفرنجة، ولسنيورية صيدا من أجل حماية مدينة صيدا وتخوم السنيورية مع مملكة دمشق، ومن أجل حماية طريق صيدا – جزّين.

بداية الجهاد الكبير في عهد عماد الدين زنكي

لم يكن وجود الفرنجة في الشرق حروباً دائمة، بل تخللته مراحل من السلام والموادعة، وفترات استكانة من المسلمين في البداية، فصال الفرنج وجالوا، وأصبحت لهم إمارات ومملكة وحصون وأراضي واسعة خصبة استغلوا خيراتها واغتنوا من الضرائب المفروضة عليها، وعلى مزارعيها، والأتاوات المفروضة على المناطق المجاورة لهم. وحاولوا الاندماج مع السكان وفرض التعايش معهم. ونسوا مواطنهم الأصلية. وكادوا يتحولون إلى شرقيين، وعبّر عن ذلك فوشه دي شارتر بقوله، في سنة ١١٢٥، ما يلي: "إن الإيطالي أو الفرنسي بالامس أصبح، وقد ترحّل عن بلاده، جليلياً أو فلسطينياً، والرجل من رمس أو من شارتر تحول إلى سوري أو إلى مواطن انطاكي. ها نحن قد نسينا موطننا الأصلي. ولماذا نرجع إلى الغرب ما دام الشرق يشبع رغائبنا"[١].

مقابل هذه الرغبة عند الفرنج بالبقاء في الشرق، كان عند المسلمين رفض لوجودهم الاستعماري، تجلّى في الجهاد المقدّس لطردهم. ومقابل هتاف الفرنج "هذا ما يريده الله" عندما طلب منهم البابا قتال من اسماهم "الكفار"، لأخذ الاماكن المقدسة، هتف المسلمون قادةً وشعوباً، على اختلاف أعراقهم ومناطقهم "جاهدوا في سبيل الله" ضد من وصفوهم بـــ "الكفار" و"الملاعين" و"العلوج". والجهاد من أجل حماية دار الإسلام أشد فعالية من الجهاد في سبيل توسيعها.

---

[١]– رنيه غروسيه: رصيد التاريخ، الجزء الثاني، ص ١٢٢ – ١٢٣.

كانت المرحلة الأولى من حملات الأفرنج ونجاحهم في تأسيس الامارات، والمملكة اللاتينية في بيت المقدس، مرحلة دفاعية عند المسلمين، لكنها لم تخلُ من هجومات وانتصارات، منها الهجوم غير الناجح الذي قام به كربوقا السلجوقي سنة ١٠٩٨ لإستعادة انطاكية[١]، واسرُ سلاجقة الشام أميرَ انطاكية، بوهيموند، وأسر أمير الرها، بغدوين، وصمود القاعدتين عسقلان وصور لمدة طويلة، وقيام الفاطميين منهما ومن مصر بهجومات على الفرنجة في سنوات ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٥. ولكن الدور الجهادي الكبير بدأ مع أتابكة الموصل وحلب بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين.

وصف المؤرخ المقدسي المعروف بـــ "أبو شامة" وضع الفرنج والمسلمين آنذاك بما يلي: " كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرُّ شرّهم...وكان أهل الرقة وحوران معهم في ذل وهوان. وانقطعت الطرق إلاّ على الرحبة والبر... وجعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وأتاوة يأخذونها منهم ليكفّوا أذيتهم عنهم... وأخذوا من حلب مناصفة أعمالها... فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكي"[٢].

كان عماد الدين زنكي وابنه نور الدين أقوى حاكمين في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. وفي عهدهما انتقل المسلمون من الدفاع إلى الهجوم الفعّال والناجح ضد الفرنج. توسع عماد الدين في شمال العراق، وفي بلاد الشام، فاحتل مدناً ومقاطعات عدة، منها أربل وحرّان وحلب وحماه وبعلبك. وأراد أخذ دمشق، فحاصرها مرتين في سنة ٥٣٤هــ/ ١١٣٩م، لكنه ارتدَّ عنها في المرة الأولى لصمود أهلها في عهد صاحبها جمال الدين آبق، وفي المرة الثانية في عهد ابنه مجير الدين آبق، لأن مدبّر دولته معين

---

[١]- سهيل زكّار: تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٢٣٩، ٢٥٨.

[٢]- أبو شامة: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين الجزء الاول ، ص ١٥٦.

الدين آنر راسل الفرنج طالباً مساعدتهم مقابل تسليم حصن بانياس لهم[1]. لهذا لم يتمكن عماد الدين من أخذ دمشق لتشديد الضغط على الفرنج، لكنه تمكّن من احتلال الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فكانت أول إمارة إفرنجية تسقط في يد المسلمين كما كانت أول إمارة إفرنجية تؤسس في الشرق.

قضت خطة عماد الدين بالجمع بين دمشق والموصل وحلب لتكوين جبهة اسلامية واحدة في وجه الفرنجة. لكنه اصطدم بتشبث أتابكة دمشق بمملكتهم وبالحفاظ على عاصمتهم دمشق. وقبل مجبر الدين آبق الذي خشي عماد الدين، خشي جدُّ أبيه (طغتكين) أمير الموصل مودود الذي وصل بجيش ضخم إلى دمشق "وخاف طغتكين أن يغدر به ويحتل المدينة، فأرسل إلى الفرنج يهادنهم، ثم اتهم بمقتل مودود"[2]. إن بقاء دمشق خارج مملكة عماد الدين أبقى جبل لبنان الجنوبي تابعاً لمجير الدين آبق حتى السنة التي انتزع فيها نور الدين بن عماد الدين دمشق.

في عهد نور الدين زنكي

قُتل عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦ م، فخلفه ابنه نور الدين، الملقب بالملك العادل، وواصل مسيرته الجهادية، فاستعاد في هذه السنة مدينة الرها بعد ان نجح صاحبها سابقاً، جوسلين، بإثارة الأرمن فيها مغتنماً مقتل عماد الدين. ولم تستطع الحملة الفرنجية الثانية التي أتت لاسترجاعها بقيادة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا، ان تحقق أي انتصار، إذ إنها تحولّت عنها بعد أن انزل السلاجقة في جيش كونراد، عند مروره في الأناضول، خسائر ، بالغ البعض في تقديرها فجعلها تسعة أعشار هذا الجيش[3]. ثم تراجعت عن دمشق عند سيرها إليها مع ملك بيت المقدس.

---

[1]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١١، ص ٧٣- ٧٤.

[2]- ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٣٤.

[3]- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثاني ، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

كانت خطة نور الدين تقوم على تطويق الفرنج بفتح المدن والحصون الداخلية التي يحتلونها، وبأخذ دمشق من صاحبها مجير الدين آبق، وكان بأمس الحاجة إليها من الناحية الاستراتيجية "ولأنه لم يكن له طريق لازعاج الفرنج الا عبرها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان التي أخذوها سنة ١١٥٣"[1]. فأخذ دمشق في السنة التالية من مجير الدين آبق، وعوّضه عنها حمص ثم عوّضه عنها بالس. واضطرت جيوشه أحياناً أن تقاتل المسلمين المساعدين للفرنج، ومنهم مثلاً بعض أهل جبل عامل، الذين كانوا مع سبعمائة فارس جاؤوا لتقديم الدعم إلى الفرنج في بانياس ، فقد انتصر عليهم جيش نور الدين في سنة ٥٥٢ هـ: ١١٥٧م "ومحقت السيوف عامة رجالهم ومسلمي جبل عامل المضافين إليهم"[2].

أخذ نور الدين من الفرنج مدينة أرتاح وحصن مابولة وبصرفون وكفرلاتا وطرسوس سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وحصن العريمة سنة ١٤٥٨. وهزم الفرنج الذين جاؤوا يمنعونه من احتلال حصن حارم، وقتل قائدهم البرنس، صاحب أنطاكية، سنة ١١٤٩. وفتح حصن افاميا سنة ١١٥٠. واحتل دلوك وهزم الفرنج الذين تجمعوا لمنعه من احتلالها سنة ١١٥٢. واحتل تل باشر سنة ١١٥٤، وحاصر حارم سنة ١١٥٦ فاضطر الفرنج أن يعطوه نصف أعمالها. واحتل حصن شيزر سنة ١١٥٧ . وانتزع بعلبك من الضحاك سنة ١١٥٨ لأن هذا امتنع بها بعد ان تسلّمها. واحتل حارم وبانياس سنة ١١٦٤[3].

كان هناك حصنان منيعان للفرنجة على أبواب جبل لبنان من ناحية الشرق، هما حصن المنيطرة الواقع في جرود جبيل، الذي يتحكّم بطريق جبيل – بعلبك، وحصن شقيف تيرون الواقع في جبل صيدا، الذي يتحكم مع

---

[1]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، المجلد ١١، ص ١٩٧.

[2]- أبو شامة: كتاب الروضتين من أخبار الدولتين ، المجلد الأول، الجزء الأول، ص٣١١.

[3]- أنظر عن احتلال نور الدين للمدن والحصون المذكورة أعلاه: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١١، ص ١٢٢، ١٣١، ١٤٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٣، ٢٠٨، ٢٢٧، ٣٠٤.

حصنين واقعين إلى الغرب منه، هما حصن روم وقلعة أبي الحسن، بطرق صيدا – البقاع، ويشكّل معهما خط الدفاع الأول عن سنيورية صيدا من ناحية دمشق والبقاع. لذا رأى نور الدين ضرورة احتلال هذين الحصنين لتقوية جبهته بعد أن أخذ البقاع، ولإحكام الحصار على الفرنج، فسار في سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥ – ١١٦٦م لاحتلال حصن المنيطرة "ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه جريدة على غرّة منهم، وعلم إن جمع العساكر حذروا وجمعوا. وانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصره وجدّ في قتاله فأخذه عنوة وقهراً وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فان الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون، ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه جريدة في قلة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير فلما ملكه تفرّقوا وأيسوا من ردّه"[1].

وانتزع أسد الدين شيركوه شقيف تيرون وحصناً آخر في القاطع المقابل له في سنة ١١٦٦[2]. والمؤرّخ حيدر الشهابي الذي ذكر ذلك لم يسمِ الحصن الموجود في القاطع، إلا أنه على الأرجح حصن روم الذي وردت الإشارة إليه وإلى وقوعه إلى الغرب من شقيف تيرون، أي في "القاطع". والمصادر الفرنجية تذكر أن احتلال حصن شقيف تيرون، المذكور فيها باسم مغارة "Grotte"، حصل برشوة حاميتها. والدليل على ذلك أن حراسها رحلوا إلى الأماكن التي يسيطر عليها نور الدين، باستثناء قائدهم الذي عثر عليه صدفة وشنق في مدينة صيدا"[3]. ومن المستبعد أن يكون هؤلاء من الإفرنج لأنهم ارتشوا، ولجأوا إلى الأماكن التي يسيطر عليها نور الدين، ومن الأرجح أن يكونوا مسلمين من قرى جنوب الشوف أو قرى جزّين،

---

[1]– المصدر نفسه، ص ٣٢٢، وأبو شامة: كتاب الروضتين، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٣.

وابن العديم: زبدة الحلب ، الجزء الثاني ، ص ٤٩٦.

[2]– تاريخ حيدر الشهابي، ص ٣٥٦.

[3]– Guillaume de Tyr: Le royaume de Jérusalem III p. 182.

اضطروا بسبب خضوعهم للإفرنج أن يساعدوهم في حفظ شقيف تيرون. والأماكن التي لجأوا إليها قد تكون مناطق سيطرة التنوخيين، أو البقاع.

كان الامير بحتر بن عضد الدولة، علي بن عمرو الأرسلاني، ابن عصر النهضة الجهادية التي بدأها عماد الدين وتابعها ابنه نور الدين. فواصل جهاد قومه ضد الفرنجة واشتبك معهم في سنة ١١٥١ في محلة "رأس التينة" عند نهر الغدير، حيث قُتل منهم خلق كثير وفرَّ من بقي إلى بيروت ليتحصّن داخل أسوارها. وبعد ذلك تابع الأمير غزواته عليهم[١].

حين تسلّم الملك العادل نور الدين دمشق بانت منطقة "الغرب"، التي كانت تتبع لها، في عهدته، فأرسل منشوراً إلى الأمير كرامة بن بحتر التنوخي في ربيع الأول ٥٥٢هـ/ نيسان ١١٥٧ م، سمّاه بمملوكنا وصاحبنا وقرّبه إليه بالقول: إن من اطاعه فقد أطاعنا، ومن عاونه في جهاد الكفّار فقد عمل برضانا وكان مشكوراً منا، ومن خالفه في هذا الامر وعصاه فقد خالف أمرنا واستحق المقابلة والسياسة على العصيان". ثم أرسل منشوراً ثانياً في رجب سنة ٥٥٦هـ/ تموز ١١٦١م، يوسّع فيه اقطاع كرامة فيعطيه مع قرى "الغرب" قرى خارجة عنه، هي القنيطرة في السفح الشرقي لجبل حرمون، وضهر الأحمر وثعلبايا في البقاع، وبرجه والمعاصر الفوقا في جبل صيدا، ويحدّد له عدد الجند والأعطيات للقيام "بالمهمات الشريفة"[٢].

تكمن أهمية هذين المنشورين في ربط اقطاع الامير كرامة بالجهاد ضد الفرنج، إذ باتت مهمته تشمل الدفاع عن منطقته وعن غيرها، والقيام بعمليات جهادية ضد الكفّار بما يستطيع جمعه من الرجال وبالأربعين فارساً الذي حدّدهم المنشور الثاني، والذين تُدفع مخصّصاتهم مما يجمعه الأمير ويستحق له في ديوان الاستيفاء. وهذا كان السبب الرئيس في انتقال كرامة إلى حصن سرحمور، للتحصّن به ضد اعتداءات الفرنج المحتملة.

١- السجل الأرسلاني: الاثبات العاشر، ص ١٠٦ – ١٠٧.

٢- أنظر نص المنشورين عند صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٣.

وارسل نور الدين منشوراً إلى حجى بن كرامة يقطعه قرية جبعة باسم ثمانية نفر، لعلهم كانوا جند حجى الذي هو، على الأرجح، ابنٌ لكرامة كان كبيراً وتوفي، فسمّى كرامة على اسمه ابناً آخر له هو حجى الذي تسلّم إمارة الغرب بعد مقتل أخوته الثلاث على يد أمير الفرنجة في بيروت[١].

أمضى نور الدين حياته الجهادية في انتزاع حصون الفرنج، والمدن والحصون القريبة من الساحل ومن مراكزهم الرئيسة. وضمَّ الممالك الإسلامية الشامية اليه لتقوية الجبهة الشرقية. وأراد توحيد مصر وبلاد الشام في جبهة واحدة تجعل الفرنجة بين فكي كماشة إسلامية من الشمال والجنوب، فأرسل أحد قادته، شيركوه، إلى مصر لنجدة شاور، وزير الخليفة الفاطمي العاضد، ضد خصمه الوزير ضرغام. وكان ملك بيت المقدس، املريك، يتطلّع أيضاً إلى مصر فقام بغزوها. وهذا ما جعلها ميدان صراع بين نور الدين والفرنجة، ثم بين صلاح الدين والفرنجة، كان الانتصار فيه لنور الدين وقائده شيركوه أولاً، ثم لصلاح الدين ثانياً.

في عهد صلاح الدين الأيوبي

دخل صلاح الدين في خدمة الملك العادل نور الدين، وخرج مع عمه شيركوه إلى مصر ثلاث مرات أثناء الصراع فيها بين الوزيرين شاور وضرغام، والصراع عليها بين نور الدين والفرنج. وقد آلت الوزارة إلى شيركوه بعد قتله الوزير شاور لممالأته للفرنج، ثم آلت إلى صلاح الدين بعد وفاة شيركوه، إذ قلّده الخليفة الفاطمي العاضد الوزارة على البلاد المصرية واليمنية[٢] فغدا نائباً في مصر عن الملك نور الدين السنّي، ووزيراً للخليفة الفاطمي، العاضد، الشيعي. وما لبث أن تسلم مصر واستقل بها عن نور الدين بعد أن مات الخليفة العاضد في سنة ١١٧٠، وأحدث تغييراً على صعيد

---

[١]- المصدر نفسه، ص ٤٦.

[٢]- أنظر تقليد العاضد لصلاح الدين بالوزارة: السيوطي: حسن المحاضرة ، المجلد الثـاني، ص ٣٣ – ٣٥.

العقيدة الدينية حين خطب للخليفة العباسي المستضيء بامر الله، قبل موت العاضد بقليل. وبهذا أعاد المذهب السني إلى مصر.

توفي نور الدين في أيار ١١٧٤ وهو يعد العدّة لأخذ مصر من صلاح الدين، لأنه كان يخشاه، ولمس منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، وكان يعلم ان ما يمنع صلاح الدين عن الغزو هو خوفه منه ومن الاجتماع به[١]. واجتمع الأمراء والمقدّمون على تولية ابنه الملك الصالح اسماعيل مكانه ، وكان عمره إحدى عشرة سنة، على ان يدير شؤون المملكة الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك، المعروف بابن المقدّم[٢]. إلا أن الملك الصغير الذي توفي سنة ١١٨١، ومدبّر شؤون مملكته، كانا أعجز من أن يحلاّ مكان نور الدين، وان يأخذا دوره الجهادي، وأن يقفا في وجه صلاح الدين المؤهل لإكمال مسيرة الجهاد بنجاح، وتوحيد بلاد الشام ومصر في جبهة واحدة قادرة على قهر الفرنج، وتأسيس دولة فيهما سيتوارثها أبناؤه وأخوه وأبناء أخيه اسمها الدولة الأيوبية.

فتوحات صلاح الدين : أنكر صلاح الدين على ابن المقدّم مهادنته للفرنج سنة ١١٧٤، واقطاعه إياهم قطيعة على المسلمين مقابل عودتهم عن حصار بانياس. وأنكر عليه أيضاً استيلاءه على حلب ونصرة حسن ابن الداية المؤيّد من الشيعة على ابن الخشّاب المؤيد من السنّة[٣]. فسار إلى دمشق بعد صده هجوم اسطول صقلية على مدينة الاسكندرية، وتملّكها سنة ١١٧٥، وأخذ حمص وحماه، وحاصر حلب، وأخذ قلعة بعرين، وأعطى ابن المقدّم بعلبك

---

[١]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١١، ص ٤٠٢.

[٢]- أبو شامة: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، المجلد الاول، الجزء الثاني، ص ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٦.

[٣]- المصدر نفسه، ص ٢١٦ – ٢١٧.

عوضاً له عن دمشق[1]، وحين عصى عليه سنة ١١٧٩ انتزعها منه. فصارت بذلك معظم بلاد الشام له.

ترافقت أعمال السلطان صلاح الدين المذكورة مع انتصاراته على الفرنج في عدة اماكن، ومهّدت لأخذ طبرية منهم وإنزال الهزيمة الكبرى بهم في حطين في ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ تموز ١١٨٧م[2]. واسترجاع بيت المقدس. إلا أنه لم يثأر من الفرنج الذين قتلوا اكثر من سبعين الفاً عند احتلالهم بيت المقدس في سنة ١٠٩٩، بل أخرجهم منه بالامان، منتقماً فقط من أرناط، أمير الكرك، لأنه نذر إن ظفر به سيقتله، بسبب نقضه الهدنة وغدره بالمسلمين ومهاجمته لحجاجهم. ونظراً لأهمية استرداد المسلمين لبيت المقدس اعتبره بعض مؤرخيهم "هجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى... وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس، وقائمها السلطان صلاح الدين، وعلى عامها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسّق"[3].

تضعضعت صفوف الفرنج بعد هزيمتهم الكبرى في حطين، وتساقطت المدن والحصون التي كانت بأيديهم واحداً بعد آخر، ومنها المدن والحصون اللبنانية، باستثناء مدينة صور التي لجأ بعضهم إليها وحصّنوها، وحصن شقيف أرنون الذي أبقاه صلاح الدين بيد ارناط صاحب صيدا، لمدة ثلاثة أشهر، ليتمكن هذا خلالها من نقل من بأهله في صور، لكنه عصى فيها، فاضطر صلاح الدين إلى حصارها وأخذها في سنة ١١٩٠[4]. وكان

---

[1]– المقريزي: السلوك، الجزء الاول، ص ١٦٨، وابن الأثير: الكامل، المجلد ١١، ص ٤١٥–٤٣١.

[2]– انظر عن فتح طبرية ومعركة حطين: الأصفهاني: حروب صلاح الدين (الفتح القسي) ص٥٧ – ٦٢.

[3]– المصدر نفسه، ص ٤٢.

[4]– المصدر نفسه، ص ١٧٦ – ١٧٩.

الشهابيون في أواخر عهد نور الدين قد انتقلوا إلى راشيا، وهزموا الفرنج الذين هاجموهم في ضهر الأحمر، ثم أخذوا منهم حاصبيا[1].

فتح صلاح الدين في سنة ١١٨٧ حصن تبنين المنيع في جبل عامل، وقلعة أبي الحسن التي اقطعها لميمون القصري مدة ولغيره[2]. وتوجّه نحو صيدا فتسلمها بعد أن أخلاها صاحبها وتركها دون حماية. ووصل إلى بيروت، وكانت آنذاك من امنع مدن الساحل، فاغتر الفرنج بحصانتها، وقاوموا لمدة ثمانية أيام طلبوا بعدها الامان على أنفسهم وأموالهم مقابل تسليمها، وقد سلّموا حين راجت إشاعة عن دخول المسلمين بيروت من إحدى نواحيها قهراً وغلبةً، فلم يستطيعوا تسكين خوف أهلها، ولا ضبط أوضاعها. يذكر في هذا المجال أن صلاح الدين سار من دمشق إلى بيروت سنة ١١٨١. ومع أنه لم تُذكر الطريق التي سلكها للوصول إليها، إلا أنها من الأرجح أن تكون طريق قب الياس– عين داره– عاليه. وقد حاصرها ونهب ربضها، ووافاه الأسطول المصري إليها، لكنه ارتدَّ عنها لمناعة اسوارها، وحين علم بنزول الفرنج في دمياط[3].

أثناء قيام صلاح الدين على حصار بيروت، في سنة ١١٨٧، أُحضر إليه صاحب جبيل، الذي كان بين أسرى الفرنج في دمشق، فعرض عليه تسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه ، فقبل صلاح الدين، فسلّمها له وأطلق من فيها من أسرى المسلمين[4]. وبهذا تحرّرت المناطق الجبلية اللبنانية كلها مع مدن الساحل، باستثناء صور وطرابلس. وأثناء سير صلاح الدين إلى بيروت لاقاه الأمراء التنوخيون إلى خلدة، وفيهم الأمير حجى الذي نجا من هجوم الفرنج على "الغرب"، بعد أن غدروا بأخوته الثلاثة باستدراجهم إلى بيروت،

---

[1]– نسب الأمراء الشهابيين وأخبارهم: مخطوط قام بنسخة الأمير نجيب محمد سليم الشهابي، ص ٢٤ – ٢٥.

[2]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلّد الرابع، ص ٣٨٩.

[3]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١١، ص ٤٨٢.

[4]– المصدر نفسه، ص ٥٤٣.

وقتلهم فيها" فلمس السلطان بيده رأس حجى وقال له هذا قد أخذنا تارك من الفرنج طيب قلبك أنت مستمر مكان ابيك واخوتك وكتب له منشور العلامة"[1]. ولقد حصل هجوم الفرنج هذا في الفترة الواقعة بين وفاة الملك العادل نور الدين زنكي وتسلم السلطان صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام، ولم ينجُ منه من أهل "الغرب" الا من تستّر بالشعرات والأدوية.

الحملة الفرنجية الثالثة: تداعى الملوك والنبلاء الأوروبيون إلى إعداد حملات جديدة لاستعادة بيت المقدس، عُرفت بالحملة الصليبية الثالثة، وأشهر قادتها فريدريك بربروسّا ملك ألمانيا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، وريتشارد ملك الإنكليز، المعروف بـــ "ريكاردوس قلب الأسد". سار فريدريك بربروسّا في حملة برية، لكنه توفي قبل أن يصل إلى انطاكية، ولم يصل من جيشه إلى عكا إلا الفا رجل، فلم تحقق حملته سوى إلقاء الرعب في قلوب المسلمين، الذين سارعوا إلى الهرب من أماكن كثيرة في شمال الشام.

إلا أن الحملة الكبيرة، التي جاءت بحراً بقيادة فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد، استطاعت أن تعيد العديد من المواقع للفرنجة، وأشهرها عكا، وأن تتوصل في شعبان ٥٨٨ هـــ/ أيلول ١١٩٢م إلى عقد هدنة مع صلاح الدين لثلاث سنين وثلاثة أشهر، من أهم بنودها أن يكون للفرنج من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وأُدخلت فيها طرابلس وأنطاكية، على أن تكون مدينة عسقلان خراباً[2]، وأن تكون اللد والرملة مناصفة بين الفرنج والمسلمين، وأن يكون هناك حرية للتنقل بين المناطق الإفرنجية والمناطق الإسلامية، وفي هذا سماح للحجاج المسيحيين بزيارة القبر المقدّس دون دفع أية ضريبة.

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٥.

[2]- أبو شامة: كتاب الروضتين، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص ١٩٠. والمقريـــزي: الســـلوك، الجزء الأول، ص ٢٢٤.

وبموجب هذه الهدنة ظلت بيروت وصيدا وجبالهما تحت سلطة صاحب دمشق. لكن صيدا نالها الخراب فيما ظلت بيروت عامرة بالسكان، وثغراً حصيناً. وكان الفرنج قد ساروا لاحتلالها قبل عقد الهدنة، إلا أنهم عدلوا عن إكمال مسيرتهم إليها بسبب الحركات الحربية التي قام بها صلاح الدين، وأخوه الملك العادل، في فلسطين[١].

عودة الفرنج إلى التوسّع

ارتبط توسع الفرنجة بقوتهم من ناحية، وبضعف القوى الإسلامية من ناحية أخرى. وارتبط وجودهم في جبل لبنان الجنوبي بوجودهم في مدينتي بيروت وصيدا، وكان لهم منذ احتلالهم لمدينتي بيروت وصيدا في سنة ١١٢٠، تواجد فيه، على الأقل في الشريط الساحلي. ثم انعدم وجودهم في هاتين المدينتين، وفي ما وراءهما من جبال بعد هزيمتهم الكبرى في حطين على يد صلاح الدين، ليعودوا بعد ذلك إلى بيروت وصيدا، وليتوسعوا في هذه الجبال جرّاء ضعف الدولة الأيوبية بعد موته.

توفي السلطان صلاح الدين في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ آذار ١١٩٣م. وتسلّم الملك الأفضل، وهو أكبر ابنائه السبعة عشر، دمشق. وتسلم الملك غياث الدين غازي حلب، والملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها، فيما كان الملك العادل سيف الدين، أخو صلاح الدين ، متسلماً للكرك، ثم أخذ حرّان. وبهذا انقسمت مملكة صلاح الدين إلى ممالك، ثم قامت النزاعات والحروب بين أصحابها، وطمع فيها الحكام والامراء المحليّون والمجاورون إلى أن استطاع الملك العادل أن يستولي عليها واحدة بعد أخرى كما استولى أخوه صلاح الدين من قبل على املاك العادل نور الدين زنكي "حتى لم يبقَ لأولاد صلاح الدين ذكر"[٢].

١- ابو شامة: كتاب الروضتين، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص ١٨٤ – ١٨٥.

٢- ابراهيم القرشي الخالدي: النور اللائح والدر الصادح، ص ٥٥.

وفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م توفي الملك العادل سيف الدين، فتقاسم ابناؤه مملكته، وجرى بينهم ما جرى لأبناء أخيه، إذ تسلطن بعده الملك الكامل ثم الملك العادل الصغير ثم الملك الصالح نجم الدين أيوب. وقد توفي الملك العادل سيف الدين في عالقين. إلا أن بعض المؤرّخين والمؤلّفين أخطأوا فذكروا أنه توفي في بعقلين أو بعاقلين نظراً للتشابه بين الأسماء. فعالقين هي قرية في ظاهر دمشق من الجيدور الذي هو "كورة من نواحي دمشق فيها قرى، وهي في شمالي حوران"[١]. وبعقلين هي إحدى قرى الشوف السويجاني في جبل صيدا. وقد ذكر ابن الحريري، المتوفى سنة ١٥٢٠، " ان الملك العادل توفي ببلدة بعقلين، وهي بقرب صيدا، وحُمِل في محفّة إلى دمشق ودُفن في تربته النبوية"[٢]. ونقل عنه هذا الخطأ العديدون[٣]. فيما تذكر المصادر الموثوقة، والأقدم منه، أن وفاة الملك العادل حصلت في عالقين ونُقل في محفة إلى دمشق حيث دُفن في التربة المنسوبة إليه[٤].

عاد الفرنج إلى التوسع بفضل ما أتاهم عن طريق البحر من نجدات. وسهّل انقسامُ الملوك الأيوبيين وتنازعهم وضعفهم عمليات توسّعهم، حتى أن الكثير من الحصون والمدن أخذوها سلماً وبتنازل أصحابها عنها. ومن ذلك أخذهم لبيروت بتنازل صاحبها، أسامة عنها سنة ١١٩٧. وإخلاء الملك الكامل في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م بيت المقدس من المسلمين، وتسليمه للفرنج مع جملة من القرى[٥]. وتسليم سلطان دمشق الصالح اسماعيل قلعة صفد

١- ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ١٩٧.

٢- ابن الحريري: تاريخ ابن الحريري المعروف "بكتاب منتخب الزمان"، ص ٣٢٩.

٣- الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٠٨، وتاريخ الشهابي، ص ٣٩٩، وسليمان تقي الدين وآخرون: دراسات في تاريخ الشوف ، ص ٧.

٤- ابن الأثير: الكامل، المجلد ١٢، ص ٣٥١. والمقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص٣١٠. وابن خلكان: وفيات الأعيان، المجلد الخامس، ص ٧٨. وابن العديم " زبدة الحلب، الجزء الثاني، ص ٦٤٦.

٥- ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٣٣- ٢٣٤، والمقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا، وطبرية وأعمالها، وجبل عامل، وسائر بلاد الساحل للفرنج سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م، ليكونوا له سنداً على ابن أخيه الصالح أيوب[1].

عودة الفرنج إلى بيروت وصيدا: استغل الفرنج الإنقسام بين أبناء صلاح الدين منذ بدايته. فأغروا حاكم مدينة جبيل بالمال فسلّمهم المدينة في سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م[2].وكان صلاح الدين قد خربها مع مدينة صيدا من جملة حصون، ونقل من كان فيها إلى بيروت. ثم أن الفرنج أرادوا احتلال بيروت لأن أميرها أسامة كان يرسل السفن لقطع الطريق عليهم، فاشتكوا أكثر من مرة إلى الملك العادل في دمشق، وإلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعاه من ذلك. وحين عزم الفرنج على احتلال بيروت أرسل الملك العادل إليها جنداً ليخربها كي لا يستفيد منها الفرنج، فباشروا هدم سورها وتخريب دورها وقلعتها، فمنعهم أسامة من ذلك، وتكفّل بحفظ المدينة، إلا أنه تراخى أمام القوة الفرنجية الزاحفة إليها، وسلّمها بدون حرب في سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، وبقيت له الولاية على جبال بيروت قبل أن ينتقل إلى مصر. " وأرسل الملك العادل من خرّب ما تبقى من صيدا، وعاث خراباً في محيط صور"[3]. وجرى عمل أسامة مضرب مثل في تسليم المدن بدون حرب، فقيل فيه :

سلّم الحصن ما عليك ملامه	ما يُلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حربٍ	سنّة سنّها ببيروت سامه

حين عاد الفرنجة إلى صيدا، وكانت خراباً، بيّتوا خيولهم في المنازل المهجورة، وباشروا بإعادة إعمارها. وصار عليها في سنة ١٢١٠ حاكم

---

[1]- ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٦١. وابن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٣، ص ١٥٥، وتاريخ ابن الوردي: الجزء الثاني، ص ٢٤٣ – ٢٤٦، وتاريخ ابن سباط الجزء الأول، ص ٣٢٤.

[2]- المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٢٣١.

[3]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١٢، ص ١٢٧.

اسمه باليان ابن رينو، غير ان المقريزي يذكر أن الفرنجة "شرعوا في عمارة صيدا سنة ١٢٢٧، وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين"[١]. وقد جرى تداولها بين الفريقين. ومما يدل على تداولها دخولها مع أعمالها وأراضيها ومع جبل بيروت وقلعة الشقيف في حصة الفرنجة وذلك في شروط الهدنة بينهم وبين الملك الصالح[٢]، كما يدل عليه خروج أهل دمشق إليها في سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م واحتلالها عندما علموا بحصار الفرنج لمدينة دمياط، فلجأ قسم من أهاليها إلى الحصن البحري، لأن أسوار المدينة البرية لم يكن قد أعيد بناؤها بعد، فدخل الجيش المسلم قسمها البري، "وذبح وأسر وحمل إلى دمشق من الأهالي زهاء ألفي نسمة"[٣]. وحين عاد إليها الملك لويس التاسع، ملك فرنسا، باشر بتعلية أسوارها وبتحصين قلعتها البحرية[٤].

نزول الفرنج في جزّين ومرج بسرى: ذكرت عدة مصادر هجوماً قام به الفرنج، في سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، على جبل صيدا. ومنها ما سمّاه "الهجوم على جزّين"، ومنها ما أضاف إلى جزّين مرج العواميد. وقد روى ابن سبط الجوزي، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م، هذا الهجوم كما يلي:

"وصل الفرنج إلى جزّين قرية قريبة من شعرا[٥] لما عادوا عن الطور فقصد ابن اخت الهنكري صيدا، وقال لا بد لي من أهل هذا الجبل فنهاه صاحب صيدا وقال هؤلاء رعاة وبلادهم وعر فلم يقبل وصعد خمسمائة من أبطال الفرنج إلى جزّين ضيعة الميادنة من الجبل فأخلاها أهلها وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا فتحدرت عليهم الميادنة من الجبل فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم وأسروا ابن اخت الهنكري وهرب من

١- المقريزي: السلوك: الجزء الأول ص ٣٥١، وتاريخ ابن سباط، الجزء الأول، ص ٢٩٤.

٢- الحسن الصفدي: نزهة المالك والمملوك، ص ١٣٤ – ١٣٥.

٣- المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٤٤٠، وابن واصل : مفرج الكروب، ص ٧٧.

٤- لويس لورته: مشاهدات في لبنان، ص ٩٣.

٥- شعرا : بانياس.

بقي منهم إلى صيدا. وكان معهم رجل يقال له الجاسوس[١] من المسلمين قد أسروه فقال لهم أنا أعرف إلى صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها فقالوا إن فعلت أغنيناك فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون ففهموا ان الجاسوس غرّهم فقتلوه ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة . وجاؤوا إلى دمشق بالأسارى وكان يوماً عظيماً"[٢].

من هذا النص يستفاد أن الفرنجة، الذين كانوا يهيمنون على صيدا والساحل، ما توصلوا في سنة ١٢١٦ إلى أعالي الشوف وجهات جزّين، وهذا ما يفسّر طمع ابن أخت هنكري صيدا في احتلال هاتين المنطقتين. أما تخويف الهنكري له، فهو يعني وجود مقاومة عنيفة يبديها أهل جبل صيدا لمنع توسع الفرنجة فيه. وقد جاء فتك أهل جزّين، "الميادنة"، بحملة الفرنجة دليلاً على ذلك. وهناك ناحية مهمة، وهي أن أهل جزّين (الميادنة) لم يتركوا وحيدين في مقاومة الفرنجة، بل كانوا يعتمدون على دعم صاحب دمشق لهم، بدليل أخذهم الأسرى الفرنجة إلى دمشق حيث كان فيها يوم عظيم.

يستفاد من جملة "تحدّرت عليهم الميادنة من الجبل" أن الفرنجة نزلوا في منطقة منخفضة عما حولها، فسّرها من كتبوا عن الهجوم عليهم نقلاً عن المصادر الأولى التي تكلّمت عنه، انها "مرج العواميد"[٣] أو مرج بسرى. وباستثناء هذه الإشارة إلى هذا المرج لم يُذكر عنه أنه كان مسرحاً للقتال بين الفرنجة والعساكر الإسلامية، إلا أنه كان ممراً لهذه وتلك إلى المناطق المحيطة به، وممّراً لها على الخصوص إلى قلعة شقيف تيرون.

---

[١]– في بعض المصادر الجاموس بدلاً من الجاسوس.

[٢]– سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، الجزء الثامن، ص ٥٨٥. وأنظر أيضاً أبو شامة : الذيل على الروضتين، ص ١٥٧. والدويهي: تاريخ الأزمنة، ص٢٠٧، وتاريخ حيدر الشهابي، ص٣٩٧. وقد ذكر اليونيني أن الهجوم حصل سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م أنظر سهيل زكار: تاريخ دمشق، طبعة جديدة... الجزء الأول، ص ٧١٧.

[٣]– أول من ذكر مرج العواميد ابن الحريري، ونقل عنه المؤرخون ، أنظر تاريخ ابن الحريـري المعروف بمنتخب الزمان، ص ٣٢٧.

وما جاء في مرجع حديث عن تدخل للفرنجة في نزاع مزعوم بين قرية "بسري" الواقعة في مرج بسرى وقرية مجاورة لها اسمها الشقراء هو خطأ واضح. فهو يذكر أن أهل "بسري" من بني شيبان وكانوا في أيامهم الأخيرة على "الدرزية"، وان الفرنجة هاجموا "بسري" بتحريض من أهل شقراء فهدموها وفتكوا بأهلها[1]. وبالعودة إلى المصدر الذي اعتمد عليه هناك ذكر فيه لقريتي بسر وشقراء الحورانيتين، ونزاعهما، وقتل الفرنجة لأهل بسر، لكنه ذكرٌ في الحديث عن الحملة الفرنجية التي قصدت دمشق ووصلت في زحفها إلى حوران التي التجأ أهلها إلى اللجاه[2]. ومن المعلوم أن بسر هذه هي بصر الحرير الواقعة إلى الشرق من سهل حوران على حدود اللجاه لا بسرى الموجودة في مرج بسرى.

قلاع الفرنج في جبل لبنان الجنوبي: كان الأفرنج أقلية مسيحية وسط محيط واسع جداً، معادٍ لهم، أكثريته الساحقة من المسلمين الذين يخوضون ضدهم جهاداً مقدّساً. لذا عملوا على تشييد الحصون لإقامة جالياتهم التي، إذا ما استثنينا المقيمة في المدن الكبيرة، لا يتجاوز عدد الواحدة منها ثلاثمائة نسمة. حتى إنهم ظلوا في المدن أقلية، فيما كان السكان الأصليون هم الأكثرية. وكان المسلمون منها "مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين"[3]. وقد أقام الفرنج الحصون على الساحل لتأمين الاتصال بينهم وبين أوروبا، وتسهيل وصول الامدادات اليهم. كما أقاموها على التلال المنيعة، وفي الممرات الاستراتيجية التي تربط الساحل بالداخل، كممر نهر الليطاني، والممر الواقع بين طرابلس وحمص. وكانت أكثرية هذه الحصون تشاد في أمكنة الحصون القديمة أو على أنقاضها وبحجارتها.

من الحصون التي بناها الفرنجة في ساحل بيروت وصيدا: جونيه، نهر الكلب، بيروت، المرداسية، الناعمة، قلعتا صيدا البحرية والبرية. والقلعة

---

[1]- يحيى حسين عمّار: الأصول والانساب، الكتاب الثاني، ص ١٣٩، ١٤٠.

[2]- سهيل زكّار: الحروب الصليبية، الجزء الثاني، ص ٧٦٢ – ٧٦٣.

[3]- الاصفهاني: حروب صلاح الدين (الفتح القسي)، ص ٧٣.

البحرية في صيدا لا تزال إلى اليوم، وقد رمّمها الأمير فخر الدين المعني الثاني. ومن قلاع الفرنجة في جبال بيروت وصيدا ثلاث تشرف على الطرق المنطلقة من صيدا نحو جبالها والبقاع، هي قلعة أبي الحسن، روم، شقيف تيرون.

ذكر أحد المراجع الحديثة حصون الفرنجة، فقال: إن الفرسان التوتونيين انتقلوا إلى الشوف "وأنشأوا ثلاثين موقعاً متدرّجاً من رأس وادي دير القمر إلى الساحل، وتحصّنوا على تلة الدير. فازدهرت المنطقة أيما ازدهار، ونشطت فيها الحركة الاقتصادية، على غرار سائر المواطن الفرنجية"[١]. إن تحصّن الفرنجة على تلة دير القمر يعني إقامة حصن عليها، أما الحصون الأخرى الواقعة بينها وبين الساحل، فهي في رأينا قرى.

وذكر أحد المراجع الحديثة أيضاً أنه كان للفرنج قلعة في بعقلين "دعيت بقلعة الشقيف، وقد دكّها الأمير معن حين وصوله إلى جبال الشوف وابتنى في مكانها وبحجارتها منازل له ولخاصته"[٢]. والمعلوم أن الأمير معن نزل، بحسب إحدى الروايات في بعقلين سنة ١١٢٠. وفي الكلام عن وجود قلعة فرنجية آنذاك مغالطات، منها تحديد زمن وصول الفرنجة إلى بعقلين، وبناؤهم لقلعة فيها قبل سنة ١١٢٠، وإجلاء الأمير معن لهم عنها، وهذه معلومات غير مسندة، ومتناقضة مع الوقائع التاريخية، لأن الرواية التي تعتمد عليها، وهي نزول الأمير معن في بعقلين، تذكر أن الشوف كان قفراً خالياً من السكان آنذاك، ومن الطبيعي أن يكون، في حال صحتها، خالياً من الافرنج. وعلى افتراض أنهم وصلوا إلى بعقلين قبل سنة ١١٢٠، أو حتى بعدها، فإنهم ليسوا بحاجة إلى بناء قلعة فيها على بعد كيلومتر ونيّف من قلعة الحصن القائمة بالقرب من بعقلين، والمبنية في العهد الأشوري، والتي لا تزال آثارها ظاهرة إلى اليوم، وعلى بعد كيلومترين ونيّف من حصن هلنستي اسمه "قصر السويجاني". لقد خضعت بعقلين لسلطة الافرنج، لكن

---

[١]– كميل إفرام البستاني: دير القمر في ثنايا الزمن، ص ٣١.

[٢]– غسان الغصيني: بعقلين في التاريخ ، ص ٢٦.

أول وثيقة افرنجية يظهر فيها اسمها هي وثيقة اقطاع سيد صيدا قرى الشوف للفرسان التوتونيين سنة ١٢٥٧.

وبزعم أحد كبار الجامعيين الالمان فان قصر آل جنبلاط في المختارة بني على موقع قصر صليبي قديم(١). وفي اعتقادنا أن القصر الصليبي مبني هو أيضاً على أنقاض قصر بيزنطي، لأن بالقرب منه، في محلة "فرنيا" التحتا في خراج بطمة، آثاراً رومانية. وكل من المختارة وفرنيا واقعة على طريق رئيسة في عهد الرومان.

القرى المقطعة للفرنج في جبل لبنان الجنوبي: توسّع الفرنجة في جبل لبنان الجنوبي بعد سنة ١١٨٧ أكثر مما توسّعوا قبلها. وتوسّعوا في جبال صيدا أكثر مما توسّعوا في جبال بيروت، ذلك أن وجود التنوخيين في منطقة "الغرب" كان يقف سداً منيعاً في وجه توسعهم بجبل بيروت. فقد استطاع هؤلاء ان يحافظوا على إمارتهم إلى جانب سنيورية بيروت بما امتلكوا من القوة الذاتية ، وبالدعم الذي قدّمه لهم أحياناً أصحاب دمشق، وبموادعة الفرنجة إبّان الموادعات العامة. وقد وصل أقصى توسع لسنيورية بيروت شرقاً إلى بيت مرى، فيما كان لها من الساحل القرى التالية المذكورة في الوثائق الافرنجية: Le Toron de Almit، جونيه، Musecaqui ، سن الفيل، الناعمة، الدامور. أما سنيورية صيدا فقد توسعت في جبال صيدا بفضل الفرسان التوتونيين الذين انتظموا في سنة ١١٩٨ في فرق خاصة، غدت من أهم الفرق الافرنجية.

في أواسط القرن الثالث عشر امتدت منطقة الفرنج في جبال صيدا من الساحل إلى أقصى القرى في سفوح جبال الباروك ونيحا والريحان، بناءً لما أقطعه سنيور صيدا جوليان للفرسان التوتونيين. وفي ما يلي أسماء القرى المقطعة لهم والقرى القليلة المقطعة لفرسان الاسبتارية، وجميعها مقطعة

١- Kamal Joumblatt: Pour le Liban, p 74.

في تواريخ متقاربة، مع الإشارة إلى أن معظمها لا يزال عامراً فيما تحوّل أقلها إلى خرب أو إلى مزارع صغيرة.

- القرى التي أقطعها جوليان، سنيور صيدا وشقيف (شقيف أرنون) إلى الفرسان التوتونيين في الشوف في ٤ شباط ١٢٥٧: Bullel/ Bublel، معاصر الكبرى (معاصر الفخّار)، دلبون، بتلون، الباروك، الفريديس، كفرا، الزنبقية، عين زحلتا، عين عامر، عين اوزيه (عين وزين)، الورهانية، بمهريه، العدّيس، ابريح، البصيّه، La fornie (ربما فرنيّا)، بعقلين، الدوير (دوير بصنيّه)، بصنيّه العليا، بصنيّه التحتا، كفرحمّل، أدميت، ديردوريت، بشتفين، المشيتية، سرسوريت، تفاحتا، الحميرا، اللويزة، الفسيدقة، كفرحيم، ديركوشه، البقيعة، الخنزيرية، بنمشين، شمعرين، المغيرة La corratye / la conrathie، Hommelmeguithe / Hummelmeguithe بعنايل، الكنيسة، مزرعة الدلهمية، مزرعة La lehedie، مزرعة le Mechaiera ، مزرعة Margekeneirah .
- القرى التي أقطعها جوليان، سنيور صيدا وبوفور (شقيف أرنون) إلى الفرسان التوتونيين في الشوف وجزّين في ١٠ شباط ١٢٥٧: جزّين، اشفيت، الجديدة، Haddris ، عزّيبة، باطون، تيرون، بكاسين، بنويتى، الغبّاطية، قيتولى، السمّاقة، القليعة، طورا، المزرعة[١]، الحسين، نيحا، المشيرفة، باتر، جباع [جباع الشوف]، مرستى، المنصورة، بعذران، الخريبة، المختارة، بطمة، المشيتية، سرسوريت، Ethcit، بدّه، "كفرنبرخ"، دير زكارون، معاصر بني أبو الهون (معاصر بيت الدين). دير القمر، ديربابا، الجاهلية، بقسطا، Ezsaronie ، ElKardie، Le Jardin de Besel.

١- المقصود بالمزرعة مزرعة الشوف، أنظر الياس القطّار: لبنان في القرون الوسطى، الجزء الثاني، ص ٤٢٧.

- القرى التي اقطعها جوليان، سنيور صيدا وبوفور إلى الاسبتارية في ١٥ شباط ١٢٥٧ أو ١٢٥٨: المروانية في إقليم شومر، وعانوت وداريا في إقليم الخرّوب . وأضاف إليها القرى التالية: بطمة ، عين فريسّون Karbet el Ezairac ، خربة دبش، Bedagon el Hammem، تربلة، السفرجلية.

- القرى التي اقطعها جوليان، سنيور صيدا وبوفور إلى الفرسان التوتونيين، في أراضي الشوف في ٢٠ آذار ١٢٥٨: عبرا، المروانية في إقليم شومر. عانوت، داريا، في إقليم الخروب. زفتا، تفاحتا، La Baordie el Hâdidi، مسيجعه، الجليلية، الزعرورية، بكيفا، وادي الحمّام، اشحيم، برجين، بطمة، عين فريسّون، خربة دبش، تربلة.

- القرى التي اقطعها جوليان، سنيور صيدا وبوفور إلى الفرسان التوتونيين في آذار ١٢٦١.

١- في الشوف الحيطي: نيحا، تيرون، اشيف، الحسين، Amelebene، سرسوريت، المشيتية، باتر، المشيرفة، الجزيرة، المنصورة، مرستى جباع، Geisshou، بعذران، أوزال، الخريبة، مشقير، المختارة، بدّه، بطمة.

٢- في الشوف الشويزاني (السويجاني): كفرنبرخ، الدريب، دير زكارون، معاصر بني أبو الهون، Befedin (ربما بيت الدين)، ديربابا، دير القمر، بني بلمانه، بني نمره، بني نجم.

٣- شوف الميادنة وبني Eleczem (على الأرجح العزّام)، جزّين، القليعة، بني راجس، طورا، Bergoiss، الغباطية، السمّاقة، برقداش، بني Ougih، قيتولى، بكاسين، دلغانه، بنويتى، اشفيت، الجديدة، باطون، عزّيبة ، Hadous، Elhoussem، الشقيف.

مما ورد يتبين أن الوثائق تشتمل على أسماء عدد كبير من قرى جبال صيدا، هي اليوم تقريباً جميع قراها. وهذا لم يرد في أية وثيقة أو

مصدر قبل أواسط القرن الثالث عشر، وخلاله، لذا يُعتبر أكبر معجم قديم لأسماء قرى جبال صيدا حتى صدور جداول الإحصاء العثمانية في القرن السادس عشر. وكثرة القرى المقطعة في سنيورية صيدا، مقابل قلتها في سنيورية بيروت، ناتجة من زيادة مساحة سنيورية صيدا عن مساحة سنيورية بيروت، وخضوع جبال صيدا كلها للفرنج، فيما بقيت جبال بيروت بمعظمها خارج سلطتهم وتحت سيطرة الأمراء التنوخيين.

ومما ورد يتبين أن القرى المسماة في سنيورية صيدا هي إلى الجنوب من نهر الدامور الذي يشكل الحد الفاصل الدائم بين الكيانين السياسيين أو الإداريين التابعين لبيروت وصيدا. إلا أن قرية الدامور كانت تدخل أحياناً تحت سلطة سنيور صيدا، بدليل منحه سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، "شكارة بذار ثلاثة أغربة قمح في سهلها إلى حجى بن محمد بن حجى"[1].

بالإضافة إلى ما ورد ذكره، هناك روايات متناقلة تذكر أن هذا المكان أو ذاك كان "من بلاد الفرنج". ومن ذلك قصر السويجاني الذي تقول رواية بعض المعمّرين أنه كان قصراً لملكة صيدا، والمقصود بذلك أميرة صيدا الافرنجية. وقد يكون اسم "حجر الكنيسة" الموجود في محلة بقعاتا الشوف يشير إلى كنيسة من بناء افرنجي. أما اسم محلة "الصليّب" الواقعة بين خراجات بلدات بعقلين والسمقانية والجديدة وعترين، فإنه غير مشتق من كلمة "الصليب" الذي هو شعار المسيحية، بل مشتق من لفظة "صلب" التي تعني ما صلب من الأرض.

في أواخر عهد الأيوبيين

بين الأيوبيين والمماليك: أقرّ السلطان صلاح الدين حجى على إمارة أبيه عند فتحه لبيروت. وبعد أن عاد الفرنجة إلى بيروت جرت للامير حوادث كثيرة معهم لأنه تابع مسيرة أجداده في التصدّي لهم، ولأنه حقد عليهم بسبب قتلهم لأخوته الثلاثة. وبعده تسلم الإمارة ولداه نجم الدين محمد وشرف الدين

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٤٨.

علي، وكان الصراع قائماً في أيامهما بين صاحب مصر والشام الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ و ١٢٤٥ – ١٢٤٩) وصاحب الشام الملك الصالح اسماعيل (١٢٣٧ و ١٢٤٠ – ١٢٤٥). وقد أرسل صاحب مصر إلى نجم الدين محمد منشوراً يقره على قاعدته، ويطلب منه الاستعداد للقائه.

تسارعت الأحداث أكثر من ذي قبل إبّان الصراع بين الدولة الأيوبية في بلاد الشام، والمماليك الذين قضوا على الأيوبيين في مصر وأنشأوا دولتهم، وإبّان قدوم التتار (المغول) إلى بلاد الشام، مع وجود بقايا الفرنجة في الساحل. لم يسلّم صاحب حلب، الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز بن محمد بن الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين، بالانقلاب المملوكي على الأيوبيين في مصر، بل أخذ دمشق، وعمل على أخذ تأييد حكام وامراء بلاد الشام، وسار بجيشه إلى مصر يريد أخذها لكنه انهزم فيها[1] وعاد إلى الشام ليواجه خطر التتار.

وقعت الإمارة التنّوخية أسيرة تجاذب القوتين المتنازعيتن في حقبة لا يزال الخطر الإفرنجي قوياً على حدودها نظراً لما بلغته سنيورية صيدا آنذاك من التوسع، كما بدأ خطر التتار يحيق بها. أرسل الملك الناصر يوسف منشوراً إلى أقوى أمراء "الغرب" آنذاك الأمير حجى الثاني حفيد حجى الأول، تاريخه صفر ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م يقطعه اثنتي عشرة قرية من قرى "الغرب"، وذلك في إطار سياسة تجميع القوى حوله. وفي المقابل سعى الملك المملوكي، الملك المعز أيبك، إلى التقرّب من أمراء "الغرب" فأرسل إلى أخي حجى، سعد الدين خضر، منشوراً تاريخه ربيع الأول ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م يقطعه اثنتي عشرة قرية في جبل صيدا (الشوف) وقريتين في وادي التيم [2].

إن هذا يدلُّ على تقاسم للنفوذ، إما متفق عليه بأن يكون "الغرب" للامير التنوخي حجى الثاني، والشوف لأخيه سعد الدين خضر، وإما هو فقط

---

[1]– ابن واصل: مفرّج الكروب، ص ١٥٩ – ١٦٠.

[2]–صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٦.

وليد التنافس بين الأيوبيين والمماليك. ويبدو منه أيضاً أن امراء "الغرب" ظهر عندهم ميول إلى المماليك في مصر، وهذا، على الأرجح، سبب الحملة الأيوبية على "الغرب" التي جاءت بقيادة ابن ودود وابن حاتم ومعهما العساكر وجموع من بعلبك والبقاع. إلا أن أمراء "الغرب" كسروهم عند وصولهم إلى قرية عيناث في ذي القعدة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م. وكان الفضل الأول في هذا الانتصار للأمير زين الدين صالح بن علي، الذي سيبرز منذ ذلك التاريخ وصاعداً، وهو ابن عم الأمير حجى الثاني، ومؤسس الفرع العرموني من التنوخيين، لأنه سكن عرمون. وقد نهب أبناء "الغرب" العسكر المهاجم وأسروه، ثم امنوه وأخلوا سبيله.

بين المماليك والتتار: قدم التتار (المغول) من الشرق بقيادة هولاكو، أحد احفاد جنكيزخان، واحتلوا بغداد، وألغوا الخلافة العباسية، وتقدموا غرباً إلى بلاد الشام. وعند احتلالهم لحلب تلاشت آمال الشاميين بإمكانية الوقوف في وجههم، وانفضّت الجموع التي استنفرها الملك الناصر الأيوبي حول دمشق لقتالهم، وكانت قد بلغت المائة ألف[1]. فاحتل المغول دمشق، واخذ منها هولاكو الكنوز، وأحرقها. وعاد إلى بلاده تاركاً أحد كبار قادته كتبغا. فأراد هذا الزحف إلى مصر لكنه هُزم وقُتل في معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ أيلول ١٢٦٠م أمام المماليك الذين يقودهم السلطان قطز والقائد بيبرس.

كانت فرقة من التتار قد قصدت بعلبك قبل ذلك فاحتلتها وخربت قلعتها وعاثت نهباً وخراباً، ومضت نحو قلعة الصبيبة (بانياس) فاحتلتها[2]. كما انتقلت فرقة إلى الساحل في آب ١٢٦٠، وفاجأت صيدا، وكان صاحبها الأفرنجي آنذاك باليان، فدافع عنها ببسالة، لكن التتار اخترقوا أسوارها واحتلوها، وأسروا عدداً من الناس قتلوا بعضهم، وأخذوا البعض الآخر

---

[1]- المقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٥١١. وابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور.

[2]- ابن واصل: مفرّج الكروب، ص ٢٧٩.

معهم. وتركوا المدينة خراباً[1]. وهذا كان السبب الرئيس لبيع باليان صيدا إلى الداوية، إذ إنه لم يستطع ترميم أسوارها بعد هذه النكبة. أما سبب هذه الغزوة، فهو قتل فرنجة صيدا لابن أخي كتبغا، فقام التتار بغزو صيدا انتقاماً منها.

لم تتحدث المصادر التي ذكرت غزو التتار للساحل ولصيدا عن الطريق التي سلكوها. وبناءً على خط سيرهم إلى بعلبك وبانياس يمكن القول إنهم سلكوا طريق مشغره – جزّين، وعادوا عليها، ومما يرجح ذلك هو انه ما من مصدر تحدّث عن دخولهم إلى مناطق واقعة إلى الشمال من صيدا مما جنّبها ويلاتهم التي انصبت على كل منطقة مرّوا فيها.

إن الشعوب والجماعات الصغيرة تبعد نفسها، أنّى استطاعت، عن لعبة الأمم، وتدخلها حين لا تجد مفرّاً من ذلك بالشكل الذي يلائمها ويحفظ وجودها ويحقق مصالحها، وأحياناً بالشكل الذي يُفرض عليها. وهكذا كان وضع أمراء "الغرب" حين وضعوا بين خيار تأييد الدولة المملوكية التي تحاول تثبيت أقدامها في مصر، وتوسيع نفوذها إلى بلاد الشام، وتأييد الدولة الأيوبية التي تتشبث بملكها للشام وتحاول استعادة مصر من المماليك. كما كان وضعهم محرجاً للغاية بين التتار الذين امتلكوا دمشق ، وأقام فيها أحد قادتهم، كتبغا، مملكة، وبين المماليك الذين ساروا إلى فلسطين لوقف زحف التتار ولأخذ بلاد الشام.

تباطأ الأمير حجى في تلبية دعوة الملك الناصر للقدوم إلى دمشق والانضمام إلى القوى التي يجمّعها لصد التتار، إذ لم يمضِ على غزو الناصر لمنطقة "الغرب" إلا وقت قصير. وحين وصل حجى إلى دمشق كان الناصر قد فرَّ منها من وجه التتار ولجأ إلى غزّة. وكان كتبغا قد استقر حاكماً فيها، نيابة عن هولاكو، فقابل حجى كتبغا وأقرّه هذا باسم هولاكو على ما له من اقطاع. ولحق الامير زين الدين صالح بابن عمه الأمير حجى إلى

---

[1]- الفارس الداوي الصوري: أعمال القبارصة، ص ٤٣ – ٤٤ز

دمشق. وهناك توزّعا الأدوار، فاتفقا على أن ينضم زين الدين إلى المماليك، وأن يبقى حجى في صوف كتبغا. وحين جرت المعركة الفاصلة بين المماليك والتتار في عين جالوت أبدى زين الدين فيها بطولة فائقة، إذ كان يرمي عن قوس قوي، وأُعجب مماليك السلطان برميه فصاروا يقدّمون له النشّاب من تراكيشهم. وبهذا غطّى على بقاء ابن عمه في صفوف التتار، وشفع به، وحفظ إمارة "الغرب" في العاصفة القوية، لأنها كانت ستتعرض لما اتخذه الملك الظاهر بيبرس بحق الكثير من الإمارات، وفي سنة من أصعب السنوات على الإمارة، هي سنة ١٢٦٠ التي تعاقب فيها على حكم دمشق أربع دول، هي دولة الأيوبيين التي كانت قائمة فيها، ودولة للتتار، ودولة المماليك بقيادة السلطان قطز، ودولة المماليك بقيادة السلطان بيبرس.

في مرحلة إجلاء المماليك للفرنج

المماليك: المماليك قوم من أواسط آسيا، احتل التتار الأجزاء الشمالية والشرقية من بلادهم، وسبوا الكثير منهم وباعوهم فحملهم التجار إلى الآفاق. وعندما تملك السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين، اشترى نحو ألف منهم ووثق بهم وأمّرهم[1]. وسموا بالمماليك الصالحية نسبةً إليه، وبالبحرية نسبةً إلى قلعة الروضة التي بناها في نهر النيل المعروف بـــ "بحر النيل" والتي اتخذها دار ملك وأسكنهم فيها. والبعض يرى أنهم سمّوا بذلك لأنه جيء بهم من وراء البحار. كانوا جنوداً مدرّبين، اتقنوا فنون الفروسية كما اتقنها الفرنج، وإليهم يعود فضل استكمال عملية التحرير التي بدأت في عهد الأتابكة، وفضل وقف هجوم التتار على مصر.

أسس المماليك دولتين، هما دولة المماليك البحرية، ودولة المماليك البرجية. والأقاليم التي شكلت دولتهم، هي مصر وبلاد الشام والحجاز إلى جانب نفوذ لهم في النوبة واليمن. وقد تركوا في بلاد الشام لبقايا الأمراء

---

[1] – ابن دقماق: النفحة المسكية في الدولة التركية، ص ٣٧، ٣٩.

الأيوبيين مملكة صغيرة في حماه، استمرت حتى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، إذ إنهم منذ ذلك التاريخ أصبحوا يعيّنون عليها اميراً مملوكياً[١].

بدأ حكم المماليك البحرية في مصر سنة ١٢٥٠ بعد إنهائهم للحكم الأيوبي بقتلهم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين، عقب انتصاره على الفرنجة مباشرة. وأقاموا شجر الدر سلطانة بعده على أن يكون عز الدين ايبك قائداً للعسكر[٢]. الا انهم ولّوه السلطنة بدلاً عنها، ولُقب بالمعز، "لأنه لا يمكن حفظ البلاد والملك بامرأة"[٣]. وبدأ حكمهم في بلاد الشام سنة ١٢٦٠ بعد أن أخذها السلطان قطز ثم الظاهر بيبرس، الذي اغتال السلطان قطز.

أعاد السلطان بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) الخلافة العباسية التي قطعها التتار، عند احتلالهم بغداد، بقتلهم الخليفة المستعصم بن الظاهر. وقد ظل المسلمون بدون خليفة نحو أربع سنين ونصف. فقد بايع بيبرس عمَّ المستعصم، الإمام، المستنصر بالله، وذلك في ١٩ رجب ٦٥٩هـ/ حزيران ١٢٦١م، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس[٤]. وبهذا اكتسبت الدولة المملوكية الناشئة صفة الشرعية، وأصبح سلطانها مفوّضاً بالحكم من الخليفة العباسي. وخلف بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة خان (١٢٧٧– ١٢٧٩)، ثم قلاوون(١٢٧٩ – ١٢٩٠) ، الذي جاء بعده ثمانية من أولاده في العشرين الأول من وفاته تنازع بعضهم على الملك، ثم انتقل إلى أحفاده الذين كانوا أطفالاً لم يبلغوا الحلم فكان لمماليكهم السلطة الفعلية[٥].

١- محمد ماهر حماده: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص ٢٥.

٢- أنظر عن كيفية انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك: ابن واصل: مفرّج الكروب، ص ١٢٨– ١٣٢. وابو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٨٤. والمقريزي: السلوك، الجزء الأول، ص ٤٥٨. وابن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٣، ص ١٧٨.

٣- ابن واصل: مفرّج الكروب، ص ١٤٠.

٤- اليونيني: تحقيق سهيل زكّار، بعنوان "تاريخ دمشق: الجزء الثاني، ص ٩٧٢.

٥- وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ٤٧ وما بعدها.

كان السلطان قلاوون قد أكثر من المماليك من اللاض والروس، وجعلهم في خدمته وفي جيشه، وأسكنهم في أبراج قلعة القاهرة وسماهم "البرجيّة"، وكان عددهم ٣٧٠٠. ومع الزمن توصل هؤلاء إلى الحكم بقيادة السلطان برقوق الذي انتزع الحكم من الصالح حاجي آخر سلاطين المماليك البحرية في سنة ١٣٨٢[1]، وأسس دولة المماليك البرجية. وتسلّم السلطنة بعده اثنان وعشرون سلطاناً تولى ثلاثة منهم الحكم في سنة واحدة. وكان عهد قايتباي أطول عهودهم (١٤٦٨- ١٤٩٥)، وكان آخرهم السلطان قانصوه الغوري الذي قُتل في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦، والسلطان طومان باي الذي قُتل في مصر سنة ١٥١٧.

فتح قلعة الشقيف: أوقف السلطان الظاهر بيبرس زحف التتار، لكن خطر عودتهم ظل قائماً. لذا تحسّب لذلك، وعمل على تحصين الوجود المملوكي في بلاد الشام قبل أن يستأنف الجهاد ضد الفرنجة. وقد التمس منه فرنجة عكا الصلح حين حضر إلى دمشق في سنة ١٢٦١، فقبل به "وتقرّر على ما كان الامر مستقراً عليه إلى آخر الأيام الناصرية، وإطلاق الأسرى من حين انقضاء الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة". وكذلك تقرّرت الهدنة لصاحب يافا، كما تقرّرت لصاحب بيروت على حكم الأيام الناصرية[2]. إلا أن الهدنة مع الفرنجة كانت مؤقتة، فاستأنف بيبرس الجهاد ضدهم، وعمد إلى احتلال ما أمكن من حصونهم لاضعاف مراكزهم في الساحل، ومنها قلعة شقيف ارنون، وقلعة شقيف تيرون.

بعد أن فتح صلاح الدين قلعة شقيف أرنون جرى التنازل عنها للفرنجة في عهد ورثته، سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وانتقلت قلعة شقيف تيرون إليهم ودخلت في الاقطاعات الممنوحة للفرسان التوتونيين في شباط ١٢٥٧، ثم دخلت في الاقطاعات الممنوحة لهم في آذار ١٢٦١. وقد خلط بعض

---

[1]- أنظر عن السلطان برقوق: العيني: عقد الجمان، تحقيق ايمان شكري، بعنوان السلطان برقوق. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، الجزء ١١، ص ١٨١-٢٦١.

[2]- ابن واصل: مفرّج الكروب، ص ٣٢٢ – ٣٢٣.

المؤرّخين بين القلعتين لاشتراكهما في اللفظة الأولى من اسميهما المركبين (شقيف)، ولقرب المسافة بينهما، ولوقوع شقيف تيرون إلى الشرق من صيدا، وشقيف أرنون إلى الجنوب الشرقي منها، ولوقوع كلّ منهما بالقرب من مرج: شقيف تيرون بالقرب من مرج العواميد، وشقيف أرنون بالقرب من مرج العيون.

فتح السلطان بيبرس شقيف أرنون في أواخر رجب ٦٦٦هـ/ نيسان ١٢٦٨م، بعد فتح يافا، إلا أن اخذه لشقيف تيرون غير معلوم بالتحديد عند المؤرّخين. فالمقريزي يذكر ان السلطان بيبرس شرع، في جمادى الآخره ٦٦٢هـ/ نيسان ١٢٦٤م، البناء في شقيف تيرون، وكان قد خرب من سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. فلما تم بناؤه حمل إليه زردخاناه وذخائر[١]. فإذا كان سبب الخراب بشرياً، وهو في سنة ٦٥٨هـ، يصبح التتار هم الذين خرّبوه اثناء هجومهم على صيدا في السنة نفسها. وإذا كان سبب الخراب طبيعياً، وهذا هو الأرجح، تصبح الزلزلة التي حصلت في سنة ٦٥٩هـ هي التي خربته، ويكون بالتالي هناك خطأ في ذكر السنة عند المقريزي وذلك بإيراده سنة ٦٥٨ بدلاً من سنة ٦٥٩هـ. ومما يجدر ذكره هو أن زلزلة سنة ٦٥٩هـ احدثت ، بحسب ما أورده المؤرّخون ، خراباً في عكا، وفي سائر مناطق احتلال الفرنج، من وجوهه غرق سبع جزر[٢].

من المؤكد أن بيبرس هو الذي استعاد قلعة شقيف تيرون، وبنى فيها. ومما يزيد في تأكيد ذلك هو أن الأب هنري لامنس وجد فيها كتابة على اسم الملك بيبرس بعد أن انتزعها من الافرنج[٣]. ووصف ابن سباط، الذي زار القلعة في أوائل القرن السادس عشر، البرج الذي بناه الملك بيبرس قرب بابها، وعلى عتبة بابه شعاره وهو أسدان متقابلان[٤]. وهذه العتبة سقطت

١- المقريزي : السلوك ، الجزء الثاني، ص ٨.

٢- ابن واصل: مفرّج الكروب، ص ٣٢١، والمقريزي : السلوك، الجزء الأول، ص ٥٢٨.

٣- لامنس: تسريح الأبصار، الجزء الثاني، ص ١١٦.

٤- تاريخ ابن سباط، الجزء الأول، ص ٤٢٣.

على الطريق المارة تحت الشاهق الصخري، الذي تقع القلعة في وسطه، وكادت تسقط من على صخر إلى بحنّين ، بحسب ما يذكر شاكر الخوري الذي قال "إن رفعها تم مع رجال معه عندما كان مع الأب لامنس اليسوعي الشهير في آثار لبنان"[1].

ينفرد ابن الحريري في وصف أخذ السلطان بيبرس لقلعة شقيف تيرون، لكنه يلتقي مع غيره في الخلط بينها وبين شقيف أرنون، فهو يقول ما يلي: "في سنة ستة وستين وستماية [١٢٦٨م] فتح السلطان الملك الظاهر يافا وهدم قلعتها ثم سار منها قاصداً قلعة الشقيف ونزل تحتها بوادي العواميد وحاصرها، فوجدها مانعة حصينة جداً، ثم رحل إلى اعلاها فلم يقدر عليها ثم كشف عن مايها [مائها]. فلما كان الليل وأهل القلعة نيام إذ ذبح في الماء عدة من الغنم والبقر ورمى كروشهم في الماء وقطعه. فلما أصبحوا وجدوا ماءهم منتناً وهو دم غبيط فسلّموا بعد حصار عشرة أيام، وتسمّى شقيف بيروز[2]. وبنى برجاً على باب القلعة وهو متم؟؟ رجل وهي حصينة جداً ولا يقدر عليها، وبعضها تحت في الشقيف وبعضها عمارة، وهي شرقي صيدا، وبينها وبين دمشق، وأرنون أيضاً حصينة جداً، وهي بالقرب منها على خمسة فراسخ"[3].

إن هذا النص يخلق الارباك، فهو يدمج بين فتح شقيف تيرون وشقيف أرنون بالتاريخ الذي هو سنة ٦٦٦ هـ، والذي هو بعد فتح يافا، لكنه يذكر طريقةً لفتح شقيف تيرون مختلفة، عن فتح شقيف أرنون، ويحدّد موقع شقيف تيرون بالضبط من حيث ذكره أنها إلى الشرق من صيدا، وبينها وبين دمشق، وانها قريبة من شقيف أرنون، وتقع فوق مرج العواميد. إذ إن

---

[1]- شاكر الخوري: مجمع المسرّات، ص ٥٦.

[2]- حقق الدكتور سهيل زكّار تاريخ ابن الحريري في سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م بعنوان "الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين "دون أن يذكر اسم المؤرخ ابن الحريري. وفي الصفحة ٦ من هذا الكتاب ترد تيرون لا بيروز.

[3]- أحمد بن الحريري: كتاب منتخب الزمان المعروف باسم تاريخ ابن الحريري، ص ٣٥٧.

فتح شقيف أرنون جرى باحتيال الظاهر بيبرس على الفرنج المحاصرين فيها والفرنج الموجودين في عكا من خلال معرفته بسرائر الأمور بينهم لدى وقوعه على كتاب مرسل من افرنج عكا إلى إفرنج الشقيف[1]. بينما جرى فتحه لشقيف تيرون، بحسب ما ذكر ابن الحريري، بتسميم المياه. وهي طريقة اتبعها بعد أربعة قرون الوالي العثماني أحمد الكجك عندما حاصر الأمير فخر الدين الثاني اللاجئ إلى القلعة سنة ١٦٣٣، فاضطر الامير بعد تسميم مياه القلعة للانتقال إلى مغارة جزّين حيث قبض عليه هناك.

مما ورد يمكن استخلاص ان قلعة شقيف تيرون من قسمين، أولهما المغاور الحصينة، وثانيهما البرج الذي بناه الملك الظاهر بيبرس على مدخل الممر الصخري الضيق الموصل إليها.

ان انتصارات السلطان بيبرس على الفرنجة قلّصت ممتلكاتهم في السواحل والمرتفعات المجاورة لها، وازالت القطائع المفروضة منهم على مدن ومقاطعات كثيرة، واضعفتهم، فأخذوا يطلبون الصلح والهدنة وتمديد الهدن المعقودة. ومن ذلك طلب فرنجة صور الصلح والهدنة لمدة عشر سنين لصور وبلادها البالغة ٩٩ قرية، وطلب الاسبتارية الصلح على حصن الأكراد والمرقب، والهدنة لعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات. وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وعن حماه وشيزر وأفامية التي وردت في العديد من المصادر "فامية"، وأبي قبيس، وكان ذلك في سنة ٦٦٥هـ[2]. وبأخذ بيبرس لشقيف أرنون ضيق الخناق على الفرنجة الموجودين في صور وعكا. وبأخذه لشقيف تيرون ضيّق الخناق على الموجودين في صيدا وبيروت. وبعد أخذه شقيف أرنون في رجب ٦٦٦هـ حصل الاتفاق في شوال من السنة نفسها على أن تكون حيفا للفرنجة ولها

---

[1]- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٩.واليونيني تحقيق سهيل زكّار بعنوان "تاريخ دمشق" الجزء الثاني، ص ١١٠٢ – ١١٠٣.

[2]- المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٤٤.

ثلاث ضياع، وأن تكون مدينة عكا وبقية بلادها مناصفة هي وبلاد الكرمل، وأن بلاد صيدا الوطأة، أي الساحل للفرنجة، والجبليات للسلطان[1].

استكمال التحرير: وضع الغرب كل ثقله لاحتلال ممالك في الشرق، منها الأماكن المقدّسة. لكن هذا الاحتلال الذي شكّل مصدر غنى وقوة في البداية تحول عبئاً عليه، مما جعله يتراخى في تدعيمه. ثم تخلّى عنه بدليل عقد ملك اسبانيا الريدراكون معاهدة مع الملك المنصور قلاوون، في نيسان ١٢٨٩، تنص على عدم اعتداء الريدراكون وأخيه على ممتلكات السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل وما سيفتحانه، بما في ذلك السواحل الشامية التي دخلت في الهدنة، وعدم اعتداء السلطان وابنه الأشرف على ممتلكات الريدراكون وأخيه وما سيفتحانه من بلاد الأفرنج[2].ومن الأدلة أيضاً عدم موافقة فيليب لوبيل ملك فرنسا، وإدوار الأول ملك انكلترا، على عرض موفد الخان ارغون، ملك المغول في العجم، بعقد اتفاق يطوّق المماليك، ويقضي بهجوم مشترك يقوم به المغول من ناحية الشرق، والملكان من ناحية الغرب. لكن كلاً من الملكين المذكورين المتزاحمين أبى إضعاف نفسه بالسفر إلى أورشليم لمصلحة الآخر[3].

تابع السلطان قلاوون عملية التحرير، فمهّد لإجلاء الفرنجة عن عكا بإنهاء كونتية طرابلس، ومهّد لانهاء هذه الكونتية بإكمال ما بدأه بيبرس، وهو احتلال ما حولها من حصون، وأخذ معاقل الموارنة المؤيدين لها، لاضعافها وتسهيل حصارها. وكان السلطان بيبرس، إبّان مسيرته إلى طرابلس سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م، احتل عدة حصون، وأغارت عساكره على جهات بشرى

---

[1]- المصدر نفسه، ص ٥٢.

[2]- محمد ماهر حماده: الوثائق السياسية والإدارية ، ص ٤٨٥ – ٤٩٢.

[3]- أنظر عن مبعوث أرغون إلى الملكين الأوروبيين وإلى البابا: رنيه غروسيه: رصيد التاريخ، الجزء الثاني، ص ١٤٨ – ١٤٩.

وزغرتا، فأخذت عدة مغاور، وقتلت وأسرت وغنمت الكثير وقطعت الأشجار وهدمت الكنائس[١].

أوعز السلطان قلاوون لعشائر التركمان بغزو قريتي حدث الجبة وإهدن ومحيطهما للقضاء على البطريرك الماروني المتحصّن هناك، الذي جاء عنه في أحد المصادر "أنه عتا وتجبّر واستطال وتكبّر وأخاف صاحب طرابلس وجميع الفرنجة واستغوى أهل تلك الجبال وأهل تلك الاهوية من ذوي الضلال واستمر أمره حتى خافه كل مجاور. وتحصّن في الحدث وشمخ بأنفه". واعتبر القبض عليه "فتوحاً عظيماً أعظم من افتتاح حصن أو قلعة وكفى الله مكره"[٢] وقد هدمت هذه الحملة قلعتين وسبت النساء وقبضت على الأعيان ونهبت البيوت وأحرقتها[٣]. وبين سنتي ١٢٨٥ و ١٢٨٩ أكمل السلطان قلاوون افتتاح ما تبقى من كونتية طرابلس، فأخذ حصن المرقب وحصن صهيون ومدينة طرابلس[٤]. وبعد أن هدم طرابلس أقام مدينة أخرى بالقرب منها.

لم يبقَ للفرنجة سوى عدة حصون منها مملكة عكا وصيدا وعثليث، التي عقد الملك قلاوون صلحاً معها في ٥ ربيع الأول ٦٨٢هـ/ ٣ تموز ١٢٨٣م، مدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام[٥]. وكان امنع هذه الحصون عكا التي شبهها ابن بطوطة حين زارها في أوائل الثلاثينيات من القرن الثامن للهجرة وهي خراب، بانها "كانت تشبه قسطنطينية العظمى"[٦]. وقد سقطت بيد الأشرف خليل في ١٨ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/ أيار ١٢٩١م. وبسقوطها تداعت الحصون الأخرى ومنها صور، التي كانت قبل

١- المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٤٩.

٢- ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٤٧.

٣- الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٦١.

٤- تاريخ أبي الفداء، الجزء الثاني، ص ٣٥٥ – ٣٥٨.

٥- القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء ١٣، ص ٣١٢.

٦-رحلة ابن بطوطة، الجزء الأول ، ص ٨١.

تحصين الفرنجة لعكا من امنع حصونهم، وسار الامير علم الدين الشجاعي بعسكر دمشق لحصار صيدا فافتتح برجها في ١٥ رجب ٦٩٠هـ/ تموز ١٢٩١م. وانتقل إلى بيروت وافتتحها في ٢٣ رجب، وسقطت بعد ذلك عثليث وجبيل. وخلا الساحل كله من المحتلين الفرنجة. واكتمل ثأر المسلمين منهم. وانتهت مرحلة من الصراع الطويل بين الشرق والغرب.

الحملة المملوكية على "الغرب": أقطع المماليك في هذه الحقبة قطب الدين السعدي قرية كفرعميه من "الغرب"، فوُجد السعدي مقتولاً، واتهم نجم الدين محمد ابن حجى بقتله. وكانت ردة فعل عسكر الشام قوية ظهرت في غزوة تأديبية للغرب سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، تجاوزت الانتقام من قاتل السعدي إلى تأديب منطقة "الغرب" كلها، وإخضاعها للإدارة المملوكية، وإجبارها على قبول جميع تدابير السلطنة، ولا سيما ما يتعلق منها بالنهج المعتمد في الإقطاع.

اشترك في هذه الحملة عسكر الشام والعشران من ولاية بعلبك والبقاعين وصيدا وبيروت. وأقاموا في "الغرب" سبعة أيام ينهبون ويحرقون ويهدمون ويخرّبون ويأسرون ويلاحقون الفارين من امامهم، حتى إنهم لاحقوا بعضهم إلى شقيف كفرأغوص الحصين وأنزلوهم، وتتبّعوا الهاربين من "الغرب" إلى منطقة "المناصف" في الشوف. وانزلوا بأهل "الغرب" مصائب أشد مما أنزلت به أية غزوة سابقة[1]، بما في ذلك غزوة الفرنج الأولى سنة ١١١٠، وغزوة الفرنج الثانية سنة ١١٧٤، بحيث لم ينج من أهله إلا من تستر بالشعرات والأودية والمغاور، وقد أخذ المماليك نساء الفلاحين وجعلوهم جواري، وأولادهم وجعلوهم عبيداً. كما أنهم أخذوا الخيول والأغنام والأبقار والقماش التي تخص تنوخيي "الغرب". هذا الموقف المملوكي العدائي من امراء "الغرب"، إضافة إلى انقسامهم، أضعف دورهم في استكمال عملية التحرير، بعد أن كان أقوى أثناء توسّع الفرنج.

---

[1]- أنظر عن هذه الحملة: تاريخ ابن سباط الجزء الأول ، ص ٤٥٧ – ٤٥٨.

الفصل السابع

في عهد المماليك بعد إجلاء الفرنج (١٢٩٢- ١٥١٦)

تواصل هجمات الفرنج

تحرّرت السواحل الشامية من احتلال الفرنجة في سنة ١٢٩١، لكن خطرهم عليها ظل قائماً من خلال غزواتهم التي كانوا يقومون بها انطلاقاً من جزر قبرص ورودس وكريت، ومن الموانئ الاوروبية على البحر المتوسط. وسمّى المؤرخون المسلمون السفن التي يغزو بها الفرنجة "المراكب" و"البطس" و"الشواني" و"القرقورة"، و"الغراب" لأن مقدمتها على شكل رأس الغراب. وقد وصل منها إلى بيروت في شعبان ٦٩٨هـ/ أيار ١٢٩٩ مراكب كثيرة وثلاثون بطسة، كل واحدة منها تحمل حوالى سبعمائة نفر[١]، وقصدها غزو بيروت والساحل. لكن رياحاً عاتية لم يعهد مثلها من قبل هبّت عليها، وفرّقتها، وأغرقت بعضها، فتوقف سير العساكر التي بدأ تجميعها لرد الفرنجة الذين حملتهم[٢].

وفي الثامن من جمادى الاولى ٧٠٢هـ/ كانون الأول ١٣٠٢م وصلت شواني للفرنجة إلى الساحل، ونزلوا في الدامور، وقتلوا خمسة من العاملين بالزراعة هناك، كما قتلوا من متعهدي الحراسة الأمير البحتري فخر الدين عبد الحميد، وأسروا أخاه شمس الدين عبدالله لمدة خمسة أيام حتى افتداه قريبه الأمير ناصر الدين التنوخي، وقد جرى ذلك بسبب إهمال بني الشويزاني وبني العدس.

---

[١]-ربما كان هذا العدد الذي أورده ابن الجزري مبالغاً فيه.

[٢]- ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، الجزء الأول، ص ٤٤٠ – ٤٤١.

وفي أيام عيد الأضحى من سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م حضرت شواني افرنجية جنوية لاسترجاع قرقورة لطائفة الكتيلان، فاستعادها الجنويون بعد قتال شديد مع مسلمي بيروت، استمر يومين في الشوارع، قتل أثناءه جماعة من الجند والرجال، وجرح بعض الأمراء، وأخذ الإفرنج من البرج الأعلام السلطانية، مما استدعى طلب الأمراء التركمان وامراء الغرب، إلى دمشق، حيث وجهت لهم الإهانة على إهمالهم، وطُلب بعدها من أمراء "الغرب" الاقامة في بيروت، فانتقل بعضهم إليها للقيام بالحراسة[1].

تواصلت هجمات الفرنجة على السواحل الشامية، واستهدفت الأماكن التالية بين اواسط القرن الرابع عشر وأواسط القرن الخامس عشر:

- طرابلس وصيدا في سنة ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦م.
- صيدا في ذي القعدة ٧٧٠هـ/حزيران ١٣٦٩م.
- طرابلس في ربيع الآخر ٧٨٠هـ/ تموز ١٣٧٨م.
- بيروت في شعبان ٧٨٥هـ/ أيلول ١٣٨٣م.
- طرابلس في صفر ٨٠٤ هـ/ أيلول ١٤٠١م.
- يافا في ربيع الآخر ٨١٩هـ/ أيار ١٤١٦م.
- صور في جمادى الأولى ٨٢٨هـ/ آذار ١٤٢٥م.
- اللاذقية في رجب ٨٢٨ هـ/ أيار ١٤٢٥م.
- طرابلس في محرّم ٨٣٦هـ/ آب ١٤٣٢م.
- السواحل في شعبان ٨٣٧هـ/ آذار ١٤٣٤م.
- بيروت في ذي القعدة ٨٤٤هـ/ آذار ١٤٤١م.

---

[1]- ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، الجزء الثالث، ص ٦٨٤- ٦٨٥، ٧٧٩.

- استيلاء الفرنجة على ٤ مراكب في شوال ٨٥٤هـ/ تشرين الثاني ١٤٥٠م.
- صور في جمادى الآخره ٨٥٥هـ/ حزيران ١٤٥١م.
- عبث بالسواحل في ربيع الآخر ٨٦٢هـ/ شباط ١٤٥٨م، وفي شعبان ٨٦٣هـ/ حزيران ١٤٥٩م[١].

مما ورد يستدل أن معظم غارات الفرنج استهدفت الساحل اللبناني، واستهدفت منه على الأخص مدينتي بيروت وصيدا. وهذا رتّب أعباءً على الإمارة التركمانية والإمارة التنوخية. إلا أن نائب السلطان المملوكي في دمشق شارك أحياناً في ردّ هذه الغارات. ومن ذلك خروج النائب يلبغا الناصري إلى طرابلس لرد غزوة فرنجية عليها سنة ١٣٧٨، كانت غزوة كبيرة، قتل فيها جماعة وافرة من الفرنج قبل أن يقلعوا منهزمين بمراكبهم[٢]. ومنه أيضاً تدخل العسكر الشامي في قتال الفرنج الذين نزلوا في ثغر بيروت وحاصروا المدينة سنة ١٣٨٣، وملكوا بعض أبراجها. ولو لم يدركهم العسكر الشامي لأخذوا المدينة، وقد قُتل من الفرنج نحو خمسمائة وفر الباقون[٣].

ومن وجوه تدخل الجيش المملوكي في صد غزوات الفرنجة سير السلطان المؤيد لقتال الفرنج الذين نزلوا في الدامور سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م.

١- أنظر عن هجمات الفرنجة المذكورة أعلاه: الظاهري الحنفي: نيل الأمل، الجـزء الأول، ص ٢٨٩ – ٢٩٠، ٤٢٧. والجزء الثاني، ص ١٤١، ٢٠٧، ٢٤٧. والجزء الثالـث ، ٧٠، ٩٦، ٣٠٦. والجزء الرابع ، ص ١٧١، ١٧٥، ٣١٨، ٣٥٦. والجزء الخـامس، ص١٣٧، ٣٢١، ٣٣٨. والجزء السادس، ص ٣٨، ٦١. وتاريخ ابن سباط الجزء الثـاني، ص ٧١٤– ٧١٥. والمقريزي: السلوك ، الجزء الرابع، ص ٢٢٧. والجـزء الخـامس ، ص ١٥٥. والجـزء السادس، ص ٩٩.

٢- الظاهري الحنفي: نيل الأمل، الجزء الثاني، ص ١٤١.

٣- المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

وبعد ظفره سلك الطريق المنطلقة من الدامور نحو الجبل "فبات في وادي الفريديس على نهر قرية الباروك بسفح جبل لبنان ثم دخل دمشق"[١].

كان التحسّب لغارات الفرنج، وعلى الأخص لغارات التتار المريعة، وراء إكثار المماليك من المناور على رؤوس الجبال وعلى الأبراج. وهي مواضع لرفع النار في الليل، ولرفع دخانها في النهار. ولما يُرفع منها أدلّة يُعرف بها اختلاف رؤية العدو وعدده، والمخبر بذلك، باختلاف حالاتها. وكان يرتّب عليها نظّارة برواتب. والرئيس منها كان مخصّصاً لمراقبة التتار، ويمتد من البيرة في جهات حلب شمالاً إلى قلعة الجبل في القاهرة جنوباً، وبه كان يتم إيصال الخبر في نفس الوقت بينهما[٢]. أما الفرعي من هذه المناور، فمنه، مثلاً، ما اعتمد بين بيروت ودمشق، بالإضافة إلى حمام البطاقة (الحمام الزاجل)، حيث تشعل النار في ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة[٣]، ونار في جبل بوارش[٤]، ونار في يبوس[٥]، ونار في جبل الصالحية[٦]. وبهذا الأسلوب يتم إعلام دمشق، فتحضر قواتها عند حصول الغارات على الساحل، وذلك لمساعدة القوى الذاتية المؤلفة من تركمان كسروان وتنوخيي "الغرب"، والمكلفة بحماية ثغر بيروت.

تجدّد زحف التتار

بعد نجاح المماليك في وقف زحف التتار على مصر بالانتصار عليهم في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠، وإبعاد خطرهم عن بلاد الشام، عاد هذا الخطر مجدّداً بعد أقل من أربعين سنة، وتمكن المماليك أيضاً من

١- تاريخ الشهابي، ص ٥١٩.

٢- العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٥٩.

٣- بيروت العتيقة: بيت مرى.

٤- جبل بوارش: جبل الكنيسة. وقرية بوارش أو بوارج تقع في سفحه الشرقي.

٥- جبل يبوس: الجبل الواقع إلى الشرق من مجدل عنجر في لبنان، وإلى الغرب من جديدة يبوس في سورية.

٦- جبل الصالحية: جبل قاسيون الذي تقع عند سفحه مدينة دمشق.

الانتصار عليهم بعد الانكفاء أمامهم. لقد اجتاح التتار بقيادة ملكهم غازان العراق، ووصلوا إلى بلاد الشام ، وتغلّبوا على السلطان الناصر في معركة "مجمع المروج" في وادي خزندار بين حمص وحماه في ربيع الأول ٦٩٩هـ/ كانون الأول ١٢٩٩ م، فانسحب السلطان مع شتات جيشه إلى مصر، وتقدم غازان إلى دمشق وتسلّمها، وخُطب له فيها، وأخذ غرامة كبيرة من أهلها، وعاث بضواحيها وأسواقها. ووصلت فرق من جيشه إلى وادي التيم، وأخربته ونهبت أغوار فلسطين، وبلغت القدس وغزّة . وبعد مائة يوم من العيث والتخريب والتقتيل عاد غازان إلى بلاده، وعادت الشام إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١].

تأثر جبل لبنان الجنوبي بغزوة التتار هذه في ناحيتين، أولاهما حصول اعتداءات من أهل كسروان على جنود المماليك الفارين من أمام التتار، مما سبّب الحملة المملوكية على كسروان في سنة ١٣٠٠. وثانيتهما لجوء الشهابيين من وادي التيم إلى الشوف هرباً من أمام التتار الذين اجتاحوه. وكان أميره، بحسب ما جاء في مخطوط شهابي، سعد بن قرقماز الشهابي، فرحّل ما استطاع من عياله ومن أبناء الوادي إلى الشوف وتبعهم إليه حيث قضى خمسة أشهر في ضيافة الأمير علي المعني، عاد بعدها إلى وادي التيم حين زال عنه خطر التتار[٢]. فلقد كان الشوف آمناً بعيداً، على العموم، عن طريق الغزاة، ومنيعاً بوعورة مسالكه ومنعة جباله وبقلعة شقيف تيرون التي كانت أحد الملاجئ الشهيرة، وإليها لجأ سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م نائب السلطان المملوكي في دمشق ، آقوش الأفرم، هرباً من السلطان الناصر محمد بن قلاوون، الذي أتى إلى دمشق ليستردّ السلطنة لنفسه[٣].

١- أنظر عن قدوم التتار وأعمالهم الحربية. المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٣١٩، ٣٢٣-٣٢٦.

٢- محمد سليم الشهابي: نسب الأمراء الشهابيين وأخبارهم ، ص ٢٧، ٢٨.

٣- تاريخ حيدر الشهابي، ص ٤٨٣. والصفدي: تحفة ذوي الألباب، ص ٤٩٨.

بعد عودة التتار عن العراق والشام في سنة ١٣٠٠ ظلت الأخبار تتوارد عن معاودة زحفهم إليهما. وقد حصل ذلك حين عبر ملكهم غازان الفرات في هذه السنة، وتقدم نحو أنطاكية، ومنها انتقل إلى جبل السماق (الجبل الأعلى) وحماه وشيزر، فنهب وسلب. وكان في نيته التوجه إلى دمشق لولا وقوع الثلج الكثير الذي أهلك عدداً كبيراً من جيشه[١]. لكنه عاد واجتاز الفرات سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م. ووصل احد قادته قطلوشاه إلى ضواحي دمشق حيث تجمّعت جيوش السلطان الناصر محمد بن قلاوون للقائه. وفي نيسان من هذه السنة جرت معركة شقحب إلى الجنوب من دمشق، وفيها انتصر السلطان انتصاراً رائعاً على التتار، وثأر لهزيمته أمامهم في "مجمّع المروج". وانسحبت فلولهم من بلاد الشام، ولم يصل منها إلى غازان إلا القليل[٢].

لم يتأثر جبل لبنان الجنوبي مباشرة بهذه الغزوة التتارية، لأنها لم تصل إليه. كما أنه لم يتأثر بقدوم ملك التتار تيمورلنك إلى الشام سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠ م، الذي قام بآخر غزوة تتارية. وقد لجأ الناس إلى جبل لبنان الجنوبي من المناطق المجاورة على سبيل الاحتياط، وبغية الأمان والخلاص من أي هجوم مفاجئ للتتار. والكثيرون لجأوا إلى اعالي الشوف واحتمى بعضهم بقلعة شقيف تيرون[٣].

كان السلطان الناصر فرج بن برقوق حشد الجيوش لمواجهة تيمورلنك ومنعه من أخذ الشام، لكنه عدل عن مقاومته، وترك دمشق لتدافع عن نفسها دفاعاً قوياً، ولتسقط في النهاية أمام تيمورلنك الذي أجرى فيها

١- المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٣٣٦.

٢- أنظر عن معركة شقحب: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٨٨-١٩٤. وابن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٤، ص٢٣. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: الجزء الثامن، ص ١٢٦- ١٢٧. والمقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص٣٥٦-٣٥٩.

٣- تاريخ حيدر الشهابي، ص ٥١١.

الفظائع والأهوال، ثم انسحب[1]. أما سبب انسحاب السلطان ، فعائد إلى انه رأى نفسه عاجزاً عن مواجهة تيمورلنك من ناحية، ولكي يحافظ على مصر من ناحية ثانية، لذا سار إليها عن طريق البقاع العزيزي، وجعل دربه على الجبال لكي لا يلفت الأنظار، ثم توجّه نحو الساحل. "وقيل إنه بات ليلة بسفح جبل لبنان إلى جهة الغرب بمكان يقال له "الصفصاف" بين قريتي نيحا وجباع لئلا يعلم به أحد"[2].

هوية أهل كسروان المذهبية إبّان الحملات المملوكية

أبرز من تناول هوية أهل كسروان المذهبية هو الفقيه أحمد بن تيمية الحنبلي[3]. الذي رافق الحملتين المملوكيتين على كسروان في سنتي ١٣٠٠ و ١٣٠٥، وتعرّف إلى الكسروانيين وناقشهم في معتقداتهم. وقد بعث إلى السلطان الناصر بن قلاوون برسائل تبرّر الحملات على كسروان، ذكر فيها آراءه، وحدّد مذاهب الكسروانيين بقوله إنهم "من جنس الإسماعيلية والنصيرية والحاكمية والباطنية". ووصف قتالهم بأنه "من جهاد أعداء الله الذين هم صنفان، أولهما التتار، وثانيهما أهل البدع المارقون وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنّة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة، مثل هؤلاء الذين غزوا بأمر السلطان من أهل الجبل والجرد والكسروان... كل هؤلاء عندهم كفّار مرتدّون أكفر من اليهود والنصارى"[4].

أهل كسروان هم عند ابن تيمية من مذاهب اسلامية غير مذهب السنّة والجماعة. وقد افتى بوجوب قتال التتار، ومن يعتقدون أن الإمام الحق بعد

---

[1]- ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ١٢٢ وما بعدها.

[2]- تاريخ ابن سباط، الجزء الثاني، ص ٧٦٤.

[3]- استدعي الشيخ أحمد بن تيمية إلى القاهرة ونوقش في مذهبه الحنبلي من قبل الشيوخ المخالفين له فاشهد على نفسه أنه شافعي المذهب. وقد أودع السجن ونودي بدمشق من ذكر عقيدته شنق. أنظر المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٤٠١، وتاريخ ابن سباط، الجزء الثاني، ص ٥٩٠ – ٥٩٢.

[4]- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلّد ٢٨، ص ٣٩٩ – ٤٠٨.

النبي (ص) هو علي، وان الصحابة كفروا حين ظلموه، ومن يرون مذهب النصيرية ومن لا يصلّون ولا يظهرون شيئاً من الشعائر[١]. وهؤلاء هم أهل كسروان.

وإذا تتبعنا ما جاء في المصادر الإسلامية القديمة الأخرى، التي عاصرت حوادث كسروان، أو كانت قريبة من زمنها، نجد أهله يوصفون، أو يشار إليهم بما يلي: "جبال الظنينيين"، أو "جبال الظنيين"[٢] والمقصود واحد. و"حبال النصيرية والظنينيين"[٣]. و"بلاد الجرد والرفض والتيامنة"[٤]، والمقصود بالتيامنة الدروز. و"الدروز أهل جبال كسروان"[٥]. و"جبل كسروان والدرزية"[٦]. و"الدرزية أهل كسروان ومن جاورهم"[٧]. وبعض هذه هذه التسميات والصفات قابلة للتفسير بعدة تفسيرات، وقابلة أيضاً لوصف مذهب الكسروانيين بالأحادية إذا ما أخذنا تسمية واحدة منها، مثل جبال الظنيين"، أو "الدرزية". إلا أن أهل كسروان هم في الحقيقة ليسوا من مذهب إسلامي واحد، بل من عدة مذاهب.

تناول المؤلفون الذين كتبوا مؤخراً عن مذاهب الكسروانيين الألفاظ الواردة في المصادر الإسلامية، واعتمد بعضهم على جزء منها ففسّره لخدمة ما وضعه من مسلّمات تخدم غرضاً ايديولوجياً. ومنهم من اعتمد على ذلك أكثر مما اعتمد على الحوادث والمعطيات التاريخية. ولا يتسع المجال هنا لاستعراض ما جاء في المصادر الإسلامية، ومناقشتها، كما لا حاجة

١- أنظر عن هذه الفتاوى: عبد العزيز بن علي الحربي: الملخّص لفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٢٩٥ – ٢٩٩.

٢- تاريخ ابن الوردي، الجزء الثاني، ص ٢٤٦.

٣- تاريخ أبي الفداء، الجزء الثاني، ص ٣٩٢.

٤- أبن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٤، ص ٣٥.

٥- المقريزي : السلوك، الجزء الثاني، ص ٣٣١.

٦- تاريخ ابن خلدون، الجزء الخامس، ص ٤١٥.

٧- العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٠٤.

لإغراق البحث بتفسير المؤلفين لها. وإنما يمكن القول في كثرة أبحاث المؤلفين عن هوية أهل كسروان، واختلافات آرائهم، وتبادل المناقشات حولها، إنها جزء من الصراع على تاريخ لبنان بناءً لخلفيات دينية وايديولوجية، مع الإشارة إلى حيادية بعض الأبحاث وموضوعيتها. وقد سمّى المؤرخ أحمد بيضون ذلك صراع المؤرخين على كسروان[١].

اتفقت أكثر تفسيرات المؤلفين، المحدثين، لتسميات المصادر الإسلامية مذاهب أهل كسروان ، على أنهم شيعة ونصيرية ودروز. ومنهم من قال بأكثرية لمذهب منها. وأول من أشار إلى الأكثرية الشيعية كمال الصليبي في كتابه الصادر سنة ١٩٦٧[٢]، ثم في كتابه الآخر الصادر سنة ١٩٧٩[٣]. وتبعه محمد مكي في كتابه الصادر سنة ١٩٧٧[٤]. وفي حين نفى نفى بعضهم وجود الموارنة في كسروان إبّان الحملات المملوكية، أو قبل القرن السادس عشر[٥]، رأى بعضهم الآخر أنهم كانوا موجودين، وهم قليل من الموارنة واليعاقبة إلى جانب الدروز والشيعة والنصيرية.

ورد عند الدويهي "أن امراء البلاد جمعوا عشرة آلاف نفراً ولاقوا العساكر عند عين صوفر وصارت بينهم وقعة عظيمة، كانت الكسيرة على الأمراء"[٦]. واعتبر المؤرخون أن المقصود بامراء البلاد الذين جمعوا عشرة عشرة آلاف هم امراء دروز الجرد الذين ساعدوا نصارى كسروان. واعتبر الأب بطرس ضو سكان الجرد وكسروان ثنائية درزية مسيحية، تلتقي لأول

١- Ahmad Beydoun: identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains p 78

٢- كمال الصليبي: تاريخ لبنان السياسي ، ص ١٥ – ١٦.

٣- كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ١٣٢.

٤- محمد علي مكي: لبنان ... ص ٢٢٩.

٥- بولس قرألي: فخر الدين المعني الثاني، ص ٣٦. ولامنس: تسريح الأبصار، الجــزء الأول ، ص ٨٢– ٨٣. والجزء الثاني ص ٥٧. وهو يذكر أن اليعاقبة لا الموارنة هم الذين توطّنــوا جونيه آنذاك.

٦- الدويهي: تاريخ الأزمنة ، ص ٢٨٧.

مرة في لبنان"[1]. فيما اعتبر أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ان الحملة المملوكية استهدفت الشيعة خصوصاً لا الموارنة"[2]. وقد وردت الإشارة سابقاً، في الحديث عن الدروز، أن هناك من اعتبرهم جميع أهل كسروان، مما جعل مذهب أهل كسروان يتراوح عند المؤرّخين بين الأحادية والثنائية والتعددية[3].

الروايات المارونية تفيد عن وجود الموارنة في كسروان ، وخاصة في تخومه مع بلاد جبيل، ومنها زجليات المطران جبرائيل ابن القلاعي، وتاريخ البطريرك اسطفان الدويهي، ورواية مطران حماه، تادرس. ومع أن هذه الروايات تخطئ أحياناً في ذكر الأسماء وتواريخ الحوادث، وتغالي في وصف بطولات الموارنة، وتضخّم ما أنزله المسلمون بهم، إلا ان ما تذكره من وجود ماروني في كسروان هو حقيقة، وقد قال به بعض المؤرّخين[4].

كان الموارنة في صراع مع جيرانهم في جبل لبنان الجنوبي قبل اعتناق هؤلاء مذهب التوحيد وبعده. وفي سنة ١٠٨١ كتب تاج الدين تتش السلجوقي إلى الأمير شجاع الدولة يحثه على غزو "المردة" (الموارنة). وهذا الأمير من منطقة "الغرب"، ومن المستبعد الطلب منه مقاتلة "الموارنة" في منطقة بعيدة عنها، بل في منطقة قريبة هي كسروان. وفي سنة ١١٢٠ اشترك الموارنة مع الفرنجة في الهجوم على "الغرب". وهؤلاء الموارنة المهاجمون ما كانوا كلهم من جبل لبنان الشمالي، أي من جبيل وجبّة

---

[1]- بطرس ضو: تاريخ الموارنة، الجزء الثالث، ص ٥٢٧.

[2]- فؤاد افرام البستاني واسد رستم: الموجز في تاريخ لبنان، ص ٧١.

[3]- ناقش المؤرخ لطيف لطيف تفسيرات المؤلفين ضمن "مطالعة شيعية ومطالعة سنية ومطالعة درزية لمذاهب اهل كسروان. أنظر كتابه: قراءة جديدة في مذهب الكسروانيين. وكان المؤرخ احمد بيضون قد عالج هذا الموضوع في فصل من كتابه identité confessionnelle et temps social, P 77-127.

[4]- ممن قالوا بالوجود الماروني فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص ٣٩٨. وكمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ١٣٨. ومحمد علي مكي: لبنان... ص ٢٢٩. وعلي الزين: للبحث في تاريخنا، ص ٦٠.

المنيطرة وجبّة بشري، بل هم أيضاً من كسروان. ووجود الموارنة لم يتراجع كلياً في كسروان بعد ذلك لمصلحة المذاهب الإسلامية، بل من الطبيعي بقاؤه أثناء وجود الفرنجة بين سنتي ١٠٩٨ و ١٢٩١، بفضل التحالف الذي كان قائماً بينهم، سيما ان ساحل كسروان وجزءاً من جبله حتى بيت مرى كانا تحت سيطرة سنيورية بيروت، وساحل جبيل، وجرده أحياناً، كانا تحت سيطرة سنيورية جبيل، وان جبال كسروان المسماة "العاصية" كانت ملجأ للأقليات تحتمي بها لتأمن خطر الغزاة. إلا ان وجود الموارنة لم يصل إلى الضخامة التي صوّره بها البعض، وهو أنهم كانوا مع مساكنيهم الموحِّدين الدروز هم فقط المتصدّين للحملات المملوكية. وبناءً على ذلك أن حصر مذاهب أهل كسروان بثنائية مسيحية درزية خطأ، وحصرها بأحادية درزية أو شيعية خطأ. والصحيح هو تعدديتها.

الحملات المملوكية على كسروان (١٢٩٢ – ١٣٠٥)

قام المماليك بين سنتي ١٢٩٢ و ١٣٠٥ بحملات على كسروان، هي ثلاث لا أربع. والذين تحدثوا عن حملة في سنة ١٣٠٢ ، بالاعتماد على رواية ابن القلاعي، أخطأوا، لأن هذه الرواية تتحدث عن حوادث حصلت في غير هذه السنة[1]. ولا يمكن فهم أسباب وأبعاد هذه الحملات إلا بوضعها في الإطار التاريخي العام، وفي سياق سياسة المماليك في بلاد الشام، الرامية إلى اقتلاع المواقع المتعاونة مع الفرنجة، وإضعاف العصبيات الدينية والمذهبية والعشائرية، وقمع المتمرّدين على إجراءاتهم في بداية توطيد سلطتهم، وصون وجودهم من خطرين قائمين، هما الخطر المغولي من الشرق، وخطر الفرنجة من الغرب، مما كان يتطلّب منهم تحصين السواحل، وإيجاد قوى ذاتية تدافع عنها، وتأديب القوى المتعاملة مع الفرنجة.

---

[1] – أنظر الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٨٣ – ٢٨٤. ومحمد كردعلي: خطط الشام، الجزء الثاني، ص ١٣٧– ١٣٨. ومحمد علي مكي: لبنان... ص ٢٢٤ – ٢٢٥. وقد قال مكي: "ونلاحظ باستغراب كبير أن احداً غير ابن القلاعي لم يأت على ذكر هذه الواقعة [في سنة ١٣٠٢] بالرغم من نتائجها الخطيرة وخسارة المماليك لقواتهم ولخيولهم".

الحملة الأولى: خضعت جميع المناطق اللبنانية للمماليك، وأبدت التعاون معهم، باستثناء منطقة كسروان التي ظلت عاصية على تدابيرهم، رافضة الدخول في بيت طاعتهم، متميّزة بمذاهبها الإسلامية (الشيعة والنصيرية والدرزية) عن مذهب دولتهم. وعبّر عن هذا احد المؤرخين، ووصفه بالتميّز الشيعي، على اعتبار أن الشيعة، في رأيه، هم الأكثرية الساحقة في كسروان، فقال: " كانت الشيعة تكاثرت في لبنان خلال العهد الصليبي، وخاصة في منطقة كسروان. واتصفت منطقة كسروان بنزعة استقلالية نتيجة لطابعها الجبلي ولاختلافها المذهبي عما يجاورها في الجنوب من تمركز تنوخي درزي، وعما يجاورها في الساحل من تجمع صليبي، وعما يجاورها في البقاع من تكتل اسلامي سني... وفي حين تحوّل التنوخيون نهائياً إلى جانب المماليك تردّد الشيعة في كسروان في الخضوع الكامل للسلطة الجديدة، وعمل التنوخيون على تحريض المماليك ضد الكسروانيين طمعاً بالسيطرة الاقطاعية عليهم، وبسبب الخلاف المذهبي بين الفريقين"[1].

في هذا الكلام عدة أخطاء، أولها جعل منطقة كسروان منطقة شيعية مختلفة مذهبياً عما حولها، لأن الكسروانيين كانوا على عدة مذاهب اسلامية، هي الشيعة والنصيرية والدروز، إضافة إلى الموارنة. وثانيها القول بخلاف مذهبي بين الشيعة والدروز فيما هو افتراق مذهبي لا أكثر، وخلاف سياسي سببه الولاء الدرزي للماليك، والرفض الشيعي لهم، يضاف إلى ذلك وجود مقولة سائدة هي ان الشيعة والدروز ، أولاد عم"، أي أنهم أولاد عم بالعقيدة ، وبعضهم ابناء عم بالنسب. وثالثها هو اتهام التنوخيين بتحريض المماليك. وهذا قول غير منطقي، لأن المماليك ما كانوا بحاجة إلى أن يحرّضهم الدروز ضد أهل كسروان في أواخر القرن الثالث عشر، إذ إنهم في هذه الفترة قاموا بحملة تأديبية ضد الدروز أنفسهم. وما كانوا بحاجة إلى من ينبّههم إلى خطورة ما يجري في كسروان عليهم، مع الإشارة إلى أن تطلع التنوخيين إلى أن يكون كسروان لهم مبني على الوجود الدرزي فيه، وعلى

---

[1]- محمد علي مكي: لبنان ... ، ص ٢١٨ – ٢١٩.

اقطاعه في السابق لهم، بدليل مقتل الأميرين نجم الدين محمد وأخيه شرف الدين علي في سنة ١٢٤٢ في ثغرة الجوزات (وطا الجوز) ربما في معركة لتثبيت وجود الإمارة التنوخية في كسروان.

جرت أولى الحملات المملوكية في سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٢ م. واستهدفت عقاب الكسروانيين على مساعداتهم للفرنجة ، بحسب المصادر الإسلامية التي تذكر أن السلطان الأشرف خليل، بعد إجلائه الفرنجة نهائياً عن الساحل، وجّه الامير بدر الدين بيدرا[1] نائب السلطنة في الشام، إلى جبال كسروان ومعه معظم العساكر المملوكية والعديد من الأمراء، واتاهم من جهة الساحل الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما، والتقوا بالجبل "فلقيهم أهل الجبال وعاد بيدرا شبه المهزوم. واضطرب العسكر اضطراباً عظيماً فطمع أهل الجبال فيهم وتشوّش الأمراء من ذلك وحقدوا على بيدرا ونسبوه أنه أخذ منهم الرشوة"[2]. وفي بعض الروايات أن بعض العسكر صعد إلى جبل كسروان ولم يلحق به بقية الجيش، فعاد مهزوماً، وانه جرى اتفاق على إخراج جماعة من أهل كسروان من السجون[3].

إن هزيمة بيدرا، أو شبه هزيمته، وعودته من كسروان وسط تشوّش الامراء المرافقين له، واضطراب عسكره، أمور مؤكدة في المصادر المارونية، ومروية بشكل ملحمة اسطورية تظهر بطولة الموارنة ومقدّميهم الذين هزموا الجيش المملوكي، وتجعل مسرح المعارك في منطقة البترون

---

[1]– انقلب الأمير بيدرا على السلطان وتآمر عليه مع جماعة من الأمراء، وقتله في سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م. فبايعه الأمراء وحلفوا له وسلطنوه . ولكن الخاصكية ومقدمهم الأمير زين الدين كتبغا قتلوه عندما توجّه إلى مصرفي السنة نفسها. أنظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، المجلد السادس، ص ٩٠.

[2]– المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٢٣٤. وابن كثير: البداية والنهاية، الجزء ١٣، ص٣٢٨.

[3]– ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، الجزء الأول ص ١١١.

إضافة إلى كسروان، كما تجعل من مقدّميهم "الأمير يوحنا الماروني" أمير كسروان[1]. وهذا من جملة الدلائل على وجود الموارنة في كسروان.

هناك رواية مارونية، صاحبها معاصر للحملات الكسروانية، تنفرد بذكر أن نصارى كسروان قاموا مع آل أبي اللمع، المقدّمين على شحّار المتن والجرد والبقاع، بأعمال عدوانية ضد جيوش السلطان، وأنهم اجتمعوا معاً في بسكنتا "وانتظروا عسكر الشامي حتى وصل إلى عين صنين وتصافقوا الفريقين، وانهزم [عسكر] الشام من قدّامهم وأخذوا يقتلون منهم"[2].

الحملة الثانية: تعرّض الجيش المملوكي، المنهزم أمام التتار في كانون الأول ١٢٩٩، لاعتداءات في المناطق التي مرّت فيها فلوله، كان أكثرها من أهل كسروان الذين سلبوا الجنود أمتعتهم وأسلحتهم وخيولهم، ثم باعوهم رقيقاً إلى الفرنجة. ومقابل هذه المعاملة السيئة التي لقيها الجنود من أهل كسروان، لقوا معاملة حسنة من الأمير ناهض الدين بحتر في "الغرب"، وعلي بن حسن بن صبح في جديتا (البقاع)، إذ استضافا الهاربين وأحسنا معاملتهم، فخلع عليهما السلطان المملوكي الناصر، واعطاهما رتبة "أمير طبلخانة"[3].

ذكر الشيخ أحمد بن تيمية، في رسالته إلى السلطان الناصر بن قلاوون، تبريره للحملة على كسروان، وما قام به أهل كسروان، فقال: "ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض السواحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من قبل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل

---

[1]- رواية ابن القلاعي، انظر الدويهي: تاريخ الأزمنة ص ٢٦٩ – ٢٧١. وزجليات ابن القلاعي، ص ٩٥ – ٩٦.

[2]- رواية تادرس مطران حماه. وتادرس لا يذكر تاريخ موقعة صنين، لكن بولس قرألي الذي نقل عنه قال إنها جرت سنة ١٢٩٤. انظر بولس قرألي: فخر الدين، ص ٩١.

[3]- أمير طبلخانة: رتبة يستحق صاحبها قيادة أربعين فارساً، وان تعزف له فرقة موسيقية فيها ضارب للطبل.

والسلاح على أهل قبرص ونواحيها. ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم"[1].

في عشرين شوال ٦٩٩ هـ / تموز ١٣٠٠ م سار آقوش الأفرم بجيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وكان برفقته الشيخ أحمد بن تيمية "الذي بيّن لكثير من الكسروانيين الصواب وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش وقرّر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال وأقطعت أراضيهم وضياعهم ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الله ولا يدينون دين الحق ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله"[2]. بذا ثأر المماليك لهزيمتهم في سنة ١٢٩٢ ، وعوّضوا عن خسائرهم، واستعادوا مسلوبات جنودهم ممن أخذوها منهم.

الحملة الثالثة: لم يتوصل ابن تيمية إلى نتيجة حاسمة مع الكسروانيين في مسألة العقيدة. ولم تتوصل معهم السلطة إلى نتيجة حاسمة في موضوع الولاء السياسي، والقبول بالتدابير الإدارية المتخذة. فأرسل نائب السلطان في دمشق، آقوش الأفرم، الشريف زين الدين بن عدنان للتفاوض "ولمصالحة أهل كسروان والجبال مع أمراء الغرب"[3]. ومن هذا يستفاد وجود مشكلة بين الكسروانيين وأمراء الغرب أوضح سببها أحد المؤرخين بقوله: "وكان من نتائج معاونة التنوخيين في "غرب" لبنان لجيش دمشق على قتال الكسروانيين أن تأصلت العداوة بين الفريقين حتى إذا كانت سنة ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤م أرسل آقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان ، يأمرهم ان يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في

[1]- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، أحمد بن تيمية ، المجلد ٢٨، ص ٣٩٩ – ٤٠٨.

[2]- ابن كثير: البداية والنهاية ، الجزء ١٤، ص ١٢.

[3]- السجل الأرسلاني، الإثبات الثاني عشر، ص ١١٥.

طاعتهم"[1]. إلا أن الشريف زين الدين لم ينجح في مهمته بسبب رفض الكسروانيين تولية أحد من أمراء "الغرب" على منطقتهم أو على جزء منها.

بعد ذلك ارسل آقوش الأفرم ابن تيمية للتفاوض مع الكسروانيين، فناقشهم في موضوع العقيدة. وحين لم يتوصل معهم إلى النتيجة المرجوة اعتبر أن زعماءهم من آل العود هم الذين يضلّونهم ويجعلونهم في موقف عداء مع الدولة السنية الحاكمة. وعاد إلى دمشق وأخذ يحرّض على غزوهم، مما كان أحد أسباب القيام بالحملة المملوكية الثالثة على كسروان في سنة ١٣٠٥. وهذا يطرح السؤال التالي: هل ان هذه الحملة هي بدافع مذهبي ضد أتباع المذاهب الإسلامية غير السنية، وهل انها استهدفت الشيعة، أم أن العامل السياسي هو الأهم، وهو حمل الكسروانيين على الخضوع للسلطة المملوكية، والقبول بجميع تدابيرها، وتحت هذا العنوان تندرج الأسباب الأخرى، ومنها مذهب الكسروانيين.

لقد رأى الباحث في تاريخ الشيعة، الشيخ علي الزين، بعد تحليله لمواقف الشيعة من الفرنجة، ولأوضاعهم في المناطق اللبنانية، ولموقف الدولة المملوكية منهم، وللاعتبارات الدينية المذهبية، أن الحملة لم تستهدف الشيعة في كسروان، وإنما الموارنة[2]. إلا أن بعض المؤرخين من الشيعة يرون أن الحملات المملوكية على كسروان حرب "تصنّف في فئة الحروب الدينية المذهبية التي ترمي إلى هدف واضح وأكيد هو إخلاء هذه الجبال من الشيعة بإفنائهم وإجلاء من قد يبقى منهم، وإسكان عناصر مغايرة في المذهب مكانهم. وهذا ما دفع إلى تسمية هذه الملحمة التي وقعت في محرّم ٧٠٥هـ/ ١٣٠٣م. [3]، عاشوراء كسروان"[4].

---

[1]- محمد كرد علي: خطط الشام، الجزء الثاني، ص ١٣٩.

[2]- علي الزين: للبحث عن تاريخنا، ص ٥٦ – ٦٠.

[3]- الصحيح ١٣٠٥م.

[4]- سعدون حمادة: تاريخ الشيعة في لبنان، المجلد الأول، ص ٣٤.

كان هناك سبب شخصي نفسي أثّر، على الأرجح، في معاودة آقوش الأفرم قتال أهل كسروان في سنة ١٣٠٥ بعد قتاله لهم في سنة ١٣٠٠، وهو شدة استيائه من اعتداءاتهم، ومرارتها المترافقة مع مرارة هزيمة معركة "مجمع المروج" في كانون الأول ١٢٩٩، التي خاضها مع السلطان المملوكي، وأبدى فيها بطولة فائقة، "لقد أبلى في نوبة [معركة] غازان الأولى بلاء حسناً، وقاتل قتالاً عظيماً. ولما وقعت الهزيمة على المسلمين وعاث فيهم أهل كسروان، أثّر ذلك في قلبه. فلما عاد إلى دمشق توجه إليهم ونازلهم فلم يحصل منهم على طائل، واشتغل باراجيف التتار إلى ان فرغوا من نوبة مرج الصفر، فجعل كسروان دأبه"[1].

في الثاني من محرّم ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م سار آقوش الأفرم على رأس حملة من خمسين ألف مقاتل، بحسب المصادر الإسلامية التي عاصرت هذا الحدث، أو كانت قريبة من حدوثه. فوطأت أراضي عاصية، وأبادت الكثير من اهلها، وغنمت الكثير من الغنائم والمسلوبات، وأسرت ستماية شخص، وخرّبت الضياع، وقطعت الكروم، وحصل لها، وللشيخ أحمد بن تيمية الذي رافقها، الخير[2].

ضخمّت رواية لمطران حماه تادرس، وهو مصدر محلي قريب من زمن الحملة الكسروانية، عدد الجيش المملوكي وفظائعه فجعلته مائة وخمسين ألفاً، خمسون ألفاً هاجموا من جهة الشرق. وخمسون ألفاً هاجموا من جهة الجنوب، وخمسون ألفاً هاجموا من جهة الشمال. وانهم تملكوا البلاد، وهدموا القلاع والأبراج والكنائس والأديرة والضياع، وجعلوا العالي واطئاً والخشن سهلاً، وقتلوا الرجال والصبيان والنساء والرضع بالسرير. وظلوا على هذه الحال أربعة أشهر، ولم يسلم منهم سوى أهل جونيه لأنهم ركبوا السفن وغادروا البلاد.

---

[1]- الصفدي: الوافي بالوفيات، الجزء التاسع، ص ٣٢٩ – ٣٣٠.

[2]- أنظر عن حملة المماليك على كسروان: ابن كثير: البداية والنهاية، المجلد ١٤، ص ٣٥. والمقريزي : السلوك ، الجزء الثاني، ص ٣٨٩.

وذكر بعض المصادر المحلية اشتراك أمراء "الغرب" مع جماعتهم، بقيادة الامير ناصر الدين الحسين، في معارك كسروان حيث قتل منهم في معركة بالقرب من نيبيه أميران وثلاثة وعشرون نفراً. كما أفاد أن جماعة من الكسروانيين هربوا مع عشرة أمراء بحريمهم وأولادهم وأموالهم، وكانو أكثر من ثلاثمائة نفر، واجتمعوا في مغارة نيبيه غرب كسروان. وحين لم يقدر الجيش عليهم عمد إلى بناء سد من الحجر والجير على باب المغارة وجعلوا عليهم الأمير قطلوبك حارساً لمدة أربعين يوماً فهلكوا داخل الردم[1].

لم تقتصر عمليات العساكر المملوكية على كسروان وجرده، بل إنها امتدت جنوباً إلى جرد جبل بيروت. فقد انفرد ابن سباط عن سائر المؤرخين، وذكر "أن العساكر بواسطة أهل كسروان أحرقوا عين صوفر وشمليخ وعين زونيه[2] وبحطوش[3] وغيرهم من بلاد الجرد لما عفوا أثر كسروان"[4]. وما أورده ابن سباط مختصراً، وبدون توضيح، يفرض على المؤرخ معرفة تفاصيل كلامه عن طريق الاستنتاج.

تاريخ إحراق أكثر من أربع قرى من جرد جبل بيروت جرى بحسب تسلسل الوقائع التاريخية عند ابن سباط قبل إقطاع كسروان لأمراء من خارج جبل لبنان في ١٨ جمادى الآخره ٧٠٥ هـ/ ٥ كانون الثاني ١٣٠٦م، أي أنه جرى إبّان حملة نائب دمشق آقوش الأفرم الذي عاد بالعساكر من كسروان إلى دمشق في ١٤ صفر ٧٠٥ هـ / ٥ أيلول ١٣٠٥م[5]. وقد يكون جرى أثناء تولية بهاء الدين قراقوش ناظراً على بلاد بعلبك، وكسروان، وهو الذي أجلى من تأخر بجبال كسروان وقتل عدداً من أعيانهم.

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٩٦. وتاريخ ابن سباط الجزء الثاني، ص ٥٨٨.

[2]- عين زونيه : العزّونية.

[3]- بحطوش: لم نهتدِ إلى موقعها.

[4]- تاريخ ابن سباط، الجزء الثاني، ص ٥٩٠.

[5]- المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٣٨٩ إلا أن صالح بن يحيى في "تاريخ بيروت"، ص٢٨، يذكر أن عودة آقوش الأفرم هي في ٤ صفر.

أما سبب إحراق القرى في جرد جبل بيروت، فيمكن تحديده بناءً على التفسير اللفظي لعبارة "بواسطة أهل كسروان" انه بسبب أهل كسروان، او بسبب قضية أهل كسروان. فإذا كان بسببهم فهذا يعني احتمال لجوئهم إلى قرى جرد جبل بيروت وملاحقة العساكر المملوكية لهم فيها بسبب تعاطف أهلها معهم لوحدة المذهب أو لوحدة العشيرة. وإذا كان بسبب قضية أهل كسروان فإنه يعني إحراق العساكر لقرى الجرد التي تقع على إحدى طرق عودتها من كسروان إلى دمشق لسبب محتمل هو أن هذه القرى لم تلبِّ طلباتها من الطعام لها ومن العلف لخيولها.

كان من نتائج الحملة على كسروان سنة ١٣٠٥ تشتيت معظم السالمين من أهله، إذ أعطى بهاء الدين قراقوش، المتولي على بلاد بعلبك وكسروان، الأمان لمن يستقر في كسروان ، وأجلى من تأخر منهم، فتفرقوا في جهات طرابلس وبعلبك وجزّين. وهذا يدل على أن أكثر النازحين هم من الشيعة وقد لجأوا إلى إخوانهم في هذه المناطق. ومن اللاجئين إلى جزّين بحسب رواية الخور أسقف يعقوب غانم موارنة من كسروان[1].

التنظيم الإداري

قسّم المماليك بلاد الشام إلى ست نيابات، سمّوها أيضاً ممالك، على رأس كلٍّ منها نائب عن السلطان قابل للعزل في أي وقت، يعيّنه السلطان من بين الامراء المماليك الكبار في مصر. واسم "النيابة" ليس جديداً، بل كان معروفاً عند الأيوبيين. والنيابات هي نيابة حلب، نيابة حماه، نيابة طرابلس، نيابة دمشق، نيابة صفد، نيابة الكرك، وأُضيف إليها عند الحاجة نيابات حمص وملطية وغزة. وقسّم المماليك النيابات إلى نيابات أصغر، أو أقسام إدارية صغيرة تتبع لها، سميت "الصفقات". كما قسّموا النيابات الصغرى إلى أقسام إدارية صغيرة سميت الأعمال والولايات، عليها وعلى النيابات حكام ممن سمّوا "أرباب السيوف" تمييزاً لهم عن "أرباب القلم". فكان الهرم الإداري

[1]– مقالة فؤاد ملحم عطية في مجلة "أوراق لبنانية"، المجلد الثاني، ١٩٥٦، ص ٣٢٣.

على الشكل التالي: السلطان في القاهرة، يليه نائبه في النيابة الكبيرة (المملكة)، يليه نائب النيابة الصغيرة (الصفقة)، يليه والي الولاية (العمل)، يليه أمراء ومقدّمون على أقسام العمل التي سميت "النواحي".

تبع لبنان لنيابات ثلاث، هي نيابة طرابلس، نيابة صفد، نيابة دمشق. وما تبع لطرابلس هو نيابة حصن عكار، وولاية الظنيين، وولاية بشرّى، وولاية جبّة المنيطرة وولاية أنفا[1]. وما تبع لنيابة صفد هو ولاية صور، وولاية الشقيف (شقيف أرنون)، وولاية تبنين وهونين[2]. وما تبقى من لبنان تبع للصفقة الشمالية من نيابة دمشق، وولاياتها أو أعمالها هي التالية: البقاع البعلبكي ومركزه بعلبك التي هي أيضاً مركز الصفقة الشمالية، وعلى هذا العمل نائب هو نائب الصفقة الشمالية. البقاع العزيزي[3] ومركزه كرك نوح، وعليه نائب مساعد لنائب بعلبك. وعمل بيروت ومركزه بيروت، وعمل صيدا ومركزه صيدا[4].

وبموجب هذا التقسيم الإداري تبع جبل لبنان الجنوبي لولايتي بيروت وصيدا اللتين تبعتا الصفقة الشمالية التابعة لنيابة دمشق. وكان على كل من هاتين الولايتين والٍ، كما كان يعيّن على الاثنتين أحياناً والٍ واحد. وإذا كانت

---

[1]- القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء الرابع، ص ٢٣٦. وقد التحق بديوان الانشاء في القاهرة في عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م. والعمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ وهو كاتب السر بمصر في عهد السلطان الناصر حتى سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م.

[2]- لم يذكر العمري في "التعريف بالمصطلح الشريف: ولاية تبنين وهونين. أنظر ص ٢٣٦ – ٢٣٧، وأنما ذكرها في "مسالك الأبصار..." المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص ٣٧٣.

[3]- سمي البقاع العزيزي أو البقاع العزيز بهذا الإسم نسبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، فيما جاء في دائرة المعارف الإسلامية في الجزء السابع ص ٣٥٨ أنه نسب إلى العزيز الذي هو معبود متصل بآله الشمس.

[4]- أنظر عن التقسيمات الإدارية في عهد المماليك: العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

حدود ولايتي بيروت وصيدا واضحة من الشرق، أي أنها قمم جبال صنين والكنيسة والباروك ونيحا والريحان، وواضحة من الغرب، أي أنها البحر، فإنها مع نيابتي طرابلس وصفد غير محدّدة بدقة في المصادر الإسلامية التي ذكرت التقسيمات الإدارية . فقد جاء في أحدها أن الحد الشمالي لمملكة صفد هو نهر الليطاني[1].

ان هذا الحد هو الحد الشمالي الشرقي لا الشمالي، لأن ولاية الشقيف التابعة لمملكة صفد واقعة إلى الشمال من نهر الليطاني، وهذا يجعل الحدود الشمالية لمملكة صفد مع مملكة دمشق، أي حدود ولايات صور وتبنين والشقيف مع ولاية صيدا، تمتد شمالاً حتى تصل إلى نهر الزهراني[2]. وهي الحدود الدنيا لمملكة صيدون التي كانت تصل جنوباً إلى أبعد من نهر الزهراني، أي إلى الصرفند. أما الحدود الشمالية لولاية بيروت مع ولايتي جبّة المنيطرة وأنفا التابعتين لنيابة طرابلس، فهي غير محدّدة في المصادر الإسلامية، وإنما يمكن تحديدها بالتقريب أنها من مصب نهر غزير غرباً إلى جبل صنين شرقاً.

ليس هناك – على حد علمنا – أي مصدر ذكر التقسيمات الإدارية الصغرى لولايتي بيروت وصيدا، ولا ذكر عدد قراهما وسكانهما، وقد اكتفى أحد المصادر بالقول إن كلا منهما عمل جليل، وإن ولاية صيدا ممتدة القرى[3]. الا أنه يمكن مقاربة هذه المواضيع بالاعتماد على التنظيمات الإدارية العثمانية المأخوذة من التنظيمات الإدارية المملوكية. لقد أخذ الأتراك العثمانيون "النيابة" عن المماليك، لكن سمّوها "ولاية"، وسمّوا النائب عن السلطان فيها "الوالي" مقروناً بلقب التعظيم المعطى له "الباشا" ، فيما سمّى المماليك النيابة "مملكة" ومتوليها عن السلطان "ملكاً" . وأخذ العثمانيون أيضاً الولاية أو اللواء أو العمل وسمّوه اللواء أو السنجق ، وقسّموه إلى أقضية أو

١- المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

٢- طه ثلجي الطراونة: مملكة صفد، ص ٧١.

٣- العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٣٠.

نواح إدارية. فتألف لواء بيروت من النواحي التالية: كسروان والجردين، الغرب، الجرد، المتن، وتألف لواء صيدا من النواحي التالية: شوف ابن معن، إقليم الخروب، إقليم التفاح، شومر، جزّين. وكان شوف ابن معن يشمل الشوف الشويزاني (السويجاني)، والشوف الحيطي.

الإقطاع

بدأ الاقطاع في بداية عهد الدولة الإسلامية اقطاع استغلال يقوم على إعطاء الخليفة أرضاً لا مالك لها، أو مات مالكها بدون وارث، وليس لأحد عليها حق أو ارتفاق[١]، وليست من الأراضي العامة التي يستفيد السكان منها، على أن يقوم المقطع هذه الأرض باستغلالها والبناء عليها لما فيه مصلحة الأمة، وإن لم يفعل ذلك تسترد منه وتعطى لغيره. وكان نظام الاقطاع أو "الالتزام" مقابلاً لنظام الخراج الذي من وجوهه المزارعة والمعاملة ونظام المقاسمة الذي يقضي بمقاسمة العمّال (الولاة) في ما جمعوه من أموال. وكان على نوعين "إقطاع استغلال، وإقطاع تمليك، والثاني ينقسم إلى موات وعامر... والغرض من أنظمة الإقطاع كلها "تشجيع الناس على إحياء الموات وعلى الزراعة والغرس ومختلف أنواع البناء والعمران"[٢].

ومع خروج الإقطاعيين عن المبدأ السليم الذي رسمه الإسلام للإقطاع، واصطباغه بالجشع، اصطبغ أيضاً منذ عهد الأتراك السلاجقة وتنظيمات الوزير نظام الملك بالصبغة العسكرية، إذ صار على المقطع أرضاً أن يقدّم عدداً من الجنود مع الضريبة المفروضة عليه، وما كان هناك توريث للأرض إلا بإرادة السلطان. فالمقطع إذاً لم يكن له حق الرقبة، أي حق التملك، وإنما كان له حق الاستغلال. كما صار هناك مع ضعف الحكام المسلمين إقطاع توريث إلى جانب إقطاع الإستغلال.

١- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية، ص ١٤٦.

٢- صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٣٦٠ – ٣٦١.

وعندما جاء المماليك اعتمدوا النظام الإقطاعي العسكري المتوارث من أيام السلاجقة والأتابكة والأيوبيين بدون توريث، إلا في حالات استثنائية يحدّدها السلطان، فكان لهذا تأثيره في المناطق التابعة لهم، ومنها جبل لبنان. فقد كانت الطبقة الحاكمة في دولتهم منظمة بشكل جيوش إقطاعية تتألف من ثلاثة أقسام رئيسة، هي:

- المماليك الملكيون، وهم ملك السلطان وينعتون بالمشتروات والسلطانية والسيفية.
- الأمراء ومماليكهم.
- أجناد الحلقة، وهم فرسان يأتمرون بإرادة السلطان دون أن يكونوا ملكاً له[1]. ومن هؤلاء الفرسانُ الذين كانوا بأمرة أصحاب الإقطاعات، ومنهم أصحاب الاقطاعات في جبل لبنان الجنوبي.

وكان هناك قادة للجيوش هم أمراء خمسة، وأمراء عشرة، وأمراء عشرين، وأمراء أربعين، وأمراء ثمانين، وأمراء مئة، وأمراء ألف. ولقب "الأمير" يُعطى لمن يقود خمسة وما فوق، ويحمل وثيقة خطية بهذا اللقب. ويحق لأمير أربعين وما فوق بطبلخانة أي بفرقة موسيقية ملحقة بجنده. إلا أن أجناد الحلقة ما كان يحق لهم إلا رتبة أربعين وعشرة وخمسة، وهم فرسان محليون من غير المماليك، ملحقون بعسكر السلطان، ومؤتمرون بأمره في الحرب، بينما هم بأمرة أصحاب الاقطاعات في السلم.

كانت الاقطاعة عبارة عن أخاذة تُعرف بـــ "الخبز" أو "المثال"، تمنحها الدولة للأمراء والفرسان مكافأة لهم، ومقابل خدماتهم، وتُعتبر ملكاً مؤقتاً يستغلونه حسبما يشاؤون مقابل تجنيد عدد محدّد من الفرسان. لذا غدا الإقطاع عند المماليك اقطاع استغلال لا إقطاع تمليك. وكانت الدولة المملوكية تميّز المقطعين من مماليك السلطان بمرتبات شهرية، ومنحة سنوية لرتبة "الكسوة"، ومال يُعرف بـــ"الرواتب" و"الجامكية"، إضافة إلى العلف

---

[1]- بولياك: الاقطاعية، ص ١٤ – ١٧.

للخيول، والخام للخيام، واللحم كمؤونة يومية، والمنحة عند تسلّم سلطان جديد لمسؤولية الحكم[1].

شرح ابن فضل الله العمري، وهو كاتب السر عند السلطان الناصر بن قلاوون، الإقطاع فقال: "من عادة السلطان في الإقطاعات للجند أن يتولّى بنفسه استخدامهم، فيأمر كاتب الجيش أن يكتب ورقة مختصرة تسمّى "المثال" ويناولها للسلطان فيكتب عليها بخطه: يكتب، ويعطيها الحاجب للمقطع فيقبل الأرض. ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ شاهداً عندهم، ثم تكتب مربّعة مكملة بخطوط جميع مباشري ديوان الإقطاع وهم كتّاب ديوان الجيش وعلائمهم. ثم يؤخذ عليها خط السلطان ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات فتكتب المناشير ثم يعلم السلطان عليها علامة على ما تقدّم ذكره ثم يكمل ذلك المنشور بخطوط ديوان الإقطاع بعد المقابلة على صحة أصله.

" أما الإستخدام في البلاد الشامية فليس لنواب السلطان في ممالكها مدخل في تأمير أمير عوض أمير مات، بل إذا مات أمير طولع السلطان بموته فأمّر من أراد عوضه إما ممن في حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة، أو ممن هو في مكان الخدمة أو نقل إليه من بلد آخر. فأما جند الحلقة، فإذا مات أحد منهم استخدم النائب عوضه وكتب على نحو من ترتيب السلطان "المثال" ثم "المربّعة". وتجهّز المربّعة مع البريد إلى السلطان فيقابل عليها في ديوان الإقطاع ثم يكتب عليها من ديوان الإنشاء كما تقدّم في الجند الذين في الحضرة. وإن كان ما يمضيها السلطان أخرجها لمن يرى، ثم يكون حكم الكتابة به حكم ما تقدّم. ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة حوسب ورثته على حكم الإستحقاق، ثم إما يرتجع منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العناية بهم"[2] .

---

[1]- المرجع نفسه، ص ٢٢ – ٢٣.

[2]- العمري: مسالك الأبصار، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص٣٠٠ – ٣٠١.

حصل تعديل في النظام الإقطاعي، إذ أعطى السلطان في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م وسنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م، كبار الحكام في سورية وفلسطين حق تسمية الأمراء والفرسان، وحق منحهم الإقطاعات[1].

نظّم المماليك الإقطاع على أساس خدمات يقدّمها المقطعون، هي تأمين عدد معين من الفرسان بامرتهم، يتقاضون رواتبهم من دخل الإقطاعة، ومهمتهم مساعدة الجيش النظامي السلطاني والأمراء المماليك في الحروب، وهي مهمة كان يشاركهم فيها جنود محليون من نوع آخر هم المتطوّعون الذين يعتاشون من الأوقاف المخصّصة للجهاد منذ عهد الأتابكة والأيوبيين، والفرسان الذين دخلوا في خدمة السلطان بجند الحلقة دون ان يكونوا ملكاً له، وهؤلاء كان آمرهم أو قائدهم يسمى "أميراً" سواء كان على خمسة جنود. ومن هنا صار لقب " أمير" لقباً وظيفياً مهما كان عدد فرسانه. إلا ان توزيع الإقطاعات ما كان دائماً يرضي المقطعين إذ ان بعضهم كان يُعطى زيادة عما يستأهل، وبعضهم الآخر يُنتقص حقه فيبدي التذمّر. وقد ادى التوزيع في دمشق في شهر ذي الحجة ٧١٣هـ/اذار ١٣١٤م إلى تذمر الكثيرين من تضررهم، فضرب ستة منهم وسكت الآخرون على مضض. وكان كل من يتسلم مثالاً باقطاعه يقبّله ويضعه على رأسه.

وقف على رأس الهرم الإقطاعي في الإقطاعة ثلاثة مناصب، هم الأمراء والمقدّمون والمشايخ. فالمشايخ هم شيوخ القرى والعشائر الذين قد يتحوّلون إلى مقدّمين وأمراء بتسميتهم بذلك من السلطان المملوكي أو نائبه. ومن الشيوخ في لبنان آل منكر وآل صعب وآل بشاره الشيعة في جبل عامل، آل المستراح الشيعة في جبّة المنيطرة. آل حماده الشيعة في البقاع. مشايخ العاقورة ومشايخ جبة بشرى من الموارنة.

أما عند الموحّدين الدروز، فلا نعلم شيئاً محدّداً عن مشايخهم الزمنيين، لأن ما أوردته المصادر القديمة ينحصر بذكر أمرائهم، وعندما

[1]- بولياك: الإقطاعية، ص٣١-٣٢.

تسمّي مشايخهم لا تميّز غالباً بين من هم شيوخ دنيا، ومن هم شيوخ دين. ومن ذلك ما جاء مراراً في تاريخ ابن سباط عن وفيات شيوخ القرى[1] .

لم يكن في البداية أهمية للأمير على المقدّم إذ تساويا في المنزلة. ففي وقت الحرب يقود أمير المئة الفاً لذلك ينعت بأمير المئة ومقدم ألف، أو مقدّم[2] . ومع الزمن غدت رتبة " مقدّم " دون رتبة "أمير ". وأصبحت رتبة "أمير" في رأس الهرم الإقطاعي وحدها. وكان عدد الأمراء في مملكة دمشق يزيد أو ينقص تبعاً لحاجة المماليك. فقد كان فيها ١٢ أمير الف، و٢٠ أمير الطبل، و٦٠ أمير وسط (أمير أربعين) و١٢٠٠٠ فارس حلقة[3] . وكان فيها سنة ١٤٤١ نصف ما كان سابقاً[4] .

من أمراء لبنان ومقدّميه، وقد أطلق على معظمهم اللقبان، ما يلي:

- في الشمال: مقدمو الموارنة[5] في جهات بشري والمنيطره.
- في البقاع: بنو تغلبة او تغلب في مشغره، بنو ملّى في جب جنين، بنو الحنش في مشغره والبقاع وضواحي حماه، بنو صبح في جديتا، بنو الحمراء في صغبين، ثم انتقل فرع منهم إلى بيروت.
- في وادي التيم: بنو شهاب، وبنو جندل.
- في جبل عامل: بنو بشاره الذين يُنسب اليهم الجزء الجنوبي من جبل عامل وكانوا مشايخ من قبل.
- في جبل لبنان الجنوبي: بنو التركمان في كسروان، فروع المناذرة اللخميين في"الغرب" والجرد والمتن والشوف، وأبرزهم آل ارسلان

1- تاريخ ابن سباط، الجزء الثاني، ص ٩٠٧، ٩٣١، ٩٣٣.

2- بولياك: الإقطاعية، ص ٧١.

3- المرجع نفسه، ص٣٣

4- ابن تغري بردي: حوادث الدهور، الجزء الأول، ص ٥٤.

5- يذكر طوني ضو أنه، بعد فقد الموارنة لرتبة المقدّمية، نشأت عندهم الألقاب التالية: المشيخة، والباشوية، والبكوية، والأفندية، والآغوية، والبرنسية، والكافيليرية، والكونتية، والقنصلية. انظر طوني ضو: لبنان الكبير ومؤسسة المديرية، الجزء الأول، ص ٥٧- ٦٤.

وآل تنوخ الذين أسّسوا أهم امارتين في جبل لبنان في العصور الوسطى. بنو معن وبنو الشويزاني في الشوف. مقدمية غامضة في جزّين. وفي ما يلي شرح مفصّل عن ذلك.

امارة التركمان في كسروان

من نتائج الحملة المملوكية على كسروان اقطاعه لأمراء من خارجه لملء الفراغ السكاني الذي حصل فيه جرّاء إجلاء اكثر أهله من جهة، ولضبط الطرق من جهة اخرى. عيّن نائب السلطان في دمشق، آقوش الأفرم، بهاء الدين قراقوش ناظراً في بلاد بعلبك وجبال كسروان. ثم اقطع السلطان في ٥ كانون الثاني ١٣٠٦ كسروان لعلاء الدين بن معبد البعلبكي، وسيف الدين بكتمر الحسامي، وحسام الدين لاجين، وعز الدين خطاب العراقي، " فخرجوا إلى جبال كسروان، فزرعها لهم الجبلية، ورفعت أيدي الرفضة[1] عنها "[2].

رفع السلطان أيدي المقطعين الجدد لكسروان في سنة تعيينهم، لأن عدد رجالهم ما كان يكفي لحفظه وحفظ الطرق، وأحلّ تركمان الكورة السنّة مكانهم لكثرتهم فعرفوا بتركمان كسروان. وكان عليهم تقديم ثلاثمائة رجل لثلاثة أبدال، مئة لكل بدل لحفظ الطريق الساحلية بين انطلياس في الجنوب ومغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس. وكانوا يمنعون المرور على دربند نهر الكلب إلا لمن معه إجازة بذلك من والي بيروت، أو من أمراء "الغرب" التنوخيين.

أقام التركمان في مستوطنات أو "أزواق"، منها ما هو على اسم مقدّميهم كزوق العامرية، وزوق مصبح، وزوق مكايل. وأخذوا لهم حصوناً اسمها أبراج منها برج جونيه وبرجان إلى الجنوب من نهر الكلب. وأقاموا لهم عمائر وبساتين وجنائن في عينطورا وعين شقيق لإقامة امرائهم صيفاً

---

[1]- الرفضة: تعني، على العموم، الشيعة.

[2]- المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، ص ٣٩٠

وشتاءً. ويُعزى إلى أحد مقدّميهم، سليمان بن عراب، بناء حصن معراب، وبناء جسر المعاملتين بين برج قصيب وبرج جونيه " وكان يسمّى قديماً جسر الداخلة "[1].

استقوى الأمراء التركمان بكثرة عدد رجالهم، وحاولوا اخذ اقطاع " الغرب " من الأمراء التنوخيين. وهذا ادخلهم في صراع سياسي مع هؤلاء، تحول إلى صراع عسكري ظهر في غزو التركمان بقيادة علي بن الأعمى لبيروت والغرب في سنة ١٣٨٩، أثناء نجاح انقلاب بعض أمراء المماليك على السلطان برقوق وتأييد التركمان لهؤلاء الأمراء. لكن مؤيدي السلطان هاجموا التركمان، وقتلوا الأمير علي بن الأعمى، وأسروا أخاه، وسدّدوا ضربة موجعة لهم. وما لبث التركمان ان استعادوا بعض دورهم. وفي عهدهم عاد النصارى إلى جرود كسروان، لأنهم شجّعوا عودتهم اليها من أجل العمل في الزراعة، فتزايدت أعدادهم مع الأيام حتى أصبحوا الأكثرية.

عُرف زعماء التركمان أولاً باولاد الأعمى نسبة إلى امراء منهم، ثم عُرفوا بالعسافيين نسبة إلى احد امرائهم عساف. وقد استمروا في حكم كسروان إلى ان تغلّب يوسف باشا سيفا على الأمير محمد عسّاف وقتله في سنة ١٥٩٠، فانتهت بمقتله ولاية العسافيين لأنه مات بدون عقب.

الإمارة التنوخية في" الغرب"

استمر الأمراء التنوخيون من فرع بحتر في حكم " الغرب ". وقد واجهتهم عدة صعوبات في بداية عهد المماليك، منها أسر السلطان بيبرس ثلاثة من أمرائهم، واقطاع ابنه الملك السعيد بركه بعض املاكهم لقطب الدين السعدي، واضطهادهم بسبب مقتله، ومصادرة السلطان قلاوون ممتلكاتهم لأنهم لم يحضروا إلى مصر حين استدعاهم في سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، وتأخروا بالإنضمام إلى جند الحلقة بالرغم من محاولة نائب الشام، الأمير حسام الدين لاجين، ربطهم به، فيما استفاد غيرهم من ذلك كبني تغلب في

---

[1] - الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية، ص ١٢٥-١٢٦.

مشغره، وأمراء التركمان الذي اقطعوا كسروان. ولربما كان التنوخيون يعتقدون أن ما وصلهم من الأجداد من إقطاع يجب أن يستمر توارثهم له بدون الدخول في جند الحلقة الذي كان يقوم أصلاً على مبدأ الإقطاع مقابل الخدمة بعدد محدّد من الفرسان، لا على مبدأ التوريث بحسب النظام العشائري. لذا لم يدخلوا في جند الحلقة إلا عندما شعروا بخطورة الأمر، وعندما استثنوا عن الآخرين باعطائهم حق توريث إقطاعهم. وقد استعادوا اقطاعهم بعد عزل حسام الدين لاجين، وجعلوه على درك بيروت، وكان بنو تغلب قد اخذوها منهم وضمت إلى حلقة طرابلس.

في سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨/١٢٩٧م ابتدأ السلطان الناصر بن قلاوون بالروك الذي دعي "الروك الحسامي"، وفيه فرّق المثالات وقسّمها أربعة وعشرين قيراطاً، أربع منها للسلطان، وعشرة للكلف والمرتبات المملوكية، وعشرة لأجناد الحلقة[1]. وكان التنوخيون استعادوا جزءاً من املاكهم في عهد الأشرف خليل، ثم استعادوها كلها في عهد اخيه السلطان الناصر، لكن مقسّمة بين فرع عرمون، وفرع عبيه، ثم موحّدة كاقطاع بالأمير زين الدين صالح من فرع عرمون المتوفى في ربيع الآخر ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، ثم موحّدة بالأمير ناصر الدين الحسين (٦٨٨-٧٥١هـ/١٢٦٩-١٣٥٠م) من فرع عبيه[2].

وفي أيام الأمير ناصر الدين الحسين استقر أمراء "الغرب" في بيروت، وانقسموا لحراستها إلى ثلاثة أبدال مجموعها تسعون فارساً "كل شهر بدل ثلاثون فارس، تقيم في بيروت يزك"[3]. وكان يساعدهم أبدال من

---

[1]- ابن دقماق: النفحة المسكية، ص ١٠١.

[2]- تنازل الأمير ناصر الدين الحسين عن الإمارة لولديه شهاب الدين أحمد وسيف الدين يحيى، وبعد سيف الدين تسلم الإمارة ولده فخر الدين عثمان، ثم خلفه ابن عمه شرف الدين عيسى فولده عز الدين صدقة ثم أخوه زين الدين عمر ثم بدر الدين حسين بن عز الدين بن صدقة فأخوه سيف الدين.

[3]- تاريخ ابن سباط، الجزء الأول، ص ٥٠٨.

بعلبك، يقيم كلٌ منها أيضاً شهراً واحداً، خصّص لهم على البحر برج يقيمون فيه سمي على اسمهم "برج البعلبكية"، وله اسم آخر "البرج الصغير".

ساعد الأمير ناصر الدين الحسين المماليك في حملتهم على كسروان سنة ١٣٠٥، وكان له الفضل الأكبر في الحفاظ على إمارة الغرب، وابقائها قوية، وكان اقطاعها استقر منذ الأيام السلطان الأشرف خليل على جند معلوم وعلى درك بيروت، واستمرت على ذلك. عند إجراء الروك في سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، في بلاد بيروت وصيدا، قضى بتبديل الإقطاعات ومناقلاتها من مقطع إلى آخر، فخشي الأمير ناصر الدين تحويل اقطاع الغرب إلى غير أمرائه، فتوجّه إلى دمشق وقابل نائب السلطان فيها، تنكز، وقدّم ملتمساً إلى الدولة بأنه وأقاربه ملتزمون بحفظ ثغر بيروت المحروسة، مجتهدون في خدمة السلطان، وأن اقطاعهم معهم بخدمة ثلاثين فارساً يؤمنون حماية ثغر بيروت ويوفّرون على الدولة، ومتى خرج إقطاعهم إلى غيرهم هلكوا لأنهم لا ينتفعون بغيره وبه مساكنهم ورجالهم وعشيرتهم.

فأجاب السلطان على ملتمس الأمير ناصر الدين باستمرار إقطاع التنوخيين في يدهم على أن يزيد عدد الجند تبعاً لما يزاد عليه. وحين احتسبوه وجدوه يستحق ضعف ما كان عليه من جند فجعلوه مقابل اثنين وسبعين جندياً، يقدّم الأمير ناصر الدين ثلثهم (عشرين جندياً)، ويتوزّع سبعة أمراء آخرون الباقين، وفيهم أخو الأمير ناصر الدين[1]. وهذا يعني مرة أخرى وجود أمير كبير مقدّم على الآخرين. واستمر الوضع هكذا: أمراء كبار يُعرف الواحد منهم بالأمير الكبير، أو أمير الأمراء، إلى جانبه أمراء أقل شأناً. كما استمرت امارة "الغرب" امارة وراثية بثوراتها الأمراء التنوخيون.

وفي الوقت الذي شهدت الإمارة التنوخية منافسة من الأمراء بني أبي الجيش الأرسلانيين، وتقديم هؤلاء الشكاوى ضد الأمراء التنوخيين، شهدت

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٨٦ – ٨٧.

ايضاً منافسة حادة من أمراء التركمان في كسروان، ومحاولتهم القضاء عليها، إذ إنهم حاولوا انتزاعها من إقطاع امرائها الأساسيين، فعرضوا على سيف الدين بيدمر الخوارزمي نائب السلطان في دمشق (١٣٦٠-١٣٨٦) تقديم ألف رجل لمساعدة الحملة التي يجهّزها في بيروت إلى قبرص للثأر من الفرنجة الذين غزوا ثغر الإسكندرية سنة ١٣٦٥، فوافق على ذلك، وكتبت المثالات في القاهرة بإقطاعهم " الغرب". وكان من أهم أسباب عرض التركمان ذلك استشعارهم بكثرة رجالهم، وتلكؤ امراء الغرب عن امر المثاغرة في بيروت وتعبهم من الركوب ليلاً ونهاراً ومن الزامهم السكن فيها. لكن أمراءِ "الغرب" اسرعوا سنة ٧٦٧هـ إلى القاهرة، وأفشلوا محاولة التركمان، واستحصلوا على المثالات بتجديد اقطاعهم الغرب.

أسس الأمير برقوق دولة المماليك الجركسية (المماليك البرجية) في سنة ١٣٨٢. وبعد بضع سنوات انقلب عليه بعض الأمراء المماليك، وكبيرهم منطاش، فسُميت حركتهم باسم " الحركة المنطاشية". اتفق رأي هؤلاء في ٣ جمادى الآخرة ٧٩١هـ/أيار ١٣٨٩م على خلع السلطان برقوق وتولية الملك الصالح حاجي ابن السلطان الملك الأشرف حفيد الملك المنصور قلاوون. وتمّ ذلك بحضور الخليفة العباسي، المتوكل على الله، فسجنوا السلطان برقوق في الكرك لبضعة أشهر، ثم تآمروا على قتله، لكن وقوف نائب الكرك وبعض الأمراء إلى جانبه اعاده إلى الحرية، ثم أعاده انتصاره على خصومه في شقحب سلطاناً[١].

آنذاك أيد الأمراء التنوخيون السلطان برقوق، وزوّدوه بعد خلاصه من السجن برصاص المنجنيق، وبالنجّارين لصنع آلات الحصار. وخاضوا إلى جانبه معركة شقحب، لكنهم انسحبوا منها بعد انهزامه فيها مرتين أمام خصومه. وهم لم يعرفوا بانتصاره لاحقاً إلا بعد انسحابهم وعودتهم إلى "الغرب". وأيّد الأمراء التركمان الحركة المنطاشية ضد السلطان، واستفادوا

---

[١]- أنظر بدر الدين العيني: عقد الجمان، تحقيق إيمان عمر شكري، بعنوان "السلطان برقوق"، ص ٢٤٢ - ٢٥٤.

من غياب الأمراء التنوخيين فتغلبوا على رجال " الغرب " الذين نزلوا إلى الساحل، وقتلوا منهم تسعين رجلاً. ثم هاجموا بيروت، ونهبوا ممتلكات التنوخيين فيها ومخازن الأقمشة والزيت والصابون التي تخصهم. وهاجموا مع الأمير ارغون " الغرب " حيث قتلوا أربعين من رجاله، وفيهم جميع أمراء بني أبي الجيش، باستثناء سيف الدين يحيى الذي تمكن من الهرب ولم يستطيعوا اللحاق به، ثم عاد وظفر بهم وخرّب أزواقهم. وكان هجومهم على " الغرب " اثناء لحاق امرائه بالسلطان برقوق إلى مصر[1].

النزاع بين التركمان والتنوخيين اضعف الفريقين، لكنه اضعف التركمان اكثر، ثم ان هؤلاء تعرضوا لهجوم، من قبل مؤيدي السلطان برقوق، قضى على شوكتهم كما وردت الإشارة إلى ذلك. وقد تابع التنوخيون دورهم الجهادي في الدفاع عن بيروت، واشتركوا بشخص المؤرخ صالح بن يحيى وبعض مرافقيه في غزو قبرص. واقام بعض امرائهم في بيروت وساهموا في عمرانها كما ساهموا في عمران " الغرب ".

أمراء ومقدّمو الجرد والمتن

لولا السجل الأرسلاني، وتاريخ بيروت، وتاريخ ابن سباط، لكانت معلوماتنا عن الأمراء الأرسلانيين والتنوخيين قليلة. لكن هذه المصادر التاريخية تحدّثت عن هؤلاء الأمراء، واضاءت على تاريخ " الغرب ". كما ألقت أضواء قليلة جداً على تاريخ سائر مناطق جبل لبنان الجنوبي، التي لم يقيّض لها من يكتب عن تاريخها وأسرها إلا مؤلف مجهول هو واضع كتاب " قواعد الآداب حفظ الأنساب " غطّى جانباً من تاريخها، وان بشكل مشوّش، حين تكلم عن العشائر التي توطنتها عند قدومها اليها في سنة ٨٢٠، اضافة إلى زجليات ابن القلاعي. لذا ضاع الكثير من تاريخ مناطق جبل لبنان الجنوبي، في غياهب النسيان. وبات على المؤرّخ ان يلملم المعلومات القليلة،

---

[1]- السجل الأرسلاني: الاثبات الرابع عشر، ص ١٢٤ – ١٢٦، وهو يذكر أن الهجوم على "الغرب" جرى في سنة ٧٩٠هـ ١٣٨٨م. وصالح بن يحيى: تاريخ بيروت ، ص ٢١٤.

المتعلقة بها وبأعيانها، والمتناثرة في بطون المصادر والمراجع وفي الروايات.

وردت في " تقليد الأمير معضاد" الذي يعود إلى بني فوارس الذين هم فرع من المناذرة، وأبناء عم الأمراء الأرسلانيين، توصية من الداعي بهاء الدين للأمير معضاد بالأميرين ابي الحسن وابي العز ابناء الخضر. [١] وقد حدّد التقليد منزلة هذين الأميرين دون ان يحدّد مكان اقامتهما. وجاء في مرجع حديث انه " توجد في بلدة كفرسلوان (المتن) عائلة تحمل اسم "المغربي" ينضوي تحتها فرعٍ يحمل اسم "الخضر" وهمِ سلالة ابناء الخضر الذين يذكر الأشرفاني بأنهم كانوا موجودين في ايامه في اواسط القرن السابع عشر للميلاد. كما ينضوي تحتها فرع آخر يحمل اسم "بحمد"، وهم احفاد الشيخ سليمان بحمد الذي وصفه تشرشل بأنه شيخ درزي، سليل بني فوارس التنوخيين، وكان صاحب غنى وجاه عظيمين. لكن مركزه تضاءل اثناء حكم الأمير بشير الشهابي. هذه العائلة تعتبر ان اسم المغربي ما هو إلا تصحيف للقبهم القديم " امراء الغرب"[٢].

مما ورد ذكره يستنتج أن بني الخضر هم من بني فوارس، وهم ابناء عم الأمير معضاد ابو الفوارس، ومن المرجّح انهم كانوا يقيمون في "الغرب" حين أُرسل التقليد اليه في أواخر الثلث الأول من القرن الحادي عشر. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المتن وتحديداً إلى كفرسلوان الواقعة في اعاليه حيث عُرفوا هناك بالمغربي، وهذه الكلمة تصحيف للغربي. ويرد في تاريخ بيروت ان الأمير سعد الدين خضر بن محمد بن حجى تزوج امرأة من كفرسلوان، وكان ابوها من ذوي الأبسار وسعة الرزق فاق أهل بيروت في

---

[١]- رسائل الدعوة إلى مذهب التوحيد، الرسالة رقم ٤٨.

[٢]- نديم حمزة: التنوخيون، ص ٥٥.

زيادة الأموال[1]. ومن المعروف أن التنوخيين امراء الغرب لا يتزوجون إلا من هم امراء من مزاويجهم.

من مقدَّمي المتن آل مزهر في حمانا، وهم لا يزالون إلى اليوم محتفظين بلقب "البك". وما من مصدر قديم أشار إلى نسبهم، إلا أن أحد المراجع الحديثة ذكر دون أن يشير إلى المصدر الذي اعتمد عليه، " انهم من بني فوارس" [2]. ومن مقدَّمي المتن آل الصوّاف في الشبانية، وقد ورد ذكر وفاة اثنين منهم في أواخر سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٤م، وهما زين الدين صالح، وعبد الواحد بن علم الدين[3]. كما ورد ذكر أحدهم (زين الدين) في معرض الحديث عن الحوادث التي جرت في سنة ١٦٣٤ بعد مقتل الأمير فخر الدين المعني الثاني وذكره وذكر ابن أخيه عبدالله في حوادث سنة ١٦٦٠ [4]. وكان احدهم مقدم اليمنية في سنة ١٧٠٠ثم قتل في سنة ١٧١١ في معركة عين داره[5].

ومن مقدَّمي المتن آل ابو اللمع، الذين كانوا يُذكرون أحياناً " مقدمي شحار المتن والجرد والبقاع" وأصلهم من بني فوارس، اشتركوا في صد الحملات المملوكية على كسروان " وقبلوا برتبة مقدم حين كان لها شأن الأمير، وحين تدنّت مرتبتها عن ذلك طالبوا فقط بمناداتهم بالأمراء، لذلك اعطاهم الأمير حيدر(الشهابي) هذا اللقب بعد بلائهم في عين داره سنة ١٧١١"[6].

من المقَدمين في جرد جبل بيروت عز الدين فضايل بن علي بن عز الدين فضايل من عين داره، وابنه سيف الدين فرج الذي دفن في شمليخ سنة

---

[1]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٥٧.

[2]- محمد خليل الباشا: معجم أعلام الدروز، المجلد الثاني، ص ٣١٦.

[3]- تاريخ ابن سباط، الجزء الثاني، ص ٩٢٨-٩٢٩

[4]- تاريخ حيدر الشهابي، ص٧٢١- ٧٢٢، ٧٣١.

[5]- الشدياق: اخبار الأعيان، الجزء الأول، ص ١٢٧، والجزء الثاني ص ٣١٥.

[6]- اسطفان البشعلاني: تاريخ بشعلي وصليما، ص ٢٦٦-٢٦٧.

٧٨٢هـ/١٣٨٠م. وكان عز الدين رئيساً من أعيان زمانه، وسيف الدين مشهوراً بالرئاسة ومعروفاً عند الدولة[١]. ومن أعيان الجرد آل العنداري الذين ينتسبون إلى الأمراء آل علم الدين من نسل الأمير علم الدين الرمطوني، وقد لُقّبوا بالعنداري نسبةً إلى بلدة عين داره في الجرد. وأول من لُقّب منهم بذلك هو الأمير بدر الدين حسن الذي كان من مشاهير رجال الدين عند الموحدين الدروز، وهو جد الأسر الأربع آل ناصر الدين (كفرمتى) وآل القاضي (بيصور) وآل القاضي (دير القمر) وآل أمين الدين(عبيه). ومن آل العنداري الشيخ مظفر الذي برز اسمه في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، وابن أخيه علي المعروف بالأمير علي[٢].

أمراء ومقدّمو الشوف

وردت الإشارة سابقاً إلى أن امراء الشوف، في النصف الأول من القرن الثاني عشر، هم في جنوبه آل جندل، وفي شماله آل معن. لكن لم يطل نفوذ آل جندل فيه، كما ان آل معن ظهروا فجأة في تاريخه آنذاك، وكادوا يختفون لولا اشارات موجزة عنهم، ثم ظهروا في أواخر القرن الخامس عشر. وكان أمراء " الغرب " يُقطعون بعض قرى الشوف. إلا أنه في العهد المملوكي لا يرد لهم اي اقطاع فيه سوى فدادين في قرية الفريديس، كما هناك ذكر لأحد امرائهم من آل معضاد، الذين هم فرع من بني فوارس، وهو الأمير فارس الدين معضاد بن عز الدين فضايل بن معضاد، المقيم في قرية كفرفاقود[٣] " الذي كان أميراً ومقدماً على الأشواف، وكان اقطاعه عين حجيه وادفول (دفون) ونصف شطرا، ثم انتقل ذلك إلى بني سعدان"[٤]. وهذه القرى القرى الثلاث من "الغرب". وبنو سعدان هم فرع من الأرسلانيين. والمعلوم

١- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص١٠٠، ١٤٨

٢- انظر عن الشيخ مظفر العنداري وابن اخيه الأمير علي: تاريخ الأمير فخر الدين المعني للخالدي الصفدي، ص ٣٥-٣٦.

٣- كفرفاقود: قرية في منطقة "المناصف" من قضاء الشوف.

٤- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص٥٧.

ان الأشواف هي شوف هلال والشوف الشويزاني والشوف الحيطي، وربما كان المقصود بقول إن الأمير فارس الدين معضاد " امير ومقدم الأشواف" احد هذه الأشواف لا كلها، وقد كان مقيماً في كفر فاقود التي كانت آنذاك من الشوف الشويزاني.

بنو الشويزاني: الإشارات المذكورة أعلاه عن إمارات الشوف تلقي ضوءاً بسيطاً على تاريخها، فيما يبقى اكثره غامضاً. ومن نواحي غموضه غموض تاريخ بني الشويزاني الذين نرجّح انهم امراء او مقدّمون للدليلين التاليين:

١- تسمية منطقة كبيرة من الشوف باسم " الشوف الشويزاني " كانت تشتمل في النصف الأول من القرن السادس عشر على ٦٦ قرية ومزرعة، بحسب ما يظهر في جداول الاحصاء العثمانية. وقد شكلت مع الشوف الحيطي ما عُرف لاحقاً بـ" شوف ابن معن"، مما يدل على ان تسمية الشوف الشويزاني سبقت تسمية شوف ابن معن. وقد صغر الشوف الشويزاني بحيث أصبح يضم عشر قرى فقط.

٢- وجود بناء قديم وسط الشوف الشويزاني اسمه "قصر السويجاني"، كان في الأصل حصناً هلنستياً. ولو لم يكن المقيم فيه ذا شأن بارز (امير او مقدّم) لما سُمي باسمه. واقامة هذا الشويزاني في حصن او قصر على تلة عالية، خالية من المياه، لا مبرّر لها إلا تكليفه من المماليك بمهمة حماية المنطقة، والإشراف على طريق صيدا- قب الياس، التي تربط مدينة صيدا مركز ولاية صيدا، بمركز الصفقة الشمالية ببعلبك.

بناءً على هذا نرجّح أن بني الشويزاني كانوا من مقدّمي او أمراء الشوف في العهد المملوكي، وربما قبله. إلا أن المعلومات عنهم قليلة. وأول معرفتنا بهم في جبل لبنان تأتي من كتاب " قواعد الآداب حفظ الأنساب"، إذ إنه توسع في الحديث عنهم اكثر مما تحدث عن أية عشيرة جاءت إلى جبل

لبنان بمن في ذلك الأرسلانيين والتنوخيين والمعنيين. وفيه ورد أن احدهم أعتبر عند بعض العشائر "مقداماً وعقيباً"[1].

المعنيون: بعد ظهور مفاجيء للمعنيين في الشوف في اوائل القرن الثاني عشر، وإشارات إلى تحالفهم وتصاهرهم مع الشهابيين ونصرتهم لهم أثناء مجيء التتار، وإشارات مختصرة إلى جهادهم ضد الفرنجة، يختفون من التاريخ فيبدو دورهم في مسرح الأحداث شبه غامض، كما هو الحال في نسبهم. ثم يظهرون فجأة في أواخر القرن الخامس عشر، بشكل لا لبس فيه ولا غموض. فأحد المؤرخين، الذي عاش في أواخر القرن المذكور والنصف الأول من القرن الذي تلاه، تكلم عن الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس بن معن الذي تحالف مع الأمير البدوي ابن الحنش. وجامع دير القمر القائم إلى اليوم يشهد على أن هذا الأمير هو بانيه بتاريخ ٥ محرّم من سنة ٨٩٩هـ/ ١٦ تشرين الأول ١٤٩٣ كما هو مدون على جداره.

إن دير القمر وبعقلين هما المقران الرئيسان للأمراء المعنيين، المحتضنان بصمت بداية إقامتهم في الشوف، والمشكلاّن مركز انطلاقتهم. وبناء جامع في دير القمر في سنة ١٤٩٣ شهادة ناطقة بإقامة طويلة للأمراء المعنيين في دير القمر قبل هذا التاريخ، وشهادة حية على أنهم أصحاب نفوذ فيها وفي محيطها قبل أن يقفزوا فجأة إلى واجهة الأحداث بشخص باني الجامع، الأمير فخر الدين عثمان.

برز علاء الدين علي بن الحنش سنة ١٣٩٠ عندما أيّد السلطان برقوق ضد أخصامه من الأمراء المماليك، وعندما دخل في وساطة اثناء قيام الحركة المنطاشية ، وأخذ بعلبك في نيسان ١٣٩٠[2]، ثم عندما شارك في الهجوم على التركمان في كسروان، والقضاء على زعيمهم علي بن الأعمى، فنال جزاء ذلك امرية طبلخانة من السلطان برقوق. لكن مقتل علاء الدين

---

[1] – قواعد الآداب حفظ الأنساب، ص ٣٩.

[2] – المقريزي: السلوك، للجزء الخامس، ص ٢٨٩.

ووالده افسح في المجال لبروز بني الحمراء في البقاع لبعض الوقت إلى أن تمكن بنو الحنش من القضاء على امير بني الحمراء " أمير حاج" والسيطرة على البقاع. فتولى أميرهم عساف على بيروت وصيدا سنة ٩٠١ هـ/١٤٩٥ م، لكنه وجد مقتولاً في السنة نفسها في دمشق[١]. فخلفه شهاب الدين أحمد بن الحنش، ثم ابنه ناصر الدين الذي كان أهم افراد اسرته.

كان عند ناصر الدين بن الحنش من البراعة والجرأة وحب المغامرة ما مكّنه من أن ينجح، في انقلابه على نواب السلطان في دمشق، وفي تعاونه معهم. وقد مدّ سلطانه على كامل البقاع، وهاجم بلاد ابن بشارة في أقصى جنوب جبل عامل لكنه لم ينجح ومني بخسارة فادحة[٢]. فعوّض عن ذلك بالهجوم على صيدا، ثم على بيروت حيث نهب مخازن الصابون التي تخص الأمير جمال الدين حجى البحتري. ولكي تحتويه الدولة المملوكية عيّنه نائب السلطان في الشام على البقاع، وولاّه على صيدا[٣].

شارك الأمير المعني، فخر الدين عثمان، ابن الحنش في تمرّده على السلطة سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨ م، فألقى نائب السلطان في الشام القبض عليهما. لكنه أطلق سراح ابن الحنش على عشرين الف دينار، وأبقى على الأمير فخر الدين عثمان مسجوناً "وأكّد الإحتراس عليه لكون بلاده مجاورة لبلاد ابن الحنش "[٤]. وبعد إطلاق سراحة تابع إزعاج السلطة، واشتبك مع العسكر الذي جهّزه نائب الشام بقيادة جوان بك عند كامد اللوز سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤ م، وانتصر عليه وقتل جوان بك وثلاثمائة شخص. وعندما تسلم سيباي الأشرف نيابة الشام في السنة نفسها قبض على الأمير فخر الدين

١- احمد بن طولون الصالحي: مفاكهة الخلاّن، ص ١٣٧ – ١٣٨.

٢- تاريخ ابن سباط، المجلّد الثاني، ص ٩٢٩.

٣- للمزيد من المعلومات عن ناصر الدين بن الحنش أنظر أحمد بن طولون: مفاكهة الخلاّن، ص ٨٣، ١٧٣ -١٧٤، ١٨٢، ٢٢١ -٢٢٤، ٢٢٩ – ٢٣٠، ٢٤٥ – ٢٤٦، ٣٣٥ – ٣٣٦ ، ٣٤٠، ٣٦٢، ٣٧٧ – ٣٧٩، ٣٨٢، ٤١٤، ٥٥٤.

٤- المصدر نفسه، ص ١٧٤.

عثمان بالأمان ولاحق ابن الحنش[1]. ولم يطل الأمر حتى توفي فخر الدين في ربيع الآخر ٩١٢هـ/آب ١٥٠٦ م [2]. وتوفي ابنه يوسف بعد سنة.

خلف فخر الدين ابنُه يونس وتوفي سنة ١٥١١، فخلفه ابنه قرقماس، وهو الذي شهد انتقال لبنان من السيطرة المملوكية إلى السيطرة العثمانية، لا الأمير فخر الدين الأول كما شاع لفترة من الزمن.

المقدّمية الغامضة في جزّين

المعلومات عن جزّين وأعيانها في العهد المملوكي وما قبله قليلة جداً. ومن أقدم عشائرها الميادنة، وهم على الأرجح شيعة، إلا أن هؤلاء يُذكرون دون الإشارة إلى مقدم أو أمير لهم، مع العلم أنه لا بد وأن يكون عليهم شيخ أو أمير، بحسب ما كان مألوفاً في تاريخ الجماعات القبلية. وكما تاريخ جزّين القديم شبه غامض، هكذا تاريخ جبل عامل الذي يدخل بعض المؤرخين العامليين جزّين فيه. وسبب ذلك نقص الكتابات عن جبل عامل. ولربما كان هناك مدوّنات قديمة، لكنها ضاعت أو أُحرقت أو تلفت جرّاء العوامل الطبيعية وتقادم الزمن وحروب الفرنجة وحروب العامليين مع ولاة المماليك والعثمانيين وامراء جبل لبنان ووادي التيم" وبهذا ضاعت الحقائق وكثر الإلتباس وطمس الكثير من الحوادث وغمضت. وصار التاريخ السياسي للشيعة (المتاولة)، ولجبل عامل قبل عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني "يوشك أن يكون أشد غموضاً وتوغلاً في الأساطير من تاريخ طسم وجديس"[3]. وتبعاً لذلك وُصفت رئاسة الشيعة في جزّين " بالمقدمية الغامضة" لكنها كانت " نواة لنهضة شيعية كبيرة فيما بعد " [4].

---

[1]- تاريخ حيدر الشهابي، ص ٥٥٦.

[2]- تاريخ ابن سباط الجزء الثاني، ص ٩٣١.

[3]- علي الزين: للبحث عن تاريخنا، ص ١٣٤.

[4]- محمد علي مكي: لبنان ... ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

لم نر في ما تيسر لنا الإطلاع عليه من مصادر قديمة أي ذكر لمقدمية جزّين، او أي اسم لمقدّم لها، واقدم مرجع قال بوجود " مقدمية جزّين" يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر[١]، مع ان هناك ذكراً منذ عدّة قرون قبله لمقدميات وامارات نشأت إلى الشمال من جزّين مثل آل جندل وآل معن في الشوف، وإلى الشرق منها مثل مقدميات او إمارات بني صبح وبني الحنش وبني الحمراء في مشغره وصغبين، وإلى الجنوب منها مثل مقدمية آل بشاره في جنوب جبل عامل. وقد خلا مخطوط قديم، عنوانه " إجابة السائل إلى معرفة الرسائل" يعود إلى سنة ١٤٣٦، من ذكر مقدّم جزّين وجاء فيه ما يلي: " وأما الكتابة عن كافل المملكة الشامية بهذه الرتبة (أي المجلس السامي الأمير بغير ياء، أي لا يقال الأميري) فالى متولي صرخد وعجلون وحسبان والسلط وبانياس والصبيبة وحفيرقارا وحالي الخربة؟ وامراء كسروان وبعض أمراء الغرب ومقدمي البلاد كابن حنش وابن هلال الدولة مقدم الزبداني والجبة ومقدّم المرج وابن بشاره مقدم بلاد صفد وابن عبد القادر (وابن معن مقدم الشوف) وابن عقيل مقدّم صيدا وابن عبدان وأكابر التركمان القرقية ومشايخ جبل نابلس كاسماعيل بن عبد القادر وابن مساق وابن الحسوسي ومشايخ حوران كابن الغراوي وابن القاق ومن ناسبهم من مقدّمي الحلقة وغيرهم[٢].

حدّد هذا المخطوط أصول الكتابة عن كافل المملكة الشامية، أي نائب مملكة دمشق (الشام) عن السلطان المملوكي. كما حدّد معظم الإقطاعات وسمّى بعض متوليها من الأمراء والمقدمين والمشايخ، ولم يذكر مقدّمية جزّين أو اسم مقدّم لها. وأحد المؤرخين يرى أنه ربما كان المقصود بـ "مقدّم المرج" في هذا المخطوط" مقدم مرج العواميد" المقيم في جزّين[٣]، إلا أن ذلك غير صحيح، لأنه لو كان المقصود به مقدّم جزّين لذكر باسم جزّين

١- مقالة فؤاد ملحم عطية في مجلة "اوراق لبنانية"، المجلد الثاني، ١٩٥٦، ص ٣٢٣.

٢- عيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين، ص ٢٥ (هامش).

٣- نائل أبو شقرا: التحولات، ص ٣٩.

لا باسم مرج العواميد الذي كان يخلو آنذاك من القرى إلا من قرية صغيرة اسمها بسرى. والمقصود بـ"مقدّم المرج" هو خالد الغزلاني الذي ذكره مصدر معاصر له باسمه[1]، وهو ابن الحمصي (٨٤١- ٩٢٤هـ/ ١٤٣٧-١٥٢٧ م)، وذكره مصدر قريب من عصره، هو ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦ م. هكذا " كبير المرج خالد الغزلاني"[2].

إذاً ليس في المصادر القديمة ما يشير إلى مقدّمية في جزّين في القرن الخامس عشر وما قبله وبعده، إلا أنه هناك اشارتان إلى الميادنة وإلى أهل جزّين يستشف منهما وجود رئاسة لهم. أولاهما " شهود الميادنة من بلد صيدا " في شكوى زور مقدّمة إلى السلطة المملوكية من تقي الدين نجا بن أبي الجيش بن مفرّج ضد الأمراء التنوخيين زين الدين صالح بن علي وجمال الدين حجى وأخيه سعد الدين خضر، في سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣ م[3]. والمعلوم ان الشهود في شكوى كهذه يجب أن يكونوا وجهاء الميادنة أو رؤساءهم، لكننا لا نعرف ما أذا هم من المشايخ أم المقدمين أم الأمراء. وثانيتهما تأخير دفن الأمير شهاب الدين احمد بن زين الدين صالح بن ناصر الدين سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١ م إلى اليوم الثاني حتى يحضر أهل جزّين يوم عزائه ومأتمه الحاشد في " الغرب"[4]. والمعلوم أن تأخير الدفن لا يحصل الا لأحد السببين التاليين، أو للاثنين معاً، وهما وجود القرابة بين المتوفى وأهل جزين من أجل اتاحة المجال لهم لمشاهدته وتوديعه، ووجود رئيس لهؤلاء يُكرَّم بتأخير الدفن، والسير في الجنازة، والمساهمة في مظاهر تكريم الميت بحسب العادات والتقاليد التي كانت سائدة .

---

[1]- ابن الحمصي: حوادث الزمان، ص ٣١٣.

[2]- ابن طولون: مفاكهة الخلّان، ص ١٦٣.

[3]- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٦٧.

[4]- المصدر نفسه، ص ١٩١.

التشدد الديني

بدأ المذهب السنّي يعود إلى المناطق التي خلت منه، ويقوى في الأماكن التي ضعف فيها، منذ ظهور السلاجقة والأتابكة، ومنذ إعادة صلاح الدين له إلى مصر. وقد ازداد انتشاراً في بلاد الشام بعد فشل الدولة الفاطمية الشيعية في منع الفرنج من احتلال الأماكن المقدسة في فلسطين، ونجاح السلاجقة والأتابكة والأيوبيين السنّة في زعزعة الكيانات الفرنجية، ثم نجاح المماليك السنّة في إجلائهم. وجاء التشدّد المملوكي مع سائر المذاهب الإسلامية يزيد في انتشار المذهب السنّي بتحوّل أتباع هذه المذاهب إليه. فلقد ازداد أتباعه في بيروت وصيدا واقليم الخرّوب، ثم انتشر في بعض مناطق جبل لبنان الجنوبي، كما في كسروان الذي أُقطع للتركمان السنّة، وكما في أعالي الشوف حيث صارت مجدل معوش سنية بدليل سكن الشيخ ابن ميمون فيها ووفاته في سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م، ودفنه في أرض موات بشاهق جبل تقع عنده[١]. وقد ظل السنّة فيها إلى أن أعطاها الأمير فخر الدين المعني الثاني للبطريرك الماروني يوحنا مخلوف.

وبسبب تشدد المماليك الديني، وفتاوى الائمة، تظاهر الشيعة والموحّدون الدروز بالسنّة على المذهب الشافعي وأظهروا التقيّة . فالموحّدون الدروز ظلوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم وبسرية مذهبهم، إلا أنهم أظهروا التقية الدينية، وكانوا على الصعيد السياسي منخرطين في المشروع الإسلامي الجهادي. وقد ظهرت التقية الدينية عندهم في العهد المملوكي في أدبياتهم الدينية والسياسية. وإذا كانوا أصلاً لا يذكرون كلمة "الدروز" وكلمة "الدرزية" لعدم قبولهم بهما، فانهم تجنّبوا ذكر أية إشارة تدل على خصوصية دينية، مثل لفظة " التوحيد " ولفظة " الموحّدين ".

ميّز المماليك المسلمين عن المسيحيين في بعض النواحي، منها لون العمائم وحجمها، ولون العباءات، واستثناء المسيحيين من ركوب الخيل، إلا

---

[١]- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، المجلّد الثامن، ص ١٢١- ١٢٢.

أنهم لم يخطروا على المسيحيين الإيمان بعقائدهم وممارسة شعائرهم. وكان عندهم تشدّد أكثر من السلاجقة والأتابكة والأيوبيين مع المسلمين غير السنّة. وفي نهج الشيوخ وفتاواهم، ولا سيما فتاوى ابن تيمية، وفي الحملات المملوكية على كسروان، دلائل على هذا التشدّد الذي سيستمر وسيتجلّى في منشور موجّه إلى الشيعة في جبل لبنان الجنوبي في ٢٥ جمادى الآخرة ٧٦٤هـ/١١ نيسان ١٣٦٣م، صادر عن نائب السلطان في دمشق، يهاجم اتباع المذهب الشيعي، وينكر معتقداتهم، ويحظر عليهم اتّباعه تحت طائلة المسؤولية الكبرى التي تصل إلى حد هدر الدماء. وهذا بعض ما جاء فيه :

" بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها، وصيدا ونواحيها، وأعمالها المضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها، ومزارع كل الجهتين وضياعها، وأصقاعها وبقاعها، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقرّروه، وبثوه في العامة ونشروه، وأخذوه ديناً يعتقدونه، وشرعاً يعتمدونه، وسلكوا منهاجه، واصّلوه وفرّعوه، وتدينوا به وشرّعوه، وحصّلوه وفصّلوه، وبلّغوه إلى نفوس اتباعهم ووصّلوه ... وانهم يسبّون خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلّون دم أهل السنّة من المسلمين ... فانكرنا ذلك غاية الإنكار، واكبرنا وقوعه أشد إكبار. وأردنا أن نجهّز طائفة من عسكر الإسلام وفرقة من جند الإمام، تستأصل شأفة هذه العصبة الملحدة، وتطهّر الأرض من رجس هذه المفسدة. ثم رأينا أن نقدّم الإنذار، ونسيق اليهم بالأعذار، فكتبنا هذا الكتاب، ووجّهنا هذا الخطاب ليقرأ على كافتهم، ويبلّغ إلى خاصتهم وعامتهم، يعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها، والمذاهب التي انتحلوها، تبيح دماءهم وأموالهم، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم"[1].

ترافق هذا مع تلاحق دعوات السلطة إلى بناء الجوامع، وإلزام كلّ قرية كبيرة ببناء جامع. فكثرت الجوامع في جميع مناطق جبل لبنان الجنوبي، وكان في كل منها إمام ظلت لفظته تذكر عند الموحّدين الدروز

[1] - القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء ١٣، ص ١٦- ١٨.

وحدها طوال عهد المماليك، والقسم الأكبر من العهد العثماني، إلى ان استجدّت لفظة مرادفة لها هي "السائس".

بسبب هذه السياسة المملوكية المتشدّدة استمر الموحّدون الدروز في كل مناطق تواجدهم بالتظاهر بالسنّة على المذهب الشافعي، وتظاهر به الشيعة متردّدين، مظهرين مذهبهم بين الحين والآخر، مما حمل المماليك على توجيه المنشور الذي ورد ذكره، وعلى قمع حركتهم التي قاموا بها في جهات بيروت وصيدا وجزين.

أصبحت منطقة جزّين مركزاً مهماً للتجمّع الشيعي المستتر بالشافعية خلال القرن الرابع عشر. وبرز فيها عالم ديني كبير هو شمس الدين محمد بن مكي الجزّيني، عمل على قيادة الشيعة، وإعادة المذهب، ومحاربة المعتقدات والبدع التي سبّبها النزوح النصيري إلى جنوب لبنان. واضطر إلى مقاتلة الخارجين عن المذهب، ومنهم الشيخ محمد اليالوشي المتّهم بالشعوذة وادعاء النبوّة ، وجرت معركة بين الفريقين في النبطية الفوقا، سميت "معركة الشهداء " انتصر فيها شمس الدين[١] وقتل اليالوشي ثم قُتِلَ بسببه[٢].

تزامنت حركة شمس الدين مع تشدّد المماليك وفرضهم المذهب السني، الأمر الذي قبله شيعة بيروت ورفضه شيعة جزّين. وقد قُمعت حركة شمس الدين الإصلاحية والنهضوية، وانتهت بسبب وشاية عليه من خصومه الذين " دسّوا عليه وقدّموا بحقه العرائض لنائب الشام، بيدمر الخوارزمي ، فاعتقل وسجن مدة سنة ثم أعدم سنة ١٣٨٤. وقد فشلت الحركة الشيعية بسبب انصراف شيعة بيروت والساحل إلى مذاهب أهل السنّة "[٣].

١- محمد علي مكي: لبنان...، ص ٢٥٣.

٢- البحراني: الكشكول (١٤)، الجزء الأول، ص ٤٢٩.

٣- محمد علي مكي: لبنان ...، ص ٢٥٣.

هناك رواية شفوية (عنعنة) متناقلة من جيل إلى آخر، تتحدث عن وجود سابق للشيعة في قريتي بيقون وتلثيثا[1] الواقعتين في جنوب الشوف والمجاورتين لجهات جزّين، كما تتحدث عن خلو هاتين القريتين من الشيعة في تاريخ غير محدّد، بسبب إساءتهم بدون سبب إلى رجلٍ من جيرانهم الموحّدين الدروز[2]. وإن كان لا يجوز تجاهل هذه الرواية في كتابة تاريخ الشوف، الذي ضاعت معظم أصوله العائدة إلى العصور الوسطى، فإنه لا يجوز الأخذ بها إلا بحذر، مع وضعها ضمن الإطار السياسي العام ونهج المماليك المتشدّد إزاء غير السنّة، إذ لا يمكن ان يُنسب خلو هاتين القريتين من الشيعة بسبب نزاعهم مع جيرانهم الدروز، كما لا يمكن التسليم بما جاء في الرواية عن استقواء هؤلاء الشيعة بأنفسهم، وارتكابهم خطأ الإساءة إلى درزيٍّ من جيرانهم، في الوقت الذي لم يسجل أي نزاع سياسي شيعي درزي في الشوف وجهات جزّين قبل العهد العثماني، فيما النزاع المذهبي غير وارد على الإطلاق، والتشدد المملوكي يستهدف الدروز والشيعة معاً، وهو الحلقة الضائعة من الرواية المذكورة.

وبما انه لم يكن هناك أي نزاع درزي شيعي في جنوب الشوف وجهات جزّين في عهد المماليك، وبما أن تلثيثا هي اليوم خراب، وبيقون لم تسكن بالدروز بعد الحادثة التي تتكلم عنها الرواية، وإنما بالسنّة بحسب ما تظهره جداول الإحصاء العثمانية في القرن السادس عشر[3]، يمكن ترجيح حصول حادثة بيقون إبّان تحرك الشيعة في جزّين وبيروت وجهات صيدا، وضرب المماليك لحركتهم في جهات جزّين المجاورة لبيقون وتلثيثا.

---

[1]- تلثيثا: خربة في خراج مزرعة الشوف إلى الجنوب الشرقي منها، وإلى الجنوب منها فسحة سهلية، يُروى أنها كانت ميداناً لفرسان بيقون وتلثيثا.

[2]- الرجل هو من مزرعة الشوف أو من جارتها الكحلونية، وقد حجز الشيعة ثورة الضائع ليدرسوا عليه في بيادرهم، ثم أساؤا إليه عندما طلبه منهم، بحسب ما تذكر الرواية.

[3]- أنظر عصام خليفة: نواحي لبنان، ص ١٧٨.

بيروت وصيدا

شهدت بلاد الشام بعد إجلاء الفرنجة سنة ١٢٩١، وإبعاد خطر التتار سنة ١٣٠٣، استقراراً نسبياً، ولا سيما في عهد السلطان الناصر بن قلاوون، ونائبه في الشام ، تنكز، اللذين كان عهدهما أطول عهود السلاطين المماليك ونوابهم. ومع أن غزوات الفرنجة وقرصنتهم لم تنقطع، إلا أنها غدت خضّات أمنية وقتية تحدث في مدن الساحل اللبناني خسائر محدودة. وقد تضاءل خطرهم بعد افتتاح المماليك لقاعدتهم الكبرى، قبرص. وحين غزا ملك التتار، تيمورلنك، بلاد الشام سنة ١٤٠٠، انزل في حلب وحمص وحماه ودمشق خسائر بشرية ومادية لم تنزلها بها جميع غزوات التتار السابقة، وحروب الفرنجة. ثم انه بعد أن نكل بالسكان وقتل وحرق وأخرب وعاث، اصطحب معه إلى الشرق الصناعيين والفنيين والمهنيين، فأفقد البلاد اصحاب الخبرة والإختصاصات في مختلف الصناعات والمهن .إلا أن جيوشه لم تصل إلى لبنان فسلم من تدميره، وكانت جباله ملاجيء آمنة لسكان الجوار.

خرّب المسلمون أثناء قتالهم للفرنجة العديد من الحصون والقلاع ليضمنوا عدم عودة هؤلاء اليها، والإستفادة منها . وخرّبوا على الأخص مدن الساحل يوم لم يكن عندهم أساطيل قوية تدافع عنها. واعتمد المماليك الأسلوب نفسه مع مدينتي بيروت وصيدا في سنة ١٢٩١، إذ خربوا بعض أبنية صيدا وهدموا قلعتها البرية وقلعتها البحرية، ودكّوا اسوار بيروت وقلعتها. ثم حال حذرهم من تجدد هجمات الفرنجة، واحتمال نزولهم في هاتين المدينتين والتحصّن بهما، دون الإهتمام بعمرانهما إلا بالحد الأدنى.

بسبب الحروب الإفرنجية، التي دامت ما يقارب المائتي سنة، قل سكان بيروت فصار عدد المسلمين منهم، غداة إجلاء الفرنجة، لا يكمل الأربعين رجلاً في أوقات الصلاة إلا بانضمام اهل الضواحي اليهم. ثم ازداد عدد سكانها حتى بلغ بعد قرنين حوالي الخمسة آلاف نسمة[1]. وبعد الشلل

---

[1] - هذا العدد مستنتج من جداول الإحصاء العثمانية في القرن السادس عشر.

التجاري، الناتج من توقف السفن الأوروبية عن المجيء إلى موانيء بلاد الشام، اخذت الحركة التجارية تعود شيئاً فشيئاً بين الشرق والغرب. وكانت البداية بالنسبة إلى بيروت استقبال مركبين لصاحب قبرص كانا ينقلان البضائع التي تحملها مراكب البنادقة إلى قبرص. وتفاعل النشاط التجاري جرّاء تفضيل الفرنجة ان يأتوا تجاراً إلى اسواق الشرق، ربحهم مضمون، على ان يأتوا اليه قراصنة، وتسهيل المماليك عمليات التبادل التجاري بعقد الإتفاقيات مع تجار البندقية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، واقامة الخانات للتجار الأجانب.

من أجل ضبط الحركة التجارية جُعل في بيروت ديوان وموظفون لاستيفاء الضرائب على الصادر والوارد. ثم جرى تحسين مينائها. وأعاد الأمير بيدمر (نائب الشام) ترميم سورها من جهة البحر، وكان ينتهي عند البرج الصغير المعروف ببرج البعلبكية. وجُعل بين آخره وبين هذا البرج باب اسمه "باب السلسلة"، لأنه رُكّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغيرة من الدخول والخروج[١]. وأحيطت بيروت من جهة البر بسور عليه ابراج للمراقبة، وفيه بوابات للدخول إلى المدينة. وأعيد ترميم القلعة التي ظلت قائمة حتى أواسط القرن التاسع عشر. وكان يُصدّر من ميناء بيروت الزبيب والتين والزيت والصابون والسكر. وقد وصف الرحّالة ابن بطّوطة (مواليد ١٣٠٤) بيروت التي زارها، فقال انها صغيرة حسنة الأسواق وجامعها بديع الحسن ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه [٢].

كان الملك بغدوين قد شيّد في بيروت في سنة ١١١٠ كنيسة على أنقاض هيكل روماني، سميت على اسم القديس يوحنا المعمدان المعروف أيضاً بالنبي يحيى. ولما افتتح صلاح الدين بيروت حوّلها إلى جامع كبير، اعطي اسم الجامع العمري نسبة إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب. ثم حوّله الفرنجة إلى كنيسة بعد عودتهم إلى بيروت في سنة ١١٩٨. وبعد

١- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٤ – ٣٦.

٢- رحلة ابن بطوطة، الجزء الأول، ص ٨٢.

جلائهم في سنة ١٢٩١ حوّلها المسلمون مجدّداً إلى جامع بالإسم نفسه، أي الجامع العمري الكبير، وهو لا يزال قائماً إلى اليوم .

ازدياد نشاط الحركة التجارية في بيروت، وما تحقّقه من أرباح، حملا بعض أمراء "الغرب"، على الإقامة فيها للمتاجرة كما للمرابطة. وفي المرحلة الأولى من إقامتهم اتخذوا مسكنهم كنيسةً في شرق بيروت اسمها كنيسة افرنسيسك أو الفرنسيسكان، أقامها الفرنجة على اسم قديس لهم. ثم بنى الأمير ناصر الدين الحسين دارة له مجاورة للبحر، وتملك شارعاً معروفاً باسم " زقاق الخيّالة ". وابتنى الأمير زين الدين عمر حارة. وصار لبعض الأمراء مخازن للصابون والأقمشة. وضمن الأمير عز الدين جواد علم الدين الميناء[١].

أما صيدا التي نالها من الخراب ما نال بيروت، فلم يتوفّر لها جميع ما توفّر لبيروت من عوامل النهوض. وقد ظلّت مدينة ثانوية حتى عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني. لذا بقيت أصغر من بيروت بمساحتها وعدد سكانها. ومع هذا شهدت نشاطاً تجاريّاً، وان محدوداً، كونها المرفأ التجاري لا لسكانها فقط، بل للمقيمين في ما وراءها من مرتفعات. وحين مر فيها الرحّالة ابن بطّوطة وجدها كثيرة الفواكه، ويحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر[٢]. وكان يُصدّر منها، بالإضافة إلى ذلك، الزجاج والخزف، ويؤتى إليها بالأفاوية وبالأقمشة الأوروبية.

ازدهار جبل لبنان الجنوبي

على عكس الإزدهار البطيء في بيروت وصيدا، حصل ازدهار كثير في جبل لبنان الجنوبي، هو جزء من الإزدهار الذي عمّ جميع المناطق الجبلية اللبنانية، والبقاع، بسبب انصراف الناس عن السكن في السواحل ومدنها إلى السكن في المناطق التي توفّر الأمان ووسائل العيش معاً.

١- صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٠٦، ١٧٤.

٢- رحلة ابن بطوطة، الجزء الأول، ص ٨١.

توسعت في جبل لبنان الجنوبي المساحات المزروعة بالحبوب على مختلف أنواعها، والزيتون والكرمة والتين. كما توسعت المساحات المزروعة بالتوت لإنتاج الحرير. وشقّت الأقنية للري، وازداد صنع الآبار المحفورة في الصخر لتجميع مياه الشتاء في المناطق الفقيرة بالمياه. وكثرت تربية النحل وقطعان الماشية، وخصوصاً الماعز. وزادت معاصر العنب والزيتون، والمطاحن المائية. ونشطت صناعات مختلفة كصناعة الملبوسات الحريرية، وصناعة الصابون. وتطور البناء من الأبنية البسيطة ذات الطبقة الواحدة إلى الأبنية الكبيرة ذات الطبقتين أولاهما، على العموم، اسطبل، وثانيتهما غرف للسكن. ونشأ ما سمي " العلية " أي الغرفة الكبيرة العلوية المبنية في الطبقة الثانية. ومن الطبيعي ان يبدأ بناء الطبقة الثانية والعليات عند رجال الإقطاع، وهم الأمراء والمقدّمون، كأمراء التركمان في كسروان، والأمراء التنوخيين في " الغرب " الذين ابتنوا الدور الكبيرة والعليات في قرى عرمون وعبيه ورمطون وعين كسور.

من مظاهر الحركة العمرانية بناء الجسور على الأنهر كجسر القاضي على نهر الصفا، الذي بناه عماد الدين حسن القاضي المتوفى سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م. وجسر بركة العروس تحت قرية المختارة على نهر مرشد، احد روافد نهر الباروك، وقد بني في صفر ٩١٣هـ/ حزيران١٥٠٧م. وجسر الجاهلية على نهر الحمّام أحد روافد نهر الدامور، وهو مبني في رجب ٩١٥هـ/تشرين الأول ١٥٠٩م. وقد تمّ بناء هذه الجسور بعد اتمام جميع بناء الجسور على الساحل في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وآخرها جسر نهر الدامور. وهذه الجسور خير دليل على أماكن الطرقات القديمة، كما ان بناء جسري بركة العروس والجاهلية على رافدين لنهرين دليل اضافي على كثافة المرور على الطرقات في المناطق الجبلية.

ترافق الإزدهار في جبل لبنان الجنوبي مع تكاثر السكان. وما خسره في شماله، بتهجير أهل كسروان في سنة ١٣٠٥، كسبه في جنوبه بلجوء

بعض هؤلاء المهجرين إلى جزّين. كما ان كسروان نفسه عوّض بعض النقص السكّاني بإسكان التركمان السنّة فيه. وقد نزح قسم من سكان الساحل إلى المناطق الجبلية عموماً وإلى منطقة " الغرب " خصوصاً. ومن وجوه ذلك انتقال قسم من أهل خلدة إلى عرمون، وقسم من أهل مرتغون إلى عين كسور، وانتقال الكثيرين من العمّال والمزارعين للعمل في عرمون وفي عبيه اللتين ازدهرتا اكثر من غيرهما من القرى.

في غياب الإحصاءات عن عدد السكان في العهد المملوكي يمكن مقاربة عدد سكان جبل لبنان الجنوبي بواسطة جداول الإحصاء العثمانية في النصف الأول من القرن السادس عشر. وأرقامها ومعطياتها في أوائل العهد العثماني لا تختلف عنها في أواخر العهد المملوكي إلا قليلاً. ومنها يتبيّن أن سكان لواءي بيروت وصيدا مع النواحي التابعة لهما هم ٦٨٢٣٨ نسمة أي٢٦,٥% من سكان لبنان البالغين ٢٥٦٧٤٦ نسمة، بالرغم من أن نسبة مساحة اللواءين ونواحيهما هي أقل بكثير من ذلك.

كان عدد قرى لواء بيروت في النصف الأول من القرن السادس عشر ١١٢ قرية و٣٦٦ مزرعة، وعدد سكانه ٣١٤٧٠ نسمة. وعدد قرى لواء صيدا ١١٢ قرية و٢٣٦ مزرعة وعدد سكانه ٣٦٧٦٨ نسمة. ومن بين قرى اللواءين ما ينوف سكانه على الألف نسمة، في حين أن عدد سكان مدينة بيروت ٥٥٧٤ نسمة، ومدينة صيدا ٤٥٥٤ نسمة. فسكان قدرون[١]، مثلاً ١٤٢٨ نسمة، وسكان قرية عين داره في أعالي الجرد ١٢٩٦ نسمة[٢]. وهذه القرية كانت مركز استقطاب للجماعات النازحة إلى جبل لبنان والآتية إليه عبر الداخل(البقاع)، وفي الوقت نفسه مركز توزع الكثير من العائلات على سائر القرى في لبنان، ومنها ما يحمل اسمها " العنداري ". إن عدد

---

[١]- قدرون: قرية دارسة تقع إلى الشمال الغربي من مدينةعاليه.

[٢]- توصلنا إلى الأرقام المذكورة أعلاه على أساس عدد المتزوجين والعازبين في كل قرية مضروباً بالرقم ٦، وذلك اعتماداً على كتاب عصام خليفة: نواحي لبنان، وخصوصاً على الصفحتين ٢١٦ – ٢١٧.

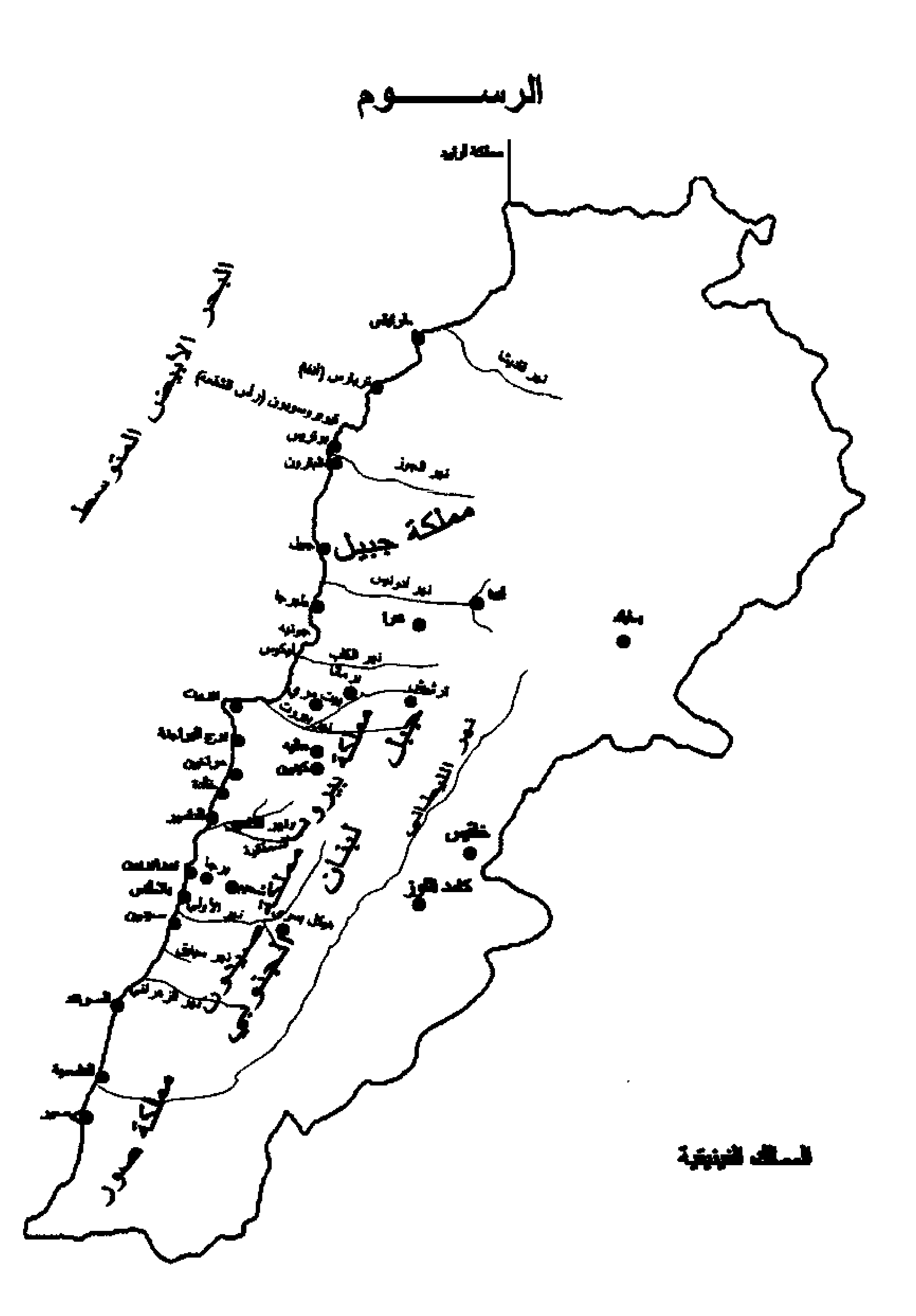
سكان لواءي بيروت وصيدا عدد مرتفع نسبياً إذا ما علمنا أن عدد سكان سورية ومصر، في عهد المماليك، هبط إلى الثلث بسبب المجاعة والطاعون والزلازل والفتن والحروب.

إضافة إلى التوسع في العمران، والإزدهار النسبي في الإقتصاد، وتكاثر عدد السكان في جبل لبنان الجنوبي، كان هناك حركة ثقافية وفنية لافتة تميز بها أمراء " الغرب " خصوصاً، إذ انهم ما كانوا أرباب السيوف فقط، يقومون بحفظ الأمن في مناطقهم، والقتال إلى جانب السلاطين والقادة المماليك، بل كانوا أيضاً أرباب القلم، وأصحاب خبرة في الطب والكتابة والفن والصناعة. لقد انصرف الكثيرون منهم إلى الصناعة والنقش والفن والخط، وبرعوا في ابتكار أساليب صنع الحلى وتزيين السيوف واللجم وصنع النشّاب والأقواس. كما برعوا بفن الكتابة، الذي برز فيه الأمير عز الدين جواد، ومن أعماله كتابة آية الكرسي على حبة الأرز، وكتابة المصحف بحجم صغير جداً يُحمل كحرز.

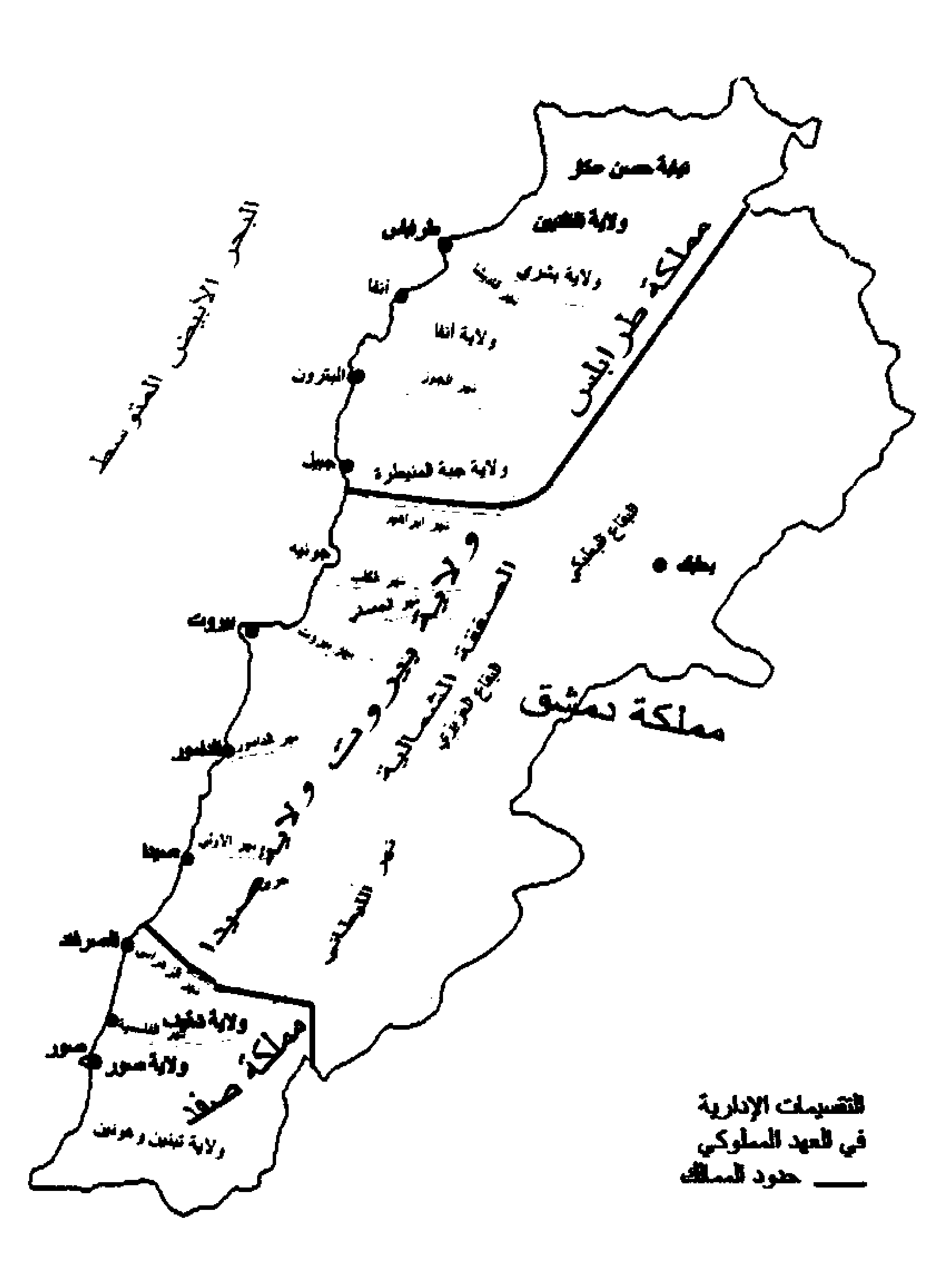
وانصرف امراء " الغرب" إلى التضلّع بالأمور الدينية، واقتناء المخطوطات وتأليف الكتب، ونظم الشعر، فكان منهم الكثيرون من الشعراء والمؤلّفين. وقد بلغ ما خُط لناصر الدين الحسين نيّفا وثلاثين مجلداً كبيراً. وكان له مخطوطان هما "رياض الجنان ورياضة الجنان" وهو مجموعة نوادر وملح ولطائف، وكتاب في الطب .

ولم يكتف الأمراء التنوخيون بصنع التاريخ، بل إنهم كتبوه أيضاً، فكان منهم أوائل مؤرخي تاريخ لبنان الوسيط. ومنهم صالح بن يحيى مؤلف تاريخ بيروت، وحمزة ابن سباط مؤلف التاريخ المعروف باسمه " تاريخ ابن سباط". ومن اتباعهم المؤلف المجهول لكتاب " قواعد الآداب حفظ الأنساب". ويأتي الأمير جمال الدين عبدالله، المعروف بالأمير السيد (١٤١٧- ١٤٧٩) في طليعة مفكّري ومؤلّفي الموحّدين الدروز في المجال الديني، في جميع العصور، إذ انه معتبر عندهم رمزاً من رموز رجال الفقه وتفسير الكتب الدينية، وأهم رئيس روحي.

الرسوم



البحر الأبيض المتوسط
مملكة جبيل
مملكة صور
الممالك الفينيقية


البحر الأبيض المتوسط
مملكة طرابلس
طرابلس
أنفا
ولاية أنفا
ولاية بشري
البترون
جبيل
ولاية جبة المنيطرة
نهر ابراهيم
جونيه
بيروت
صيدا
صور
ولاية صور
بعلبك
مملكة دمشق
مملكة صفد
التقسيمات الإدارية
في العهد المملوكي
حدود الممالك



قلعة الحصن في السمقانية (أساسها الظاهر منها)



قصر السويجاني على تلة الكحلونية (الشوف)



أعمدة الهيكل الروماني في مرج بسرى كما تبدو في العام ٢٠١١



قلعة شقيف تيرون في نيحا (الشوف)



المدافن الرومانية في تلة القنيزحة في مزرعة الشوف

مدخل إحدى
المغاور
المدفنية في
مرج بسرى
ويبدو في
الأعلى رسم
شجرة وفي
الأسفل رسم
إنسان حطم
السارقون يديه



المدافن الرومانية في بقعاتا الشوف



معصرة قديمة في محلة فرنيّا في بطمة (الشوف)

فهرس الأعلام والفئات والشعوب

أ

ب

ح

ز

س

غ

ف

ق

فهرس الأماكن

ز

س

ش

ص

ض

ط

غ

ف

ل

م

و

ي

مكتبة البحث

المصادر والمراجع بالعربية

- ابن الأثير، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ ، دار صادر، بيروت – لبنان ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م.

- ابن اياس، محمد بن احمد بن أياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور، المكتبة الثقافية ، بيروت– لبنان ، بدون تاريخ للطبع .

- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.

- ابن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.

  - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق الدكتور محمد كمال الدين عز الدين. عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- ابن تيمية، احمد: مجموع فتاوى شيخ الإسلام احمد بن تيمية، المجلد ٢٨ ، الرياض – المملكة العربية السعودية ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

- ابن الجزري، شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابراهيم بن ابي بكر الجزري القرشي: تاريخ حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق الدكتور عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، لبنان ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م .

- ابن الحريري، احمد بن علي بن المغربي: كتاب منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان المعروف بتاريخ ابن الحريري، تحقيق عبده خليفه، دار عشتار، بيروت– لبنان ١٩٩٣.

- ابن الحمصي، احمد بن محمد بن عمر الأنصاري: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فيّاض حرفوش، دار النفائس، بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤٢١هـ /٢٠٠٠ م .

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي: تاريخ ابن خلدون، المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت -لبنان ١٣٩١هـ/١٩٧١ م.

- ابن خلّكان، ابو العباس شمس الدين أحمد بن ابي بكر: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار الثقافة بيروت- لبنان ١٩٦٨.

- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي المعروف بابن دقماق: النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق الدكتور عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، لبنان ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

- ابن سباط، حمزة بن احمد بن عمر، المعروف بابن سباط الغربي: صدق الأخبار، المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق الدكتور عمر تدمري، جرّوس برس، طرابلس - لبنان ١٤١٣هـ/١٩٩٣ م.

- ابن شداد عز الدين ابي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الجزء الثاني تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهّان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، دمشق - سورية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢ م.

  - تاريخ الملك الظاهر، باعتناء الدكتور احمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت- لبنان ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩ م .

- ابن طولون الصالحي، شمس الدين محمد بن علي بن احمد: مفاكهة الخلاّن، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان ١٤١٨هـ/١٩٩٨ م.

- ابن الطوير، ابو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق ايمن فؤاد سيد، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت- لبنان ١٤٢٠هـ /٢٠١٠ م .

- ابن عبد الظاهر، علاء الدين علي بن محمد بن عبدالله : الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، تحقيق الدكتور عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت لبنان ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥ م .
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق الدكتور مراد كامل، القاهرة – مصر ١٩٦١.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري المتوفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م: تاريخ مختصر الدول، لا مكان للطبع وتاريخه.
- ابن العديم، عمر بن احمد بن ابي جرادة المعروف بابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سهيل زكّار، دار الكتاب العربي، دمشق – سورية، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ/١٩٩٧.
- ابن عربشاه، ابوالعباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق الدكتور سهيل زكّار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٨.
- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين ابي الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد: شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨ م.
- ابن القلاعي، جبرائيل ابن القلاعي، دراسة وتحقيق بطرس الجميل، دار لحد خاطر، بيروت– لبنان ١٩٨٢.
- ابن القلانسي، ابويعلى حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي، المعروف بابن القلانسي: تاريخ دمشق، تحقيق الدكتور سهيل زكّار، دار حسّان، دمشق– سورية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م.
- ابن كثير، الحافظ ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت– لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ م.
- ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت– لبنان، لا تاريخ للطبع .
- ابن منقذ الكناني، اسامة: كتاب الإعتبار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق– سورية ١٩٨٠.

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم: مفرّج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق الدكتور عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، لبنان ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣ م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر : تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ابن يحيى، صالح : تاريخ بيروت، وهو اخبار السلف من ذرّية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي، دار المشرق، بيروت- لبنان ١٩٦٧.
- ابو اسماعيل، سليم: الدروز، مطابع فضّول، بيروت - لبنان، لا تاريخ للطبع .
- ابو حسين، عبد الرحيم : لبنان والإمارة الدرزية في العهد العثماني، وثائق دفتر المهمة ١٥٤٦- ١٧١١ دار النهار، بيروت - لبنان،٢٠٠٥
- ابو رسلان، فؤاد سليم: رأس المتن. مطارح وحكايات، بيروت - لبنان ٢٠٠٨.
- ابو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية مع تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .
- ابو شقرا، نائل: التحوّلات الإقتصادية والإجتماعية في مجتمع جبل لبنان ١٥٥٠- ١٩٠٠، دار اشارات، لبنان ١٩٩٩.
  - تاريخ لبنان. ازمة نص ومصطلح وهوية، بيروت- لبنان ٢٠٠٤.
- ابو صالح، عباس، بالإشتراك مع الدكتور سامي مكارم : تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، بيروت- لبنان ١٩٨٠.
- ابو عز الدين، سليمان: مصادر التاريخ اللبناني، الجزء الثاني (الإقتصاد)، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، بعقلين- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٦.
- ابو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن علي بن محمود ابن عمر بن شاهنشاه بن ايوب : تاريخ ابي الفداء، المسمّى المختصر في اخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- ابو مصلح، كمال: معجم العربي المستعجم من أسماء المدن والقرى والأماكن في جمهورية لبنان الكبير، الدار التقدميّة، المختارة، بيروت- لبنان، ١٩٨٩.
- الأرسلاني: السجل الإرسلاني، تحقيق الدكتور محمد خليل الباشا والدكتور رياض حسين غنّام، دار نوفل، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩.
- اسماعيل، عادل: انقلاب على الماضي، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت- لبنان ٢٠٠٣.
- المردائيون (المردة) من هم؟ من اين جاؤوا؟ وما علاقتهم بالجراجمة والموارنة، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت- لبنان ٢٠٠٠.
- الأسود، ابراهيم: دليل لبنان، المطبعة العثمانية، بعبدا- لبنان، ١٩٠٦.
  - ذخائر لبنان، المطبعة العثمانيّة، بعبدا- لبنان ١٨٩٦.
- الأشرفاني، محمد: عمدة العارفين في قصص النبيين والأمم السالفين (مخطوط).
- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.
  - حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس وهو الكتاب المسمى الفتح القسّي في الفتح القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ٢٠٠٣.
- الأمين، محسن: خطط جبل عامل، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي : تاريخ الأنطاكي، تحقيق الدكتور عمر تدمري، جرّوس برس، طرابلس- لبنان ١٩٩٠.
- الباشا، محمد خليل: معجم أعلام الدروز، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، الدار التقدمية المختارة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٠.
- البحراني، يوسف: الكشكول، مؤسسة الأعلمي، كربلاء ١٩٦١.
- البستاني، فؤاد افرام: لبنان في ما قبل التاريخ ، منشورات الدائرة، بيروت - لبنان ١٩٨٩.
- البستاني، فؤاد افرام واسد رستم: الموجز في تاريخ لبنان، بيروت - لبنان، الطبعة العاشرة.

- البستاني، كميل افرام: دير القمر في ثنايا الزمن، بيروت- لبنان ٢٠٠٠.

- البشعلاني، الخوري اسطفان فريحة: تاريخ بشعلي وصليما، مطبعة فاضل وجميّل، بيروت- لبنان ١٩٤٧.

- لبنان ويوسف بك كرم، لا مكان للطبع وتاريخه.

- البعيني، حسن: العادات والتقاليد في لبنان في الأفراح والأعياد والأحزان، بيسان، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

- البكري، ابو عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري: المسالك والممالك، تحقيق الدكتور جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- البلاذري، ابو الحسن البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣.

- بو عماد، عاطف: الأسرة النكدية، الدار التقدميّة، المختارة ، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

- بولس، جواد: لبنان والبلدان المجاورة، مؤسسة بدران، بيروت- لبنان، ١٩٧٣.

- تامر، عارف: القرامطة. أصلهم- نشأتهم- تاريخهم- حروبهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان ١٩٧٩.

- تقي الدين، سليمان وآخرون: دراسات في تاريخ الشوف بالوثائق، دار اشارات، لبنان ١٩٩٩.

- التنوخي البصري، القاضي ابي علي المحسّن بن علي بن محمد، تحقيق مصطفى حسنين عبد الهادي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

- جابر، علي داود : الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، دار الهادي، لبنان.

- الجزائري، نعمة الله الموسوي: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، مؤسسة الخرسان للمطبوعات، بيروت- لبنان ١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م .

- الحتوني، الخوري منصور طنوس الخوري الماروني: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، دار كنعان، لبنان ١٩٨٣.

- الحجّار، محمد حسين الميسو: تاريخ اقليم الخروب، طبعة ١٩٧٨، توزيع دار النهار للنشر، بيروت- لبنان .

- الحر العاملي: أمل الآمل، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٣.

- الحربي، عبد العزيز بن علي: الملخّص لفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن حزم، بيروت- لبنان ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .

- الحسيني، صدر الدين بن علي : كتاب اخبار الدولة السلجوقية، دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- الحلو، عبدالله: تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية، بيسان، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

- حمادة، سعدون: تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيّال، بيروت - لبنان ٢٠٠٨.

- حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ٦٥٦-٩٢٢هـ/١٢٥٨-١٥١٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- حمزه، نديم: التنوخيون. اجداد الموحدين الدروز ودورهم في جبل لبنان، دار النهار للنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- الحموي، ياقوت (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي): معجم البلدان دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- -الخالدي، ابراهيم القرشي، ابراهيم بن عبد الرحمن بن القيسراني القرشي الخالدي: النور اللائح والدر الصادح، وهو تاريخ سلاطين الأيوبيين والمماليك، تحقيق الدكتور عمر تدمري، دار الإنشاء، طرابلس- لبنان ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- لخالدي الصفدي، احمد بن محمد: تاريخ الأمير فخر الدين المعني، تحقيق الدكتورين اسد رستم وفؤاد افرام البستاني، بعنوان " لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني " منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت - لبنان ١٩٦٩.

- خطار، أديب: باتر. الذاكرة والرؤى، باتر- لبنان ٢٠٠٢.

- خليفة، عصام: الضرائب العثمانية في القرن السادس عشر، بيروت ٢٠٠٠.

- نواحي لبنان في القرن السادس عشر(أطلس تاريخي) التقسيمات الإدارية - الديمغرافيا - الأديان والمذاهب، بيروت - لبنان ٢٠٠٤.

- الخوري، شاكر: مجمع المسرّات، دار لحد خاطر، بيروت – لبنان ١٩٨٥.
- الخوري، منير: صيدا عبر حقب التاريخ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان ١٩٦٦.
- دائرة المعارف الإسلامية، الجزء السابع.
- الدبس، المطران يوسف: من تاريخ سورية الدنيوي والديني، لا مكان للطبع ١٨٩٣.
  - الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل، دار لحد خاطر، جديدة المتن– لبنان، طبعة ثانية ١٩٧٨.
- دريان، المطران يوسف: البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة، دار ومكتبة بيبليون، جبيل – لبنان ٢٠٠٤
- الدويهي، البطريرك اسطفان: تاريخ الأزمنة، دار لحد خاطر، بيروت ١٩٨٣.
  - تاريخ الطائفة المارونية، تحقيق رشيد الخوري الشرتوني، دار ومكتبة بيبليون جبيل – لبنان ٢٠١٠.
- رسائل الدعوة إلى مذهب التوحيد (مخطوطات).
- الزين، علي: للبحث عن تاريخنا، لا مكان للطبع، طبعة أولى ١٩٧٣.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قيزوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، طبعة حيدر أباد الدكن ١٩٥١، ١٩٥٢.
- السوداء، يوسف: تاريخ لبنان الحضاري، دارالنهار للنشر، بيروت–لبنان ١٩٧٩.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- الشبابي، الخوري ميخائيل غبرئيل : موسوعة تاريخ الموارنة، دار ومكتبة بيبليون، جبيل– لبنان٢٠٠٥.
- الشدياق، الشيخ طنّوس: كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت– لبنان ١٩٧٠.

- الشهابي، الأمير حيدر احمد: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، المعروف بكتاب الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان، دار الآثار بيروت- لبنان طبعة ١٩٨٠ المأخوذة عن طبعة ١٩٠٠.

- شهاب الأمير موريس: دور لبنان في تاريخ الحرير، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت- لبنان ١٩٦٨.

- الشهابي، نجيب محمد سليم: ناسخ مخطوط " نسب الأمراء الشهابيين واخبارهم في بلاد حوران ووادي التيم ولبنان"، الدار التقدمية، المختارة، لبنان ٢٠١٠.

- الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر احمد: الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت- لبنان ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

- شيخو، الأب لويس: بيروت. تاريخها وآثارها. دار المشرق، بيروت ١٩٩٣.

- شيخ الربوة، محمد ابي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، تحقيق المستشرق أ. مهرن، دار ومكتبة بيبليون، جبيل- لبنان٢٠٠٨.

- الصالح، صبحي: النظم الإسلامية. نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٨.

- الصفدي، الحسن بن ابي محمد عبدالله الهاشمي العباسي: نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولّي مصر من الملوك. تحقيق الدكتور عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك: تحفة ذوي الألباب، تحقيق احسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان، دار صادر، بيروت- لبنان ودار البشائر، دمشق- سورية، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

  - كتاب الوافي بالوفيات، الجزء التاسع، تحقيق اسد بن ابراهيم وايدكين البندقدار، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت - لبنان، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- الصليبي، كمال سليمان: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت- لبنان١٩٦٧.

  - منطلق تاريخ لبنان، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٩.

- ضو، الأب بطرس: تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري من مار مارون إلى مار يوحنا مارون ٣٢٥- ٧٠٠، دار النهار، بيروت- لبنان ١٩٧٧.

- تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، الوجه العسكري الماروني، لا مكان للطبع، الطبعة الثانية ١٩٧٧.

- ضو، طوني: لبنان الكبير ومؤسسة المديرية، من الإمارة إلى المتصرفية ١٥٣٤- ١٨٦١، لبنان١٩٩٤.

- الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- الطراونة، طه تلجي: مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- الظاهري الحنفي، زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق الدكتور عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

- عبد الملك، عبد المجيد: تاريخ الإقطاع في لبنان ٧٥٨- ١٨٦٤، اقطاعية الجرد، دراسة نموذجية، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت- لبنان ٢٠٠٠.

- العظيمي، محمد علي العظيمي الحلبي: تاريخ حلب، تحقيق ابراهيم زعرور، دمشق- سورية ١٩٨٤.

- عمّار، يحيى حسين: الأصول والأنساب، دار الضحى للنشر، لبنان ٢٠٠٢.

- العمري، شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ٢٠١٠.

- العيني، بدر: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق ايمان عمر شكري بعنوان "السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة" مكتبة مدبولي، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

- غالب، مصطفى: القرامطة بين المد والجزر، دار النفائس، بيروت ١٩٨٣.

- الغصيني، غسان وآخرون: بعقلين في التاريخ، دار النهار، بيروت ٢٠٠٨.

- غنّام، رياض حسين: نيحا الشوف في التاريخ. الأرض والسكان، دار معن، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- فريحة، انيس: معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٢.
  - ملاحم وأساطير من لوغاريت (رأس الشمرا) دار النهار، بيروت ١٩٨٠.
- الفسوي، ابو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الحافظ الكبير الفسوي الفارسي: كتاب المعرفة والتاريخ.
- فهد، الأباتي بطرس: الكنائس الشرقية عبر التاريخ، منشورات اليوبيل المئوي للرهبنة المارونية المريمية ١٩٩٤.
- فيصل، شكري: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول. نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان١٩٧٣.
- قاسم، طارق: تاريخ لبنان الوسيط ٦٣٣-١٥١٦، بيروت - لبنان ٢٠٠٧.
- قاموس الكتاب المقدّس، تأليف نخبة من الأساتذة، دار مكتبة العائلة، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة عشرة ٢٠٠٠.
- قرألي، بولس: فخرالدين المعني الثاني حاكم لبنان، دار لحد خاطر، بيروت- لبنان١٩٩٢.
- القزويني، السيد امير محمد الكاظمي: الشيعة في عقائدهم واحكامهم، دار الزهراء، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- القطار، الياس: لبنان في القرون الوسطى، الجزء الثاني، عهد الفرنج- الصليبيين ١٠٩٩-١٢٩١ كلية الآداب- الجامعة اللبنانية، بيروت-لبنان ٢٠٠٨.
- القلقشندي، ابو العباس شهاب الدين احمد بن علي احمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة- مصر، طبعة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- الكتاب المقدس : دار المشرق، بيروت- لبنان، طبعة رابعة ١٩٩٧
- كرد علي، محمد: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- الكفرنيسي، الأب بولس مبارك الخوري الكفرنيسي اللبناني: تاريخ عائلة الخوري تادي ومواطنها، لا مكان للطبع، طبعة ١٩٥٧.
- لامنس، الأب هنري: تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار، دار الرائد اللبناني، الحازمية – لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- لطيف، لطيف الياس: قراءة جديدة في مذهب الكسروانيين ابان الحملات المملوكية. مقاربة تحليلية نقدية. بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٠.
- مرهج، عفيف بطرس: اعرف لبنان. موسوعة المدن والقرى اللبنانية، لا مكان للطبع ، طبعة ١٩٨٥– ١٩٨٧.
- مزهر، يوسف: تاريخ لبنان العام، بيروت– لبنان طبعة ١٩٥٦.
- المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي: التنبيه والإشراف، بغداد– العراق ١٩٣٨.
- مسكوية، ابو علي أحمد بن محمد بن يعقوب : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- المظفر، محمد حسين: تاريخ الشيعة، دار الزهراء، بيروت– لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- المعلوف، عيسى اسكندر: تاريخ زحلة، جريدة زحلة الفتاة – لبنان ١٩٨٤.
  - تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، دار الحمراء، بيروت ١٩٩٧.
  - دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، دار حوران، دمشق ٢٠٠٣.
- المقريزي، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر: اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق محمد عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
  - الخطط المقريزية وهو " كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت– لبنان، بدون تاريخ الطبع.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

- مكي، محمد علي: لبنان ٦٣٥- ١٥١٦ من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٩.
- مؤرّخ مجهول: "قواعد الآداب حفظ الأنساب" تحقيق الدكتور الياس القطّار، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت – لبنان، ١٩٨٦.
- مؤرخ مجهول: كتاب العجائب والغرائب في ذكر الحوادث والنوائب، وهو كتاب يتضمن نسبة من كتاب " قواعد الآداب حفظ الأنساب"، حققه المحامي سليمان تقي الدين وشاركه في التحقيق نائل ابو شقرا، دار اشارات لبنان ١٩٩٩.
- ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل الكبير، تعريب مارغريغوريوس صليبا شمعون، حلب- سورية، الطبعة الأولى ١٩٩٦.
- النجار، عبدالله: مذهب الموحّدين الدروز، لا مكان للطبع ولا لتاريخه.
- نجيم بولس(جوبلان): القضية اللبنانية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٥.
- نكد، نسيب سعيد: سيرة الأسرة النكدية، حققتها نائلة تقي الدين قائدبيه بعنوان "الإمارة الشهابية والإقطاعيون الدروز"، دار النهار، بيروت – لبنان ٢٠٠٤.
- نويهض، عجاج: رأس المتن، تاريخ وذكريات، دار الصحافة، بيروت ١٩٦٢.
- الهمداني: صفة جزيرة العرب، مكتبة الإرشاد، صنعاء ١٩٩٠.
- الواقدي، ابو عبدالله بن عمر: فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، لا تاريخ للطبع.
- يزبك، يوسف ابراهيم: ولي من لبنان. سيرة العارف بالله الأمير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي، لا مكان للطبع، الطبعة الثالثة ١٩٦٠.
- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، لا تاريخ للطبع.
  - كتاب البلدان، طبعة لايدن ١٨٩٢.
- يني، جرجي: تاريخ سوريا، دار لحد خاطر، بيروت- لبنان ١٩٨٦.
- يونس، احمد: المعالم الأثرية والتاريخية في اقليم الخرّوب، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- اليونيني: ذيل مرآة الزمان، تحقيق الدكتور سهيل زكار، بعنوان "تاريخ دمشق"، دار التكوين، دمشق- سورية ٢٠٠٧.

المصادر والمراجع المترجمة إلى العربية

- ابن العبري، ابو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب اسحق لرملة، دار المشرق، بيروت- لبنان ١٩٨٦.
- اوبنهايم، ماكس: الدروز، ترجمة محمود كبيبو، دار الورّاق، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٩.
- برنهردت، كارلهاينز: لبنان القديم، ترجمة ميشال كيلو، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق – سورية، الطبعة الأولى ١٩٩٩.
- بولياك، .ا.ن: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، نقله عن الإنكليزية عاطف كرم، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت- لبنان ١٩٤٨.
- تشرشل، الكولونيل تشارلز: الدروز والموارنة تحت الحكم التركي من سنة ١٨٤٠ إلى ١٨٦٠، ترجمه عن الإنكليزية جاك مبارك، دار لحد خاطر، بيروت – لبنان ١٩٨٦.
- حتي، فيليب: تاريخ لبنان منذ اقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة الدكتور انيس فريحة ومراجعة الدكتور نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت- لبنان ١٩٨٢.
- ده سان بيير، بيجيه: الدولة الدرزية، ترجمة حافظ ابو مصلح، لامكان للطبع، طبعة سنة ١٩٦٧.
- دوساسي، م.ل ب و س سيلفستر: مدخل إلى ديانة الدروز، ترجمة عيسى طنّوس، الدار الوطنية الجديدة – دمشق- سورية، الطبعة الأولى ٢٠١١.
- ديسّو، رنيه: العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي والدكتور محمد مصطفى زيادة، دار الحداثة، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٥.
- رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت- لبنان ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- روبنصون، ادوار: بحث توراتي عن فلسطين والأقاليم المجاورة، اختار اسد شيخاني فصولاً منه وترجمها بعنوان " يوميات في لبنان. تاريخ وجغرافيا" منشورات وزارة التربية الوطنية، بيروت- لبنان ١٩٤٩.

- زكار، سهيل: الحروب الصليبية، الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كتبت أصلاً بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية، اختارها وترجمها الدكتور سهيل زكار، دار حسان، دمشق – سورية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- سومر، دوبونت: الآراميون، ترجمة الأب البير أبونا، دار الورّاق، بيروت- لبنان ٢٠٠٧.

- شوفاليه، دومينيك: مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا، نقله عن الفرنسية منى عبدالله عاقوري، دار النهار، بيروت- لبنان ١٩٩٤.

- شيحا، ميشال: لبنان في شخصيته وحضوره، نقله إلى العربية فؤاد كنعان، منشورات الندوة اللبنانية، بيروت- لبنان ١٩٦٢

- غروسيه، رنيه: رصيد التاريخ، نقله إلى العربية محمد خليل الباشا، المنشورات العربية، لبنان.

- الفارس الداوي الصوري جيرار أوف مونتريل: اعمال القبارصة، ترجمة الدكتور سهيل زكّار، دار التكوين، دمشق- سورية، الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

- فيتالي، اورديك (الراهب النورماندي): التاريخ الكنسي، ترجمة الدكتور سهيل زكّار، دار التكوين، دمشق- سورية ٢٠٠٨.

- لورته، لويس: سوريا اليوم، نقله إلى العربية كرم البستاني بعنوان "مشاهدات في لبنان"، منشورات وزارة التربية الوطنية، بيروت- لبنان ١٩٥١.

- ماريتي، جيوفاني: تاريخ فخر الدين أمير الدروز الكبير، نقله إلى العربية الأب بطرس شلفون، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت- لبنان ١٩٨٥.

- المالطي، دومينيكو ماغرى: رحلة إلى جبل لبنان، نقله عن الإيطالية كميل افرام البستاني دار لحد خاطر، بيروت- لبنان ١٩٨٥.

- مرتين، اليسوعي (الأب): تاريخ لبنان، نقله إلى العربية رشيد الخوري الشرتوني، دار مارون عبّود، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٦

- موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥ م.

المقالات

- البستاني، حارث: "الشوف في التاريخ. النصوص القديمة"، الكتاب الصادر عن مؤتمر الشوف السويجاني، المنعقد بتاريخ ١٠ و١١ نيسان ٢٠١٠.

- البعيني، حسن: "الشوف السويجاني. الإطار الجغرافي والأماكن السكنية"، الكتاب الصادر عن مؤتمر الشوف السويجاني، المنعقد بتاريخ ١٠ و١١ نيسان ٢٠١٠.

- بيضون، ابراهيم: "لبنان في العهدين الأموي والعباسي"، لبنان في تاريخه وتراثه، الجزء الأول، كتاب صدر عن مركز الحريري الثقافي، ابحاث وتوثيق، بيروت- لبنان ١٩٩٣.

- تقي، الدين، ملحم: " لمحة تاريخية لبنانية "، كتاب: سليمان تقي الدين وآخرين: دراسات في تاريخ الشوف، دار اشارات، لبنان ١٩٩٩.

- جنبلاط، كمال: "محاولة في تفهم مصادر وأصول الحكمة والعرفان"، مقدمة لكتاب سامي مكارم: اضواء على مسلك التوحيد " الدرزية " دار صادر، بيروت- لبنان ١٩٦٦.

- دوران اليسوعي، الفرد: "هل زار السيد المسيح بيروت " مجلة "أوراق لبنانية" المجلد الثالث، دار الرائد اللبناني، بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م.

- رضا، الشيخ احمد: مقالة في مجلة المقتطف سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م.

- شيخو اليسوعي، الأب لويس: "الآثار القديمة في لبنان"، كتاب " لبنان مباحث علمية واجتماعية " الجزء الأول، نشرته لجنة من الأدباء سنة ١٩١٤ وأعادت الجامعة اللبنانية في بيروت طبعه سنة ١٩٧٠.

- صالحي اليسوعي، الأب أنطون: "وصف لبنان الإداري"، كتاب "لبنان مباحث علمية واجتماعية " الجزء الأول، نشرته لجنة من الأدباء سنة ١٩١٤، واعادت الجامعة اللبنانية في بيروت طبعه سنة ١٩٧٠.

- عطية، فؤاد ملحم: "قرى خربت في جزّين"، مجلة اوراق لبنانية، المجلد الثاني، دار الرائد اللبناني، بيروت – لبنان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- قرألي، بولس: مقدمة لكتاب الخوري جرجس زغيب: عودة النصارى إلى جرود كسروان. جرّوس برس، لبنان لا تاريخ للطبع.
- هزيم، البطريرك اغناطيوس الرابع: "فتح العرب لبلاد الشام"، لبنان في تاريخه وتراثه، الجزء الأول، كتاب صدر عن مركزالحريري الثقافي، أبحاث وتوثيق، بيروت – لبنان ١٩٩٣.

المصادر والمراجع بالأجنبية

- Baal, Bulletin d'archéolgie et d'architecture libanaises ministère de la culture direction, générale des antiquités, Liban.
- Beydoun, Ahmad: identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains, Publication de l'université libanaise, Beyrouth – Liban, 1980.
- D'Arvieux, Laurent : mémoires, dar Lahad Khater, Jdeidet El Matn – Liban 1982.
- De Tyr, Guillaume, le royaume de jérusalem (1099 – 1184) édition l'orient, Beyrouth- Liban 1992.
- Dussand, Rénè : Topographie historique de la Syrie antique et médiavale, Paris Geuthner 1927.
- Grousset, Rénè : Histoire de Groisades et du royaume franc de Jérusalem, Librairie J. Tallandier Paris 1981.
- Guis, Henri : Beyrouth et le Liban, relation d'un séjour de plusieurs années dans ce pays, dar Lahad Khater, Beyrouth – Liban, 1985.
- Heneine, Alice : lady Esther Stanhope et le Liban, dar Lahad Khater, Beyrouth – Liban, 1983.
- Ismail, Adel : Histoire du Liban du XVII siècles à nos jours, Librairie orientale et américaine, Paris 1955.
- Joseph, Flavius: Antiquités judaiques, livres XVI – XX tradition Mathien Hermann Paris 1929.
- Joumblatt, Kamal : Pour le Liban, propos recueille par Philippe Lapousterle- Stock – Forum du monde 1978.

- Polybe : Histoire, livre V Pierre Waltz, Histoire de Polybe 1.2 Paris Garnier 1921.
- Khalil, Wissam : prospection dsans le Liban meridional, étude du développement de la zone montagneuse de l'époque Hellénistique a la fin de la période médiavale. Université Paris, Panthéon Sorbonne u FR 03 Archéologie 2009.
- Renan, Ernest: mission de Phénicie, imprimerie imperiale, Paris.
- Richard, J : le royaume latin de jérusalem, université de France Paris, 1953.
- Seyrig, H. 1953, Antiquités syriennes. quatrieme série (extrait de Syria) 1944- 1952 Paris.
- Tallon, Maurice : « sanctuaires et itinéraires du Chouf et du sud de la Beqaa », les mélanges de l'université de Saint Joseph 1967.

محتويات الكتاب



د. حسن أمين البعيني

بيروت وصيدا وجبل لبنان الجنوبي في العصور القديمة والوسطى

قليلةً جداً هي الأبحاث عن مناطق جبل لبنان في العصور القديمة والوسطى، لأن جبل لبنان الذي حضر كاسم في الجغرافيا، منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة، لم يحضر كمدن الساحل في التاريخ في العصور القديمة، وغاب الكثير من مواضيعه وأحداثه في العصور الوسطى. لذا يأتي هذا الكتاب ليسد هذه الثغرة في تاريخ لبنان، وليُبرزَ فصول ارتباط جبل لبنان الجنوبي بمدينتي بيروت وصيدا منذ أن كانتا مملكتين في العهد الكنعاني إلى أن أصبحتا مستعمرتين في العهد الروماني، وعملين في العهد العربي، وسنيوريتين في عهد الفرنجة ولواءين في العهدين المملوكي والعثماني. وهو يعالج جميع المواضيع في ضوء التاريخ العام، والمصادر والآثار القديمة، مضيئاً على العديد من المواضيع الغامضة، معالجاً بعض الإشكاليات التاريخية.

